

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

المجموعة الثانية | العددان ٥٣ و ٥٤

المحرم ١٣٨٣ هـ | يونيو ١٩٦٣ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

— قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة التحرير

يصدر هذا العدد من « رسالة الإسلام » فى شهر المحرم ، وهو شهرٌ حرامٌ يثير فى نفوس المسلمين ذكرى حادث جَلل ، وخطب عظيم ، ألمّ بالإسلام فى عهده الأول فاهتز له ، ولم يزل ، ولن يزال ، فؤاد كل امرىء يخفق قلبه بالإيمان ، ويتلو آية « المودة فى القربى » من القرآن : ذلك هو حادث مقتل فخر الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة ، الإمام أبى عبد الله الحسين بن على رضى الله عنه وعن أبيه وأمه وآل بيته أجمعين .

لقد بكر هذا الحادث الجلل على المسلمين ، كما بكرت عليهم أحداثٌ من قبله ، وأحداثٌ من بعده ، افْتَلَذَ كلٌّ منها فلذةً من فَلذات النبوة ، ولكنّ هذا الحادث كان من بينها فريداً بأوّليته فى معناه ، وأوحديته فيما يوحى به من مُثُل ، ويرمز إليه من مبادىء .

لقد كان الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ يستطيع أن يعيش فى بحبوحة من النعيم ، مرموق المكانة ، مهيب الجانب ، مكرما من الولاة والأمراء ، لو أنه أراد ، ولقد ساوموه على ذلك لا يطلبون منه فى مقابله إلا السكوت ، ولكنه أبى ، وما كان له ، وهو فرع تلك الدوحة الطاهرة ، إلا أن يأبى ، فإن المؤمن ، لا يبيع الحقّ بالباطل ، ولا يشترى عرض الدنيا بالآخرة ، ولا يرضى بأن يكون إمّعَةً يعيش خانعاً أو قابعاً ، والفساد من حوله ، ومظاهر البغى ، وآثار الظلم تملأ البلاد ، وتقهر العباد !.

لذلك أبى الحسين إلا أن يضرب المثلَ ، مثلَ الفداء الحق ، والجهاد الحق ، حتى استشهد فى معركة غير متكافئة القوى ، ستظل مثالا للنضال بين الحق والباطل ، والصلاح والفساد ، إلى أن تقوم الساعة .

لقد وصف الله المؤمنين فى سورة « الشورى » بأوصاف ، منها ما يحقق ثبات إيمانهم ، وحسن يقينهم ، ومنها ما يصور سلطانهم على شهواتهم ورغبات نفوسهم ، ومنها ما يمثل استجابتهم وخشوعهم وقيامهم بحقوق ربهم ومجتمعهم . ثم ختم الله ذلك كله بوصف فريد فى أخلاق أهل المجتمعات الراشدة ، يبين أنهم أحرارٌ أباةٌ لا يقبلون الضيم ، ولا ينامون على الخسف ، ولا يرضون أن يساموا خطة الظلم ، فقال جل شأنه : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

فهل كان للإمام الحسين ، وهو يتلو كتاب الله آناء الليل ، وقد سمعهُ يرتّل من فم جده الأعظم ، أن يرى البغى يصيب الأمة ، والظلم والفساد ينتشران فى ربوعها ، ثم لا ينهض لينتصر ؟ فلمن إذن نزل القرآن ؟ ومن ذا الذى يستجيب له إن لم يستجب له سبط محمد وابن فاطمة وعلى ؟ .

هو إذن كان مثلا باقياً فى الأولين والآخرين ، ضربه الله للناس ، ولقد احتذاه فى التاريخ ثوارٌ ثاروا على الباطل فزلزلوا عروشه ، ودكدكوا صروحه ، ولسوف يحتذيه - ما بقيت الدنيا - ثوارٌ وثوار ، فإن دم الشهيد يظل يغلى ويقذف بالحمم حتى يقضى على الظالمين .

وإذا كان شهر المحرم يثير هذه الذكرى الحزينة فى كل عام ؛ فما أجدر المسلمين فى كل شعب ، وكل طائفة ، أن يلقّنوا دروس هذه الذكرى ، ويفقهوا عبرها ، فإنها ليست لقوم دون قوم ، ولا لفريق دون فريق ، وإنما هى لأصحاب المبادىء والمثل أينما كانوا ، وفى أى زمان عاشوا ، وإن الذين يقومون بالحق ، ويستشهدون فى سبيله ، من بعد الحسين ، لكالذين قاموا معه ، واستشهدوا بين يديه فى كربلاء .

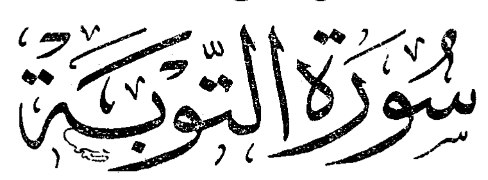
فسلام على الإمام الشهيد ، وعلى المستشهدين معه ، وسلام على الذين استشهدوا ، ويستشهدون فى سبيل الحق من بعده ، وسلام على الذين يبذلون دماءهم فى مقاومة الطغاة والجبابرة تأسياً به ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ؟



تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر



— ٤ —

نصر الله لنبيه لا يتوقف على المتخاذلين — السكينة فى القرآن — « إن الله معنا » معية الله ومعناها — دلالة الآية على فضل أبى بكر — تقرير واجب المسلمين حين الدعوة العامة للجهاد — كلمة فى معنى « سبيل الله » — جولة فى بقية السورة — التعاقد بين الله والمؤمنين .

نصر الله لنبيه لا يتوقف على المتخاذلين :

بعد ان أنكر الله على المؤمنين التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد ، وأشار إلى أن التثاقل مما يأباه الإيمان ، وأن الإيمان جدير بأن يدفع المؤمنين إلى الجهاد ورد كيد الأعداء ، وهددهم بأن نتائج هذا التثاقل لا بد أن يقع بهم ، وأنه لا يضر الحق الذى كفله الله . بعد هذا أخذ يقرر أن نصر رسوله على أعدائه لا يتوقف على نصرهم إياه ، ولا على خروجهم معه ، فقد عوّده الله النصر ، ونصره فى مواطن عدّة ، ولم يكن له من الأتباع فى تلك المواطن مثل ما له الآن ، فقال تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

ذكّرهم فى هذه الآية بتاريخ عنايته ونصره لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكرهم بإيذاء قريش له وتضييقهم عليه حتى ألجئوه إلى الخروج من مكة ، وهذا هو ما يدل عليه كلمة : « أخرجه الذين كفروا » فقد خرج من ذلك النطاق الذى ضرب حول بيته بالحديد والنار ، خرج ظافراً منتصراً ، وقد باء القوم فى مكرهم بالفشل . وهذا هو ما تشير إليه آية الأنفال : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

نصره فى ذلك الوقت حالة كونه بعيداً عنكم ، وليس معتمداً عليكم ، وإنما كان ثانى اثنين ، أحد اثنين ، لا ثالث لهما منكم ، فى ذلك الوقت الذى ضمه هو ومن معه الغار ، وكانا فيه موقع أبصار القوم - لو نظروا تحت أرجلهم - فخوّل الله أبصارهم ، وأخذوا يرمون بها فى الصحراء ورمالها ، كما أعمى بصائرهم من قبل ، وخرج الرسول من بينهم بعد أن تحلقوا حول بيته ، نصره وقت أن اشتد خوف صاحبه عليه وهما فى الغار ، فأخذ يطمئن صاحبه ، ويقول له : « لا تحزن إن الله معنا » والمراد بها الولاية الدائمة التى لا تنقطع ، والتى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الحزن ، وخرج هو وصاحبه أعزلين لا سلاح معهما ، ولا قوة لهما حتى تلقاهما الأنصار فى المدينة بالتهليل والتكبير .

ثم فصّل « بالفاء » مصدر هذا النصر ، وأنه أمران : باطنى ، يرجع إلى إنزال الله السكينة فى قلبه والثقة بتمام نصر الله له ، وبها خرج من مكة ، ووصل إلى الغار وأقام فيه مع صاحبه وطمأن صاحبه ، وبها خرجا منه ، وبها وصلا إلى المدينة ، وبها رتب شأنه ودخل مع القوم فى الحروب .

وخارجى ، وهو التأييد بالجنود التى لم يرها القوم ، وإنما كانوا يرون أثر ذلك فى نهاية الغزوات حتى أكمل الله دينه وجاء نصر الله والفتح ، وكانت النتيجة أن « جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا » .

ولا ريب أن هذا « الجعل » لا يكون بمجرد الإنجاء فى حادث الهجرة ، وإنما كان بنصره إياه فى المواقع الحربية التى حصلت بعد ذلك ، وقد أشار إلى هذا بقوله : « وأيده بجنود لم تروها » .

وهذه الجملة تشير إلى غزوة بدر ، والمسلمون فى قلة من العـدد والعُـدد ، وقد خرجوا للعير لا للقتال ، وقد أراد الله أن تـكون لهم ذات الشوكة ، وأدركوا ضعفهم ، وأخذ النبي يستغيث ربه فاستجاب له « أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » وفيها يقول : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » وقد تم لهم بذلك النصر والتأييد .

وتشير إلى ما حصل فى غزوة الأحزاب ، إذ جاءتهم الجنود من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، وإذ زاغت أبصارهم ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، فأيدهم الله بنصره ، وأرسل على أعدائهم ريحاً وجنوداً لم يروها ، وفى هـذا تقول سورة الأحزاب : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بمـا تعملون بصيراً » .

وتشير إلى ما حصل فى غزوة حنين حينما تفرق شمل المؤمنين فأيدهم الله ونصرهم ، وفى ذلك تقول سورة التوبة : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الـكافرين » .

ثم أشارت الآية بعد ذلك إلى نتيجة هذا التأييد فى بقاء عُلو كلمة الله ، وانحطاط كلمة الذين كفروا ، وذلك قوله تعالى : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » . عزيز لا يغلب حقه باطل ، حكيم يدبر الأمر ، ويرتب المقدمات والأسباب ، ويصل إلى النتائج ، ويرد كيد العادين . والأسلوب يدل على أن كلمة الله لها العلو والرفعة والنفاذ ، أما كلمة الـكفر والجحود فقد يبدو لها طغيان ومظاهر الغلب ، ولـكن لا تلبث أن ترد إلى حضيضها ، وتبقى الـكلمة لله الواحد القهار .

السكينة فى القرآن :

هذا وقد ذكر الله فى القرآن إنزال السكينة فى أربعة مواضع ، هذا أحدها : وهى - والله أعلم - السكينة التى أنزلها الله على قلب رسوله وضمن له بها النصر ، وتبليغ الرسالة ، وهى شأن الله العام مع نبيه ، وقد تعددت آراء المفسرين فى مرجع الضمائر فى « تضروه ، سكينته ، وأيده » وكلامهم جميعا يدل على أن الآية تصوير لحادثه الهجرة فقط ، ولكنا نرى أنها تصوير عام لحالة النبى منذ إرساله واشتداد أمر قريش عليه ، إلى أن من الله عليه بالفتح وتطهيره الجزيرة .

وذكرت فى هذه السورة أيضا فى آيات الحديث عن غزوة حنين ، وقد كانت على الرسول والمؤمنين معاً « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

وذكرت فى سورة الفتح مرتين : مرة على المؤمنين ، وذلك فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » . وكان ذلك حينما اشتد الأمر على المسلمين ، حينما قبل الرسول صلح الحديبية بشروط رأوا فيها تحيُّفاً بهم ، وغلظة عليهم ، وكاد الأمر يفلت من يد الرسول لو لا مشورة زوجه أم سلمة ، وبها أنزل الله سكينته عليهم ، وانقادوا لأمر الرسول .

وقد ذكرت فى هذه السورة أيضا فى بيعة الشجرة : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وقد ذكرت ثالثة حينما رفض الكفار توقيع النبى على وثيقة الصلح بوصف الرسالة ، وقالوا له : لو كنا نؤمن أنك رسول لما خالفناك ، وقبل النبى أن يشطب وصف الرسالة ويكتفى بمحمد بن عبد الله ، وقد تأثر المؤمنون بذلك ، وهذا حيث يقول الله فى سورة الفتح : « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميةَ حميَّةَ الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما » .

« إن الله معنا » ـ معية الله ومعناها :

بقى فى الآية بعد ذلك الكلام على معيَّة الله لخلقه ، وقد جاءت فى القرآن على أنواع : جاءت معية الله للملائكة ، وذلك فى قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

وجاءت معيته للمتقين والمحسنين والصابرين من عباده ، وذلك فى قوله تعالى : « إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ، « إن الله مع الصابرين » .

وجاءت معيته لموسى فيما يحكيه الله عنه : « قال كلا إن معى ربى سيهدين » .

وجاءت معيته لموسى وهارون ، وذلك فى قوله تعالى : « لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

وجاءت معيته للناس جميعاً ، وذلك فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » ، « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » .

وهذه المعية الأخيرة ، معية علم وإحاطة بشئون العباد ، يحصيها ، وينبئهم بها ، ويحاسبهم عليها ، وهى معية عامة شاملة ، وتشترك المعيات الأخرى السابقة فى أنها معية تأييد ونصر ، ومعونة وحفظ ، وهى مع هذا تتفاوت ؛ فمعيته للمتقين المحسنين ، معية معللة بصفتى التقوى والإحسان ، ومعناها : أن كل من يجتنب ما يجب تركه ، ويحسن فعل ما يجب فعله ، فهو فى معية الله وحفظه وكلاءته .

أما معيته للملائكة ، ولموسى وهارون ، ومعيته لمحمد وصاحبه . فهى معية غير معللة بوصف زائد على ذواتهم ، فهو مع الملائكة ، ومع موسى وهارون ، ومع محمد وصاحبه بالنظر للاصطفاء فى الرسالة .

ويوجد فرق بعد هذا فى أسلوب المعية لكل من هذه الجهات ، فمعية الله لموسى « إن معى ربى سيهدين » ذكرت بوصف الربوبية ، ومعية الله لمحمد وصاحبه ،

ذكرت بالاسم الجامع لصفات الجلال والجمال كما ذكرت مطلقة غير مقيدة بالهداية، فتشمل الهداية والنصر، وقيدت فى معيته لموسى بالهداية .

ومعية الله لمحمد وصاحبه لم ترتب من الله على خوف محمد ، بخلاف معيته لموسى وهارون حيث رتبت من الله على خوفهما ، إذ قال : « لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » فجاءت تعليلا لنهيهما عن الخوف ، ولم تذكر معية الله لمحمد بناء على خوف علمه الله منه ، نعم ذكرت إثر علم الرسول بحزن صاحبه ، ونهيه عنه « لا تحزن إن الله معنا » والمعية - وإن لم تكن عبارتها صادرة من الله - غير أنها أيدت من الله ، وأقر الرسول عليها ، أو أن الرسول قالها بناء على إيمانه السابق بها عن طريق الوحى .

والخلاصة أن معية الله لمحمد وصاحبه أسمى من معيته لموسى وهارون ، وإذا كان أبو بكر قد حزن لما وقع فيه ونهاه الرسول عن ذلك فله أسوة بنبيين كريمين وهما موسى وهارون حيث خافا من أمر متوقع ، وبهذا كان نهيهما عن الخوف ، وكان نهى أبى بكر عن الحزن ، والحزن تألم النفس من أمر واقع ، والخوف تألم النفس من أمر متوقع ، والنهى عن الحزن يستدعى النهى عن الخوف ، فلذا اختلفت صيغة النهى

دلالة الآية على فضل أبى بكر :

وقد دلت الآية على سمو مكانة أبى بكر من وجوه :

أولها : أنه هو الصاحب الوحيد الذى نزل الوحى بعقد صحبته للرسول .

ثانيها : أنه لم يخرج أحد من خطاب التوبيخ السابق ، سوى أبى بكر ، وفى ذلك ما روى عن على رضى الله عنه أخذاً من هذا : « أن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر » وعن الشعبى أنه قال : والذى لا رب غيره لقد عوتب أصحاب محمد فى نصرته إلا أبا بكر ، فإنه لما قال : « إلا تنصروه . . إلى آخره » أخرج أبا بكر .

ثالثها : أن الله جعله مع النبى أحد اثنين دون تفاوت ، وفى الرواية : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

رابعها : تقرير الله لمحمد فى نهيه صاحبه عن الحزن ، وفى معية الله لهما معاً ، وحكايته إياه فى كتابه الخالد : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

وقد كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، بعد الرسول ثانى اثنين فى الإيمان ، ودعا عقب إيمانه طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من الصحابة ، دعاهم إلى الإيمان ، فآمنوا على يديه ، وكان بذلك بعد الرسول ، ثانى اثنين فى الدعوة إلى الله ، وكان أبو بكر فى مجالس النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقف فى خدمته ، وفى أقرب مكان منه ، وبذلك كان مع الرسول ثانى اثنين فى المجلس .

ولما مرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فكان مع الرسول ثانى اثنين فى إمامة الصلاة .

ولما توفى الرسول تولى أبو بكر إدارة شئون المسلمين ، فكان مع الرسول ثانى اثنين فى ولاية المسلمين .

ولما مات أبو بكر دفن بجانب الرسول ، فكان للرسول ثانى اثنين فى القبر .

أظن أن أحداً لا يستطيع بعد هذا أن يزعم لغير أبى بكر مكانة أبى بكر . ولكن النزعات السياسية أو العصبية تأبى إلا أن تثير الشبهات ، وتتناول المقامات ، ولقد كان المسلمون فى غنى عن كل هذا لو طهرت نفوسهم بآداب الإسلام ، واستقبلوا كتاب الله بما يجب أن يستقبلوه به من معرفة ما يتوقف عليه عزهم ويحفظهم من التفرق والانحلال .

تقرير واجب المسلمين حين الدعوة العامة للجهاد :

بعد أن أنكر الله على المؤمنين التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد ، وبعد أن هددهم بسوء المصير إن لم ينفروا ويسارعوا ، وبعد أن طالعهم بسنته مع نبيه ، وأن نصره إياه لا يتوقف عليهم . بعد ذلك ، عاد فأمرهم بالواجب الدينى حين الدعوة إلى الجهاد ، وذلك قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، والخفاف جمع خفيف ،

والثقال جمع ثقيل ، والخفة والثقل فى الأشخاص تكون بالنظر إلى الأجسام ، وبالنظر إلى صفاتها ، من صحة ومرض ، وشباب وكبر ، ونشاط وكسل ، ويكونان بالنظر إلى الأحوال الخارجة كالقلة والكثرة ، والفقر والغنى ، ووجود الشواغل وعدمها .

والآية تقرر أنه يجب على المؤمنين النفير العام حين الدعوة إليه على أية حال كانوا ، ولا يباح لأحد أن يتخلف إلا فى حالة العجز التام ، وهو كما تدل عليه الآية : « ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » على أن هذا الثالث مقيد بما إذا لم يجد من يحمله ، وبذلك كانت الآية محكمة لا نسخ فيها ، ولا تعارض بينها وبين قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » فإن هذا إما أن يكون للنفرة فى تعلم العلم وأحكام الدين ، أو فى غير حالة الدعوة العامة للجهاد .

وقد أرشدت الآية إلى أن الجهاد يكون بالأموال والأنفس ؛ فمن قدر عليهما وجبا عليه ، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما قدر عليه . وقد كان المؤمنون كذلك فى عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى عهد التنظيم الحربى يجب معونة إدارة الجيش ، لاتخاذ العدة اللازمة ، وتدريب العدد المناسب .

هذا هو الواجب ، وقد بين الله فائدته بقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » به تعلو كلمتكم ، ويعظم سلطانكم ، ويحفظ كيانكم ، وتنالون به الخير فى الدنيا وفى الآخرة .

أما الدنيا ، فلا حياة للأمم فيها ولا عز ولا سيادة إلا بالقوة الحربية ، والقعود عن القتال ، والتقصير فى إعداد عدته يُغرى الأعداء بالقاعدين والمقصرين .

أما فى الآخرة ، فإن سعادتها متوقفة على نصرة الحق ، وإقامة العدل ، وتنفيذ أحكام الله وشرائعه ، ولا شك أن ذلك كله متوقف على استقلال الأمة ، وقدرتها على حفظ كيانها ، ورد تسلط الأعداء عليها « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ثم ذيّل الله الآية بما يدل على أن هذا المبدأ مما يدرك الناس خيريته بعقولهم وعلمهم لشئون الحياة والاجتماع « إن كنتم تعلمون » .

كلمة فى معنى « سبيل الله » :

كلمة « سبيل الله » وردت كثيراً فى القرآن الكريم ، وهى فى الأصل بمعنى الطريق المعبد ، تستعمل فى الخير ، وتستعمل فى الشر ، ومنه سبيل المجرمين . وتضاف إلى الله ، وإلى المؤمنين ، فيقال : سبيل الله ، وسبيل المؤمنين ، وهى حينئذ تلتقى بمعناها مع كلمة « الصراط المستقيم » وكلاهما بمعنى ما رسم الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه ، وعمل الخير والحث عليه ، فإعلاء كلمة الله ونشر دعوة الإسلام من سبيل الله ، ودفع الأعداء إذا هددوا أمتنا ، أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، أو صادرونا فى تجارتنا ، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس ، من سبيل الله ، وإقامة العدل فى الأحكام ، ورد الأمانات إلى أهلها ، والطاعة فى حدود ما أمر الله ، من سبيل الله .

والعمل على مصالح الأمة بإنشاء دور العلم ، والمستشفيات ، ودور الصناعة التى تتوقف عليها حياة الأمة ورقيها ، وتحقق اكتفاءها بنفسها ، وتدفع حاجتها إلى غيرها ، من سبيل الله .

وحفظ أموالها ، وعدم التهاون فيها ، من سبيل الله .

وعلى العموم فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد ، ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة ، وقد قيد القرآن القتال الذى أمر به فى القرآن الكريم بأنه فى سبيل الله ، فلا يختص بناء على ما سبق بالقتال لأجل الشرك ، وإنما يعم القتال للبغى والظلم والفساد ، إلى غير ذلك مما هو أثر فى واقع أمره للشرك وعدم الإيمان ، وإن قال الظالمون المفسدون إنهم مؤمنون .

وكما حث القرآن على اتباع سبيل الله وعلى الدعوة إليه والقتال لأجله ، توعد بالعذاب الشديد من صد عنه « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » .

ويصرح كثيراً بأن الصد عن سبيل الله شأن المشركين ، وأنهم ينفقون أموالهم في سبيل الصد عنه « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون » ومن ورثة هؤلاء وبقاياهم هؤلاء الجماعات التي تتكتل وتنفق من مالها لبث الدعاية ضد الحق ، والحيلولة بين أهل الحق والدعوة إليه ، ولإفساد النظام على أهل النظام .

ويصرح أيضاً بأنه شأن الأحبار والرهبان ، وأنهم يجمعون عن طريقه أموال الناس ويأكلونها بالباطل ، ويحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم « يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

ويشير القرآن الكريم في كثير من آياته إلى أن من بواعث الصد عن سبيل الله إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وكأنهم يرون أن سبيل الله إذا قامت ضعفت دنياهم ، ودالت دولتهم « وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله » ومن ورثة هؤلاء الذين يقبضون على السلطان ويخشون من سلطان الحق .

وإلى أن من بواعثه أيضا التفلسف الكاذب ، الذى كثيراً ماخطف أبصار أبنائنا فراحوا به يكفرون بالله وبسبيل الله ، راحوا يكفرون بشرع الله وأحكامه ، في الطلاق ، في تعدد الزوجات ، في الميراث ، في الحدود ، في الربا ، في كل ما فرضه الله في كتابه لخير عباده ، ولم ينل حظاً عند المفتونين بحضارتهم الزائفة « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

هذا ولا نعرف لكلمة « سبيل الله » في القرآن الكريم معنى غير البر العام ، والخير الشامل ، حتى آية مصارف الزكاة ، ومن الغريب أن أكثر الناس مع وضوح

إرادة العموم فيها حملوها على خصوص منقطع الحج ، أو منقطع الغزاة ، ولا نرى لهذا التخصيص من باعث سوى اعتبارات لا تنهض دليلا على التخصيص .

جولة فى بقيـة السورة :

بعد الدعوة السابقة إلى الجهاد بالأنفس والأموال ، والنفير العام خفافا وثقالا . تتبعت السورة شئون المنافقين ، وأزاحت الستار عن أصنافهم وأوصافهم ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين ، وتركتهم السورة ـ بعد هذا الكشف والإيضاح لمواقفهم وصفاتهم ـ تكاد تلمسهم أيدى المؤمنين .

فمن صفاتهم : الفرار من مواطن الجد والجهاد ، واللجوء إلى الاستئذان والاعتذارات الواهية ، بل المكذوبة ، مؤكدين لها بالأيمان الفاجرة ـ كما فعلوا عند الدعوة إلى تبوك ـ وفى ذلك نقرأ بعد الآيات السالفة : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » .

ويعاتب الله رسوله على إذنه لهم قبل التثبت من أعذارهم عتابا لا يخلو من لطف المحب بحبيبه ، فيقدم العفو قبل الملام « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

وتتابع الآيات فضحها لموقف المخذلين مبينة أن خلو الجيش منهم خير ونعمة ، ووجودهم فيه بلاء وفتنة : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

وتجرى السورة فى كشف نفاق أولئك القوم ، شوطاً بعيداً شمل عدة أرباع منها ، بينت فيها موقفهم من الجهاد ، وموقفهم من شعائر الإسلام : « لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون » ، وموقفهم من المسلمين فى حالة القوة والشوكة : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون » .

وموقفهم من الرسول ، وإشاعة التهم الباطلة وأقاويل السوء عنه : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

وهنا تبين السورة الجهات التي يجب أن تصرف إليها وفيها الزكاة ، وهذه الجهات تشتمل على أفراد مستحقين ، ومصالح عامة ، وقد عبرت آية الصدقات عن الأفراد بحرف « اللام » وعن المصالح بحرف « في » . « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »[1] .

ومن التهم الباطلة التي آذوا بها النبي المعصوم ودفعها القرآن عنه : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن (أي يسمع لكل ما يقال له) قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم » .

وربطت السورة بعضهم ببعض برباط السوء والمنكر ، وعزلتهم بهذا الرباط عن جماعة المسلمين المؤمنين : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » .

وفي مقابل هذا ترسم صورة مضادة للمؤمنين « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله » .

ثم تأمر النبي أن يجاهد الفريقين جميعاً : الكافرين الذين صرحوا بالكفر وأعلنوه ، والمنافقين الخبثاء الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين :

« يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وتعود السورة إلى تتبع المنافقين ، وتظل في ذلك حتى تحذر الرسول أن يشركهم معه في قتال : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل

(١) راجع في مصارف الزكاة كتابنا : « الإسلام عقيدة وشريعة » فصل « الزكاة »

لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » .

وظلت السورة تقذف هؤلاء بالحمم : « وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » . « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

« يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

وتظل الآيات تتتابع حتى تنتهى إلى كشف نواياهم الخبيثة فى مسجدهم الذى أقاموه - بالتعاون مع أبى عامر الفاسق - مناوأة للمؤمنين ، والذى عرف باسم « مسجد الضرار » ، وقد نزلت فى شأنه آيات أربع من السورة :

« والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

ولم يكد النبى يتلقى عن الوحى هذه الآيات حتى دعا جماعة من أصحابه وقال لهم : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وحرقوه » ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى عادوا بعد أن وصلوا بهدمه وتحريقه إلى الأرض ، وتفرق عنه منشئوه المنافقون شذر مذر [1] .

---

(١) راجع موضوع « المنشأة الفاسقة » فى كتابنا : من توجيهات الإسلام .

التعاقد بين الله والمؤمنين :

بعد هذا تنتقل السورة بالحديث إلى المؤمنين : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظ لحدود الله وبشر المؤمنين » .

والآية الأولى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » تصور وعد الله للمؤمنين بصورة عقد بين بائع وهم المؤمنون ، ومشتر وهو الله سبحانه ، على مبيع هو أنفس المؤمنين وأموالهم ، وثمن هو الجنة ، وتبين أن استحقاق البائع للثمن لا يتوقف إلا على الدخول فى معمعة القتال ، وسواء بعد ذلك َقتل وَغلب ، أو ُقتل وُغلب ، ومعناه أن استحقاق المؤمنين للجنة لايتوقف على موتهم فى سبيل الله ، وإنما هم يستحقونها بالقتال وإن لم ُيقتلوا « يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » .

ثم بعد أن يصور الوعد الكريم هكذا يذكر جملة من مؤكدات الوفاء بالثمن « وعداً » والله لا يخلف وعده « عليه » كتبه على نفسه « حقاً » ثابتاً لا يعتريه محو ، وهو بعد هذا فى الوثائق الإلهية قديمها وحديثها « فى التوراة والإنجيل والقرآن » ثم هو بعد ذلك كله من الله « ومن أوفى بعهده من الله ؟ » ثم يوجه إلى البائعين ، وهم المؤمنون ، خطاب التكريم ، يزف إليهم البشرى ، بربح الصفقة ، والفوز بنعيمها المقيم « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

ونظراً لما تضمنه هذا التعاقد من مكانة العلو السامية التى يشغلها هؤلاء المؤمنون ، والمؤمنون فيهم وفيهم ، استدعت الحكمة ـ وضعاً للأمور فى نصابها ، وبياناً لهم على وجه الحقيقة ـ أن يكشف عنهم ، وأن ُيبرزهم بأوصافهم التى تهيئهم لتلك المكانة ، وتجعلهم المثل الأعلى للمؤمن الكامل ، فتقول : التائبون العابدون

الحامدون السائحون الراكعون الساجـدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنـكر والحافظون لحدود الله » . (التائبون) الذين يطهرون قلوبهم بالتوبة من الشرك والنفاق والمعصية (العابدون) الذين يملئون قلوبهم بخشية الله والخضوع له (الحامدون) الذين يرطبون ألسنتهم بالثناء على الله (السائحون) الذين يرتحلون بأنفسهم لتعرّف أسرار الله فى كونه ، والنظر فى آياته (الراكعون الساجدون) الذين يقيمون الصـلاة الخاشعة يؤدون بهـا حق الله . وبذلك كملوا أنفسهم فى ظاهرها وباطنها ، ثم عرفوا حق عباد الله عليهم فـكملوهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، وكانوا بعد ذلك ، وفى كل هذا واقفين عنـد حدود الله ، محافظين عليها ، ملتزمين لها (والحافظون لحدود الله) لا يقصدون سمعة ولا رياء ، وإنمـا يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

وقد كان من حدود الله التى رسمها فى هذه السورة وفى غيرها مقاطعة المؤمنين للمشركين كيفما كانوا : فأعلمتهم الآيات أن هـذه المقاطعة ليست خاصة بالأحياء منهم ، وإنمـا هى تشمل من مات منهم على الـكفر والعناد ، ومقاطعة هؤلاء هى عدم الاستغفار لهم ، فـكان من كمال الإيمـان ومن حدوده ألا يستغفر النبي والذين آمنوا معه للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، من بعد ماتبين لهم ـ بموتهم على الـكفر ـ أنهم أصحاب الجحيم ، ولما كان الله قد أمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، بيّن لهم أنه لا يصح استنادهم على ذلك فى استغفارهم لأولى قرباهم فقال : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرأ منه » .

ثم أزال عنهم خوف العقـاب على ما سبق منهم من الاستغفـار لأقاربهم المشركين قبل هذا البيان بقوله : « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » ، والمعنى أن الله لا يصف قوماً بالضلال ، على فعل شىء ما إلا بعد أن يبين لهم حرمته ، بياناً شافياً لا شبهة فيه .

ثم قررت الآيات توبة الله على النبي والذين اتبعوه فى ساعة العسرة والشد

فى غزوة تبوك : عسرة الماء ، وعسرة الزاد ، وعسرة الدواب ، وعسرة الحر ، وعسرة الصحراء ، بل عسرة المشاهد القاسية التى مرت بالمؤمنين فى مراحل الجهاد ، كالتى حصلت فى غزوات أحد ، وحنين ، والأحزاب ، ثم تلحق الآيات بالنبى ومن معه فى التوبة عليهم ، ثلاثة من أصحاب رسول الله تخلفوا عن غزوة تبوك وصدّقوا الله ورسوله ، فلم ينتحلوا أعذاراً ، فأرجأ الله أمرهم عن أمر المتخلفين من المنتحلين والمعتذرين ، وأدبهم الرسول بالمقاطعة خمسين يوما حفظاً لهم من المعاودة ، واختباراً لهم فى صدق الإيمان « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

ولما كانت هذه العاقبة الطيبة ، عاقبة التوبة عليهم ، تنزل من السماء ، إنما حصلوا عليها ، وأكرموا بها جزاء صدقهم وتقواهم ، وجه الله لعباده المؤمنين جميعا هذا النداء : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » لينالوا بالصدق والتقوى مثل هذه العاقبة التى حصل عليها هؤلاء من توبة الله ورضوانه . ثم تختم الآيات ببيان أنه ما كان ينبغى لأهل المدينة ، وهى العاصمة الإسلامية التى هاجر إليها الرسول ، وبايعه أهلها على النصرة والمنعة ، أن يتخلفوا عنه فيما يدعوهم إليه من وسائل العزة والكرامة ، وذلك فضلا عما أعد لهم عند الله من الجزاء العظيم فى مقابلة ما يصيبهم فى أنفسهم أو أموالهم ، أو يقومون به ضد الأعداء « ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً (ينزلون مكانا) يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا (قتلا أو أسراً أو غنيمة) إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

فإذا كان ما يصيبهم فى سبيل الله من مشاق ، وما يغيظون به الكفار ،

وما ينفقونه من مال ، قل أو كثر ، مدخراً لهم جزاؤه عند الله ، وقد أخذ به على نفسه العهد والميثاق ، فكيف تخدعهم زخارف هذه الدنيا ويتخلفون عن رسول الله ؟ ويؤثرون حياتهم على حياته ، وقد كان لهم نوراً ورحمة ! هداهم به للإيمان ، وأتمّ عليهم ببركته النعمة ، وقد كان كما وصفه ربه فى ختام السورة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وبعد : فنختم هذه الجولة فى كتاب الله ، بالدعاء الذى علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى . ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى » اللهم آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؟

الدراسات الإسلامية في اللغات الأوربية

للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

عادت الدراسات الإسلامية إلى نشاطها المعهود فى اللغات الأجنبية بعد فترة وجيزة من الركود أو الانتظار .

وهذه الدراسات تعترضها أحيانا فترات من الانتظار والتوقف خلال الحروب والأزمات العالمية ، ثم تستأنف نشاطها فى اتجاهها الأول ، أو فى اتجاه جديد تمليه الحوادث والظروف .

ويصح أن يقال إن الدراسات الإسلامية فى اللغات الأجنبية لم تنقطع قط زمناً طويلا منذ سبعة قرون . أى منذ أن تنبه الأوربيون للدراسة فى مختلف الشئون وتحركوا للنهضة التى اشتهرت باسم نهضة العلوم .

فمنذ القرن الثالث عشر أخذ الأوربيون فى دراسة الإسلام ، فلم ينقطعوا عن هذه الدراسة إلا ريثما يعودون إليها بنشاط جديد ، إلا أن هذه الدراسات تتغير فى موضوعها ، وفى غرضها ، وفى اتساع أفقها بين آونة وأخرى . وهذا التغير فى الغرض والوجهة يعنينا كما يعنينا موضوع الدراسة فى جملته ، لأن التغير فى موضوع الدراسة عظيم الدلالة على أحوال الغرب ، وأحوال الحضارة والثقافة على التعميم . فإذا تتبعنا دراسة الإسلام بين الغربيين من القرن الثالث عشر ، فنحن فى الواقع نتتبع أطوار العالم كله خلال سبعة قرون .

مرت هذه الدراسة بمراحل كثيرة منذ القرن الحاضر ، ولعلها تلتقى فى مراحلها المشهورة : وهى مرحلة الدفاع ، ومرحلة التبشير ، ومرحلة الاستعمار ، ومرحلة البحث العلمى الذى تشرف عليه السياسة الدولية ... وهى مرحلة عامة واسعة ، تطوى سائر المراحل من قريب أو بعيد .

كانت الثقافة الإسلامية هى الثقافة الغالبة على العقول فى القرن الثالث عشر ، وكان مذهب الفيلسوف الأندلسى ابن رشد مذهب المفكرين جميعاً زهاء ثلاثة قرون ، وقد ترك هؤلاء المفكرون لغة اللاتين واليونان ليقبلوا على دراسة اللغة العربية ، وشكا بعض ذوى الرأى - كما جاء فى تاريخ دوزى أن المثقفين من الأوربيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح !.

فالدراسات الإسلامية التى اشتغل بها الأوربيون فى تلك الآونة ، إنما كانت لتحويل المفكرين منهم عن هذه الوجهة : كانت للرد على الفلاسفة المسلمين وإدحاض أقوالهم ، وتجديد العناية باللاتينية واليونانية بدلا من العربية ، وهذه هى مرحلة الدفاع الأولى ، وغايتها الكبرى أن يتخلص القوم من سيطرة الفكر العربى والدراسات العربية الإسلامية .

وبعد مرحلة الدفاع هذه بدأت مرحلة أخرى هى مرحلة الهجوم .

وكان الغرض منها استخدام المعارف الإسلامية فى حركة التبشير الدينى وحركة الدعوة الثقافية التى تصطبغ بصبغة التبشير ، ثم اتجهت حركة الدراسة الإسلامية بعد وجهة التبشير إلى وجهة الاستعمار ، ثم عرف الاستعمار مصيره بين الأمم الإسلامية ، وعرف أن هذه الأمم خليقة فى العصر الحديث أن يحسب لها حساب آخر غير حساب الأتباع والأذناب ، وأنها قوة عالمية تتقدم وتؤثر فى مصير العالم بأسره ، ويتساءل العالم بأسره فى الشرق والغرب عن حقيقتها ، ويجب عليهم لمصلحتهم أن يفهموا هذه الحقيقة ولا يغالطوا أنفسهم فيها ، لأن المغالطة فيها تصيبهم بأضرارها قبل أن تصيب الأمم الإسلامية .

من هنا كانت هذه المرحلة ، مرحلة البحث العلمى الذى تشرف عليه السياسة الدولية ، وكان القائمون به على الأكثر أساتذة من الجامعات ، أو معاهد البحوث ،

بعد أن كانت هذه الدراسات الإسلامية وقفا على المرسلين الدينيين ، ثم على الوكلاء المستترين أو الظاهرين .

ومن المفهوم بصفة عامة أن البحوث العلمية فى عصرنا هذا تتناول سائر الأمم كما تتناول الأمم الإسلامية : تتناول أمما كثيرة فى القارتين : الإفريقية والأسيوية ، وتعرض من أحوال هذه الأمم كل ما يهم الاطلاع عليه ، ومنه شئون الدين والعقائد الخلقية إلى جانب الشئون التى ترتبط بالموقع ، والمناخ ، ومعالم الأرض ، وينابيع الثروة الطبيعية . وفى كل موسم من مواسم النشر تظهر العشرات من الكتب عن أكبر البلدان وأصغرها فى أقطار العالم المعمور ، ويظهر معها الإعلان عن عشرات غيرها تصدرها المطابع فى المواسم التالية . فليست العناية بالبحوث العلمية موقوفة على أمم الإسلام ، ولا على الدراسات الإسلامية ، ولا فرق فى عدد المؤلفات من حيث الكثرة والقلة بين ما يؤلف عن الدراسات الإسلامية ، وما يؤلف عن سائر الدراسات . إلا أن يكون الفرق على قدر الفرق فى حساب السكان والمساحات وما إليها .

لكن المحقق أن هناك فرقا جوهريا من حيث الروح والوجهة بين ما يكتب عن الإسلام وما يكتب عن سائر الأمم . هناك فرق بين منهج التأليف عن الإسلام ومنهج التأليف عن الأمم المتفرقة ، ولو كانت هذه الأمم المتفرقة تدين بعقيدة واحدة ، أو كان لها من الكثرة ما يساوى كثرة المسلمين فى أوطانهم أو فى أرجاء العالم بأسره .

فمعظم المؤلفين عن الإسلام لا ينسون أنه قوة روحية فعالة ، ولا ينظرون إلى مسائل الثروة وظواهر الأوضاع الجغرافية والطبيعية كما ينظرون إلى تلك القوى الروحية الفعالة ، وإلى ما كان لها من الأثر فى تاريخ الماضى ، وما يكون لها من الأثر فى الحاضر وفى مجرى الحوادث المقبلة .

ولا يفوت القارىء أن يلمح بين السطور عناية الباحثين بقدرة الإسلام على

البقاء والاحتفاظ بهذه القوة الروحية الفعالة : هل يعيش الإسلام طويلا محتفظا بهذه القوة الروحية ؟ هل يشبع ضمائر أتباعه ويغنيهم عن الاعتصام بعقيدة روحية أو فكرية أخرى ؟ هل يقاوم غيره من القوى الروحية والفكرية فى معترك المنازعات الدولية أو الأممية ؟ .

إن المؤلفين الغربيين يكتبون عن الصين وعن الهند وعن الشعوب الإفريقية ، ولكنهم لا يكتبون عنها ليسألوا هذه الأسئلة وأمثالها ، وربما سألوا عن قوتها العسكرية ، أو علاقتها السياسية ، وبحثوا عن قدرتها على الثبات فى معارك القتال ، وعن قدرتها على المقاومة فى مضطرب السياسة الدولية ، إلا أن هذه الأسئلة شيء والسؤال عن القوة الإسلامية شيء آخر . . . لأنهم ينظرون إلى ثبات الإسلام فى معارك الحرب والسياسة ، بل ينظرون إلى ما وراء ذلك ، وإلى ما هو أهم وأبقى من ذلك : ينظرون إلى ثبات الإسلام أمام الزمن بما اشتمل عليه من زعازع الأفكار ، وزلازل العقائد ، وتيارات الشكوك ، وصدمات القلق والحيرة ، وينظرون إلى معارك القوة الروحية قبل أن ينظروا إلى معارك الحرب والسياسة ، ويلوح من فلتات القلم وخفايا السطور أنهم يوازنون بين هذه القوة الروحية الفعالة وبين مايقابلها عندهم من قوى الروح والضمير . ولا يدرون على التحقيق لمن تكون العاقبة فى الزمن البعيد ، أو إذا انقضى هذا الزمن القريب .

ومن عناوين المؤلفات نلمح هذا الغرض مقصوداً أو غير مقصود .

فهذا مؤلف ضخم فى عدة مجلدات يبحث عن المجتمع الإسلامى أمام الغرب ، وهذا مؤلف يقاربه فى الضخامة يبحث عن الإسلام فى تاريخ العصر وما يليه ، وذلك مؤلف آخر يبحث عن قبلة الإسلام على مفارق الطريق . وإذا كتب الباحثون عن أمة مسلمة كما يكتبون عن سائر الأمم فلا يفوتهم أن يذكروا نصيبها من تلك القوة الروحية الفعالة ، وأن يذكروا مقدار اعتمادها عليها فى كفاح الزمن ، وفى كفاح الخصوم .

ولا ننسى أن الدراسات الجامعية تسهم بالقسط الأوفر من جملة هذه الدراسات ، ولا ننسى أيضا أن الجامعات تعمل فى هذه البحوث بمعونة الدول أو معونة المعاهد المتصلة بالأقطاب السياسية والاقتصادية . . . ولكننا مع هذا يجب ألا ننسى أن القراء هم المرجع الأخير فى شيوع هذه المؤلفات ، وفى ظفرها بالثقة والإقبال ، فلا بد من رغبة ذهنية أو نفسية يرضيها المؤلفون وراء المطالب الدولية التى لا تعنى جميع القراء ، ولا بد من فائدة أدبية فى الكتاب تعطيه قيمته فى معايير النقد والتقدير : إن الرغبة العامة فى الغرب تتعطش إلى الحقيقة فى أمر الدين ، تتعطش إلى حقيقة تروى ظمأها وتعيد إليها الطمأنينة على مصير الإنسان فى الغيب المجهول .

ولقد نظر الغربيون قديما إلى الشرق وأخذوا منه كل ما اعتقدوه . وهم يعودون اليوم فينظرون إليه ولا ييأسون من ودائعه الروحية بعد أن يئسوا - أو كادوا - من ودائعه المادية ، وأولها فى الحالتين : ودائع الإسلام ؟

حماية الإسلام للأموال وثمرات الجهود

لحضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

وصلت الشريعة الإسلامية فى مبلغ حرصها على حماية ملكية الفرد وثمرة جهوده إلى شأو رفيع لم تكد تصل إلى مثله شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه وحديثه .

فقد أحاط الإسلام ملكية المسلم والذمى بسياج قوى من الحماية ، وفرض عقوبات قاسية على كل معتد عليها أيًّا كانت صورة هذا الاعتداء .

فقرر عقوبة قطع اليد فى السرقة ، قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ولم يتشدد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى تنفيذ حد كما تشدد فى تنفيذ حد السرقة ، فقد جاءه مرة أسامة بن زيد - وكان من أحب الناس إليه - يشفع فى فاطمة بنت الأسود المخزومية ، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها حليا وقطيفة ، مبرراً شفاعته بانتسابها إلى بطن شريف من بطون قريش ، وهو بطن بنى مخزوم ، وأن توقيع الحد عليها سيسجل عاراً على عشيرتها ، فأنكر الرسول عليه الصلاة والسلام شفاعة أسامة على حبه له ، وانتهره قائلا : « أتشفع فى حد من حدود الله » ثم بين أن الإسلام لا يفرق بين شريف ووضيع فى هذا الصدد فقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

صحيح أن عقوبة القطع لا توقع إلا بشروط كثيرة يتعلق بعضها بمادة الشيء المسروق ، وبعضها بقيمته ، وبعضها بالمكان الذى سرق منه ، وبعضها بالسارق نفسه ، وبعضها بالمالك ، وبعضها بعلاقة أحدهما بالآخر وقرابته منه ، وبعضها بالشهود ...

على ما هو مبين بالتفصيل فى كتب الفقه الإسلامى ، وصحيح أن هذه الشروط يندر توافرها ، وصحيح أنه لا توقع عقوبة القطع إلا حيث تنتفى هذه الشبهات ، فإن قامت شبهة ما ، مهما كانت تافهة ، لايصح توقيع هذه العقوبة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « ادرءوا الحدود بالشبهات » حتى إن السارق إذا ادعى أن العين المسروقة ملكه اعتبر هذا الادعاء شبهة ، ويسقط عنه القطع فى بعض المذاهب الإسلامية ، وإن لم يقم أية بينة على صحة ما ادعاه [١] .

ولكن سقوط القطع لعدم توافر الشروط ، أو لقيام شبهة ما ، لا يعفى السارق من العقوبة ، فالشريعة الإسلامية تقرر عقوبة التعزير فى كل حالة يسقط فيها الحد إذا ثبتت الجريمة بأية طريقة أخرى من طرق الإثبات ، والتعزير عقوبة يقدرها القاضى أو يقدرها القانون المتواضع عليه فى صورة تتفاوت شدتها تبعا لتفاوت درجات الجريمة ومبلغ خطورتها ، وتبعا لاختلاف المجرمين أنفسهم وما يكفى لردعهم ، ويكون بالحبس والجلد . . . وما إلى ذلك .

وهذا كله فى السرقة العادية ، أو ما يسميه فقهاء المسلمين بالسرقة الصغرى ، وأما قطع الطريق « أو ما يسميه فقهاء المسلمين بالسرقة الكبرى أو الحرابة » فعقوبته أشد من ذلك كثيرا ، وقد نص القرآن الكريم على هذه العقوبة إذ يقول : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ويرى الإمام أبو حنيفة فى تفسير ذلك أن قاطعى الطريق يعاقبون بالقتل أو بالصلب أو بكليهما معا إن قبض عليهم بعد أن سلبوا المال وقتلوا النفس ؛ وبالقتل فقط إن كانوا قد قتلوا نفسا ولم يكونوا قد سلبوا مالا بعد ؛ وبقطع الأيدى والأرجل من خلاف بأن تقطع من كل واحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى إن كانوا قد سلبوا المال فقط ، وبالحبس (وهذا فى نظره هو معنى قوله تعالى : « أو ينفوا من الأرض ») إن كان القبض عليهم قد تم من قبل أن يرتكبوا جريمة قتل ولا جريمة سلب [٢] .

---

(١) انظر الميدانى على القدورى ص ٣٠٦ (٢) انظر الميدانى على القدورى ص ٣٠٧ .

وأما الغصب ونقل حدود الأرض فجترحها ملعون فى نظر الإسلام، ومحروم من رحمة الله، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «من غصب شبراً من أرض طوقه الله تعالى من سبع أرضين يوم القيامة»[1]، ويقول: «من اقتطع مال امرىء مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان»[2]، وتوجب الشريعة الإسلامية على الغاصب أن يرد الشيء المغصوب، أو يرد قيمته إذا بدده أو أتلفه، فإن كان المغصوب أرضا فغرس فيها الغاصب أو بنى قُلع الغرس وهُدم البناء ورُدت إلى صاحبها كما كانت، ويوقع على الغاصب فى جميع الحالات عقوبة التعزير السابق بيانها[3]

وقد أجاز الإسلام للمالك أن يدافع عن ماله بكل وسائل الدفاع، حتى لو ألجأه ذلك إلى قتل المعتدى، وفى هذه الحالة لا تبعة عليه، وإن قتل هو مات شهيدا لقوله عليه الصلاة والسلام: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[4].

غير أن الإسلام يجيز لولى الأمر نزع الملكية الفردية وتعميم الانتفاع بها لجميع الناس، أو لبعض طبقات منهم إذا اقتضت ذلك حاجة المرافق العامة، أو اقتضاه صالح الجماعة، وعلى هذا المبدأ سار عمر رضى الله عنه، فقد حمى أرضا بالربذة (بلد بالقرب من المدينة) وجعل كلأها حقاً مشاعا للفقراء، وأمر أن يبعد عنها ماشية الأغنياء أمثال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان (وذكر اسميهما) وبرر قراره هذا فى عبارة حافلة بمعان ومبادىء رائعة سامية إذ يقول: «فإنه إن تهلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله، وإن تهلك ماشية الفقير يأتى متضورا بأولاده يقول يا أمير المؤمنين . . . طالباً الذهب والفضة، وليس لى أن أتركه . . . فبذل العشب من الآن أيسر علىّ من بذل الذهب والفضة يومئذ، وقد جاءه أهلها يشكون قائلين:

---

(١) البدائع، الجزء السابع ص ١٤٨ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده .

(٣) ينظر فى النصب الميدانى على القدورى ص ٨٧ ، وتوابعها ، والجزء السابع من كتاب بدائع الصنائع للكاسانى ص ١٤٢ وتوابعها .

(٤) رواه البخارى .

يا أمير المؤمنين ! إنها أرضنا ، قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها ، فعلام تحميها ؟ » فأجاب عمر : « المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الأرض شبراً فى شبر » .

وقاس الفقهاء على ذلك جواز نزع الملكية الفردية إذا اقتضت ذلك حاجة المرافق العامة ، أو اقتضاه صالح الجماعة ؛ فنصوا على أنه إذا ضاق المسجد الجامع مثلا عن أن يتسع للمصلين جاز هدم الدور التى حوله وتعويض أهلها وإدخال أرضها فيه . بل إن عمر رضى الله عنه قد فعل ذلك عند ما وسع المسجد الحرام .

ويجيز الإسلام كذلك نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدام حقه فيها ، أو تصرف فيها تصرفا يؤدى إلى ضرر عام أو خاص ، أو ينطوى على اعتداء على حرية الآخرين ، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك ، وقد طبق الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ على سمرة بن جندب ، فقد كان لسمرة نخل فى بستان رجل من الأنصار ، فكان سمرة يكثر من دخول البستان هو وأهله ، فيؤذى ذلك صاحب البستان ، فشكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فاستدعى سمرة ، وقال له : بعه نخلك ، فأبى ، فقال : هبها لى ولك مثلها فى الجنة ، فأبى ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أنت مُضارّ » أى تبتغى ضرر غيرك . ثم قال لمالك البستان : « اذهب فاقلع نخله » .

ولما كان الإنتاج لا يتوقف على رأس المال الممثل فى الملكية فحسب ، بل يتوقف كذلك على العمل الإنسانى ، ولما كان فقراء الناس ودهماؤهم لا يملكون إلا قواهم الجسمية والعقلية ، وليس لهم من رءوس الأموال إلا ما يستطيعون بذله من جهود ، لذلك أحاط الإسلام العمل والمجهود الإنسانى بحماية لا تقل فى قوتها عن حمايته للملكية ورأس المال . فالإسلام يحترم العمل ، ويعلى من شأنه ، ويأمر به . قال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أكل أحدكم طعاما قط خيراً من عمل يده » ويقدس الإسلام

حق العامل فى ملكية أجره ، فهو يدعو إلى الوفاء به ، وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب وخصومة من الله ، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى عن ربه : « يقول الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره »[1] . وهو يدعو كذلك إلى التعجيل بأداء الأجر ، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه »[2] . ويطبق الإسلام هذه المبادىء على جميع أنواع العمل المباح ، سواء فى ذلك الأعمال الجسمية والأعمال العقلية ، وأعمال التنظيم والإدارة ، ما عدا بعض أعمال دينية ترى بعض المذاهب الإسلامية أنه لا يجوز أخذ أجر عليها كالأذان وإمامة الصلاة وقراءة القرآن وتعليمه[3] ؟

(١) أخرجه البخارى .

(٢) أخرجه صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

(٣) هذا هو رأى المتقدمين من أئمة الحنفية ، وأما المتأخرون منهم فقد أفتوا جميعا بجواز أخذ الأجر على هذه الأعمال ، وعليه العمل الآن (انظر الميدانى على القدورى صفحتى ١٤٢ ، ١٤٣).

في القصص القرآني

للأستاذ أحمد الشايب
وكيل كلية دار العلوم

— ١ —

١ — هذه فصول موجزة فى قصص القرآن، حاولت فيها بيان منهجه وطبيعته كما هو وارد فى الكتاب العزيز ، كما حاولت الإشارة إلى تلك الشبهات التى يثيرها حوله المبشرون ومن يسير فى ركابهم بدعوى حرية الرأى ونزعة التجديد ممن لم يفهموا خصائص القرآن وأهدافه فى قصصه المتميزة عما سواه .

وقبل الهجوم على هذا الموضوع رأيت من الخير أن أشير فى إيجاز شديد إلى بعض الأنواع الأدبية التى اشتمل عليها القرآن ، ومكان القصص منها حتى لا يختلط الأمر فيها عند القراءة أو الدرس .

من هذه الأنواع الأدبية ـ أو الفنون الأدبية كما قد تسمى ـ التقرير ، والتصوير ، والأمثال ـ أو التمثيل ـ والجدل ، ومنها القصص ، وهى وإن كانت مختلفة الأساليب بحكم طبيعتها وأهدافها ، فإنها تنتهى جميعاً إلى غاية واحدة هى تحقيق رسالة الإسلام التى بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام مؤيدة بهذا البيان المعجز فى هذا الكتاب المبين .

فالتقرير هو أسلوب التشريع الذى يورد الأحكام المتصلة بالعبادات ، ونظم المعاملات ، والأحوال المدنيـة والاجتماعية مما تعبدنا به الله سبحانه وتعالى ، وحفلت به كتب الفقه الإسلامى[١] « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين » الآية [٢] ـ « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » الآية [٣] ، وهذا الباب أشبعه الباحثون تأصيلا وتشقيقا مما لا مجال له هنا .

---

(١) راجع الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٣٠ . (٢) النساء/١٢ (٣) البقرة/٢٨٢ .

وأما القصص فهو هذا النوع أو الفن الأدبى الذى يسوق حياة الأنبياء والأمم السابقة وما يتصل بها للعظة وتثبيت فؤاد الرسول ، والقرآن الكريم - كما يلى - يسوق أنباءه صادقة كما هى فى الواقع التاريخى ، وإن لم يلتزم هذه المعالم الشكلية لعلم التاريخ والقصة الحديثة ، وسنرى أن طبيعة القصص هنا ومراميه تنئ عنه مايرميه به المبشرون وأضرابهم من أنه يخرج على التاريخ ، ويزيد ويبتكر ويخترع فى الأخبار ، أو يدلس ويفترى الكذب ويسوقه على أنه التاريخ . . . وكل هذا سترد عليك هنا شواهده ومناقشته .

٢ — وأما التصوير فهو الأسلوب البيانى أو البلاغى القائم على التشبيه والمجاز والاستعارة والمبالغة ونحوها ، وهذا النوع لا يشترط فيه أن تكون دلالته حرفية أو يكون له مرجع واقعى حسى فى جميع عناصره ، لأن الغرض منه المبالغة ، وقوة التأثير ، والاعتماد على ما ألف العرب مما يبعث فيهم الانفعال ، وإدراك المراد فى قوة وجمال كقوله تعالى فى شأن المرابين : « الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس »[1]، فإذا كان المخاطبون لم يروا الشيطان فإن صورته الخيالية فى أذهانهم هى أنه يصيب الناس بالخبل وفساد النفس والجسم ، فقام التشبيه فى الآية الكريمة على هذا الأصل التصورى كما يتوهمه العرب ، وهذا التصوير يفيد فى تقوية الفكرة وإيضاحها من وجه ، ولكنه من وجه آخر لا يعد كذبا ، ولا يتخذ مقياسا يقاس به وجوب توافر عناصر التشبيه كلها بشكل حسى بحيث تراه العين ، ويتعامل معه الناس ، ذلك الوجود المادى الذى تلتمسه فى التقرير .

ومن ذلك قوله تعالى فى شجرة الزقوم : « طلعها كأنه رءوس الشياطين »[2] ، حيث صور ثمر هذه الشجرة برءوس الشياطين تقبيحا لها ، اعتماداً على تخيل المخاطبين .

ومن قريب ذلك قوله تعالى فى قصة ذى القرنين : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة »[3] ، إذ صور مغيب الشمس بالعين الحمئة نزولا على ما يتراءى لعين الناظر عند غروب الشمس ، وبذلك يندفع ما يتشدق به تلاميذ

---

(١) البقرة / ٢٧٥ . (٢) الصافات / ٦٥ . (٣) الكهف / ٨٦ .

الجغرافيا حين ينكرون هذه الصورة ، ويقيسونها بمقياس الفكرة أو الحقيقة العلمية ، ونحو ذلك مما لا يتصل بأصل الخبر وجوهر معناه ، فلا يصح أن يقال فيه إنه يخالف الواقع ، لا يقال ذلك ، لأن الأسلوب يجاوز منطقة الفكرة إلى مجال الخيال ، وجمال التصوير ، وحسن التعبير ، ومن هنا نفرق بين أسلوبي التقرير والتصوير .

وقريب من ذلك أيضا ما يرد فى العبارات الأدبية من ذكر آلهة الخير والشر عند قدماء اليونان ، أو أصنام العرب ، أو الأطلال والدمن عند الأدباء المحدثين ، فليس شيء من ذلك داخلا فى عقائد الكتاب والشعراء المتأخرين أو المعاصرين ، وإنما هى صور ـ أكلشيهات ـ ترمز إلى معان باقية ، أو هى تعبير عن معان جديدة بصور قديمة .

ولعلك لاحظت أننا نذكر شيئاً عن هذه الأنواع الأدبية الأخرى غير القصص ، لأنها تتصل بنفس ما اتهم به القصص من كذب وتبديل عند الذين لم يتبينوا الفرق بين الأساليب القرآنية .

٣ ــ والأمثال ـ أو التمثيل ـ كذلك بسبب من التصوير قريب ، فهى تذكر فى القرآن الكريم للإيضاح والقوة والجمال « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » [١] ، « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » [٢] ، ويقول الزمخشرى : التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعانى وإدناء المتوهم من الشاهد ، فإن كان الممثَّل له عظيما كان الممثل به مثله ، وإن كان حقيرا كان الممثَّل به كذلك . وقال الأصبهانى : لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر ، شأن ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق ، تُريك المتخيَّل فى صورة المتحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد [٣] ، وذلك أكثر وضوحا فى الأمثال البيانية ، أو البلاغية ، أو كما يسميها الزمخشرى بالتمثيل .

---

(١) الحشر / ٢١ . (٢) العنكبوت / ٤٣ . (٣) راجع الإتقان ج ٢ ص ١٣١ وما بعدها .

ذلك لأننا نرى أن المثل فى القرآن نوعان : نوع تاريخى له أصل واقعى يرجع إليه، كقوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين » الآيات [1] .

ونوع بيانى ليس بلازم أن يكون له واقع تاريخى ، كقوله تعالى فى وصف المنافقين : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون » [2]، حيث صورهم بحسن حالهم أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحى ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن ذلك ، وفقدوا الهداية الدينية ، فذهب عنهم الرشاد ، وضلوا سواء السبيل [3] .

هذا ، ولا بد هنا من البصيرة النافذة التى تدرك الفرق بين المثل التاريخى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون » الآيات [4] ، هنا لم يذكر القرآن اسم المدينة ، ولكن الأسلوب يدل على أنها كانت معهودة لهم معروفة لديهم . . .

وبين المثل البيانى : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » الآيات [5] ، فقد ضرب هذا المثل لبيان حالتى المتوكل والمغرور ، ولا يستلزم ذلك أن يعتمد على واقع فعلى ، ولا سيما إذا لاحظنا التنكير فى مفرد « رجلين » ونحن ننتظر أن هناك من يجوز أو يوجب أن يكون لهذا المثل أصل واقعى .

والذى يهمنا التنبيه إليه أن هذا المثل وإن ورد فى أسلوب قصصى ، ليس من ذلك القصص الذى يحكى أنباء الأمم والرسل ممن تعينت أسماؤهم وأماكنهم وأزمانهم .

أما القصة التمثيلية بذلك المعنى الحديث ـ الدراما ـ وهى التى تجرى على لسان أشخاص خياليين ، ولا تعتمد على واقع تاريخى ، وتخضع لهذه الحرية التى لا تلتزم

---

(١) التحريم / ١٠ ، ١١ . (٢) البقرة / ١٨ ، ١٩ . (٣) راجع فى هذه الآية وما بعدها تفسير المنار ج ١ ص ١٦٨ ، والكشاف ج ١ ص ٣٧ .
(٤) يس / ١٣ ـ ١٧ . (٥) الكهف / ٣٢ ـ ٤٤ .

الصدق ، ثم تنسق فصولا ومناظر ، فلا مكان لها فى القرآن ، وعلى هذا فقصة داود واقعية [١] ، وإن جرى الخلاف حول خصميها أهما من البشر أم من الملائكة [٢] ، وكذلك مائدة عيسى [٣] ، وقصة ابنى آدم [٤] ، والخليفة [٥] ، وإبراهيم والطير [٦] ، والذى مرّ على قرية [٧] ، إلى غير ذلك مما كثر فيه الكلام .

٤ — والجدل أسلوب الحوار أو المخاصمة حول المسائل الإسلامية ، كالألوهية والنبوة ، والبعث ، والثواب والعقاب ، والقرآن نفسه ، مصدره وإعجازه ، وصدقه إلى غير ذلك ، وقد حكى القرآن الكريم كثيرا مما دار فى ذلك بينه وبين المشركين والنصارى واليهود والمنافقين . وقد عقد السيوطى فى الإتقان فصلا لجدل القرآن يحسن الرجوع إليه ، والذى يهمنا ونحن فى سبيل القول فى قصص القرآن أن الجدل كان يجرى فى الغالب على وفق الأساليب التى ألفها العرب دون التزام الأشكال المنطقية المعروفة بأشكال القياس « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » [٨] ، لذلك كان يعمد إلى طلب النظر والتبصر فى أدلة العقائد الفطرية « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت » الآيات [٩] ، وقوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا » الآيات [١٠] ، فى مجادلة الكافرين ، إذ ينكر دعاوى المخالفين ، ويتوعدهم ، ويصفهم بشر الصفات ، إيذاناً بأن ما يدعونه باطل مردود ، فإذا قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » [١١] ، كان معنى ذلك أن القرآن ينكر دعوى ورود الأساطير فيه .

---

(١) سورة ص/٢١ — ٢٥ . (٢) راجع فى ذلك تفاسير الرازى ج ٧ ص ١٢٨ ، وأبى السعود ج ٥ ص ٤٨٦ ، والزمخشرى ج ٣ ص ٢٣١ . (٣) الزمخشرى ج ١ ص ٣٧٣ .
(٤) المائدة / ٢٧ — ٣١ ، والمنار ج ١٠ ص ٢٨٨ . (٥) المنار ج ١ ص ٢٥١ — ٢٥٩ . (٦) البقرة / ٢١٦ . (٧) البقرة / ٢٥٩ . (٨) إبراهيم / ٤ .
(٩) الغاشية/١٧ — ٢٦ . (١٠) مريم/٨٨ — ٩٣ . (١١) القلم/١٠ — ١٥ .

تلك هى الأساليب الأدبية الواردة فى القرآن الكريم ، والتى تتصل بالقصص ذكرنا طرفا من خصائصها التى نحتاج إليها ونحن نعرض لبيان طبيعة القصص القرآنى ومنهجه ، ولدفع الشبهات التى يثيرها خصوم القرآن ، منقادين فى ذلك ببعض ما ينشره المبشرون من كتب ومقالات ، مثل كتاب « تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام » لمؤلفه سانت كلير ، وسيأتى الكلام فيه .

٥ — أما بعد هذا التمهيد فقد واجهنا موضوع القصص القرآنى ، وما عسى أن نقول فيه لبيان طبيعته ومنهجه ، وما وُجه إليه من اتهامات ، وما يجب أن يقدم له من دراسات .

المسألة هى : هل قصص القرآن حق وصدق ، أو كذب وتبديل وتدليس ، وخروج على واقع التاريخ ؟ .

تلك هى النقط التى يدور حولها الجدل منذ عهد بعيد إلى الآن ، ولعلها كذلك أخطر ماشغل المسلمين منذ نزول القرآن إلى اليوم ، إذ هى متصلة بمصدر القرآن وما جاء به من عقائد وشرائع . ونحب هنا أن نعرض هذه التهم التى تتصل بهذه المسائل :

يدعى المبشرون :

أولا : أن محمداً ـ وهو عندهم مؤلف القرآن ـ يخرج فى قصصه على صدق التاريخ وواقعه ، فلم يتحر الصدق ، ولم يفحص ما نقل إليه من أقوال ، ذلك لأنه اعتمد فى معرفة التاريخ الدينى على الجهلة من العبيد والأرقاء ممن كانوا يخدمون قريشا ، وهؤلاء العبيد كانوا فقراء لا يستطيعون الحصول على نسخ من التوراة والإنجيل ، فكانت معارفهم مغيرة مبدلة ، فأخذها عنهم محمد كما هى ، وأوردها بخطئها فى قصص القرآن .

ثانياً : أن أغراض النبى الخاصة ، والظروف التى كانت تحيط به وبالدعوة الإسلامية كانت تدفعه إلى أن ينال بعض القصص بالتغيير والتبديل ، وبالحذف والإضافة ، لتساير الدعوة الإسلامية ، أى أن محمدا كان يزور القصص أو يزيفه .

ثالثا : أن محمدا كان يختلق من الحوادث ما لم يقع ، ويصوره على أنه الواقع التاريخى ، فهو عندهم يفترى الكذب .

وجاء بعض المعاصرين ، فسلم بما قال المبشرون من هذه الدعاوى الثلاثة ، وزاد رابعة : هى التدليس أو ما سموه الواقع النفسى ، وهو مجاراة القرآن لما هو مشهور متداول ، وليس بلازم أن يكون هذا الواقع النفسى أو المشهور متفقا مع الحق والواقع ، بل يصح أن يكون مخالفا لها ، والقرآن يأخذ بذلك المتداول ، وإن كان كذباً مشايعة للناس ، وجذباً لهم إلى المعسكر الإسلامى ولو بهذه الوسيلة الباطلة .

وإذا كان هؤلاء المعاصرون قد جاروا المبشرين أو المستشرقين فيما اتهموا به محمدا أو القرآن ، وما عللوا به اتهامهم ، فقد زادوا فى تعليلهم بأن أرجعوا هذا التخليط فى القصص على رأيهم إلى هذه الحرية الأدبية التى لا تلزم الأديب بتحرى الواقع التاريخى ، بل تبيح له التبديل ، والوضع ، والخروج على التاريخ ، ومجاراة المشهور ولو كان باطلا .

ونرجىء عرض نصوص ذلك وبدء مناقشته فيما يلى من مقال ؟

التقية
بين السنة والشيعة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

معنى التقية التى قال بها الشيعة أن تقول ، أو تفعل غير ما تعتقد ، لتدفع الضرر عن نفسك ، أو مالك ، أو لتحتفظ بكرامتك ، كما لو كنت بين قوم لا يدينون بما تدين ، وقد بلغوا الغاية فى التعصب ، بحيث إذا لم تجارهم فى القول والفعل تعمدوا إضرارك والإساءة إليك . . فتماشيهم بقدر ما تصون به نفسك وتدفع الأذى عنك ، لأن الضرورة تقدر بقدرها . . وقد مثل فقهاء الشيعة لذلك بأن يصلى الشيعى « متكتفاً » ، أو يغسل رجليه فى الوضوء بدلا من مسحهما فى بيئة سنية متعصبة ، بحيث إذا لم يفعل لحقه الأذى والضرر .

هذى هى التقية فى حقيقتها وواقعها عند الشيعة ، وما هى بالشىء الجديد ، ولا من البدع التى يأباها العقل والشرع . . فقد تكلم عنها الفلاسفة وعلماء الأخلاق قبل الإسلام وبعده ، تكلموا عنها وأطالوا ، ولكن لا بعنوان التقية ، بل بعنوان : « هل الغاية تبرر الواسطة ؟ » . وما إلى ذاك ، وتكلم عنها الفقهاء وأهل التشريع فى الشرق والغرب بعنوان : « هل يجوز التوصل إلى غاية مشروعة من طريق غير مشروع ؟ » . وبعنوان : « المقاصد والوسائل » ، وتكلم عنها علماء الأصول من السنة والشيعة بعنوان : « تزاحم المهم والأهم » ، واتفقوا بكلمة واحدة على أن الأهم مقدم على المهم ، ارتكابا لأقل الضررين ، ودفعاً لأشد المحذورين ، وتقديما للراجح على المرجوح . .

(*) فصل من كتاب « الشيعة والتشيع » للمؤلف تحت الطبع ، وقريبا يخرج إلى الأسواق .

وهذه العناوين وما إليها تحكى التقية كما هى عند الإمامية ، ولا تختلف عنها إلا فى الأسلوب والتعبير ، وكانت التقية وما زالت دينا يدين به كل سياسى فى الشرق والغرب ، حتى المخلص الأمين .

وإذا سأل سائل : ما دام الأمر كذلك فلماذا عبر الشيعة بلفظ التقية ، ولم يعبروا بلفظ المقاصد والوسائل ، أو الغاية والواسطة ؟ .

الجواب :

إن العبرة بالمعنى ، لا باللفظ ، وقديما قال العارفون : « النقاش فى الاصطلاحات اللفظية ليس من دأب المحصلين » .

ثانياً : إن علماء الشيعة يأخذون - دائما أو غالباً - ألفاظهم ومصطلحاتهم الشرعية من نصوص الكتاب والسنة ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بمادة الاتقاء ، كما تدل الآية التالية :

ومهما يكن ، فقد استدل الإمامية بالآيه ٢٨ من سورة آل عمران : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة » : فالآية صريحة فى النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء إلا فى حال الخوف واتقاء الضر والأذى ، واستدلوا بالآية ١٠٦ من سورة النحل : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

قال المفسرون : إن المشركين آذوا عمار بن ياسر ، وأكرهوه على قول السوء فى رسول الله ، فأعطاهم ما أرادوا . . فقال بعض الأصحاب كفر عمار . فقال النبي : كلا ، إن عمارا يغمره الإيمان من قرنه إلى قدمه . . وجاء عمار ، وهو يبكى نادما آسفاً ، فمسح النبي عينيه ، وقال له : لا تبك ، إن عادوا لك ، فعد لهم بما قلت .

واستدلوا أيضاً بالآية ٢٨ من سورة المؤمن : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » . فكتم الإيمان ، وإظهار خلافه ليس نفاقا ورياء ، كما زعم من نعت التقية بالنفاق والرياء . وبالآيه ١٩٥ من سوره البقرة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

ومن السنة استدلوا بحديث « لا ضرر ولا ضرار » وحديث : « رفع عن أمتى تسعة أشياء : الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ، وما لا يعلمون ، وما لا يطيقون ، وما اضطروا إليه ، والطيرة ، والحسد ، والوسوسة فى الخلق » . والحديثان مرويان فى كتب الصحاح عند السنة . وقول الرسول الأعظم : « وما اضطروا إليه » صريح الدلاله على أن الضرورات تبيح المحظورات .

وقال الغزالى فى الجزء الثالث من إحياء العلوم : « باب ما رخص فيه من الكذب » : « إن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان القصد سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب » .

وبعد أن نقل الرازى الأقوال فى التقية ، وهو يفسر قوله تعالى : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، قال : « روى عن الحسن أنه قال : التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان » :

ونعى الشاطبي فى الجزء الرابع من الموافقات ص ١٨٠ على الخوارج « إنكارهم سورة يوسف من القرآن ، وقولهم بأن التقية لا تجوز فى قول أو فعل على الإطلاق والعموم » .

وقال جلال الدين السيوطى فى كتاب « الأشباه والنظائر » ص ٧٦ : « يجوز أكل الميتة فى المخمصة ، وإساغة اللقمة فى الخمر ، والتلفظ بكلمة الكفر .. ولو عم الحرام قطرا ، بحيث لا يوجد فيه حلال إلا نادرا فإنه يجوز استعمال ما يحتاج إليه » .

وقال أبو بكر الرازى الجصاص ـ من أئمة الحنفية ـ فى الجزء الثانى من كتاب « أحكام القرآن » ص ١٠ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ . قوله تعالى : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، يعنى أن تخافوا تلف النفس ، أو بعض الأعضاء فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها ، وهذا هو ظاهر ما يقتضيه اللفظ ، وعليه الجمهور من أهل العلم ، وقد حدثنا عبد الله بن محمد بن إسحق المروزى عن الحسن بن أبى الربيع الجرجانى عن عبد الرازق عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين

أولياء من دون المؤمنين ، قال : « لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافرا ولياً فى دينه ، وقوله تعالى « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، يقتضى جواز إظهار الكفر عند التقية ، وهو نظير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وفى الجزء الثالث من السيرة الحلبية ص ٦١ مطبعة مصطفى محمد : « لما فتح رسول الله خيبر قال له حجاج بن علاط : يا رسول الله إن لى بمكة مالا ، وإن لى بها أهلا ، وأنا أريد أن آتيهم ، فأنا فى حل إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً ، فأذن له رسول الله أن يقول ما يشاء » .

وهذا الذى قاله صاحب السيرة الحلبية عن النبى ، ونقله الجصاص إلى الجمهور من أهل العلم هو بعينه ما تقوله الإمامية ، إذن القول بالتقية لا يختص بالشيعة دون السنة .

وقصة نعيم بن مسعود الأشجعى ، وإظهاره الشرك بأمر النبى يوم الخندق ، ليدس بين المشركين واليهود أشهر من أن تذكر .

ولا أدرى كيف استجاز لنفسه من يدعى الإسلام أن ينعت التقية بالنفاق والرياء ، وهو يتلو فى كتاب الله ، وسنة نبيه ما ذكرنا من الآيات والأحاديث ، وأقوال أئمة السنة ، وهى غيض من فيض مما استدل به علماء الشيعة فى كتبهم ؟ . وكيف تنسب الشيعة إلى الرياء ، وهم يؤمنون بأنه الشرك الخفى ، ويحكمون ببطلان الصوم والصلاة والحج والزكاة إذا شابتها أدنى شائبة من رياء ؟ . .

وأود أن أوجه هذا السؤال لمن نسب الشيعة إلى النفاق والرياء من أجل التقية : ما رأيك فيمن قال ـ من علماء السنة ـ إن جبريل ليلة أسرى بالنبى إلى السماء جاءه بقدحين : أحدهما من لبن ، وآخر من خمر ، وخيره بين شرب أيهما شاء (كتاب الفروق ج ٢ ص ١٢ طبعة سنة ١٣٤٥ ـ وصحيح البخارى ج ٦ باب سورة بنى إسرائيل) .

وأيضا ما رأيك فيمن أفتى ـ منهم ـ بأن من ترك الصلاة عمدا لا يجب قضاؤها ، ومن تركها نسيانا يجب عليه أن يقضى . . (كتاب نيل الأوطار للشوكانى ج ٢ ص ٢٧ طبعة سنة ١٩٥٢) .

وغريبة الغرائب أن يعذر المفتى على فتواه التى خالف بها الإجماع والقواعد والنص والقياس الجلى السالم عن المعارض ، ولا يعذر من يفتى بالتقية مستندا إلى كتاب الله وسنة رسوله . . (الفروق للقرافى ج ٢ ص ١٠٩) .

وبالتالى ، فإن التقية كانت عند الشيعة حيث كانت العهود البائدة ، عهد الضغط والطغيان ، أما اليوم حيث لا تعرض للظلم فى الجهر بالتشيع فقد أصبحت التقية فى خبر كان .

فى عام ١٩٦٠ أقامت الجمهورية العربية المتحدة مهرجاناً دولياً للغزالى فى دمشق وكنت فيمن حضر وحاضر ، فقال لى بعض أساتذة الفلسفة فى مصر فيما قال : أنتم الشيعة تقولون بالتقية . . فقلت له : لعن الله من أحوجنا إليها . . إذهب الآن أنى شئت من بلاد الشيعة فلا تجد للتقية عندهم عينا ولا أثرا ، ولو كانت دينا ومذهباً فى كل حال لحافظوا عليها محافظتهم على تعاليم الدين ومبادىء الشريعة؟

من ثمرات المعقول والمنقول

للشاعر الكبير الاستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

الهريسة :

فى المقريزى : أنها العصيدة . وفيها يقول العسكرى :

هريسة بيضاء كافوريه   فى قصعة صفراء ديناريه

للأنف منها نفحة مسكيه   وللعيون لمعة تبريه

تدور فى مبيضة فضيه   مثل السوار فى يد الروميه

ويحدث الرواة : أن أبان القارى أكل يوماً مع الرشيد ؛ فجاءوا بهريسة عجيبة ، فى وسطها مثل السُّكُرُّجة . قال أبان : فاشتهيت ذلك الدَّسم ، وأجللت الرشيد أن أمد يدى فأغمسها فيه ! ففتحت بأصبعى فتحة يسيرة ، فانقلب الدسم نحوى ! ففطن الرشيد لذلك ، فقال ـ ضاحكا ـ : يا أبان ، أخرقتها لتغرق أهلها ؟ ! فقلت : لا ياأمير المؤمنين ، ولكن سقناه إلى بلد ميت ! قال : فضحك الرشيد حتى أمسك صدره !.

مجالس الأحباب :

دخل الأديب غانم الأندلسى يوماً على ابن حيوس صاحب غرناطة[1] ، فوسع له على ضيق كان فى المجلس ، فقال بديها :

صيِّر فؤادَك للمحبوب منزلة   سَمُّ الخياط مجال للمحبين

ولا تسامح بغيضا فى معاشرة   فقلما تسع الدنيا بغيضين

وقد نظم ما روى عن الخليل بن أحمد من أنه : دخل يوماً على بعض أصدقائه ـ وهو على نمرقة صغيرة ـ فقال له الرجل : إنها لا تسعنا ! فقال الخليل : ما تضايق سم الخياط بمتحابين ، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين ! ! .

---

(١) غرناطة ـ بفتح الغين ـ : إحدى عواصم الفردوس المفقود ، وقيل : ذلك لحن ، والصواب : أغرناطة ، ومعناها : الرمانة .

انتقام الشعراء :

امتدح بعض الظرفاء الشعراء بعض الأمراء فرسم له ببرذعة وحزام ! فأخذهما على كتفه وخرج ؛ فرآه بعض أصدقائه فقال له : ما هذا الذى تحمله ؟ فأجاب : امتدحت مولانا الأمير بأحسن أشعارى ، فخلع على من أفخر ملابسه !! .

وأجاز بعض الأمراء بعض الشعراء بمد[1] من شعير ! فخرج وأنشد :

يقولون لى أرخصت شعرك فى الورى فقلت لهم : من فقد أهل المكارم
أجزت على شعرى الشعير ، وإنه كثير إذا خلصته من بهائم

أبناء الزهراء :

المروى : أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سمى حسناً وحسينا يوم سابعهما ، واشتق اسم حسين من اسم حسن .

وقد حلقت الزهراء شعرهما يوم سابعهما ، وتصدقت بوزنه فضة .

أول ذل دخل على العرب !.

قال ابن عباس : أول ذل دخل على العرب : موت الحسن بن على !! وقيل لأبى إسحاق السبيعى : متى ذل الناس ؟ قال : حين مات الحسن ، وادّعى زياد ، وقُتل حُجر بن عدىّ .

موت الحسن بالسم :

قال المدائنى : سقى الحسن - عليه السلام - السم أربع مرات ؛ فقال : لقد سقيته مراراً ، فما شق على مثل مشقته هذه المرة ! فقال له الحسين : أخبرنى من سقاك ؟ قال : لتقتله ! قال : نعم . قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبى الذى أظن ؛ فالله أشد نقمة ، وإلا فما أحب أن يقتل بى برىء .

مروان يحمل نعش الحسن :

لما مات الحسن أخرجوا جنازته ، فحمل مران بن الحكم سريره ! فقال الحسين :

---

(١) المد - بضم الميم وتشديد الدال - : مكيال ، وهو رطلان ، أو رطل وثلث ، أو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما .

تحمل اليوم جنازته ، وكنت بالأمس تجرعه الغيظ ! قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال ! .

سرعة سير الشر :

وصل نعي الحسن إلى البصرة في يومين وليلتين ، ويعتبر ذلك سريعاً بالنسبة لبريد ذلك العصر ، فقال الجارود بن أبي سبرة :

إذا كان شرٌّ سار يوماً وليلة وإن كان خيرٌ أخر السير أربعا
إذا ما بريد الشر أقبل نحونا بأحدى الدواهي الرُّبد سار وأسرعا

ضرب من التوبيخ :

قيل لحاتم الأصم : لو قرأت لنا شيئاً من القرآن فقرأ : « ألم » ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يكنزون » فصاحوا به : ليست الآية كذلك ! فقال : نعم ، ولكن أنتم كذلك ! .

خروج من مأزق :

كتبت السيدة عائشة إلى زياد كتابا ، فلم تدر ما تكتب عنوانه ! إن كتبت زياد ابن عُبيد ، أو ابن أبيه أغضبته ، وإن كتبت زياد بن أبي سفيان أثمت ! فكتبت من أم المؤمنين إلى ابنها زياد ! فلما قرأه ضحك ! وقال : لقد لقيت أم المؤمنين من هذا العنوان نصبا ! .

وجه « ميمون » ميمون !!

ذكر القزويني : أن من تصبَّح بوجه قرد عشرة أيام ، أتاه السرور ، ولا يكاد يحزن ، واتسع رزقه ، وأحبته النساء حباً شديدا ، وأعجبن به ! .

القرد والإنسان :

يشبه القرد الإنسان في أشياء : منها : أن لشفر[1] عينيه الأسفل أهدابا ، وليس ذلك لشيء من الحيوان غير الإنسان !! وإذا زاد به الشبق[2] استمنى بفيه !

(١) الشفر ـ بضم الشين ويفتح ـ : منبت الشعر في الجفن ، وهو مذكر .
(٢) الشبق كسبب : اشتداد الشهوة .

وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة !! وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر !! ويأنس بالناس ، ويمشى على أربع مشيه المعتاد ، ويمشى على رجليه حيناً يسيراً !! وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا رأى القرد سجد لله ! تعجباً من خلقه ! .

اشتقاق النديم :

قالوا : مأخوذ من المنادمة ، وقالوا : مأخوذ من الندم ؛ لأنه يُندَم على مفارقته ؛ لوجود الراحة والأنس معه ، أو لأنه يندم هو على ما يتكلم به فى حال سكره .

فتنة الوالد بولده :

قال الأصمعى : مر بنا أعرابى ينشُد ابنا له ، فقلنا له : صفه لنا ، فقال : كأنه دُنَيْنير ! فقلنا : لم نره . فذهب، ولم نلبث أن جاء بطفل صغير أسود كأنه جُعَل[1] قد حمله على عنقه !! فقلنا له : لو سألتنا عن هذا لأرشدناك ، فإنه لم يزل عامة يومه بين أيدينا !! ثم أنشد الأصمعى :

زَيَّنها الله فى الفؤاد كما زُيِّن فى عين والد وَلدُه

خوف الشاعر من الشاعر :

تلاحى جرير وعدى بن الرقاع العاملى أمام الوليد بن عبد الملك ، فخاف عدى جريرا ، فوثب على رجل الوليد يقبلها ، ويقول : أجرنى منه يا أمير المؤمنين !! فالتفت الوليد إلى جرير وقال : وتربة عبد الملك ، لئن هجوته ، لأحلنك ، وأسرّجن عليك ، ولأطيفنك بدمشق !! .

وعن المدائنى قال : قدم البصرة راجز من رُجّاز المدينة ، فجلس إلى حلقة فيها الشعراء ، فقال : أنا أرجز العرب ! أنا الذى أقول :

مروان يُعطى وسعيد يمنعُ مروان نَبْعٌ[2]، وسعيد خِروَعُ

وددت لو أنى راهنت من احب الرجز يداً يداً !! والله ، لأنا أرجز من العجاج ، فليت البصرة جمعت بينى وبينه !! وكان العجاج وابنه رُؤبة حاضرين ،

(١) الجعل ـ بضم ففتح ـ : « الجعران » .
(٢) النبع : شجر ينبت فى قلة الجبل يتخذ منه القسى والسهام .

فأقبل رؤبة على أبيه العجاج ، وقال له : قد أنصفك الرجل ! فأقبل عليه العجاج قائلا : هأنذا العجاج ، فهلم إلىّ ، وزحف عليه ! فقال الرجل : وأى العجاجين أنت ؟ ! قال : ما خلتك تعنى غيرى ! أنا أبو عبد الله الطويل - وكان يكنى بذلك - فقال الرجل : ماعنيتك ولا أردتك ! فقال العجاج : وكيف ذلك ، وقد هتفت باسمى ؟ فقال الرجل : أما فى الدنيا عجاج سواك ؟ ! فقال العجاج : ما علمت ! فقال الرجل : ولكننى أعلم وإياه عنيت ! فالتفت العجاج إلى ابنه رؤبة وقال : وهذا ابنى رؤبة فراجزه إن شئت . فقال الرجل : اللهم غفرا ! ما بينى وبينكما عمل ، وإنما مرادى غيركما ! فضحك أهل الحلقة ، وكف العجاج ورؤبة عنه ! .

حب الرشيد لفنان :

نظر الرشيد يوماً إلى إبراهيم الموصلى وقال : يا إبراهيم ، أرى الشيب يضحك بعارضيك ! فأنشد إبراهيم :

تولى شبابى إلا قليلا وحل المشيب فصبراً جميلا
كفى حزنا بفراق الشباب وقد أصبح الشيب منه بديلا
ولما رأى الغانيات المشيب رددن عنى طرفا كحيلا
سأندب عهداً مضى للصبا وأبكى الشباب بكاء طويلا

قال : فبكى الرشيد ، وقال : والله لو قدرت على رد شبابك لفعلت ! .

علم الكف عند العرب :

قال الأعشى من قصيدة يفضل فيها عامر بن الطفيل العامرى على علقمة بن علاثة :

فانظر إلى كف وأسرارها هل أنت إن أوعدتنى ضائرى

وهذا يدل على أن علم الكف كان معروفا عند العرب القدامى .

لكل جنس آدم وحواء !!

قال أبو عبيدة : زعم بعض المفسرين ، وأصحاب الأخبار : أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر !! فعطس الأسد عطسة ، فخرج من منخريه زوج سنانير !! فلذلك كان السنور أشبه شىء بالأسد ! .

فقال كيسان لأبي عبيدة : ينبغي أن يكون ذلك السِّنَّور هو آدم السنانير ، وتلك السِّنورة حواؤها ! فقال - وهو يضحك - : ألم تعلم أن لكل جنس من الحيوان آدم وحواء ! فضحك القوم حتى أغربوا فى الضحك ! .

شاعر كثير التضمين :

كان الشاعر الأمير مجير الدين بن تميم لهجاً بالتضمين مولعاً به ! فقلما نجد بيتاً إلا ضمنه ، ونقله إلى معنى آخر ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزُجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

ثرثرة الحجامين :

ضِقت ذرعا بثرثرة الحجامين ، الحلاقين ، حتى كدت أضرب عن قص شعرى ! ثم عدت إليهم صاغرا بعد أن وقفت على هذه الكلمة للسلف من العلماء : كثرة الكلام وقف على أهل الحجامة ! .

لا يوقد الشمع فى الشمس :

زار ابنَ تميم الشاعر ، أحدُ أصدقائه ليلا ، فأطفأ الشعمة وقال :

ومُخْطَفة (١) أوقدتها جنح ليلة وقد زار من أهوى وتم بها أنسى
فأطفأتها إذ أشرقت شمس وجهه ومن سفه أن يوقد الشمع فى الشمس

وفى هذا المعنى يقول بعضهم أيضا :

يا حامل الشمعة فى كفه ووجهه يغنيه عن شمعته
ما تصنع الشمعة فى كف من بدت لنا الشمس على قامته

جرأة الأخطل على الخلفاء :

قال عبد الملك بن مروان للأخطل الشاعر يوما : أراك تكثر وصف الخمر نظما ونثرا ، وأولها مُرار ، وآخرها خُمار ! فقال الأخطل :

(١) المخطفة : الدقيقة الخصر .

إذا ما نديمى علنى ثم علنى ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل حتى كأننى عليك - أمير المؤمنين - أمير

والحق : أن بنى أمية جرءوا هذا الشاعر منذ عهد معاوية حتى توقح فهتك حرمات الإسلام ! وسب « أنصار الإسلام » أليس هو القائل :

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بصائح فى جنح ليل كمثل العَيْر : حىَّ على الفلاح

وهو القائل من أبيات بذيئة يهجو الأنصار :

خلوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم[1] بنى النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

وحسبنا أن هذا الشاعر كان يدخل على جبار بنى أمية « عبد الملك » ورائحة الخمر تفوح من فيه ، وقطراتها تتحادر من لحيته ! .

الأيام أربعة :

كان يحيى البرمكى يقول : الأيام أربعة : يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب ، ويوم الشمس لقضاء الحوائج .

حمر الألوان ، وسمان الأجسام :

قال الجاحظ : كنت أظن بالحمر الألوان : التسرع والحدة ، فوجدت الحلم فيهم أعم . وكنت أظن بالسمان الجدال العظام : أن الفالج إليهم أسرع ، فوجدته فى الذين يخالفون هذه الصفة أعم .

بين متواضع ومتكبر :

كان ابن التلميذ شيخ النصارى المتطبب متواضعا ، وكان أوحد الزمان الحكيم متكبرا ، فقال فيهما البديع الإسطرلابى :

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه أبو البركات فى طرفىْ نقيض
فهذا بالتواضع فى الثريا وهذا بالتكبر فى الحضيض

(١) المساحى : جمع مسحاة ، وهى آلة القشر والجرف .

حظوظ الشعراء :

لما قتل الأفشينُ قائد المعتصم بابك الخُرَّمىّ ، مدحه أبو تمام بقصيدته التى أولها :

بعثتَ الخيل ، والخيرُ عقيدٌ بنواصيها [1]

وهى من جيد شعره ، فأمر المعتصم للشعراء الذين مدحوا الأفشين بثلثمائة درهم ، جرى تفرقتها على يد أحمد بن أبى دُواد ، فأعطى منها محمد بن وُهيب ثلاثين ألفا ، وأعطى أبا تمام عشرة آلاف ، قال ابن أبى كامل : فقلت لعلى بن يحيى بن المنجم : أولا تعجب من هذا الحظ ؟ يُعطى أبو تمام عشرة آلاف درهم . وابن وهيب ثلاثين ألفا ، وبينهما كما بين السماء والأرض ! .

فقال ابن المنجم ؛ لذلك علة لا تعرفها ؛ لقد كان ابن وهيب مؤدب الفتح بن خاقان ، فلذلك وصل إلى هذه الحال ! .

أقول : إن تفاوت الحظوظ عرف من قديم الزمان ، ولكن التفاوت فى حظوظ الشعراء أربى على كل ما سواه حتى ليعد من الأعاجيب !! فقد استطاع أبو تمام والبحترى مثلا أن يخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر ربما كان فيهم من هو خير منهما ، ولكن اتصال الطائيين بالخلفاء والوزراء فى حاضرة الملك كان له هذا الأثر .

وفى عصرنا رُفع بعض الشعراء إلى مرتبة الفحول ، قفزوا إلى الصف الأول بحكم المجاملات والصداقات ، وفى ظل السهرات المريبة الماجنة ، وليسوا من الشعر فى قليل ولا كثير ، ولا مغدى ولا مراح !! بل إن هناك من يطلق عليهن أسماء الشاعرات زوراً وبهتانا ، ويذكرن كل يوم فى الصحف ممجدات مكرمات ، وكبار الشعراء يطبق عليهم الخمول ، مع أن هؤلاء الشاعرات المزيفات لا يستطعن نظم بيت واحد ، ولا يعرفن الموزون من المكسور ، ولكن يشترين القصائد من الشعراء الفقراء كما يشترين السلع ، فحدّث ـ ولا تحرج ـ عن مدى نكبتنا فى أدب النفس وأدب الدرس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! .

---

(١) ضمن البيت الأثر : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

التخادع :

قال يزيد بن معاوية لأبيه - يوم أن أخذ له البيعة بولاية العهد ، ورأى الناس يمدحونه ويقرظونه -: والله يا أمير المؤمنين ، ما ندرى أنخدع الناس ، أم يخدعوننا ؟! فقال له معاوية : كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك ، فقد خدعته !.

اتقوا أشياء :

كانوا يقولون : اتقوا صولة الكريم إذا جاع ، وصولة اللئيم إذا شبع ! وقالوا : نعوذ بالله من صولة الكريم إذا جاع ، وضربة الجبان إذا خاف ! وقالوا : اتقوا ضربة الجبان إذا خاف ؛ لأنه لا يبقى ولا يذر ! ومن أمثالهم : عصا الجبان أطول !.

حمل النفس على ما تكره :

كان علقمة بن قيس كثير الاجتهاد ، فقيل له : كم تهين نفسك ؟ فقال : كرامتها أريد ! ولما نسك عتبة الغلام ، كان لا يهنأ بطعام ولا شراب ! فقالت له أمه : يا بنى ، ارفق بنفسك ! فقال : الرفق لها أطلب ! دعينى أتعب قليلا ، لأنعم طويلا !.

لا يرضى بتصغير اسمه :

كان أبو الحزم مكى بن ريان النحوى الضرير ، يلقبه جيرانه ومعارفه فى صغرهم « مكيكى » تصغير مكى ، ثم ارتحل عن بلده « ماكسين »[1] ، واشتغل بالعلم ونبه قدره ، وبَعُـد صيته ، فاشتاقت نفسه إلى وطنه ، فعاد إليه ، وتسامع به من بقى ممن كان يعرفه ، فزاروه وفرحوا به لكونه فاضلا من أهل بلدهم ، وفى الليلة التى بات فيها ، سمع فى السحر حين خرج إلى الحمام امرأة فى غرفتها تقول لأخرى : أتدرين من حضر ؟ فقالت : لا ، قالت : إنه مكيكى بن فلانة ، فقال أبو الحزم : والله لا أقمت فى بلد أدعى فيها مُكَيْكيا ! وسافر من غير رَيْث وعاد إلى الموصل ، بعد أن كان نوى الإقامة فى مسقط رأسه !.

يتصدق بقميصه :

قيل لمعروف الكرخى فى مرض موته أوص ! فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى ؛ فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريان ، كما دخلتها عريان !.

(١) ماكسين : بلدة جبلية من أعمال الجزيرة على نهر الخابور .

الفقراء ثلاثة :

قال بشر الحافى : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ . فهذا مع الروحانيين فى عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين فى الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهو مع الصادقين أصحاب اليمين ! .

لا تسخر من الصالحين :

حكى ابن خلكان : أنه كان بقرطبة رجل فيه بعض الحدّة ، وكان مُسلطا على الشيخ أبى محمد حوش القيسى المقرى ؛ فكان يدنو منه ـ إذا خطب ـ فيغمزه ويحصى عليه سقطاته ، فيتلعثم الشيخ لذلك ويتوقف ! وحضر الرجل ذات مرة فى بعض الجمع ، وجعل يحد النظر إلى الشيخ ويغمزه ! حتى أضجره ! فلما خرج الشيخ ونزل فى الموضع الذى كان يقرأ فيه قال لمن حضر أمّنوا على دعائى ، ثم رفع يده وقال : اللهم أكفنيه ! اللهم أكفنيه ! فأمنوا على دعائه !

قال : فأقعد الرجل ، ولم يدخل الجامع بعد ذلك اليوم ! .

تخريج حسن :

قال السرى السقطى لرجل : التوبة : ألا تنسى ذنبك ! فقال الرجل : بل التوبة أن تنسى ذنبك ! ووافق الجنيد الرجل على قوله ، وخالف خاله السرى وأستاذه ؛ لأن المعصية جفاء ، والتوبة صفاء ، وذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء ! .

منزلة المؤمنين :

بدأ ـ سبحانه ـ المؤمنين بالإحسان ، وكتب فى قلوبهم الإيمان ، وخصهم بنعمة العرفان ! .

وكم باسطين إلى وصلنا أكفهمُ لم ينالوا المنى
قطعنـاهمُ ووصلناكمُ فكانوا بعيداً ، وكنتم لنا !

قوة العزيمة :

كانت رابعة العدوية تحي الليل كله !! وكان أبو أيوب السختيانى يحي الليل كله ، فإذا كان وقت السحر رفع صوته ، كأنه قد قام ذلك الوقت من النوم !

ومكث إبراهيم التيمى عشرين سنة يصلى الصبح بوضوء العشاء !! وكان السرى السقطى يقوم من أول الليل إلى وقت السحر ، ثم يجلس فيبكى حتى يطلع الفجر !! وكان داود الطائى ينـادى فى الليل : إلهى ، همك عطل على الهموم ، وحال بينى وبين الرقاد ، وشوقى إلى لقائك حال بينى وبين اللذات ، فأنا فى السجن يا كريم !. وأصاب عبد الرحمن بن الأسود وجع فى إحدى رجليه ، فكان يقوم الليل على قدم واحدة ، ويصلى بوضوء العشاء صلاة الصبح !.

الأنس بالله :

قال إبراهيم بن أدهم لرجل لقيه نازلا من جبل : من أين أقبلت ؟ قال : من الأنس بالله !! وقيل لرابعة العدوية : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركى ما لا يعنينى ، وأنسى بمن لم يزل !.

الفناء فى الله :

قيل لذى النون المصرى : أين أنت من يوم ألست بربكم ؟ فقال : كأنها الساعة فى أذنى ! .

الاستحياء من الله :

قال مالك بن دينار : لقد استحيت من الله ـ تعالى ـ من كثرة ترددى إلى بيت الخلاء ! فوددت لو أن الله ـ سبحانه ـ جعل رزقى فى حصاة أمضغها حتى ألقى الله ! وكان بعض الصالحين يصلى خارج المسجد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أستحى من الله أن أدخل بيته وقد عصيته ! .

أسلوب الحكيم :

قيل لبعض الصالحين : فى أى وقت تصلى وِرْدك ؟ فقال : ما ظننت أن عبداً يسمع بالجنة والنار ، وتمضى عليه ساعة لا يصلى فيها ! وقال بعض الصالحين : لقيت رجلا فى البرّية فقلت له : من أين أتيت ؟ فقال : من عند قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ! فقلت : إلى أين تريد ؟ فقال : إلى قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع !.

أَجلّ من أن يُجلّ :

فى محاضرات الراغب الأصفهانى : أن الشبلى سمع رجلا يكثر عند ذكر الله من قوله ـ عز وجل ـ : فقال أحب أن تجله عن هذا ؛ فإنه أجل من أن يجل ! .

شاب صالح :

دخل جماعة على عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ فى مرض موته يعودونه ، وفيهم شاب ناحل الجسم ، فقال له عمر : يا فتى ، ما الذى بلغ بك إلى ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أمراض وأسقام ، فقال عمر : سألتك بالله إلا ما صدقتنى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، فصَغُرت زهرتها وحلاوتها فى عينى ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله ـ تعالى ـ وعقابه ! .

قلب الأعيان لدى العارفين :

مرض يعقوب بن الليث والى خراسان مرضا شديداً ، فقيل له : إن فى ولايتك رجلا صالحا يقال له : سهل بن عبد الله التُّستَرى ، فلو استحضرته ليدعو لك ، لرجونا لك العافية ! فأحضره وسأله الدعاء ، فقال سهل : كيف يستجاب لك ، وأنت مقيم على الظلم ؟ فنوى يعقوب التوبة والرجوع عن المظالم ، وحسن السيرة فى الرعية ، وأطلق من سجنه المظلومين ، فقال سهل : اللهم كما أريته ذل المعصية ، فأره عز الطاعة ، وفرج عنه ، قال : فنهض يعقوب كأنما نشط من عقال ، وعوفى من ساعته ! فعرض على سهل مالا جزيلا ، فأبى قبوله ! فقيل له فى أثناء الطريق : لو قبلت المال الذى عرضه عليك وفرقته على الفقراء ! فنظر سهل إلى الحصباء ، فإذا هى جواهر ! فقال : خذوا ما أردتم ! ثم قال : من أعطى مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب ! .

قال العلماء : وهذا يعد من قلب الأعيان ، وهو كثير عند العارفين .

الخير فى أربع :

اجتمع الخير كله فى أربع خصال ، وبها صار الأبدال أبدالا : الجوع ، والسهر ، والصمت ، والخلوة . ويقال : من سهر أربعين ليلة مخلصا كوشف بشىء من الملكوت .

كرامة للإمام :

عن عطاء بن السائب عن أبيه ، قال : بينما على ـ عليه السلام ـ على منبر الكوفة ، إذ دخل رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مات خالد بن عرفطة ! فقال الإمام : لا ، والله مامات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد ـ وأشار إلى باب الفيل ـ ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد ، وفى رواية : ابن عمار ، قال : فوثب رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا حبيب بن حماد ، وأنا لك شيعة ! قال : فإنه كما أقول ! .

قال الراوى : فوالله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدمة معاوية يحمل رايته حبيب بن حماد ! .

ما خُص به الرسول :

مما خص بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحريم أكل البصل والثوم عليه ، وكان يسمى الثوم : البقلة الخبيثة ، وقد أبيح للمسلمين شرب دمه ، وقد شربه بعض الصحابة !.

حزن الزهراء على أبيها :

ذكر البلاذُرى فى تاريخه : أن فاطمة ـ عليها السلام ـ لم تُر مبتسمة بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ! .

كلمة تصعق جبارا !!

للإمام على ـ عليه السلام ـ وصية ختمها بقوله : رويداً يسفر الظلام ، كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من أسرع أن يلحق !! قال ابن أبى الحديد : استقرأنى أبو الفرج محمد بن عباد ـ وأنا يومئذ حَدث ـ هذه الوصية ، فقرأتها عليه من حفظى . فلما وصلت إلى هذا الموضع منها ، صاح صيحة شديدة وسقط ، وكان جباراً قاسى القلب !

بين الحسن البصرى وأبى حنيفة :

قال والى العراق عمر بن هبيرة الفزارى للحسن البصرى فى ملأ من النـاس ، منهم الشعبى وابن سيرين : يا أبا سعيد ، إن أمير المؤمنين ـ يعنى يزيد بن عبد الملك ـ يأمرنى بالشىء أعلم أن فى تنفيذه الهلكة فى الدين ، فماذا تقول فى ذلك ؟

قال الحسن : ما ذا أقول ، إن الله مانعك من يزيد ، ولن يمنعك يزيد من الله ! يا عمر ، خف الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخض ليلته عن يوم القيامة ، إنه سينزل عليك ملك من السماء ، فيحطك عن سريرك إلى قصرك ، ويضطرك من قصرك إلى لزوم فراشك ، ثم ينقلك عن فراشك إلى قبرك ، ثم لا يغنى عنك إلا عملك ، فقام عمر بن هبيره باكيا يصطك لسانه . أما أبو حنيفة فقد لجأ إلى التقية ، وقد أسعفته براعته فى الحيل التى ضرب بالحنفية المثل فيها ؛ وذلك أن الربيع حاجب المنصور ـ وكان لا يحبه ـ قال له ـ فى دهليز الخلافة فى ملأ من الناس ـ : إن أمير المؤمنين ، يأمرنى بالشىء بعد الشىء من أمور ملكه ، فأنفذه وأنا خائف على دينى ، فما تقول فى ذلك ؟ قال أبو حنيفة : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ! . قلت : فلا بأس عليك أن تفعل الحق ، ثم قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادنى فاصطدته !.

التصوف عند ابن حنبل :

قال رجل للإمام أحمد بن حنبل : هؤلاء الصوفية جلسوا فى المسجد بلا علم ، فقال الإمام : العلم أجلسهم ؛ إن أحدهم يرضى بكسرة ، وما أحسن من يرضى من الدنيا بكسرة ! فقال : إنهم يرقصون ويتواجدون ، فقال : من فرحهم بالله !! .

يستغفر ثلاثين عاما :

قال السرى السقطى : منذ ثلاثين عاما وأنا فى الاستغفار من قولى مرة : الحمد لله ! قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريق ، فاستقبلنى أحد الناس قائلا : نجا حانوتك ! فقلت : الحمد لله ! فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت ، حيث أردت لنفسى الخير دون الناس ! .

صفة الزاهد :

قالوا : الزاهد الصادق : قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أراد ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى رداؤه ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة ـ إن شاء الله ـ وطنه !.

بلاغة سورتى النساء والمائدة :

يقول عبد القاهر : انظر إلى سورة النساء ، وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما !.

مزايا الإمام وخصائصه :

يقول ابن أبى الحديد : سبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة ، والخصائص الشريفة ؛ أن يكون غلام من أبناء عرب مكة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو ، ولم معاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ، لأن قريشاً لم يكن فيها أحد منهم يشهوراً بمثل ذلك ، وخرج أعرف الناس بهذا الباب من سقراط ، ولم يُرَبّ بين الشجعان ؛ لأن أهل مكة كانوا ذوى تجارة ، ولم يكونوا ذوى حرب ؛ وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض ؛ قيل لخلف الأحمر : أيما أشجع : عنبسة وبسطام ، أم على بن أبى طالب ؟ فقال : إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ! فقيل له : فعلى على كل حال ، قال : والله لو صاح فى وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما !.

وخرج أفصح من سَحبان وقُس ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ؛ كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا أفصح العرب : جُرهم وإن لم تكن لهم نباهة ؛ وخرج أزهد الناس فى الدنيا ، وأعفهم ، مع أن قريشا ذوو حرص ومحبة للدنيا ، ولا غرو فيمن كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مُربيه ومُخرّجه ، والعناية الإلهية تمده وترفده أن يكون منه ما كان .

ضرب عمر لأبى هريرة :

لما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر ـ رضى الله عنه ـ : يا عدو الله وعدو كتابه ! أَسَرقت مال الله تعالى ؟ قال أبو هريرة : لست بعدو الله ولا عدو كتابه ، ولكننى عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله ! فضربه عمر بجريدة على

رأسه ! ثم ثناه بالدِّرة ، وأغرمه عشرة آلاف درهم ؟ ثم أحضره فقال : يا أبا هريرة من أين لك عشرة آلاف درهم ؟ قال : خيلي تناسلت ، وعطائي تلاحق ، وسهامي تتابعت ! قال عمر : كلا والله ! ثم تركه أياماً وقال له : ألا تعمل ؟ قال : لا ، قال : قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة ! قال : من هو ؟ قال : يوسف الصديق ، قال أبو هريرة : إن يوسف عمل لمن لم يضرب رأسه وظهره ، ولا شتم عرضه ، ولا نزع ماله ! لا والله لا أعمل لك أبدا ! وكان عمر يكره قبول الهدية ، ومن قوله لابن مسعود : إياك والهدية وليست بحرام ، ولكني أخاف عليك الدَّالة ! .

ذكر الموت :

قال أبو العتاهية :

ستباشر الترباء خدك ... وسيضحك الباكون بعدك
ولينزلن بك البلى ... وليخلفن الموت وعدك
وليفنينك مثلما ... أفنى أباك - بلى - وجدك
لو قد رحلت عن القصو ... ر وطيبها وسكنت لحدك
لم تنتفع إلا بفعل ... صالح قد كان عندك
وترى الذين قسمت ما ... لك بينهم حصصا ، وكدك
يتلذذون بما جمعت ... لهم ، ولا يجدون فقدك

ملامح الغرائز الإنسانية
فى ضوء الآيات القرآنية

للأستاذ عبد الوهاب حموده

إن القرآن معجز من نواح متعددة ، وجوانب متفرقة ، من أهمها الجانب النفسى فهو من حيث هو كتاب هدى وبيان لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ، ومخاطبة القلوب ، ومناجاة الأرواح ، يقول علماء النفس :

إن عقدة النقص ، أو مركب النقص كما يسمونه أحيانا هو الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى التى يحاول الشخص بطريقة لا شعورية أن يعوضها .

فمن منا لا يحاول من حيث لا يشعر أن يصرف عن النواحى التى يشعر أنه أقل من غيره فيها .

ذلك أن كل شخص يشعر بتفوقه فى ناحية من النواحى يحاول بطريقة قد تكون لا شعورية أن يقنع العالم أن هذا هو الشىء الوحيد الذى يهم ، فإن كان متفوقاً فى الجسم اعتقد وحاول أن يقنع غيره أن صلاح الجسم وقوته هما فى آخر الأمر المقياس الذى تقاس به قيمة الإنسان .

أما إذا كان ناقصا فى الناحية الجسمانية ـ وكان متفوقاً فى الناحية العقلية ـ فإنه يميل إلى الحط من قدر القوة الجسمية وتأكيد أهمية القدرة العقلية .

فإن كان عاملا غير حاذق ، أو فلاحا غير موفق حاول أن يظهر بمظهر القادر على التحدث فى الأمور السياسية .

وإذا لم يكن قد أخذ نصيبه من التربية ، ولكنه عصامى الثروة لم تكن للتربية فائدة فى نظره ، وقال إن التعليم لم ينجح إلا فى إفساد الناس .

وإذا كان العكس ، وكان الرجل قد أخذ بنصيبه من التربية ، ولكنه لم ينجح فى الحياة فإنه لا يترك فرصة تسنح دون أن يقلل من قيمة النجاح فى الأعمال .

وهناك خرافة تسمى خرافة « إيزوب » عن الثعلب الذى عجز عن الوصول إلى عنقود العنب المتدلى من كرمة على الحائط ، فانصرف عنه وهو يعزى نفسه بقوله : « ربما كان العنب حصرما » .

كثيراً ما نرى هذا فى بنى الإنسان رجالهم ونسائهم ، فالجبان غالبا ما يستهزىء بالشجاعة ، ويصغر من شأنها ، أليس هذا بعينه هو « العنب الحصرم » .

والمصاب بهذه العقيدة إذا كان ذا روح عدائية فقد يحاول قهر الشعور بالنقص بالظهور بالسيطرة والغطرسة والمكابرة وغير ذلك من المواقف التى تندرج عادة تحت اسم الغرور ، فالتظاهر بالكمال والتفرد ليس إلا انعكاساً للشعور بالنقص ، وعلى ضوء هذا الجانب النفسى نفهم سر قوله تعالى فى وصف المنافقين : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

فالمنافق يعيب ويستهزىء بالمؤمن ليخفى ما فى نفسه من مركب النقص ، ويقهر الشعور بالضعف والقصور .

ومثل ذلك : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » .

ومن أعراض عقدة النقص قلق مبعثه شعور بالخوف من افتضاح أمره واكتشاف نقصه ، فيتخذ لذلك مسلكا يعوض به نقصه ويخفى به قلقه ، وهذا هو سر الحلف والتأكيد فيما حكاه الله عن المنافقين ، فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » ففى هذه الآية جملة تأكيدات لتعوض شعورهم بالنقص ولتستر خوفهم من فضيحة أمرهم .

أول تلك التأكيدات قولهم : « نشهد » قال أبو حيان : « نشهد » يجرى مجرى اليمين ، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، فقالوا : « نشهد إنك لرسول الله » .

ثانيها : « إن » فى صدر جملة جواب القسم .

ثالثها : « اللام » فى خبر « إن » .

رابعها : الجملة الاسمية .

وراء كل هـذه التأكيدات تحصن المنافقون ليخفوا شعورهم بعقـدة النقص ، ولذلك قال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، فلم تواطىء قلوبهم ألسنتهم ، وهم كاذبون حتى أمام أنفسهم ، وإنمـا لجئوا إلى الحلف ليتخذوا منه جُنة يستترون بها ، ومسلكا يعوضون به شعورهم بالنقص ، فقال تعالى : « اتخذوا أيمـانهم جنة » .

ومن أعراض عقدة النقص التظاهر بالكمال والبعد عن النقص ، وهذا واضح فى جواب المنافقين للمؤمنين ، قال تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض »

فالتهمة هنـا الإفساد فى الأرض ، فكان الجواب الطبيعى لرد هذه التهمة أن يقولوا ـ لو كانوا أبرياء حسنى النية ـ : نحن لا نفسد فى الأرض ، ولكنهم تظاهروا بمـا هو أسمى من ذلك ، ووصفوا أنفسهم بالكمال والإصلاح فضلا عن تبرئهم من الإفساد ، فقالوا فى صيغة التأكيد والحصر : « إنمـا نحن مصلحون » ولا عمل لنـا إلا الإصلاح .

كل ذلك استجابة لعقدة النقص ، وتغطية لشعور الضعة ، فإن التكلم بلهجة التعالى والتفاخر تعويض ملازم لمن ابتلوا بمركب النقص ، فمثلهم فى ذلك مثل من يغالى فى الزينة ذكراً كان أو أنثى ليغطى قبحه ويستر عيبه .

ويقول علماء النفس : إن كل غريزة يمكن أن تتوجه إلى ناحية الشر فتصبح وبالا على الفرد أو المجتمع ، وقد تتوجه إلى الخير فتصبح مفيدة لهما .

وتوجيه الغريزة إلى إحدى الناحيتين هو ما يسمى بالتحول والتعلية فى الغرائز .

فتعلية الغريزة إذن هى ترقية شأنها وتهذيبها وإبلاغها درجة الكمال ، والسلوك بها مسلكاً من شأنه أن ينفع الفرد والمجتمع ولا يجلب لهما الضرر .

وطرق تعلية الغرائز شتى ، نذكر منها ثلاثاً :

(١) القمع : ومعناه القضاء على غريزة من الغرائز وإماتتها لعدم موافقة نزعاتها للحياة الاجتماعية ، وذلك بالضغط عليها وكبح جماحها ، كما هو الحال فى الغريزة الجنسية .

وهذه الطريقة ليست مفيدة فى تعلية الغرائز ، بل إنها كثيراً ما تضر بالشخص أو المجتمع ، لأن الغريزة المكبوتة تحاول أن تظهر وتسعى سعياً حثيثاً فى فك

أسرها ، فإذا أفلتت من عقالها بطرق غير مشروعة فعلت ، فإن لم تستطع هذا أضرت بالشخص جسمياً أو عقلياً . وهذه الوسيلة ابتعد عنها القرآن ولم يتخذها طريقا من طرق معالجة الغريزة وتعليتها .

(٢) الخضوع للقوانين الشرعية والاجتماعية ، وهو يسمى أحياناً : بالإشباع ، وذلك كما فى الغريزة الجنسية التى تحصل على رغباتها وتعلى شأنها بالزواج الذى يبرره الشرع ، ويعضده القانون الاجتماعى .

وكما فى غريزة السيطرة وحب الظهور حيث تستخدم فى حيازة الأشياء المشروعة النافعة ابتعاداً بها عن مواطن الضرر والاستغلال . وهذه الطريقة تسمى أحياناً بالتحويل.

(٣) الثواب والعقاب : فالإنسان يقدم على العمل الغريزى الذى يترتب عليه ثواب ، ويتباعد عن ذلك الذى ينشأ عنه عقاب ، فالثواب والعقاب يحملان المرء على أن يجعل غريزته تسلك سلوكاً حسنا ، وتجتنب السلوك القبيح .

فمحاولة قمع الغريزة وإخمادها وكتمانها فى اللاشعور يجعلها تؤثر فى سلوك الإنسان وأعصابه أثراً غير حميد .

وإن إتاحة الفرصة لظهورها قد يقلل من أثرها السيء ، ويخضد من شوكتها ، ويطهر النفس منها .

ويشبه الأستاذ « طمسن » الغرائز بنهر متدفق ، والقيود والحواجز التى حتمتها الحياة الاجتماعية ووضعتها أمام الغرائز بسد ضخم يعترض مجرى النهر ، فماذا يحدث إذا تعسفت هذه القيود وبقى السد أمام المياه المتدفقة مصمتا لا منافذ فيه ؟ .

فهناك احتمالات ثلاثة :

(١) إما أن تندفع المياه بشدة وتحطم السد ، أو تعلو فوقه وتفيض على الجانبين كما يحدث لدى الأفراد الذين لا يعبأون بعرف ولا قانون فى الجرائم الخلقية والقانونية على السواء .

(٢) وإما أن يتجلى الصراع بين الماء المتدفق والحاجز عن قنوات خفية آسنة يتسرب فيها الماء من تحت السد ، والمجتمع مليء بهذه الأساليب المموهة

الخادعة التى يلجأ إليها بعض الأفراد ليستروا نزوعهم الخفى الجائر الذى لا يقره العرف أو القانون .

(٣) وإما أن يكون الحاجز من القوة وعمق الأساس والماء المتدفق والوفرة بحيث تظل المعركة قائمة ويشتد الفوران ، وتكثر الدوامات ، وليس ذلك بالطبع إلا على حساب الصحة النفسية لأولئك الأفراد الذين يعجزون بحكم الطبيعة والتربية عن انتهاك القواعد وإسكات الغرائز .

ولا جدال فى أن الأسلوب السليم هو أن نسمح للغرائز ببعض الإشباع ، لأن اقتلاعها مستحيل ، وكبتها يحولها إلى طاقات ضارة فى اللاشعور ، وكأننا بذلك نبقى على مجرى السد ، ونفتح فيه منفذاً وقائياً للتنفيس الذى يمكن أن يأخذ صورتين هما : الإبدال والإعلاء .

وهذا هو معنى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » .

فبالإبدال نحول الطاقة القوية للغريزة إلى أساليب متنوعة من النشاط الفردى والاجتماعى .

وبالإعلاء نسمو بدافع الغريزة ونعلو به إلى المستوى المشروع معنوياً كان أو مادياً ، كما نفعل فى تسخير غريزة الاستطلاع فى خدمة البشرية بدلا من الوقوف على أسرار الناس والاتجار بها ، وفى إشباع الغريزة الجنسية بالزواج ، وهو نظام مشروع .

فلنطبق هذه المبادىء النفسية عند تفسيرنا لقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » إلى قوله تعالى : « والله عنده حسن المآب » .

قد اختلف المفسرون فى إسناد التزيين فى هذا المقام ، فأسنده بعضهم إلى الشيطان .

ولكن الرأى الذى نرجحه ونميل إليه هو إسناد التزيين إلى الله تعالى بالإيجاد والتهيئة للانتفاع ، فأباح الزينة والطيبات من الرزق ، وأنكر على من حرم ذلك بقوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

فنى التعبير فى قوله تعالى « زين » بالبناء للمجهول إنما يراد به أن تركيبهم الفطرى

قد تضمن هذا الميل ، فهو أصيل فى فطرة الإنسان ، فهو جزء غريزى من تكوينه الأصيل لا حاجة إلى إنكاره ، فهو ضرورى للحياة البشرية كى تتأصل وتنمو وتطرد ، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن فى فطرة الإنسان استعداداً آخر للتسامى بغرائزه ، هذا الاستعداد الثانى يهذب الاستعداد الأول ، وينقيه من الشوائب ، ويجعله فى الحدود المأمونة التى لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها الغريبة على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة ، والاتجاه إلى الله وتقواه هو خيط الصعود والتسامى والتعلية لتلك الغرائز الإنسانية .

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة ، وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها لا كبتها وقمعها ، تجنباً لما يحدثه الكبت من العقد النفسية والصرعات الباطنية .

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

ذلك كله الذى عرضه السياق من اللذائذ المحببة ، ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، لا الحياة السامية الرفيعة .

ثم أردف هذه الآية بما يعلى هذه الغرائز ويتسامى بها ليضمن سلامة الكائن الإنسانى من هذا الصراع بين شطرى النفس الإنسانية ، فقال تعالى : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » ؟



قال شيخي

لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى

قالى شيخى :

فلئن فُلّتْ هذيلٌ شباه ... لبما كان هذيلا يفل
وبما أبركها فى مُناخ ... جعجع ينقب فيه الأظل
وبما صبحها فى ذراها ... منه بعد القتل نهب وشل
صليت منى هذيل بخرق ... لا يمل الشر حتى يملوا
يُنهل الصعدة حتى إذا ما ... نهلت كان لها منه عل

فلت شباه : كسرت حده ، على أنه كان فعل ذلك بها كثيرا ، وأبركها فى مكان صلب يصاب فيه الأظل ، وهو باطن الخف ـ بالنقب فانظر كيف هو بالغ الأثر ينفذ إلى الباطن المستخفى ، واللفظ نفسه معبر : جعجع أو جعجاع ، كما قال الشماخ :

وشعُث نشاوى من كرىً عن ضُمر ... أُنخن بجعجاع قليل المعرج
وقعن به من أول الليل وقعة ... لدى مُلقحٍ من عُود مرخٍ ومنبع

ولقد يصبحها فى ساحتها فيسوء صباحها فما هو إلا القتل ونهب الأموال . . . يقتل الأبطال المدافعين عن الحى ، ويشل الإبل أو يسوقها إلى حيث يريد . فالرجل قد انتصف لنفسه قبل أن يموت ، فما قتلوه إلا بعد أن شبع فيهم تقتيلا وإنهابا . . أفما كان الحق الذى هو أحق أن يتبع أن يكتفى ابن أخته بما قدم خاله ؟ كلا فتلك مثالية يؤثر عليها مثالية أخرى كيما يبلى هو أيضا بلاءه فتصلى منه هذيل بناره ، أفليس هو خرقا ـ شجاعا ـ يوقد نار الحرب ولا يمل ما يجره من ويلاتها وشرورها إلا أن يمل عدوه فيتكرم أن يلح على الضعيف المهزوم ، على أن ذلك لا يتأتى ـ عادة ـ إلا بعد أن تشرب القناة ـ الصعدة ـ ثم تشرب . . تنهل وتعل .

قلت لست أدرى عم تكرم وعلام أبق ؟ .

قال : تكرم عن كثير وأبق عليهم ، فبقوا بعده . . أو كما قال غيره :

ألم تعلمى أنى إذا النفس شارفت إلى طمع لم أنس أن أتكرما
ولست بلوام على الأمر بعد ما يفوت ولكن عل أن أتقدما

إنه لكلام عالى الطبقة ، ويعبر عن خلق عظيم حقا : نفسه تنازعه إلى الطمع ، وقد شارفت أو قاربت ما تصبو إليه ، وإن هى إلا حركة ميسورة لن تكلفه نصبا ويكون له بعدها ذلك الذى تنازعه إليه نفسه ، ولكنه يكبحها . . يلجمها أن تندفع به إلى حيث يأبى « الواجب » ويرضى الهوى ، الحق أنه فى موقف سهل فيه أن يتناسى . . ولا تلبث الزوائد من حروف الفعل أن تختفى فينسى صادقا . . أفلسنا فى ذلك الخير الذى تعدم فيه الحواجز بين الشعور واللاشعور ، والمعقول واللامعقول ، والظاهر والباطن ، إن الغفلة والتغافل ، والسمو والتسامى ، والنسيان والتناسى لأمور يسهل أن تختلط . . وإذا جاء المحلل أو التحليل ليفصل ويفصل ويعيد العناصر إلى أصولها الأول ، فإن فيما فات ما تقر به النفس ويعوضها عما هو آت .

قلت : يعوضها عما هو آت ؟ مسألة فيها نظر . . فالعوض يسبقه ـ عقلا ـ المعوض . . أعوض عما سبق حصوله لى ، فأما أن أعوض عما هو آت فمنطق يتعذر على أن أتصوره .

قال : ـ الباب منطقا ولغة ـ اسمه فى جملته : التعاقب الذى يشمل « البدل » و « العوض » وإذا شئت أن تنحدر إلى هاوية الشك فإن الباب كله موضع نظر ، ينتهى بك إلى عدم النظر أو العمى أو العمه . . وارجع إلى ابن جنى والسيوطى ، فلقد أذكر أن لهما مباحث دقيقة فى التفرقة بين البدل من ناحية والعوض من الناحية الأخرى ، وأنهما بداية ونهاية يؤلفان التعاقب الذى هو الأعم الأشمل ، على أنى لست أدرى فى الحقيقة كيف تطرقنا من بساطة البدوى الأمى الذى كف نفسه أن يغلبها الطمع إلى هذا التعقيد غير المعقول ولا المقبول فى بيان البادية البادى لكل ذى عينين أو عين واحدة .

قلت : تبعة هـذا على عاتق تأبط شرا الذى قال فيما سبق من حلقات السلسلة ، أو قيل إنه قال : جل حتى ، دق فيه الأجل ، ولا بد أن عقلى الباطن أو عقلكم كان مشغولا بما فطن إليه القدماء من أن البدوى لا يمكن أن يتغلغل أو تضيق به الفطرة إلى هذه الدرجة ، على أن الأجل أو الجلل فى الأمر كله هو أن « جوته » الشاعر الألمانى الفحل قد نقل هـذه القصيدة إلى اللغة الألمانية بوصف كونها معبرة عن الروح العربى البدوى الفطرى الساذج البراء من الصنعة وتكلف الصناعة ، فما رأيكم دام فضلكم فى هذا التناقض بين وجهة نظر جوته من جانب ، وبين وجهة نظر قدمائنا من الجانب الآخر ؟ أفليس ما يراه هو دليلا على سعة الفطرة يرونه هم دليلا على حرج الصناعة . . ؟

قال : إن الصانع ربما جل ودق ومهر وحذق ، حتى لتبدو صناعته فوق مستوى الصناعة . . إنها لمحكمة إحكاماً يجعلها أقرب وأنسب إلى طبع الطبيعة منها إلى صنعة الصانع . . وإن الملهم الفطرى ربما واتته السليقة فعدلته تعديلا يحملك على الظن أو اليقين ، أنه أفاد من الصناعة التى ما كان ليخرج تحفته مستقلا عنها . . فأنت فى مثل هـذه الأحوال مضطر اضطراراً لا اختيار لك معه إلى أن تشك : أعنى تسلم الأمر لمن إليه مصير الأمور وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

قلت : ها نحن أولاء نطرق باب اللاأدرية ، أو باب الأستاذ « بيرون » فهو المبتكر الأصيل أو إمام المتشككين غير منازع . . لقد صحب الاسكندر الأكبر فى غزاته الشرقية ، ورأى مجوس الهند الذين كانوا يحيون حفاة عراة فى صوامعهم محتقرين العالم وأعراضه الزائلة ، فكان لحياتهم تلك الجامدة وتعطشهم إلى الفناء أثر كبير فى نفس « بيرون » الذى عاد بعد موت الإسكندر إلى وطنه : مدينة إليس من بلاد يونان ، وكذلك يرى أصحاب تاريخ الفلسفة أن بيرون مدين بفلسفته التشاؤمية الهادئة المسالمة للهند . . كانت أخته قابلة وكان يشاطرها أعمال التدبير المنزلى ؛ فكان عليه أن يتبع الطيور والخنازير الصغيرة ويكنس البيت وينظف الأثاث كان مسلكه العملى تطبيقاً لرأيه النظرى فى الحياة ، فهو ناسك زاهد غير مكترث بشىء . .

كان يعلم تلاميذه أن الأشياء كلها غير يقينية ، فالعقل والحواس تخدعنا ، ولا يجوز أن نثق بما يخدعنا ، بل الشك هو الطريقة المثلى التى ليس فى وسع الفيلسوف أن يلجأ إلى غيرها .. إن خير رأى هو ألا يكون لك رأى لا فى الخير ولا فى الشر .. إن الناس ليشقون جراء خطئهم .. يتألمون أن يفقدوا مايرونه خيرا ، فإذا ملكوه نغصهم خوف أن يفقدوه ، أو يعانون ما يعتقدون أنه شر : الغ كل عقيدة من هذا النوع تختف الشرور كلها ، إن أسمى درجات الخير لهى المزاج الطيب : يعنى عدم الإشفاق أو السكينة ، انطو على نفسك كيما تمكن المصيبة أقل تمكين ممكن منك .. عش بسيطا متواضعا كغيرك من المتواضعين دون أى ادعاء من أى نوع كان .. ودع العالم يسر سيرته ، وخذ بحظك من الشرور التى ليس فى وسع كائن من كان أن يمنعها ، فتلك هى المثالية عند اللاأدريين ، وليس بذى بال فيما يرى بيرون أن تموت أو أن تحيا ، كلا فالأمران سواء ، ، إذن لماذا لا تموت يا أستاذ بيرون ؟ فما كان جوابه إلا قوله : من أجل ذلك نفسه : من أجل أن الحياة والموت كليهما شىء لا نكترث له .

كان مسافراً على سفينة أوشكت العاصفة أن تغرقها ، فكان ـ وحده ـ ساكنا دون غيره من المسافرين الذين استولى عليهم الرعب والحزن ، فرغب إليهم فى هدوء أن ينظروا إلى خنزير صغير فى السفينة كان يأكل ـ كعادته ـ غير مكترث ، فكذلك يجب أن يكون جمود الرجل الحكيم .. ولكن « أناتول فرانس » يلاحظ أن حكمة الخنزير غير مستحقة أو هو بها غير جدير ، بل إنه لوقار غير مشجع بالقياس إلى أكثر الناس .. ثم يقص علينا قصة فيلسوف آخر شاءت المصادفة أن يجمعه السجن واسكتلندية جميلة قبض عليها المواطنون فى فرساى بوصف كونها خائنة ارستقراطية .. وكان فيلسوفا طبيبا ماديا ملحدا .. طفق يبكى فخلت الدموع التراب على خديه ، فكان وجه المسكين يبدو معفرا ، فعمدت السيدة « اليوت » الاسكتلاندية إلى اسفنجة ومسحت وجه صاحبها فى السجن معزية إياه بما يقتضيه المقام قائلة :

يا سيدى : إنه من المحتمل أن نموت معا قصلا ، فلما ذا أنت حزين فى حيز أنى مرحة ؟ أفتراك تفقد أكثر مما أفقد إذ تفقد الحياة ؟ »

فأجاب : سيدتى أنت شابة غنية سليمة الجسم جميلة ، وستفقدين كثيراً إذ تفقدين الحياة ، ولكن بما أنه تنقصك أهلية التفكير فإنك لا تدرين ما ذا تصنعين ، أما أنا ففقير وشيخ كبير مريض ، والقضاء على حياتى قضاء على شىء صغير ، ولكننى فيلسوف طبعى أتصور فكرة الوجود التى لا تتصورينها ، فأنا أعرف على وجه التحديد ما ذا أفقد ، ومن هنا يا سيدتى منشأ حزنى ومنشأ مرحك .

ويضيف أناتول فرانس أن هذا الشيخ الطبيب الطبعى كان أقل عقلا أو حكمة من بيرون ، إلا أنه أكبر تأثيراً ، والحقيقة أن دموعه ولو سمجة مرذولة - أكثر إنسانية من جمود فيلسوف اليس الفاضل . . ومثل آخر لتبلده أنه رأى أستاذه أناكسارك ، يتردى فى هوة ، فمر متجاوزاً إياه دون أن يتفضل فيمد له يده ، على أن الأستاذ لم يكفه عدم التشكى من تصرف تلميذه ، بل أثنى عليه بما يستحق من الحمد على عدم اكتراثه هذا . . إنه « لبيرون » الناسك اليونانى ، كما وصفه الأستاذ بروشار . . فلست ترى لحياة الآباء الناسكين فى الصحراء قدرة فى هذا الاجتهاد الذى يجرد الإنسان من كل إنسانية ، هذا وإن حياة القديسين التى كان بيرون يحياها فى اليس أضفت عليه احترام مواطنيه الذين دفعوه إلى المنزلة الكهنوتية الرفيعة ، فكان يؤدى وظيفة الكاهن الأكبر فى دقة وحكمة بوصف كونه رجلا يحترم آلهته الجمهورية. وهو باحترامه هذا لا يتنكر لشىء من فلسفته . . لأن مذهب الشك لم ينكر قط وجوب رعاية العرف والسنن التى يحكمها قانون الأخلاق العامة ، فلقد عرف طريقه فى هذه الأمور دون أن ينتظر اليقين . وكذلك استطاع « جاساندى » أن يدرس اللاهوت فى حين أنه غير مؤمن ، إلا أنه رجل شريف على حد تعبير أناتول فرانس فى الجزء الثانى من كتابه : « الحياة الأدبية » ولعل أطرف ماروى تصويراً للاأدرية بيرون هو ذلك الشاهد الحوارى ، الذى شاء ظريف بيزنطى أن يكتب على قبر بيرون : هل مت يا بيرون ؟ لا أدرى .

قال : على رسلك . . فلقد تركتك تهذى فيما تعرف وما لا تعرف مالى ولأناتول فرانس وجاساندى « وبيرون » وأصحاب الشك وأصحاب اليقين . والإسكندر الأكبر وغزاته الهند والمجوس ، وما أفاد منهم بيرون .

قلت : ولكن سلفنا رضى الله عنهم لم يقولوا : ما لنا ولسقراط وأفلاطون وإرستوت . على أنى لم أجىء بجديد . فإن عدم الثقة لا بالعقل ولا بالحواس مسألة قديمة قدم الدهر ، وأنه سبحانه وتعالى لم يحمل علينا إصراً كما حمله على الذين من قبلنا ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما أوحى إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . . والذين لم يوح إلى رسلهم عفا عنهم ، قال وهو أصدق القائلين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فبيرون وغيره ممن لم يأتهم نذير لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قال : إن متصوفة المسلمين ـ بله صاحب مدرسة الشك فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ ليقرون أن العقل والحواس يمكن أن يخدعانا ، وهذا نفسه دليل على حتمية الوحى ، فهو سبحانه وتعالى أرحم بعباده من أن يتركهم مخدوعين للعقل أو الحواس أو كليهما ، فإن الحواس لا تزيد على كونها أدوات عقلية ، بيد أنه إذا تنزل الوحى كان العقل كافيا للشهادة بحقيقته . . أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ، فهذا الشاهد التالى إن هو إلا العقل الذى انتهى عمله . فالوحى هو الذى يتولى بعدْ تنظيم شؤون الدنيا والآخرة .

ولكنك تخدع شيخك إذا تحدثه عن جاساندى ذاك بوصف كونه رجلا شريفا .

قلت : فإنه أناتول فرانس الذى يضفى عليه صبغة الشرف .

قال : ذلك بأنه من فصيلته . . فما كان ذلك « الأب الفاجر » إلا كبير الماجنين والإباحيين فى فرنسا فى القرن السابع عشر . . فلقد هلك فى النصف الثانى منه إن لم تكن خانتنى ذاكرتى . . فأما أنه كان يدرس اللاهوت والرياضة والمنطق وفلسفة أبيقور فما كان ذلك ليرفع منزلته أو يستنقذه من الدرك الأسفل من النار ، وهل من الشرف أن تدرس علما لا تؤمن به ولا تقيم أحكامه ؟

قلت : وما يمنعه الشرف إن كان صادقاً مخلصاً لا يكذب الناس ولا نفسه ؟ .

قال : وأنى له الصدق والإخلاص وقد سفه نفسه ، ثم هو يوم القيامة من المحضرين ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

إن خير من تحدثت عنه أو تحدث عنه ذلك الشيطان الجميل - أناتول فرانس - على حد تعبير الأستاذ المرحوم صادق الرافعى رفع الله تعالى مقامه فى أعلى عليين لهى تلك السيدة اللطيفة المهذبة الشجاعة التى مسحت دموع الفيلسوف الطيب الشيخ الكبير الطبعى المادى الجازع أن يفقد حياته التى لا تساوى شروى نقير فيما يقرر هو بله غيره من الناس .. إنه للمسخ الخلقى فى أتم صوره المعبرة أصدق تعبير : الرجل يتخاذل وينهار ، والمرأة تتماسك وتغرى وتشجع .. على أنه فى الحقيقة معذور ، فليس له إلا هذه الحياة الدنيا يستمسك بها ما وسعه الاستمساك .. « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون » .

قلت : فهو ليس كتابيا ولا من الذين أشركوا ، بل هو دهرى طبعى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بالحساب ولا بالعذاب .

قال : فذلك أخزى له وأسمج وارذل ، وهو على كل حال قد شرح بالكفر صدراً فعليه اللعنة وله سوء الدار جهنم يصلاها فبئس القرار .

قلت : فحسبنا من القوم الكافرين ولنعد إلى ما كنا فيه .

قال : إلى شك « بيرون » ولا أدريته فلست أعده من القوم الكافرين والمنذرين ما دام قد عاش فى القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام ، وما دام حينما يذهب وأينما يحل أو يرحل فإن هى إلا الوثنية فى الهند أو فى بلاده يونان .. أفتريده على أن يعبد إلهة آبائه وإلاهاتهم رجالا ونساء .. أولئك الذين كانوا على « أولمبت » يخطفون بنات الناس ونساءهم إذا أعجب بهن الآلهة الذكور وأولاد الناس ورجالهم إذا أعجب بهم الإلاهات الأناث ؟ إلا أن الشك حينذاك كان أقوم وأهدى سبيلا .. أن التوقف والسلبية المطلقة وعدم الحكم أو عدم الاكتراث لهى النهج السوى أو يحكم الله وهو خير الحاكمين .

قال : هذا هو إبصار أى متصوف فرنسى يقول : إنه لولا إيمانه بالله جل وعلا عن طريق الوحى لكان بيرونيا ما فى ذلك شك ، وأن إيمانه بالإنسان يستمده

من إيمانه بالله ، فهو لولا الباطن لأنكر الظاهر ، أو لشك فيه فى الأقل ، وهذه تساوى تلك ، أفليس الشك سلبا أى إنكارا ، وأنت إذ تنكر تنفى ، والنفى عدم إثبات أى عدم وجود أو العدم بلا إضافة فهو العدم المطلق .

قال رويدك بعض فلسفتك .. ولا تنسى أنا فى لامية تأبط شرا ، فأين كنا منها ؟.

قلت : كنا حيث :

ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل

قال : النهل أول شراب ، فهو يسقى قناته من دم العدو ، ثم يعلها ، أى يسقيها المرة الثانية علا بعد نهل ، أو عللا بعد نهل ، إن شئت أدغمت ، وإن شئت فككت الإدغام .

قلت : أوما كان فى أحد اللفظين غناء عن الآخر : مدغما أو غير مدغم .

قال : بل فيه حرج ، فما كان ليستقيم شعر القائل : فأسقنيها عللا بعد نهل ، لو أنه أدغم فقال : علا ، ولماذا تحبون أن تضيقوا ما وسع الله ، إن أحكام الفطرة لتجرى رخاء مصيبة أبدا ، ولو كان أمر الوضع اللغوى إلى جماعة علمية ما كان يخلو من حرج شديد . . جربوا هذا فى المجامع اللغوية الأوربية التى كانت تضع الألفاظ نحتا من اللاتينية ـ مثلا ـ بناء على قواعد استحدثها العلماء ، وكانوا يعجبون أن يروا الألفاظ التى يستخدمها العامة بناء على قوانين الفطرة أتم وأوفى بالحاجة من الألفاظ التى يضعها السادة المعجميون .

قلت : ولكن صاحبنا هذا الذى ما فتىء ينهل الصعدة ويعلها انتهى به الأمر كما سلف إلى أن وجدوه قتيلا فى غار « رخمان » فليت شعرى ما ذا أفاد من العل بعد النهل ، ولو أنه استقام على الطريقة ورضى بالعيش كما قدر له أن يعيشه ، فما كان أحراه أن يموت موتة هادئة بعد حياة هادئة .

والعيش خير فى ظلال النوك ممن عاش كدا

قال : ولقد سلف أيضاً أنه كان يعلم مصيره ، وأنه لابد مائت هذه الموتة الكريمة طعناً بالرمح ، أو ضرباً بالسيف :

ومن يضرب الأبطال لا بد أنه سيلقى له من مضرع الموت مصرعا

أفلم تعلم أنه أحد الاشتراكيين الجاهليين فيما يرى كثير من السادة المستشرقين الذين درسوا حياة الصعاليك ؟ .

قال : أجل فأنا أعرف مما قرأت للمستشرقين أن عروة الصعاليك والشنفرى وتأبط شرا وأضرابهم من الجاهليين هم الفدائيون الذين مهدوا للإسلام، أو ماسموه ثورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : نعم إلى آخر ما أبدأوا وأعادوا مسرفين فى هذا الخيال المريض .

قلت : ولماذا هو خيال مريض ؟ أفلم يمهد سبحانه وتعالى لهذا الإسلام الذى جمع كلمة العرب على التوحيد ؟ أم تريدونه على أن يكون نشأ هكذا كأى التى هكذا خلقت . . دون أن يكون له جذور وأصول ؟ .

قال : فإن له لجذوراً وأصولا ليست تلك الانتفاضات الفردية ، أفليس أولى لكم ثم أولى أن تفكروا وتطيلوا الفكرة فى الحروب القبلية والعصبيات القحطانية والعدنانية ، وما أدت إليه من أسباب الفرقة والبغى والعدوان ، وما تمخض عنه من استضعاف المستضعفين فى الأرض والعالين فيها الذين ملأوها جوراً وفساداً « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض » فهو أصلا فساد عم البلاد التى تبددت فيها قوى تلك القبائل المتحاربة . . فلما أذن الله أن يشرف هذا الوجود الإنسانى بطلعة خير البرية سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آل بيته وصحبه المخلصين الأخيار هيأ أسباب لم الشعث وجمع الكلمة « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » نعم فإليه سبحانه ـ وحده ـ مصير الأمور « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » على أنه أعلم حيث يجعل رسالته فيختار لها خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله الذى توحدت به كلمة الأمة العربية فالأمة الإسلامية عامة ، وليس على الله ببعيد أن يعيد ذلك التاريخ المجيد ، فتنعم الأمة ويرغد عيشها فى رحاب تلك الوحدة وارفة الظلال ، حقق الله الآمال ، وأعاننا أن نغير ما بأنفسنا فما كان ليغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ؟

مقارنات

بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام

للكاتب الكبير الأستاذ على على منصور
المستشار ورئيس محكمة استئناف طنطا السابق
وعضو مجلس إدارة بنك الجمهورية حاليا

غنائم الحرب :

تقوم كل دولة اليوم بتكوين جيش ، وتنفق عليه من خزائنها ، والجيش الآن أهم مرافق الدولة ، تنفق على إعداد عدته وعتاده ، وتجرى على جنوده وضباطه مرتبات شهرية مجزية فى حالى الحرب والسلام ، إذ فى الحالة الأخيرة لا يعمل الجندى ولا الضابط عملا آخر يرتزق منه ، فكان لا بد أن يكون رزقه ورزق عياله من خزانة الدولة ، وفى مدة السلم تتدرب الجيوش على أحدث وسائل القتال استعداداً لرد كل عدوان ، فأصبحت الجندية فى زماننا صناعة ومهنة . أما فى مطلع الإسلام وجريا على ما كان عليه الحال فى النظام القبلى ، فكان كل محارب يقوم بتجهيز نفسه من سلاح وعتاد وطعام ، وهذا هو الراجل ، ومنهم من كان يملك الركائب كالخيل ، وهذا هو الفارس ، ومنهم من كان يملك أكثر من فرس فيعطيها لغيره ليغزو عليها ، وكان ذلك سبباً ومصدراً لقاعدة توزيع الغنائم على المحاربين ، وكان لصاحب الفرس نصيب كنصيب الراجل ، وللفرس نصيب آخر ، وقال البعض : للفرس نصيبان ، سواء غزى بها صاحبها أو غزى بها غيره .

وفى صدر الإسلام ، أى فى بدء عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى المدينة كان بعض المسلمين يتخلفون عن الغزو ، للمرض أو لعدم وجود السلاح والمال والركائب ونفوسهم حزينة لهذا التخلف خشية غضب الله ، وقد سجل القرآن لهم

هذه المواقف ورفع عنهم الحرج « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما آتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون »[١] .

وبدأ الصحابة يعدون من أموالهم عتاد الحرب لبعض ناس من الفقراء حبسوا أنفسهم فى المسجد للغزو فى سبيل الله وسموا أهل الصفة .

الغنيمة والفىء والأنفال :

ولكى نقرب الأمر إلى الأذهان يمكن القول أن كل ما أحرزه المسلمون فى الحرب بعد انتهائها من أموال يمكن أن تنقسم إلى قسمين : غنيمة وفىء :

الفىء : ويذهب الماوردى إلى أن الفىء « كل ما وصل من المشركين عفواً من غير قتال ، ودون إيجاف خيل ولا ركاب ، ومثل له بمال الهدنة والجزية والعشور والخراج ، ثم تكلم الماوردى عن كيفية تقسيم الفىء ، سواء فى خمسه أو على حسب نص الآية فى أربعة أخماسه الباقية على قول من قال إنها للجيش خاصة ، وعلى رأى من قال أنها تصرف على مصالح المسلمين التى منها أرزاق الجيش ، ومنها ما لا غنى للمسلمين عنه .

ولما كثرت الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب أنشأ ديوان العطاء ، وفرض فيه فروضاً لأصحاب الرسول ، وللمهاجرين والأنصار ، ولأمراء الجيش ، وللفقراء ، بل لكل مولود ، ولما رأى المال قد كثر قال : « لئن عشت إلى مثل هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء » .

فكان صنيع عمر أساساً لإنشاء بيت مال المسلمين « خزانة الدولة » .

ويكون الفىء إما مالا منقولا أو عقاراً ، فإن كان عقاراً هل يقسم كما يقسم المال المنقول ؟ قال أبو يوسف ما معناه : إنه لا يقسم عيناً ، وإنما يكون الفىء فى ريعه ، أى فى خراج الأرض ، وعلل ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز :

---

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ سورة التوبة .

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[١] .

فلما فرغ من هؤلاء قال عز وجل عطفاً على من سبق : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا »[٢] .

ثم قال جل من قائل : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[٣] .

ثم قال الله بعد ذلك : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا الذين آمنوا »[٤] .

ويعقب أبو يوسف على هذا الجزء الأخير من الآية بقوله : « فهذا - أى خراج الأرض - لمن جاء بعدهم - أى بعد المهاجرين والأنصار - من المؤمنين جميعاً إلى يوم القيامة » .

وذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج ، ما حدث فى هذا الشأن بين بلال وعمر ابن الخطاب ، وذلك أن بلالا وأصحابه سألوا أمير المؤمنين عمر قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وسألوه أن يقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر ، فأبى عمر ذلك عليهم ، وتلا هذه الآيات إلى قول الله : « والذين جاءوا من بعدهم »[٥] . وعلق عليها بقوله : لقد أشرك الله الذين من بعدكم فى هذا الفىء ، فلو قسمته بينكم لم يبق لمن بعدكم شىء ، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه فى وجهه[٦] . ويعلق أبو يوسف على هذه الحادثة بأن الذى رآه عمر من الامتناع عن قسمة الأرضين : أرض العراق وأرض الشام على من افتتحها كان توفيقا من الله ، ونضيف أن جباية ما فرض على هذه الأرض المفتتحة من خراج وضمه إلى بيت مال المسلمين فيه النفع لجماعتهم .

---

(١) سورة الحشر آية ٧ . (٢) سورة الحشر آية ٨ .
(٣) سورة الحشر آية ٩ . (٤) سورة الحشر آية ١٩ .
(٥) سورة الحشر آية ١٠ . (٦) كتاب الخراج ص ١٨ .

أما السهم الذى كان لرسول الله فى الفىء فكان ينفقه على نفسه وآل بيته ومصالح المسلمين ، واختلف فيه بعد موته ، فذهب من قال إن الأنبياء يورثون ، إلى أن هذا السهم للنبي يورث عنه لورثته ، وقال أبو ثور : يكون للإمام ، أى للخليفة بعد الرسول لقيامه بعده بأمور الأمة ، وقال أبو حنيفة : قد سقط بموته ، وذهب الشافعى إلى أنه يصرف فى مصالح المسلمين ، وكذلك اختلف فى سهم ذوى القربى ، فقال أبو حنيفة بسقوطه عنهم ، وقال الشافعى : بل حقهم ثابت فيه [1] .

الغنيمة : أما الغنيمة فهى على نوعين :

١ — الأموال المنقولة : وهى الغنائم المألوفة ، وكانت تقسم على من شهد الغزوة ، وقال أبو حنيفة : يعطى الفارس سهمين ، ويعطى الراجل سهماً واحداً . وقال الشافعى : يعطى الفارس ثلاثة أسهم .

٢ — أما الأرضون فقسمها الفقهاء إلى ثلاثة أقسام على ما يقول الماوردى فى كتاب الأحكام السلطانية : القسم الأول أرض ملكها المسلمون عنوة وقهرا ؛ والثانى أرض ملكها المسلمون عفواً لانجلاء أصحابها ، والثالث أرض تصالح المسلمون مع أعدائهم على أن تبقى فى أيدى أصحابها الأصليين بخراج يؤدونه عنها ، وحكم النوع الأول وهو الأرض التى أخذت عنوة وقهراً فى رأى الإمام مالك أن تكون وقفاً على المسلمين جميعاً حين غنمت ، ولا تجوز قسمتها بين الفاتحين ، وأجاز ذلك أبو حنيفة فى أحد آرائه . وفى رأى آخر لأبى حنيفة أجاز أن يعيدها إلى أيدى المشركين بخراج يقرر عليها فتكون أرض خراج ، ويكونون بها أهل ذمة .

ومما سلف يستبين أن الإسلام لا يجيز تملك أراضى الأعداء إلا بعد الصلح وانتهاء الحرب ، وتكون إذاً موقوفة على المسلمين جميعاً ينفق منها فى مصالح الدولة وتدخل بذلك فى دار الإسلام ، كما أجاز الإسلام الصلح فى حالة غلبة المسلمين على عدوهم ، على أن لا نمس أموالهم الخاصة ولا العامة ونردها إليهم بخراج ، أى ضريبة تضرب عليها ، ويصبحون بها أهل ذمة ، أى يصبح علينا الدفاع عنهم ، ويصبح لهم

---

(١) راجع كتاب الدكتور نجيب أرمنازى ص ٩٨ ، ٩٩ .

ما لنا ، وعليهم ما علينا ، ولا نفرض عليهم غرامات حرب ولا غيرها بدعوى نفقات جيش الاحتلال والجيش الذى غزا ، لأن الإسلام لا يريد بالحرب الفتح والملك والغنم والسلب والنهب، بل يريد رد اعتداء المعتدين الذين بدءونا بالحرب ويريد تأمين الدعوة « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »[1] ، وخلال الحرب والاحتلال المؤقت ، وما بعد الحرب حريات الأفراد فى بلاد الأعداء ، وحريات رعايا الأعداء المقيمين عندنا فى دار الإسلام مكفولة مصونة غير مظلومين ، وإذا وقع اعتداء من أحدهم فلا تحاسب جماعتهم عليه بالجزاءات أو العقوبات الجماعية ، فالقرآن يأمرنا أن « لا تزر وازرة وزر أخرى »[2] ، وكذلك لهم حرية العبادة وبيعهم وكنائسهم ومعابدهم آمنة بمن فيها ومن يأمونها ، ولقد روى عن عمر بن الخطاب لما ذهب إلى بيت المقدس لعقد المعاهدة بين المسلمين والنصارى ، بيت المقدس « إيلياء » رأى قمة بناء ظاهرة وسط كومة من تراب ، فسأل : ما هذا ؟ فقيل : معبد لليهود ردمه النصارى من قبل ، فأمر بإزالة التراب عنه ، وأخذ يزيله ويرفع بعضه بثوبه ، لأن الإسلام يريد الحرية الكاملة لكل شخص فى اختيار دينه ، ويرى أن الدولة مسئولة عن تمكين جميع سكانها من إقامة الشعائر الدينية الخاصة بهم ، ولا يريد الإسلام أن يقهر الناس ليدخلوا فيه قسراً ، بل يريد لمن يدخله أن يكون عن اقتناع وعقيدة .

وتعاليم الإسلام فى شأن نظام الحرب والاحتلال والغزو ينفذها المسلمون على أشد ما يكون التنفيذ دقة ، فلا يخونون ، ولا ينهبون ، ولا يخربون عامراً ، ولا يعذبون أسيراً ، ولا يقتلون رهينة ولا رسولا ، ولا يقابلون ذلك بالمثل : بوازع من تقوى الله ، ولا يفرضون العقوبات وطريقتهم فى التنفيذ ، ورعاية هذه الحقوق والحريات للأعداء إنما تنبع عن إيمانهم بوجوب اتباع أوامر الله ، واجتناب نواهيه تحرجاً من الوقوع فى الإثم ، وأين ذلك من نقض قلب الأسد لعهد الأمان الذى أعطاه لثلاثة آلاف مسلم سلموا أنفسهم له عند فتح بيت المقدس خلال الحروب

---

(١) سورة الأنفال آية ٦١ .

(٢) سورة الأنعام آية ٦٤ ، الإسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨ .

الصليبية ، فقتلهم غدرا بعد أن أمنهم على حياتهم ، إذ اشترطوا عليه ذلك قبل التسليم ، وقد نصت المادة ٣٥ من لائحة لاهاى [1] على وجوب احترام شروط التسليم من الجانبين ، وهذا الذى نص عليه أخيرا فى قواعد القانون الدولى كان منفذا فى الإسلام من قبل بمئات السنين لقول الرسول : « وفاء ولا غدر فالمؤمنون عند شروطهم » وكل هذه المحاسن تسربت من الإسلام إلى قواعد القانون الدولى ، ولم يؤخذ بها نظريا إلا فى القرن العشرين الميلادى ، ولا يزال الكثير منها غير منفذ بين الدول الغربية وغير محترم .

كيف تضع الحرب أوزارها
فى الشريعة الإسلامية وفى القانون الدولى :

ويشمل الكلام هنا :

١ — وقف القتال مؤقتا لإغاثة الجرحى ونقلهم ودفن الموتى .

٢ — الهدنة فى القانون الدولى وفى الإسلام .

٣ — عقد الأمان .

٤ — عقد الذمة وفيه كلام عن الجزية .

٥ — الصلح والمعاهدة المؤقتان والفرق بينهما وبين الهدنة .

٦ — المعاهدات الدائمة أو الصلح الدائم بقصد إقرار السلام .

١ — وقف القتال مؤقتاً :

قد تدعو الضرورة إلى وقف القتال مؤقتا من آن لآخر لسبب أو لآخر ، كنقل الجرحى ودفن الموتى ، وهذا الإجراء عسكرى يتم الاتفاق عليه بين رئيسى القوتين المتحاربتين فى منطقة ما ، ونظمت المواد من ٣٢ - ٣٤ من لائحة لاهاى ، هذا الإجراء بأن يبعث رئيس إحدى القوتين رسولا أو مفاوضاً يتقدمه شخص يحمل

---

(١) هى إحدى المعاهدات والاتفاقيات التى شملت قواعد القانون الدولى العام ، ووقعها أكثر من أربعين دولة بمؤتمر لاهاى الذى عقد فى سنتى ١٨٩٩ ، ١٩٠٧ م ، بمدينة لاهاى عاصمة هولندا .

راية بيضاء بصحبة قارع طبل أو نافخ بوق ، ولا يجوز الاعتداء عليهم ولا حجز أحد منهم ، وجرت العادة بعصب أعينهم عند اختراق قوات العدو حتى لا يظفروا بمعلومات عنه ، وهذا الإجراء يملكه رئيسا القوتين دون حاجة إلى الرجوع إلى دولتيهما .

وكل ذلك أصيل فى الإسلام بنص القرآن : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »(١) ، وقد أسلفنا أن رسولى مسيلمة لما قدما على الرسول لمفاوضته ، وسمع منهما ما لم يعجبه ، وأوغر صدره لم يمسهما بسوء ، وأعادهما إلى مأمنهما سالمين .

٢ — الهدنة :

وقد يكون إيفاد الرسل المفاوضين بقصد الاتفاق على هدنة لمدة معينة توطئة لعقد الصلح ، وعقد الهدنة لا يملكه رؤساء القوات المقاتلة ، كما فى الحالة السابقة ، بل تملكه حكومات الدول المتحاربة (٢) ، والهدنة إما عامة تشمل وقف القتال فى جميع الميادين ، وإما خاصة بميدان منها .

والهدنة قد تكون موقوتة بأجل معين ، فإذا لم يصل الطرفان خلاله إلى الصلح جاز لكل منهما بعده استئناف القتال ، والهدنة قد لا تكون موقوتة بأن لا يحدد لها أجل ، وهنالك يجوز لكل طرف أن يستأنف القتال فى أى وقت بشرط إخطار الطرف الثانى .

ويمثل المسلمون للهدنة المؤقتة لأجل بصلح الحديبية ، ويسميه البعض : هدنة الحديبية ، إذ أن الحرب قبلها كانت قائمة بين قريش والمسلمين ، وقياساً على مدة صلح الحديبية يقول الشافعية ، ومنهم الماوردى بعدم جواز عقد هدنة لأكثر من عشر سنوات ، وقال بعض الفقهاء : يجوز للإمام أن يوادعهم لأربعة أشهر فأقل استدلالا بالآية : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » (٣) .

---

(١) سورة التوبة آية ٦ . (٢) راجع فوشى رقم ١٢٤٨ — ١٢٥٨ .

(٣) سورة التوبة آية ٢ .

حالة الحرب أثناء الهدنة :

تستمر حالة الحرب قائمة بين الدولتين المتهادنتين مهما طالت مدة الهدنة ، حتى لو اشترط فى عقد الهدنة عدم العودة لحالة القتال ، وتظل للطرفين حقوق المحاربين حتى تنتهى الهدنة بصلح دائم تسوى فيه المنازعات التى كانت مثاراً للحرب.

الهدنة بين مصر وإسرائيل لا تنهى حالة الحرب :

أبرمت الهدنة بين مصر وإسرائيل فى ١٩٤٩/٢/٢٣ وتعهد فيها الطرفان بعدم العودة إلى القتال الذى كان قد نشب فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وذلك التعهد كان بناء على قرار من مجلس الأمن . وظلت مصر تعتبر بحق أن حالة الحرب قائمة بينها وبين إسرائيل ، ومارست فى هذا الشأن حقوق المحارب بالنسبة للسفن والبضائع الإسرائيلية التى تمر فى المياه الإقليمية المصرية ، ومنها قناة السويس . فتقدمت إسرائيل بشكوى لمجلس الأمن مدعية أن حالة الحرب تعتبر منتهية بعقد الهدنة الذى تعهد فيه الطرفان بعدم العودة إلى القتال ، وهذه مغالطة على ما أسلفنا من أن حالة الحرب تظل قائمة حتى يتم الصلح الذى به تسوى المنازعات التى ثارت الحرب بسببها ، وهى مشكلة فلسطين واغتصاب اليهود لأرضها وتشتيت معظم سكانها . صحيح إن مجلس الأمن أصدر قراراً فى أول سبتمبر سنة ١٩٥١ بدعوة مصر لرفع القيود الملاحية التى فرضتها على إسرائيل عبر القناة ، ولكن هذا القرار صدر فى حدود اختصاص مجلس الأمن من حيث طروء ما يهدد حالة السلم الدولى . ولا يملك المجلس تغيير القاعدة القانونية التى تجعل حالة الحرب قائمة بين البلدين طوال مدة الهدنة ما لم يكن ذلك عن اتفاق دولى تقره جماعة الدول التى نشأت فيها القاعدة السابقة ، هذا وقد ضربت إسرائيل بقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة عرض الحائط ؛ وهى القرارات الخاصة بالتقسيم وبالمطرودين من فلسطين ، وهم[1] اللاجئون إلى البلاد العربية ، والباقون منهم فى معسكرات على الحدود .

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد حافظ غانم فى مجلة القانون الدولى المصرية سنة ١٩٥٧ بعنوان : التكييف القانونى للموقف الدولى بين مصر وإسرائيل .

الهدنة فى الشريعة الإسلامية :

هى اتفاق أو صلح مؤقت يقع بين زعيمين فى زمن معلوم بشروط مخصوصة منها شروط معتبرة فى صحة العقد تتعلق بالعاقد ، ويختلف الحال فيها باختلاف المعقود عليه ، وإن كان المعقود عليه إقليما كالهند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقا فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائبه متى كان مفوضا فى جميع أمور الدولة . وأما إذا كان المعقود عليه بعض القرى أو النجوع فى الأطراف فلأحد الولاة المجاورين لهم عقد الهدنة والصلح معهم ، ومن شروط الصحة أن يكون فى الهدنة مصلحة للمسلمين كتوقع دخول الإسلام فى قلوب المتعاقدين بسبب اختلاطهم بالمسلمين . ومنها أن لا يكون فى العقد شرط يأباه الإسلام .

٣ ـــ عقد الأمان :

لنا بحث آخر للكلام عما يترتب على قيام الحرب من آثار ، وفرعنا فيه فروعا للكلام عن تلك الآثار فى الإسلام ، ومنها آثار الحرب بالنسبة لأفراد ورعايا الدول التى تحاربنا ودخلوا ديار المسلمين بعهد أمان أو ذمة ، ويهمنا هنا أن نوجز أن الأمان الخاص بفرد واحد من الحربيين أو بعدد قليل منهم يصح صدوره وإعطاؤه من أى مسلم بالغ دون اشتراط الحرية ولا الذكورة ، فيقول الرسول : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويجير عليهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) وقوله : (ويسعى بذمتهم أدناهم) وقلنا : إن هذا الضرب من الأمان خاص .

أما الأمان العام فهو ما يراد عقده للعدو الذى لا يحصر كأهل ولاية ، ولا يصح عقده إلا من الإمام أو من نائبه ، كما هو الحال فى الهدنة ، وقال محمد ابن الحسن فى كتابه السير الكبير : (لو حاصر المسلمون حصنا فليس ينبغى لأحد منهم أن يؤمن أهل الحصن إلا بإذن الإمام لأنهم أحاطوا بالحصن فعلا ، ولأن كل مسلم تحت طاعة الأمير ، ولأن ما يكون رجعه إلى عامة المسلمين فى النفع والضرر فالإمام هو المنصوب للنظر فيه ، وينبغى للرعية أن لا يقدموا على ما فيه استخفاف بالأمير (الإمام) ولكن صاحب كتاب السير الكبير قرر بعد ذلك أن لو حدث

أن عقد واحـــد من المسلمين الأمان لأهل الحصن كافة دون إذن الأمير فهو صحيح ، على أن يجوز للإمام أن يؤدب من أعطى الأمان ، فقال بالنص : « فإن فعل ذلك بغير إذن الإمام فهو جائز لأن عليه صحة الأمان وهو ثابت ومتكامل فى حق كل مسلم على ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله : (ويسعى بذمتهم أدناهم) . وعلى الإمام أن يكف عن قتال أهل الحصن حتى ينبذ إليهم أمانهم فإن كانوا قد خرجوا من الحصن بهذا الأمان وجب أن يردهم إليه لأنه مأمنهم ثم يحاربهم بعد ذلك » .

وليس لعقد الأمان صيغة معينة فكل لفظ يفهم منه الآمان كناية كان أو صريحاً ينعقد به الأمان ، والإشارة تعتبر مع قرائن الأحوال . ولا بد من قبول المعقود له فإن رد الأمان لم ينعقد ، وإذا دخل شخص للسفارة بين المسلمين فى تبليغ رسالة أو لسماع كلام الله فهو آمن بمجرد إعلانه ذلك فلا يحتاج لعقد أمان [١] وأباح فقهاء الإسلام للمسلم أن ينيب عنه فى عقد الأمان غيره .

ومدة الأمان للمستأمن (الحربى الذى دخل دار الإسلام بأمان) سنة فإن تجاوزها صار ذميا متى قبل الجزية أى ضريبة الدولة تضرب عليه .

وعلى المستأمن المحافظة على الأمن والنظـام العام وعدم الخروج عليهما بأن يكون عيناً أو جاسوساً علينا ، ولا بأس بقتله إذ ذاك فقد أفتى أبو يوسف بقتل الجواسيس من أهل الحرب أو من أهل الذمة ، وبمعاقبة أهل الإسلام عقوبة موجعة وحبسهم حبساً طويلا حتى يحدثوا توبة .

وجاء فى كتاب السير الكبير تفصيل أحكام الأمان خلاف ما سلف [٢] فقال : لو دخل الحربى دار الإسلام بأمان فقتل مسلماً عمداً أو خطأ ، أو قطع الطريق أو زنى بمسلمة أو ذمية كرها فليس يكون فى شىء من ذلك ناقضاً لعهد الأمان . ويقول مالك : صار ناقضا للعهد بما فعل ؛ لأنه حين دخل إلينا بأمان التزم أن لا يفعل

---

(١) صحيح الأعشى ج ١٣ فصل فى عقود الأمان .

(٢) كتاب السير الكبير نسخة دمشق المخطوطة من ص ٢٤٤ ـ ٢٤٨ .

شيئاً من ذلك ، فإن قتل إنسانا يقتل به قصاصاً لأنه التزم حقوق العباد فيما يرجع للعاملات . وحجة الذين لا يرون إقامة الحد على المستأمن كما جاء فى كتاب الخراج أنه لم يدخل إلينا ليكون ذمياً تجرى عليه أحكامنا فى المعاملات وحقوق العباد .

٤ ــ عقــد الذمة :

وفيه كلام عن الجزية :

وهنا يمكن أيضا أن نفرق بين عقد الذمة الذى يعطى لشخص أو أشخاص لا يدينون بالإسلام ، ونسمح لهم بالإقامة الدائمة فى بلاد المسلمين « دار الإسلام » فيكون لهم بذلك ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وهذا الأمر شبيه بما يسمى فى لغة القانون الدولى العصرى قبول تجنس الأجنبى لجنسية الدولة التى دخلها ، ويريد الإقامة فيها إقامة دائمة ، فيصبح بذلك مواطناً ضمن المواطنين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتبقى له حرية التمسك بدينه مقابل ما يدفعه للدولة من جزية ، أى ضريبة ، وهو عقد أبدى ليس كعقد الأمان الذى له صفة التوقيت ، ويمكن أن نسمى هذا النوع من عقود الذمة خاصاً ، وهذا التعبير اجتهاد منا نريد به تقريب المسألة إلى الأذهان .

أما عقد الذمة العام فيكون لطائفة من الأجانب يقرون به على البقاء فى ديارهم ، أى ولايتهم أو دولتهم مع تركهم وما يدينون ، ويحتفظون بنظمهم مقابل جزية يدفعونها سنويا ، ونقوم بالدفاع عنهم لقاءها ، ويمكن أن نسمى هذا النوع من الذمة عاما أيضا لكونه شاملا لجماعة أو قبيلة أو ولاية .

وهذا النوع العام الدائم فى رأينا بمثابة صلح دائم .

ويجمل بنا ونحن فى صدد الكلام على كيف تضع الحرب أوزارها أن نعود إلى تلخيص الحالات التى تنتهى بها الحرب فى الإسلام ، لنلقى بذلك ضوءاً على عقد الذمة ، وننبه إلى ما أثبتناه مراراً من أن الحرب فى الإسلام دفاعية ، فنحن لا نحارب إلا من يحاربنا ، وتنتهى الحرب التى فرضت علينا بإحدى الوسائل الآتية :

١ ــ الهدنة ، وقد مر ذكرها ، وهى بطبيعتها موقوتة لأجل ، فقد هادن

الرسول صلوات الله عليه قريشا عشر سنوات ، وقياساً عليها قال بعض فقهاء الإسلام إن تلك أقصى مدة للمهادنة ، فإن عقدها القائد أو الأمير لأكثر من ذلك بطلت فيما زاد عليها ، ويبقى للأعداء الأمان خلال المدة الباقية .

وحدث فى عهد معاوية أن نقض الروم عقد الهدنة ، وقتلوا ما بأيديهم من رهائن المسلمين ، فامتنع المسلمون عن قتل رهائن الروم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر ، اتباعا لقول الرسول صلوات الله عليه : « أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » والإسلام إذا كان لم يجز قتل الرهائن فإنه لم يجز أيضا إطلاق سراحهم إلا عند انقضاء أجل الهدنة ، حيث تحل محاربة الأعداء ، وعندها وجب قبل قتالهم إبلاغ الرجال منهم مأمنهم ، أما النساء والأطفال فيجب إيصالهم إلى أهلهم لأنهم تبع .

٢ — أن يسلم محاربونا فيدخلوا فى ديننا ، فيصير لهم بالإسلام ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات ، ويقروا على ما ملكوا من بلاد وأموال ، لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » وكلمة الناس هنا ليست على إطلاقها ، بل المقصود منها الناس من المحاربين ، وعلى المعنى الأعم هم مشركو الجزيرة العربية ، لقوله صلوات الله عليه : « لا يجتمع فى الجزيرة دينان » .

وقد يسلم من المحاربين لنا أثناء القتال طائفة قلت أو كثرت فتبقى لهم أملاكهم فى دار الحرب حتى لو انتصرنا عليهم وأخضعنا دار الحرب ، فقد أسلم فى حصار بنى قريظة ثعلبة وأسيد ابنا شعبة اليهوديان فأحرزا بإسلامهما أموالها .

٣ — أن يظفرنا الله بهم ، ويظهرنا عليهم مع بقائهم على شركهم ، فالإمام فى هذه الحالة مخير بين أمور منها :

(ا) أن يسترقهم كأسرى حرب من قبيل المعاملة بالمثل .

(ب) أو أن يفادى بهم على أموال أو أسرى .

(ج) أو أن يمن عليهم ويعفو عنهم لقول الله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا

فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »[١] ، أما أموالهم فى حالة الغلبة لنا فتكون غنيمة [٢] .

٤ — أن يطلبوا المسالمة والموادعة على الجزية ، ولهم ذلك على ضربين :

أولها : أن يبذلوا مالا معيناً لوقتهم وتوهم ، ويصبح هذا المال غنيمة يقسم بين الغانمين ، لأنه مأخوذ بإيجاف خيل وركاب .

وثانيهما : أن يبذلوه فى كل عام ويسمى خراجا مستمرا ، ويكون الصلح به والأمان مستقراً ، وما يؤخذ منه فى العام الأول يعتبر غنيمة تقسم بين الغانمين ، أما فى السنوات التالية فيعتبر فيئا ويصرف فى مصارفه ، ولا يجوز لأمير الجيش ولا لأمير المؤمنين « الإمام » أن يعاود جهادهم فلا يحاربهم ما داموا مقيمين على بذل المال ودفع الجزية ؛ لاستقرار الموادعة على ذلك ، أى لدوام الصلح عليه ، وقال بعض الفقهاء : إنه إذا منعوا المال وكفوا عن دفعه زالت الموادعة وارتفع الأمان ، وقال أبو حنيفة بعكس ذلك ، وعبارته : « لا يكون منعهم المال أو الجزية نقضا لأمانهم وعهدهم ومعاهدتهم ، لأن ذلك يعتبر حقا عليهم كالدين فلا ينقض العهد بمنعهم إياه » وقد ذكر الماوردى الطرائق الأربع سالفة الذكر ، وهناك أخرى ، ومنها :

٥ — التحكيم : فقد قبل على ومعاوية التحكيم فى الحرب التى كانت بينهما ، وكذلك حالة حصار المسلمين الحصن وقبل من فيه تحكيم شخص سموه ، وعقد الذمة كما سلف صلح دائم ما داموا على تنفيذ شروطها كما قال الغزالى ، وذلك سواء أكانت الذمة على جزية أم على غير جزية ، ومن فقهاء العصر من قال بأن عقد الذمة بطبيعته عقد أبدى غير وقتى .

الجزية :

فرض الجزية على الشعوب المغلوبة عادة متبعة منذ أقدم العصور ، ففى عهد

---

(١) سورة محمد آية ٤ .

(٢) راجع كتاب الأستاذ أحمد وفيق جزء ٩ ص ٢٧٠ .

سليمان بن داود كان سكان فلسطين الذين بقوا فيها غرباء بين الاسرائيليين يبذلون الجزية كما ورد فى سفر الملوك ، وكان الرومان والفرس يجتبون الجزية [1] .

الجزية فى المسيحية :

إن رجال الكنيسة فى مدينة كيرس أسسوا صندوقا لقبول الهبات فى كاتدرائية كاهور ، سموه صندوق السلام المشترك ، وحددت المبالغ فى روبرج من ٦ - ١٢ قرشاً للعامل ، وثلاثة قروش على الأجير ، و١٢ قرشاً عن كل ثور ، و١٣ قرشاً عن كل زريبة ماعز ، فكان فى ذلك معنى الجزية فى المسيحية [2] ، وعدد الأستاذ أحمد وفيق البلاد والممالك التى كانت تدفع الجزية ، أى الضريبة للبابوات مقابل التمتع بحماية الرسول بطرس ، ومنها بولونيا والصقليتان والدانمرك ودوقية بوهيميا وانجلترا ومملكة كييف ومملكة الكروات وألمانيا ومملكة أراجون والبرتغال ، وأشار إلى أن الكتاب « إحصاء الكنيسة الرومانية » المحرر سنة ١١٩٤ م ، أحصى الكنائس والبيع والمدن والممالك التابعة لأملاك وحماية القديس بطرس ، ثم قال إن البابا جريجوار السابع جنح إلى تكوين دولة عالمية مسيحية للتسلط على جميع الأمراء ، فقال إن سلطان الكنيسة أسمى من سلطان الملك ، لأنه وإن كان مصدرهما واحدا هو الله ، إلا أن السلطان البابوى مباشر حيث عهد به ابن الله إلى بطرس مباشرة [3] .

وقد وضع بتروس كراسوس مؤلفاً للدفاع عن حق التاج « الملك » فقال : إنها لحق الفرد على ملكه ، وذهب إلى أن الملك يملك الأرض والرعايا ، وذهب إلى تطبيق جميع نصوص جوستنيان الخاصة بالميراث ، بحيث يكون للملك حق على الأشخاص ، وجميع الأموال الثابتة أو المنقولة .

هذا وإن المطران انجلبرت كتب أيام بابوات أفنيون ما نصه : « تقضى الإرادة الإلهية أنه من الضرورى أن تقوم فى العالم سلطة ذات مقام عالى عالمى يخضع لها

---

(١) الدكتور نجيب أرمنازى ص ١٢٦ .

(٢) راجع كتاب دوفال من سلام الله إلى سلام الحديد والسيف ، طبعة باريس سنة ١٩٢٤ وكتاب بوسته دراسات عن حكم البير الصالح طبعة باريس سنة ١٨٨٥ .

(٣) راجع كتاب القديس جريجوار السابع لمؤلفه فليش ، طبعة باريس سنة ١٩٢٢ .

جميع الممالك وأمم العالم[١] ، كما قال فتية الكنيسة أجوستينو وتوبفضوا إن البابا يستطيع أن يقيم ملوكا ويعاقبهم ويجعلهم كما يشاء ، ويقضى فيهم بقضائه فى مختلف الشئون الدنيوية باعتباره أركان حرب الله »[٢] .

الجزية فى الإسلام ووظيفتها :

يذكر التاريخ الإسلامى عن غزوة الأحزاب « الخندق » أن مشركى الجزيرة العربية خرجوا بتحريض من اليهود ليقاتلوا المسلمين مع قريش ، فأذن الرسول بمقاتلة المشركين كافة ، كما قاتلوا المسلمين كافة « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »[٣] ، وكانت حالة الحرب قبل ذلك قائمة بين المسلمين وبين قريش ، أما بعد الخندق فصار المشركون جميعا أهل حرب بالنسبة للمسلمين ، وفى هذا المعنى يقول الرسول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ، وقد علق على الآية الكريمة والحديث النبوى[٤] « أن الحديث لا يدل على الإكراه فى الإسلام ، لأن قول الله سبحانه وتعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[٥] ، ماض إلى يوم القيامة ، ولم يوجد ما ينسخه أو يقيد حكمه ، والإذن بقتال المشركين فى الآية كان بالنسبة لمشركى العرب . . . والناس فى الحديث المراد بهم مشركو العرب ، فكان فى قتالهم كافة ، لأنهم قاتلوه كافة ، وكان ينتهى القتال أحيانا بالصلح ولكن يبادرون بنقضه ، وهذا ما حدث فى صلح الحديبية .

والجزية فى الإسلام ليست للإذلال كما يتبادر إلى ذهن بعض الناس ، فهى إن كانت على ذمى يريد أن يقيم فى دار الإسلام مع استمساكه بدينه ، فهو الذى أراد

---

(١) راجع بوديار ص ١١١ طبعه ١٨٩٨ .

(٢) راجع كتاب علم الدولة لأحمد وفيق جزء ٩ من ص ٤٣٢ ــ ٤٥٤ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٦ .

(٤) راجع ص ١٣٨ فى كتاب السير الكبير طبعة جامعة القاهرة .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

بمحض اختياره أن يقيم فى دولتنا ويتجنس بجنسيتنا ، ويكون له مالنا وعليه ماعلينا مقابل أن يدفع الجزية ، وهى نصيبه فى الضرائب العامة التى تصرف فى منفعة الجماعة فى المرافق العامة ، ومعاونة فقراء غير المسلمين ، وقد قرر الفقهاء أن عقد الذمة المؤبد يشترط فيه شرطان :

أولهما : أن يلتزم الذمى دفع التكاليف المالية متى كان قادراً مساهمة منه فى بناء الدولة وميزانها المالى .

ثانيهما : أن نتركهم وما يدينون ، وأن يلتزموا بأحكام الإسلام فى المعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية ، ولهم حريتهم الشخصية فى أموالهم ومعتقداتهم ، وفى قوانين الأسرة من زواج ونسب وطلاق ، إذ يتبعون منها ما يأمرهم به دينهم ، وفرع الحنفية على ذلك أن لهم شرب الخمر وأكل الخنزير ، ولو أراق مسلم لذمى خمراً أو قتل خنزيره ضمن قيمته ، بعكس ما لو فعل المسلم ذلك بمسلم آخر فلا يجب عليه تعويضه .

والذمى الذى يقيم بديار المسلمين إقامة دائمة ، وبلغة العصر فى القانون الدولى يتجنس بجنسية الدولة التى استقر بها يتمتع بحقوق لا يتمتع بها مثيله فى العصر الحالى فالمسلم المقيم بفرنسا أو انجلترا أو روسيا ويتجنس بجنسيتها يخضع فى الأحوال الشخصية للقانون المحلى هناك ، فإن تزوج بأكثر من واحدة فزواجه باطل ، وقد يحاكم على ذلك كمجرم ، وإن طلبت زوجته فى قضية النفقة من زوجها لا تسمعها المحاكم ، فى حين أن فقهاءنا قالوا : لو تزوج المجوسى فى بلادنا ابنته ورفعت أمرها إلى القاضى الشرعى تطلب الحكم لها بنفقة لوجب عليه أن يقضى بها دون نظر إلى كون العقد صحيحا أو غير صحيح .

ولا بد لكل حق من واجب يقابله ، فالذمى الذى فى بلادنا ، وله مالنا من حريات وتجارة وتعامل وأحوال شخصية يجب عليه أن يؤدى للخزانة العامة ، بيت المال ، مثل ما يؤديه المسلم ، ولو نظرنا إلى ما يدفعه المسلم لوجدناه ملزما بأن يؤدى زكاة المال وهى مقدار ٢ر٥ ٪ مما يملك من نقود وعروض تجارة ومواشى ،

وغير ذلك من الأموال السائلة والمنقولة ، وملزم أن يدفع ما قد يبلغ ١٠ ٪ من صافى غلات الأموال الثابتة من دار وأرض وغيرها ، وعلى المسلم أيضا تكاليف مالية أخرى كالنذور التى ينذرها ، والأوقاف التى يحبسها ، وكفارات الأخطاء التى يرتكبها ككفارة الظهار واليمين والصوم وغيرها ، وقد تصل إلى إطعام ستين مسكينا أو شراء رقبة وعتقها ، فالذمى بطبيعة الحال لا يكلف هذه الالتزامات المالية ، لأنها مفروضة على المسلم بحكم إسلامه ، فكان ولا بد لكى يحمل قسطه من التكاليف العامة أن تفرض عليه ضريبة هى الجزية ليساهم فى بناء الدولة ومصالحها العامة ، وفى التكافل الاجتماعى لأهل الذمة .

والجزية لا تؤخذ إلا من الذمى القادر على أدائها ، وهو القادر على القتال ، وهى أشبه ما تكون بضريبة الدفاع أو ضريبة كسب العمل يدفعها الذمى القادر دون زوجته وأولاده الصغار ، أما الضريبة على الأرض التى يملكها الذمى فهى خراجها ، والمحتاج من أهل الذمة سواء أكان مريضا أو زمنا أو شيخا هرما فنفقته من بيت المال ، أى على الدولة تدفعها من الخزانة العامة .

وروى أن عمر بن الخطاب رأى ذميا يسأل الناس ، وكان شيخاً كبيراً ضرير البصر يهوديا ، فأخذه إلى داره وأسعفه ببعض ما لديه من مال ، ثم أمر خازن بيت المال أن يجرى عليه رزقا مستمرا ، وقال له : « اتبع مثل ذلك فى هذا وضربائه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم » وتلى الآية : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » [1] وقال : وهذا مسكين من أهل الكتاب ، ووضع عمر عن الرجل جزيته وعن ضربائه [2] ، وبقى له عقد الذمة ولذريته لأبديته .

والمساواة التامة بين المسلم والذمى الذى يدفع الجزية من حيث واجب الدولة فى الدفاع عنهما وافتداء رقابهما سواء بسواء تبرز بشكل واضح فيما روى من أن أمير التتر قطلوشاه كان قد أغار على دمشق فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وأسر

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠ .
(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٥٠ .

من المسلمين والذميين من النصارى واليهود عددا ، فذهب إليه الإمام ابن تيمية ومعه جمع من العلماء ، وطلبوا فك أسر الأسرى ، فسمح له بالمسلمين ولم يطلق الذميين ، فقال له شيخ الإسلام : « لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع لديك أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فأطلقهم الأمير التترى جميعا ، وقيل : إن ذلك تكرر من ابن تيمية عند ما كتب رسالته إلى ملك قبرص سرجوان لافتكاك أسرى المسلمين وأهل الذمة من رعايا الدولة الإسلامية .

هذه هي الجزية على الفرد في عقد الذمة الخاص ، أما عقد الذمة العام على ما سبق أن قلناه اجتهاداً ، فهو أن يكون العهد لأمة أو ولاية أو دويلة نقرهم ونتصالح معهم على أن يبقوا بديارهم ، ولهم أملاكهم وأموالهم ودينهم وكنائسهم وبيعهم ونظامهم الاجتماعى والقضائى دون تدخل منا على أن يدفعوا الجزية . وهى فى هذه الحالة ضريبة الدفاع ، فقد يرى إمام المسلمين تأميناً لحدوده أن يتعهد بالدفاع بجيوش المسلمين عن تلك الولاية المتاخمة له ، والتى تحالفت معه محالفة أمان وجوار على أن تدفع الجزية ، وعلى أن لا تتحمل هى عبء الدفاع عن نفسها ، ولا عبء المحاربة مع المسلمين ، وقد يراعى فى هذا الشرط ألا يكون لتلك الدولة جيش بحجة الدفاع عن نفسها خشية الغدر والانقضاض على البلاد الإسلامية ، ومن ذلك يفهم على وجه التحقيق أن الجزية مقابل الدفاع فهى ضريبة الدفاع ، والدليل على ذلك ما ثبت من أن المسلمين فى بعض الأحيان عجزوا عن الدفاع عن ولاية كانت لها عليهم ذمة فردوا إلى أهلها ما اجتبوه منهم من جزية ، وكذلك ما ثبت عن بعض أمراء المؤمنين ، وبعض أمراء الجند من أنهم صالحوا بلاداً وولايات وملوكاً على غير جزية ، بأن يكون أهل تلك البلاد عونا للمسلمين فى حربهم العدو ، وإليك بعض ذلك :

١ — قال أبو يوسف فى كتاب الخراج فى فصل الكنائس والبيع والصلبان « فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة منهم صاروا عونا للمسلمين أشداء على أعدائهم إلى أن قال : وكان قد دخل فى عقود الذمة مدن عديدة بالشام ،

وصاروا يتجسسون أخبار الروم ، فلما علم أبو عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش المسلمين فى سوريا فى عهد عمر بن الخطاب أن الروم جمعوا جمعاً لم ير مثله ، فأمر أبو عبيدة بأن يرد إلى كل مدينة صالح أهلها ما دفعته من جزية وخراج ، وكتب إليهم : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا لكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط إن ينصرنا الله عليهم » وكان أبو عبيدة يخشى أن لا يصله المدد ، ومع ذلك فقد نصره الله على الروم ، ووفد عليه رؤساء تلك المدن ، ودفعوا إليه ما كان قد رد إليهم من الجزية ، ودخلت بقية بلاد الشام فى الصلح على مثل هذه الشروط .

٢ ــ لما هزم أبو عبيدة جموع الروم سالفة الذكر ، ومنح الله المسلمين أكتافهم ، كتب إلى عمر رضى الله عنه يخبره بالنصر وبما أفاء الله على المسلمين ، وما أعطى أهل الذمة من الصلح ، وما سأله المسلمون من أن يقسم بينهم المدن التى افتتحها والأرض بما عليها من شجر وزرع ، وأنه أبى عليهم ذلك حتى يكتب إلى أمير المؤمنين ، فأجابه عمر بكتاب جاء فيه « ... فأقر ما أفاء الله عليك فى أيدى أهله ، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم ، ويكونون ـ أى أهل الذمة ـ هم عمار الأرض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ، ولا للمسلمين معك أن تجعلهم فيئاً وتقسمهم ، فاضرب عليهم الجزية وكف عنهم وامنع المسلمين عن ظلمهم وعن الإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها ، ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم » وهكذا بقى للقوم دينهم وديارهم وأموالهم ونظمهم وعقائدهم ، وعلى المسلمين الدفاع عنهم بجيش المسلمين الذى ينفق عليه من بيت مال المسلمين ، كل ذلك مقابل أن يدفعوا الجزية مشاركة فى أعباء النفقات ، وعلامة على الولاء والود وحسن الجوار وعدم إفشاء عورات المسلمين وجيوشهم ، وقال الماوردى : إذا نقض أهل الذمة العهد لم يستبح بذلك قتلهم ولا قتالهم ، وقال : إن الخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق ، وقد نشأ نوعا من الجزيه ، ولما تقدمت الفتوح صار الخراج يجبى من المسلمين وغير المسلمين ، وضاع ما فيه من صفات الجزية ، والجزية نص ، والخراج اجتهاد .

٣ — ومن أمثلة ماصالح المسلمون عليه أهل الذمة دون جزية ما أورده البلاذرى فى فتوح البلدان ص ١٥٨ - ١٦٠ حيث قال : « صالح أبو عبيدة بن الجراح أهل السامرة بالأردن وفلسطين وكانوا عيوناً للمسلمين على جزية رءوسهم وأطعمهم أرضهم ».

وأصل ذلك سنّه عمر بن الخطاب ، حيث قرر أن من استعين به من غير الملة لايدفع جزية ، وروى ذلك الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ هـ ، عن حادث ملك شهر براز الذى قال للأمير فى وجهته : « أنا اليوم منكم ، ويدى مع أيديكم ... وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم النصر والعون والقيام بما تحبون » فقبل منه ذلك .

وجاء فى فتوح البلدان أيضاً : أن حبيب بن مسلمة الفهرى غزا الجرجومة ، فصالحه أهلها على أن يكونوا للمسلمين عيوناً ومسالح فى جبال اللكام ، وإذا دعوا للحرب مع المسلمين حاربوا على أن ينفلوا أسلاب من يقتلونه من أعداء المسلمين .

وهذا واضح فى إمكان عقد صلح دائم بين المسلمين وغيرهم من الأديان الأخرى والبلاد المجاورة بغير جزية تفرض على رؤوسهم أو على أراضيهم مع بقائهم على دينهم ودولتهم ما داموا قد تعهدوا بمشاركة المسلمين الحرب ضد أعدائهم ، ويشاركهم المسلمون الحرب ضد من يريد الاعتداء على أرض هؤلاء الحلفاء ، ومعنى ذلك أن يكون لهؤلاء الذميين الحق فى تجييش جيش والإنفاق عليه ، وقد رضى المسلمون منهم ذلك لما آنسوا فيهم من وفاء وأمان وعدم احتمال الغدر ، وهنا وقد انتفت علة أخذ الجزية منهم ، فقد انتفى إلزامهم بها ، ولو ان قوماً كهؤلاء أقاموا على عهدهم لم ينقضوه لبقيت شروطهم التى قبلها المسلمون قائمة .

ثم أليس هذا من قبيل المعاهدات المعروفة الآن بمعاهدات الصداقة الدائمة والتحالف العسكرى بين دولتين مستقلتين ، وبه تتعهد كل منهما بإنجاد حليفتها ضد أى اعتداء ، إما لأجل محدود ، أو لأجل غير محدود .

هكذا طور المسلمون الأوائل الجزية حسب الظروف ، وجعلوها تدور مع علتها وجوداً وعدماً . وكانوا أسبق أهل الأديان إلى احترام الأديان الأخرى والحريات

العامة والبلاد المجاورة ، وأرسخ قدماً فى الرغبة فى السلم والرفاهية لكل الشعوب ، لايبغون إكراه أحد على الدخول فى الإسلام اتباعا لقول الله : « لا إكراه فى الدين »[1].

٤ ـ أما عهد معاوية بن أبى سفيان إلى الأرمن فقد تركهم على دينهم ، وأبقى على نظامهم الداخلى وقضائهم ، وتعاهد معهم على أن لايدفعوا جزية ثلاث سنوات ، وبعدها إن يرغبوا فى الجزية بذلوا ماشاءوا ، وإن لم يريدوا دفع جزية فعليهم إعداد خمسة عشر ألف مقاتل لمعونة المسلمين ودفاع عن بلاد الأرمن ، فإن هاجمهم الروم تعهد معاوية بإمدادهم بكل ما يريدونه من نجدات [2] .

هذا وقد عنى المسيو لوران المؤرخ الفرنسى بذلك العهد فى كتابه « أرمينية بين بيزنطة والإسلام » ومما قاله : أن الأرمن أحسنوا استقبال المسلمين ليتحرروا من ربقة بيزنطة ، وتحالفوا معهم ليستعينوا بهم على مقاتلة الخزر ، وترك العرب لهم أوضاعهم التى ألفوها وساروا عليها ، والعهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣ م ، إلى القائد تيودور رختونى ولجميع أبناء جنسه ماداموا راغبين فيه ، وفى جملته : « أن لا يأخذ منهم جزية ثلاث سنين ، ثم يبذلون بعدها ما شاءوا ، كما عاهدوه وأوثقوه على أن يقوموا بحاجة خمسة عشر ألف مقاتل من الفرسان منهم بدلا من الجزية ، وأن لايرسل الخليفة إلى معاقل أرمينا أمراء ولا قادة ولا خيلا ولا قضاة . . . وإذا أغار عليهم الروم أمدهم بكل ما يريدونه من نجدات . وأشهد معاوية الله على ذلك » .

فاحتفظوا بذلك بأمرائهم ورؤسائهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية ، وفيه أيضا دلالة على أن الجزية ضريبة الدفاع عن البلاد دافعة الجزية وإلا فلا .

٥ ـ ورد فى معاهدة الصلح التى عقدت بين خالد بن الوليد وبين أهل الحيرة ونقبائهم أن الجزية التى قدرت نظير الدفاع عنهم ومنعتهم ، حيث ورد فى آخرها بالنص : « وعلى المنعة فإن لم نمنعهم فلا شىء عليهم حتى نمنعهم ، وإن غدروا بعمل أو بقول فالذمة منهم بريئة » [3] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ . (٢) ص ٢١٠ وما بعدها من فتوح البلدان .

(٣) كتاب تاريخ الملوك والأمم للامام الطبرى ص ١٤ ج ٤ .

من خصائص شعر الشيعة

للدكتور أحمد الحوفى

أستاذ الأدب بكلية دار العلوم

أعتقد أن القارىء فى غنى عن التمهيد مهما يكن وجيزا ، فالشيعة مذهب إسلامى عريق النشأة . واضح النهج ، قوى النزعة ، زاخر الإنتاج العلمى والأدبى .

فلأتحدث عن خصائص شعره ، مكتفيا بالتمثيل المشير .

١ – السياسة الدينية :

دار شعرهم حول نصرة مذهبهم ، فكان وثيق الصلة بتفكيرهم وآلامهم وآمالهم .

(١) فهم يشيدون بحبهم لآل البيت ، ويجدون فى هذا الحب سعادة ومثوبة ، ولا يزيدهم اللوم إلا تماديا ، كما فى قول عبد الله بن كثيِّر :

أَيُعدُّ ذنبا أن أحبهم   بل حبهم كفارة الذنب

وفى قول أبى الأسود الدؤلى :

أحبهمُ لحب الله حتى   أجىء إذا بعثت على هَوَيّا

فإن يك حبهم رشدا أصبه   ولست بمخطىء إن كان غيا

(٢) ويتفجعون على موتاهم وقتلاهم ، ويرثون أنصارهم ، كما نجد فى رثاء أبى الأسود الدؤلى للإمام على . ورثاء عبد الله بن الأحمر للحسين ، ورثاء هند بنت زيد لحُجر بن عدىّ .

(٣) ويدللون على استحقاق الشيعة للخلافة ، بل على أن الخلافة أو الإمامة منهم وحدهم ، بأدلة دينية وعقلية .

ولا شك أن الكميت زعيمهم فى هذا الضرب من المقال ، فهو الذى مهد لشعرائهم طريق المحاجة ، وفتح لهم أبوابها ، وجهر بما كان يختلج فى نفوس كثير من الشيعة ، كقوله :

يقولون : لم يورث . ولولا تراثه   لقد شركَتْ فيه بكيلٌ وأرحبُ
ولانتشلتْ عضوين منه يحابرٌ   وكان لعبد القيس عضو مُؤَرَّب

كذلك حملوا على الزبيريين ، مثل حملة كثير عزة على ابن الزبير لما سجن ابن الحنفية بسجن عارم .

٢ — غلبة السياسة على شعرهم :

والطابع الذى يغلب على شعرهم هو الطابع المذهبى ، ويتبين هذا فى شعرهم السياسى ، وفى مدائحهم وأهاجيهم ومراثيهم ، ومناجاتهم لله ، لأن أكثر هذا المدح والهجاء والرثا يصل بهم إلى غرضهم المنشود ، وهو الدفاع عن حق الشيعة المسلوب .

وليس من الصواب أن نحكم على شعرهم كله بأنه سياسى مذهبى ، لأن بعض شعرائهم قرضوا الشعر فى أغراض أخرى .

فالكميت اضطر إلى مدح بنى أمية حفاظا على دمه .

وأيمن بن خُرَيْم الأسدى مدح الأمويين ، واتصل بعبد الملك بن مروان ، وشخص إلى مصر ، ومدح واليها عبد العزيز بن مروان ، ثم تركه إلى الكوفة حيث مدح واليها بشر بن مروان .

وأما السيد الحميرى فقد كان متشيعاً صادقاً فى تشيعه ، وكان يحب آل البيت حباً فيه إخلاص وفيه سذاجة ، ما فى ذلك شك .

على أنه لم يحد عن تشيعه فى العصر العباسى ، ولم يستره كله أو بعضه ، بل إنه كان يعلن حبه ، ويجهر به ، ويذيع الدعوة لآل على .

وكان فى الوقت نفسه مداحاً لبنى العباس ، ينال عطاياهم ، وينعم بالقرب منهم ، ولا يجد فى تقريبهم له إنكاراً لتشيعه ، أو محاولة لصرفه عنه .

وليس بعسير تعليل ذلك ، فإن السيد الحميرى كان مخلصاً لآل على ، وكان مخلصاً لآل العباس معاً ، لكن إخلاصه للعلويين كان أعمق وأقوى وأشد ، كان علوى

المذهب أيام بنى أمية ، وكان يضيق أشد الضيق ، ويألم أشد الألم ، مما يلقى الشيعة من نكال بنى أمية ، ويتشوف إلى زوال ملكهم ، والقصاص منهم ، ويتلهف على أن يرث الشيعة سلطان بنى أمية ، لأنه حقهم الشرعى المغتصب .

فلما أدال الله من بنى أمية ، وخلفهم بنو العباس لا بنو على ، أنكر كثير من الشيعة هذا المصير ، وانصرفوا عن الدولة الجديدة ، وتربصوا بها ، وثاروا عليها ، ولم ينكر كثير منهم هذا المصير ، بل ارتضوه واطمأنوا إليه وأخلصوا له ، لأنه حقق ما كانوا يأملون ، إذ تقوض صرح بنى أمية ، وقام صرح بنى هاشم .

وقد كان السيد الحميرى من هؤلاء الراضين الذين اطمأنوا وأخلصوا لبنى العباس ، فلم ينقم منهم أنهم استأثروا بالخلافة دون بنى على الذين كان يهواهم ، وما زال على هواه إياهم ، ولم يبتهج بهم لأنهم غلبوا بنى على على الخلافة ، واختصوا بها نفوسهم ، بل استبشر بقيام دولتهم ، لأنهم من بنى هاشم ، وقد فازوا على بنى أمية ، وما على والعباس إلا فرعان من هاشم ، بل فرعان قريبان أشد القرب ، وأبناء هذا وأبناء ذاك يتنازعون فى أيهم أعظم قرابة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأيهم أحق بوراثته ؟ أعمه العباس ، أم ابن عمه وزوج ابنته على ؟ فأيهم غلب على الملك ، وفاز على بنى أمية كان جديراً بأن يرضى به السيد الحميرى ، ويخلص له .

على أن هذا التعليل لا يتنافى مع رغبته فى عطايا بنى العباس ، فلو أن الأمر قد صار إلى بنى على لكان له من أموالهم نصيب ، ولصار المال الذى يناله منهم غير صالح لأن يعلل به وحده إقباله على مدحهم والدعاية لهم ، لأنه من شيعتهم والسلطان ليس لهم ، ومن شيعتهم وليس فى يده من أموالهم شىء .

٣ — حرارة العاطفة .

شعرهم حار ملتهب ، لأنه تعبير عن عواطف قوية صادقة ، وتنفيس عن نفوس مهتاجة ثائرة .

فهم غضاب ساخطون ، لأن بنى أمية سلبوهم حقهم ، وغصبوهم مكانهم ، فصوروا غضبهم فى شعر حانق على الأمويين .

وهم حزناء كثيرو البكاء مما حل بهم من عسف واضطهاد وتنكيل وتقتيل ، شديدو الحسرات على حقهم المغصوب ، وملكهم المسلوب ، لهذا برعوا فى تصوير ما نزل بهم من نكبات وأهوال ، وبرعوا فى الموازنة بين حالهم وهم أصحاب الحق الشرعى ، وحال بنى أمية وولاتهم وهم غاصبون للحكم ، ليستثيروا العزائم إلى الثورة.

وهم يحبون آل البيت أقوى الحب وأصدقه ، لا يبتغون من حبهم مالا ولا جاها ولا عرضا من أعراض الدنيا ، وإنما يجدون فيه زلفى إلى الله ، وأملا فى ثوابه ، ويصبرون على ما ينزل بهم من شدائد ومظالم ، عقابا لهم على هذا الحب ، فلم يزدهم الاضطهاد إلا تماديا فى حبهم لآل البيت وتشيعاً لهم .

وعن هذا الولاء الخالص صدرت مدائحهم لزعمائهم من آل البيت .

ملاءمة الأسلوب للباعث :

وأسلوبهم يختلف باختلاف الباعث .

فإذا حملوا على بنى أمية جاء أسلوبهم قويا مهتاجا ، لأنه يصور حنقهم وثورة نفوسهم ، كما نجد فى حملات الكميت ، وفى قصائد عبد الله بن هشام السلولى ، وإذا جنحوا إلى المحاجة والتدليل على استحقاق الشيعة للخلافة أو التبشير برجعة الإمام ، كان أسلوبهم هادئا ، كما نجد فى شعر الكميت وكثير عزة والسيد الحميرى .

وإذا صوروا نكباتهم ، وبكوا آلامهم ، وتحسروا على حقهم المسلوب ، جاء أسلوبهم باكيا حزينا ، كما نرى فى قصيدة الحارث بن عبد الله الجعدى . وإذا مدحوا آل البيت جاء مدحهم جزلا فخما متدفقا ، كقول الكميت :

بل هواى الذى أُجنُّ وأبدى	لبنى هاشم فروع الأنام
القريبين من ندًى والبعيديـ	ن من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النا	س ومُرْسِى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة فى الحرب إن لفَّ	ضرامٌ وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل الناس	فمأوى حواضن الأيتام

هذه لمحة عن بعض الخصائص العامة لشعر الشيعة ، أرجو أن أعقب عليها بموازنة بين شعرهم وشعر غيرهم من الذين عاصروهم حيناً من الزمن ؟

عموم التشريع الإسلامي وخلوده

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يس سويلم طه
من كبار علماء الأزهر

إن الله تعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بشيراً ونذيراً للناس كافة ، وجعله خاتم النبيين والمرسلين ، وختم بشريعته جميع الشرائع والأديان ، وبذلك تمت لبنات بناء النبوة والرسالة ، واكتمل عقد النبيين والمرسلين ، فلا نبوة ولا رسالة بعد نبوته ورسالته إلى يوم الدين .

فالرسالة المحمدية هى خاتمة النبوات والرسالات ، ومرحلتها التشريعية مكملة للمراحل التشريعية التى تقدمتها ، وإصلاحها الدينى متمم للإصلاح الذى بدأ به النبيون السابقون ، كما دل على ذلك قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما » ، وفى سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » ، وقوله فيما رواه أحمد والبيهقى والحاكم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وتشريعها الذى جاءت به تشريع عام خالد ، لا يختص بأمة دون أمة ، ولا زمان دون زمان ، كما يدل على ذلك أنواع الدلائل الآتية :

النوع الأول : ما صرحت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من عموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، كما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، وفى سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، وفى سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده

ليكون للعالمين نذيراً » ، وفى سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وفى سورة المائدة : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، وفى سورة الأنعام : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » ، أى وأنذر به كل من بلغه القرآن فى أى زمان وفى أى مكان ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى . . . إلى قوله وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة . . . » ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تدل دلالة صريحة واضحة ، على أن الله أرسل رسوله محمداً إلى الناس كافة على اختلاف أجناسهم وعقائدهم ، وأنه تعالى أوحى إليه القرآن لينذر به جميع المخاطبين وقت نزوله ، وكل من بلغه من الموجودين ومن سيوجد من جميع الأمم إلى يوم القيامة ، فكل من بلغه القرآن فى أى زمن كان ومن أى أمة كانت ، فكأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم شافهه بالقرآن وبلغه دعوته وأنذره به .

النوع الثانى : طريقة القرآن فى حديثه عن إرسال الرسل وتبليغ رسالاتهم ، فإنه حين يتحدث عن الرسالة المحمديه وتبليغ دعوتها ، يستعمل الخطاب العام الذى لا يختص بقوم دون قوم كما فى الآيات التى تقدمت فى النوع الأول ، وحين يتحدث عن إرسال الرسل السابقين وتبليغ رسالاتهم ، يستعمل الخطاب الخاص بأقوامهم ، كما نرى ذلك فى آيات كثيرة مثل : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه إن أنذر قومك » ، « وإلى عاد [1] أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ، « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ، وهكذا كان حديثه عن رسالة موسى وعيسى وغيرهما من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

النوع الثالث : عمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى تبليغ رسالة ربه ، فإنه قام بتبليغها إلى الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وعقائدهم ، فقد ثبت بالنقل

---

(١) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، وكذلك التقدير فيما بعده .

الصحيح أنه بعث بكتبه ورسله إلى هرقل ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس عظيم القبط بمصر ، والنجاشى ملك الحبشة ، والحارث الغسانى ملك الحيرة ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، يعلمهم ببعثته ويدعوهم إلى الإسلام ، وعلل ذلك بقوله لأصحابه : « إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة » .

النوع الرابع : ما جرى عليه الصحابة والخلفاء الراشدون من تبليغ دعوة الإسلام تبليغاً عاماً ، كما علموا ذلك من آيات القرآن وأقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعماله كما تقدم ، وقد انعقد على ذلك إجماع المسلمين فى جميع العصور الإسلامية .

فهذه الدلائل القولية والعملية تدل دلالة قاطعة ، على أن الرسالة المحمدية رسالة عامة للأشخاص والأزمان فى دعوتها وتشريعها ، وأن ما يتقوله الجاهلون المضللون من أن التشريع الإسلامى خاص بالعرب وحدهم ، أو بمن كانوا فى عهد نزوله وخوطبوا به ، إنما هو جهل بأصول الإسلام ومبادئه ، وافتراء للكذب وتضليل للعقول وفساد فى العقيدة ، وتمرد على قدسية الميثاق الذى أخذه الله على النبيين وأتباعهم من الأمم ، كما قال الله تعالى فى سورة آل عمران : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ، فأتباع النبيين تابعون لهم فى أخذ هذا الميثاق ووجوب الوفاء به ، وأنبياؤهم شاهدون بذلك على أنفسهم وعليهم ، والله تعالى شاهد على الجميع ، وكفى بالله شهيداً .

وإنما تفرد التشريع الإسلامى بين التشريعات السماوية بكونه تشريعا عاما خالداً ، لأنه التشريع الذى اكتملت له عناصر العموم وأسرار الخلود ، كما يتجلى ذلك فيما نذكره من الأسرار التشريعية الآتية :

(١) أنه التشريع الذى نزل من السماء وقد مر على الإنسان أزمان وأطوار كثيرة ، كان فيها بين علو وسقوط ، وارتفاع وهبوط ، وتقلب فى كثير من أطوار

التشريع السماوى ومراحله ، فألهبت عقله وفكره أطوار الحياة وأحداثها ، وبلغت به سنة الترقى طور النضوج والرشد وتركزت فى أكثر شعوبه أصول الاتجاهات الخلقية والفكرية والعملية ، وتقاربت بينها طرائق الحياة والصلات والمعاملات ، وأعدته الشرائع السماوية السابقة التى تقلب فى أطوارها لإدراك أدق دلائل التوحيد والتنزيه ، وإحكام الفكر والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، واستجلاء آيات الله الكونية والتشريعية ، وفهم أصول التشريع العام وتطبيقها على ما يعرض له فى حياته من أحداث وأقضية ، وبذلك أصبح مستعداً لمرحلة تشريعية عامة يتولى زمام قيادتها رسول واحد ، وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يعقد لواء هذه القيادة العامة للقائد الأعظم والرسول الأكرم ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبذلك توحدت القيادة التشريعة السماوية فى مرحتها الأخيرة .

(٢) أنه بنى على أصول تشريعية تتسع لشئون الحياة على اختلاف عصورها وتطور حضارتها ومدنيتها ، لأنه التشريع الذى جعله الله مهيمنا وحاكما على جميع الشرائع السماوية السابقة ، فنسخ منها الفروع العملية التى روعى فى تشريعها أحوال أمم خاصة فى أزمان خاصة ، كما قال الله تعالى فى سورة الأعراف : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ، أى التكاليف الشديدة التى كانت مفروضة عليهم فى شرائع أنبيائهم ، واستبقى منها ما لا يختلف التكليف به باختلاف الأمم والأزمان ، وزاد عليها الأصول والفروع التى اقتضاها رقى الإنسان واتساع نطاق العمران ، وبذلك اجتمعت له الأصول التشريعية وفروعها فى دائرة الكمال والخلود ، كما قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ، فالتشريع الإسلامى بهذا الإكمال لا يحتاج إلى تعديل أو تكميل مهما تعاقبت الأجيال وتغيرت أوضاع الحياة ، وأقصى ما يحتاج إليه هو اجتهاد العلماء فى استظهار أصوله وتطبيقها على أعمال

الناس وسلوكهم ؛ إذ ليس من شأن التشريع العام الباقى على وجه الزمان ، أن يبين بالتفصيل أحكام كل ما يمكن أن يحدث على تعاقب الأجيال وتجدد الزمان ، وإلا لعجزت العقول والأفهام عن إدراكها والإحاطة بها ، وإنما شأنه فى البيان ووضع مناهج الإصلاح وقواعد السلوك ، أنه يبين بالتفصيل الجوانب التشريعية التى لا مجال للعقل فى حقائقها وكيفياتها ، والتى تستطيع الأفهام أن تحيط بها لانحصار أنواعها واتحاد صورها فى كل زمان كالعبادات ويبين بالإجمال الجوانب التشريعية التى للعقل مجال فى حقائقها وكيفياتها وعللها ، والتى لا تستطيع الأفهام أن تحيط بجزئياتها المتجددة بتجدد الزمان كالمعاملات ، وذلك بوضع الأصول العامة التى تشمل ما يكون موجوداً منها فى عهد التشريع وما يحدث منها فى مستقبل الزمان ، فإن كل ما يحدث منها لا يخرج عن كونه منصوصاً عليه أو على نوعه ، أو مسكوتا عنه بأن لم يرد فيه دليل شرعى يخصه أو يخص نوعه ، فإن كان منصوصاً عليه بأن كان صورة لما وقع فى عهد التشريع وتقرر له حكم خاص ، فإنه يأخذ الحكم الذى تقرر له ، وإن كان منصوصاً على نوعه بأن كان جزئياً لما تقرر له حكم عام ، فإنه يأخذ الحكم الذى تقرر لنوعه ، لأن الحكم على العام حكم على جزئياته ، وإن كان مسكوتاً عنه ولكنه نظير لمنصوص عليه بأن كان مساوياً له فى علة حكمه ، فإنه يأخذ حكم هذا النظير لمساواته له فى علة الحكم ، لأن إلحاق المسكوت عنه بنظيره المنصوص عليه أصل تشريعى عند جمهور العلماء ، وهذا الأصل هو المسمى عندهم بالقياس الشرعى ، وإن كان مسكوتاً عنه وليس نظيراً للمنصوص على حكمه ، فإنه يأخذ حكم المسكوت عنه وهو الإباحة الأصليه ، فإن الأصل فى الأشياء عند الجمهور هو الإباحة ، لقوله تعالى فى سورة البقرة : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ، وفى سورة الأعراف : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، وفى سورة الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة . . . الآية » ، فجعل الأصل الإباحة والتحريم مستثنى ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الترمذى وابن ماجة : « الحلال ما أحله الله فى كتابه ، والحرام ماحرمه الله فى كتابه ،

وما سكت عنه فهو مما عفا عنه »، وفيما رواه الدار قطنى : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على أن الأصل فى المسكوت عنه الإباحة .

فهذه الأصول العامة لا يتطرق إليها خطأ فى وضعها ولا قصور فى كفايتها وصلاحيتها لكل زمان ، لأنها من وضع الخبير الذى أحاط بكل شيء علما ، وإنما قد يقع الخطأ والقصور فى الاستنباط منها والبناء عليها لأنهما من عمل العقول والأفهام ، فقد يقع الخطأ فى الاستنباط منها لخفاء بعض حلقات الاستنباط والاستدلال أو فقدانها ، وقد يقع القصور فى تطبيقها للجهل أو للجمود وضيق الأفق فى الفهم والتفكير .

وأما الشئون الدنيوية فأن بيانها ليس من مقاصد التشريع السماوى ، بل وكل أمر تدبيرها وتصريفها إلى عقول الناس ومواهبهم ، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ، وفيما رواه أحمد : « ما كان من أمر دينكم فإلى ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » ، ولفت عقولهم إلى هذه الشئون التى لا بد منها فى حياتهم ، وأرشدهم إلى أبواب الوصول إليها والانتفاع بها ، كما فى قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، وعلى العقول بعد ذلك أن تتعرف أنواع هذه الشئون ومقدار الحاجة إليها ، وكيفية الانتفاع بها على النحو الذى يحقق سعادة المعاش وسعادة المعاد .

(٣) أنه بنى على أساس الاجتهاد فى فهم نصوصه وأصوله ، واستنباط الأحكام العملية منها ، وتطبيقها على ما يحدث من الوقائع والأقضية والمعاملات ، فإن بناء التشريع الإسلامى على أساس النظر والاجتهاد ، هو الأنسب لبلوغ الإنسان طور النضوج والرشد ، والأوفق بتطور الحياة الإنسانية فى حضارتها ومدنيتها ، والمحقق لكفايته وصلاحيته لكل زمان .

ولهذا طالب الإسلام كل قادر على النظر والاجتهاد ، ببذل الوسع فى استنباط الأحكام العملية من أدلتها الشرعية ، مع شدة الاحتياط والتثبت من صحة الأدلة والاستدلال بها ، ومراعاة قوانين اللغة العربية فى أوضاعها وأساليبها ، والانتهاء فى ذلك كله إلى الحد الذى يفيد الظن القوى بإصابة حكم الله تعالى ، فإن معرفة الأحكام العملية يكفى فيها الظن القوى كما تقرر فى أصول الفقه .

وجعل للمجتهد الذى أصاب حكم الله فى الواقع أجرين ، أجراً على الاجتهاد وأجراً على الإصابة ، وجعل للمجتهد الذى أخطأ حكم الله فى الواقع أجراً واحداً على الاجتهاد ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى وغيره : « إذا اجتهد الحاكم فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد » ، وفى رواية أخرى : « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد » .

وأوجب بالإجماع على كل مجتهد أن يعمل بالحكم الذى أداه إليه اجتهاده ، لأن المجتهد الذى بذل مافى وسعه لمعرفة الحكم الشرعى ، لا يسعه إلا أن يعمل بما أداه إليه اجتهاده واطمأن قلبه إلى أنه حكم الله تعالى ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وأباح لغير القادرين على الاجتهاد أن يقلدوا من شاءوا من أئمة المسلمين وعلمائهم ، الذين استنارت عقولهم وبصائرهم بهدى الكتاب والسنة ، وامتلأت قلوبهم بالخوف من القول فى دين الله بغير حجة ، وعرفوا بالرسوخ العلمى وسلامة الاعتقاد ، واستقامة التفكير ، واعتدال مناهج النظر والاستدلال ، والتحرر من تحكم الهوى وسيطرة التعصب ، ونقلت عنهم مذاهبهم نقلا يفيد الثقة والطمأنينة ، لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أحمد وابن ماجة وأبو داود والترمذى : « عليكم بسنتى وسنة خلفاء الراشدين المهديين » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، وللإجماع على أن العامة فى زمن الصحابة والتابعين كانوا يقلدون من شاءوا من العلماء ، وأنهم كانوا يقلدون بعضهم فى بعض المسائل وبعضهم فى البعض الآخر ، وأنه لم ينقل عن أحد من السلف إنكار أو حجر على العامة فى ذلك ،

فلا يجب على العامى [1] أن يلتزم فى تدينه مذهباً معينا من مذاهب الأئمة، بل له أن يقلد بعضها فى بعض الوقائع وبعضها فى بعض آخر وهكذا، ولو التزم مذهبا معينا فله أن ينتقل إلى غيره، على شرط أن يكون التقليد بجميع صوره قائما على حسن النية والأخذ بالأيسر الذى لا يوقع فى الضيق والحرج، بعيداً عن بواعث الهوى والتعصب، وقصد التلاعب وتتبع الأقوال الضعيفة والمذاهب الشاذة.

فكل من قلد من عامة المسلمين تقليداً كلياً أو جزئياً أى إمام من أئمة الحق، والتزم في تقليده هذه الحدود التى تقدم ذكرها، فإنه لا يكون فى تقليده هذا خارجا عن دائرة التشريع الإسلامى ومقاصده، ولا متعديا حدود القدوة الصالحة المستبصرة، والأسوة الحسنة الواعية، ومتابعة غير العالم لأهل العلم والمعرفة، فإن أساس هذا الدين الحنيف السمح، إنما هو حسن النية، وسلامة الاعتقاد، والإخلاص لله فى القول والعمل، وكل إمام من أئمة الحق له فى بحر النبوة ورد وله منه شرب، واختلافهم فى الاجتهاد لا يعتبر تفرقا فى الدين ولا تجريحاً للمختلفين، وإنما هو اختلاف فى الأفهام ومناهج البحث والاستدلال، وتوسعة من الله على عباده ورحمة بهم، فقد يكون فى بعض المذاهب الاجتهادية من التيسير ما ليس فى البعض الآخر، فكثير ما تتفاوت المذاهب الفقهية شدة ويسراً، وإن كانت فى مجموعها لا تخرج عن دائرة الأصول الشرعية التى بنيت عليها.

فالتعصب للمذاهب الفقهية وتوسيع شقة الخلاف بينها بدافع الجمود وضيق الأفق والوقوف من المسائل الخلافية موقف التنطع والتزمت، والتضييق على الناس فيما جعله الله يسراً وتوسعة، والحجر عليهم فى تقليد من وجدوا فى تقليده من الأئمة تيسيراً عليهم وحلا لمشاكل حياتهم، كل ذلك لا يتفق مع يسر الإسلام وسماحته، ولا مع تعاليمه ومقاصده، بل ولا مع طريقة أئمة المذاهب أنفسهم، فإنهم كانوا لا يرون فى اختلاف الأفهام والأنظار غضاضة ولا تجريحاً،

---

(١) المراد بالعامى عند الأصوليين: من ليس له أهلية الاجتهاد وإن كان محصلا لبعض العلوم المعتبرة فى الاجتهاد.

ولا يحجرون على العامة فى تقليد من شاءوا من أئمة الحق ، ولا يلزمون أحدا بالتزام مذهب معين ، ولا ينكرون على تابع إمام أن يقلد إماما آخر ، وبذلك كانوا رواد الحق الصادقين ، والأئمة الراشدين المهديين .

(٤) أنه جعل مشروعية تكاليفه العملية فى دائرة الوسع الذى لا إرهاق فيه ولا إعنات ، واليسر الذى لا عسر معه ولا حرج ، كما فى قوله تعالى: « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ، « ولو شاء الله لأعنتكم » ، أى لكلفكم بما يشق عليكم ويوقعكم فى الحرج ، ولكنه لم يشأ ذلك رحمة بكم وتيسيرا عليكم ، وقوله تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » ، « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى لمن جعلوا يسألونه بعد الصلاة : يارسول الله أعلينا حرج فى كذا : « أيها الناس : إن دين الله عز وجل فى يسر ، قالها ثلاثا » ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تدل دلالة واضحة ، على أن جميع التكاليف العملية التى جاء بها التشريع الإسلامى ، ليس فيها ما يصادم الطبائع والفطر ، أو يتعاصى على الطاقة والوسع ، أو يشق على الناس ويوقعهم فى الضيق والحرج ، بل جاءت كلها فى دائرة الوسع الذى لا إرهاق فيه ولا إعنات ، واليسر الذى لا عسر معه ولا حرج ، ولهذا سمى الإسلام بالحنيفية السمحة ، وقد استخرج العلماء من هذا الأصل كثيراً من قواعد التيسير ، منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، المشقة تجلب التيسير، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، الضرورات تبيح المحظورات ، ما حرم لذاته يباح للضرورة ، وما حرم لسد الذريعة يباح الحاجة ، وفرعوا على هذه القواعد كثيرا من الفروع العملية فى العبادات والمعاملات .

(٥) أنه جعل العمل بتكاليفه فى حدود التوسط والاعتدال ، والأخذ بأيسر الأمور وأوفقها :

ونهى عن الغلو فى الدين والتشدد فيه ، ومجاوزة حدود التوسط والاعتدال فى العبادة ، كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم : « هلك المتنطعون ، قالها ثلاثا » ، والمتنطعون هم الذين يتعمقون ويتشددون فى الدين . ويجاوزون حدود التوسط والاعتدال فى أقوالهم وأفعالهم ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ، قال : بلى يارسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك [١] عليك حقا ، وفى رواية وإن لولدك عليك حقا » ، وقوله فيما رواه البخارى ومسلم ، للثلاثة الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم فى العبادة والتقشف : « أنتم قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وطالب المسلمين بأن يأخذوا من الدين بالأيسر الذى لا يشق عليهم ، كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى . « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » ، وفيما روار البزار والحاكم والبيهقى : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وأمر أهل العلم بالتيسير على الناس فى إرشادهم إلى تعاليم دينهم ، وعرضها عليهم فى سهولة ويسر ، كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « علموا ويسروا ولا تعسروا » ، وفى رواية : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

---

(١) أي ضيفك

(٦) أنه جعل نصوصه التشريعية التى قرر بها أصول الأحكام العملية وقواعد السلوك ، ونصوصه العلمية التى وجه بها العقول والأفهام إلى ما فى العوالم الكونية من علوم وأسرار ، جعلها مسايرة فى دلالاتها ومعانيها لتفاوت الناس فى أفهامهم وحاجتهم إلى العلم والعمل ، فأودع فيها من ظواهر المعانى وأصول التشريع ومناهج السلوك ، وأسرار العوالم الكونية وحقائق العلوم الإلهية ، ما جعلها مورداً عذباً ينهل منه كل وارد على قدر استعداده وحاجته إلى العلم والعمل ، فيجد أهل البادية فى معانيها الظاهرة وتشريعاتها الواضحة ، ما يساير حياتهم ويتمشى مع بداوتهم ، ويكفى لتدينهم ومعاملاتهم ، ويجد أهل الحاضرة فى الأصول التشريعية التى تحتاج إلى تعمق فى البحث والاستنباط والتطبيق ، ما يساير حياتهم ويتمشى مع حضارتهم ويكفى لتدينهم وسلوكهم ، ويتسع لما يحدثه تطور الحياة المدنية من أقضية ومعاملات ، ويجد طلاب العلوم فى إشاراتها إلى مساتير العلوم الكونية والسنن الإلهية ، ما يوجه عقولهم إلى ما فى العوالم الكونية من الدلائل على عظمة خالقها وجلال فاطرها ، وما فيها من سنن الله فى تسخيرها الإنسان وانتفاعه بها فى المعاش وفى المعاد ، وبذلك مهد الإسلام لكل امرىء طريق الوصول إلى حاجته من العلم والعمل .

وهذه الحقائق التى أشرنا إليها لا تحتاج إلى أدلة تقام عليها من واقع هذه النصوص ، فحسبك نظرات واعية فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، لترى هذه الحقائق بأجلى معانيها وأكمل صورها .

(٧) أنه جعل تكاليفه العملية متمشية مع تفاوت المكلفين فى قدرتهم على العمل وتطلعهم إلى الكمال ، واختلاف أحوالهم فى عروض الضرورات والأعذار ، فجعلها مشتملة على الواجبات والمندوبات ، والمحرمات والمكروهات ، والعزائم [١] والرخص ، وعدد مراتب العمل ومنازل السلوك ، ودرجات الثواب والجزاء ، ليجد فيها كل عامل ما يناسب أحواله الخاصة به ، وبذلك فتح الإسلام مجال العمل

---

(١) العزيمة هى الحكم الذى شرع ابتداء غير مبنى على أعذار العباد كالوضوء ، والرخصة هى ما شرع ثانيا على خلاف الحكم الأصلى لأعذار العباد كالتيمم :

لكل عامل، وييسر له طريق الوصول إلى سعادته فى الدنيا والآخرة، وقطع علل المتعللين ومعاذير المعتذرين.

(٨) أنه جمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، ورعاية مطالب الروح ومطالب الجسد، وأقام ذلك على منهج قويم لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا طغيان فيه لأحد الجانبين على الآخر.

فأمر المسلمين بأن يصلحوا أمر دنياهم بالعمل النافع الذى يحقق لهم الحياة الكريمة فى معاشهم، ويصلحوا أمر آخرتهم بالعمل الصالح الذى يحقق لهم السعادة فى معادهم، كما فى قوله تعالى: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم كما فى الجامع الصغير: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، وإنما خيركم من عمل لدنياه وآخرته».

وطالبهم بأن يجمعوا فى سلوكهم بين رعاية مطالب الروح ورعاية مطالب الجسد، وأن يسلكوا فى ذلك مسلك التوسط والاعتدال، والمحافظة على مظاهر الحشمة والوقار، والرجولة الكاملة والخلق الكريم.

فأباح لهم الانتفاع بزينة الحياة والطيبات من الرزق، كما فى قوله تعالى: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق»، «فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً».

وحرم عليهم الفواحش والخبائث، وكل ما فيه إضرار بأى مقوم من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة، وهى الدين والنفس والعقل والمال والعرض، كما فى قوله تعالى: «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»، «ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث».

ونهى عن الغلو فى التقشف وترك التمتع بما أحله الله من زينة الحياة والطيبات من الرزق، كما فى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله

لكم ولا تعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين » ، وكما فى الأحاديث التى تقدم ذكرها فى الوجه الخامس .

وحرم الإسراف والإغراق فى النعيم والترف ، كما قال تعالى فى سورة الأعراف : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وفى سورة الإسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » .

فمنهج الإسلام فى الجمع بين رعاية الجانب الروحى والجانب المادى ، منهج وسط بين الغلو فى الزهد والتقشف إلى حد الإضرار بحقوق الجانب المادى ، والإغراق فى متع الحياة ولهوها إلى حد الإضرار بحقوق الجانب الروحى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » .

وهكذا تكاملت للتشريع الإسلامى عناصر العموم وأسرار الخلود ، فكان تشريعاً عاماً باقياً على وجه الزمان ، لا يختص بأمة دون أمة ولا بزمان دون زمان ؟

سورة التوبة ومؤامرة استعمارية للروم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى

يقول الله تعالى فى الآية - ١٣ - من سورة التوبة : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » فيقول المفسرون : إن هؤلاء القوم مشركو مكة الذين أخرجوا الرسول منها ، وهم فى هذا يغفلون عن أمر ظاهر ، وهو أن سورة التوبة نزلت بعد فتح مكة وإسلام أهلها ، فلا يكون هناك معنى للحث على قتالهم ، ولا يصح أن يقال فيهم : « وهموا بإخراج الرسول » لأنهم أخرجوه بالفعل من مكة قبل فتحها ، كما يغفلون عن سياق الآيات من أول السورة أنها فى قبائل العرب الذين نقضوا عهودهم مع المسلمين حين أرادوا غزوة تبوك مع الروم ، وكانت فى السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة ، لأنه كان فى السنة الثامنة منها ، فيكون هؤلاء القبائل هم الذين هموا بإخراج الرسول عند هذه الغزوة من المدينة لا من مكة ، ويكون للروم يد ظاهرة فى هذه المؤامرة الاستعمارية بين أذنابهم من قبائل العرب ومنافقى المدينة ، بعد أن رأوا المسلمين يتوجهون إليهم بالدعوة للدخول فى الإسلام ، ويرسلون رسلهم بها إليهم ، وإلى الإمارات الغسانية العربية التابعة لهم ، فكان أن تعدوا بالقتل على بعض هؤلاء الرسل ، وعلى بعض من أسلم من العرب التابعين لهم ، وكان هذا سبباً فيما حدث من القتال بين الفريقين فى مؤتة ، وفى تنبه الروم إلى ما فى ظهور المسلمين ببلاد العرب من الخطر على نفوذهم فيها ، لأنهم لا يريدون أن يكونوا أذناباً لهم كأذنابهم من عرب الجاهلية ، وإنما يريدونها نهضة دينية مدنية للعرب أولا ، ولمن يؤمن بنهضتهم من الأمم ثانياً .

فكبر على الروم الاستعماريين أن يتطاول العرب بالإسلام إلى أن يكونوا أمة تنهض فى ركب الحضارة ، وتساوى فيه غيرها من الأمم ، ولا يبقوا أمة متفرقة إلى قبائل يكون بعضها منطقة نفوذ للروم ، وبعضها منطقة نفوذ للفرس ، ويقاتل بعضها بعضاً فيما يدور بين الأمتين الاستعماريتين من حروب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، وكانت دولة المناذرة بالعراق وما إليها من قبائل الجنوب منطقة نفوذ للفرس ، ودولة الغساسنة بالشام وما إليها من قبائل الشمال منطقة نفوذ للروم ، وكان منافقو المدينة ممن يشايع الروم معهم .

فلم يجد الروم إلا أن يحركوا أذنابهم من العرب ويثيروهم على المسلمين ، ليمنعوهم من الوصول إلى ذلك الغرض النبيل بينهم ، وهو غرض يعود خيره إلى أولئك الأذناب كغيرهم من العرب ، ولكنه الجهل الذى يعمى الجاهل عما فيه الخير له ولأمته ، ويجعله يؤثر أن تكون تابعة لغيرها على أن تكون مستقلة بحكم نفسها ، والتاريخ يعيد نفسه ، فلم يفعل الروم من هذا إلا ما يفعله الآن خلفهم من الأمم الاستعمارية فى أوربا من تصيد أذناب لها بين العرب يساعدونها على أغراضها الاستعمارية فيهم .

ولأمر ما ينقض أكثر القبائل العربية عهودهم فجأة مع المسلمين قبيل غزوة تبوك ، ولأمر ما يكشف منافقو المدينة القناع عن نفاقهم قبيل هذه الغزوة ، ويخوفون المسلمين من قتال الروم بكل وسيلة عند ما وصل إليهم أنهم يريدون غزو المدينة ، فإذا دل هذا على شىء فإنه يدل على أن أصابع أجنبية تلعب بينهم ، وتغريهم بالمال وغيره على إضعاف الروح المعنوية فى المسلمين وتقويتها فى مشركى العرب ، بعد أن قضى المسلمون فى حنين على آخر محاولة للمشركين فى مناوأة الإسلام ، ليستمر المشركون فى مناوأته من الداخل ، ويأخذ الروم فى مناوأته من الخارج ، ويتمكنوا معاً من هزيمة المسلمين وإخراجهم من المدينة .

وكان أبو عامر الراهب أكبر ذنب للروم فى بلاد العرب ، وقد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وآله وسلم المدينة قال

له : ماهذا الدين الذى جئت به ؟ فقال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم ، فقال أبو عامر : فأنا عليها ، فقال له : إنك لست عليها ، فقال له : بلى ، ولكنك أدخلت فى الحنيفية ما ليس منها ، فقال ما فعلت ، ولكن جئت بها بيضاء نقية .

فلما كان يوم أحد قال أبو عامر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فانضم إلى المشركين الذين يعبدون الأصنام يقاتل المسلمين معهم ، وهو يزعم أنه على حنيفية إبراهيم التى لم تقم إلا للقضاء على عبادة الأصنام ، وهذا يدل على أنه لم يكن إلا جاسوساً سياسياً للروم بين العرب ، وأن مثله كمثل المبشرين المسيحيين الآن فى اتخاذهم الدين وسيلة للسياسة ، وإيثارهم لأغراضها على أغراضه .

فلما انهارت مقاومة المشركين للمسلمين فى حنين لم يجد إلا أن يلجأ لسادته من الروم ليعمل على تقوية النفوس المنهارة بين المشركين ، ويجمعهم بعد هذا على حرب المسلمين ، فخرج إلى الشام يريد الروم ليثيرهم على حرب المسلمين قبل أن يتمكنوا من جمع كلمة العرب على الإسلام ، وكان هذا قبيل غزوة تبوك .

وما إن وصل إلى بلاد الشام حتى أرسل رسله إلى قبائل العرب أن الروم سيقصدون إلى حرب المسلمين ، فبادر أكثر هذه القبائل إلى نقض عهودها كما سبق ، ثم أرسل إلى منافقى المدينة : أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة ، ولا شك أن هذا هو ما جاء فى الآية السابقة : « وهموا بإخراج الرسول » مما غفل المفسرون عنه فى تفسيرهم للآية كما سبق .

ثم أشار على هؤلاء المنافقين أن يبنوا لهم مسجدا خاصا بهم فى المدينة يحدثون به تفريقاً بين المسلمين ، ويجتمعون فيه وحدهم لتدبير المؤامرات اللازمة لنجاح مؤامرته ، فإذا نجح فى حمل الروم على غزو المسلمين أتى إليهم فاجتمع بهم فيه ، ومضى فى تدبير مؤامرته التى ترمى إلى أخذ المسلمين من الداخل والخارج ، ليتم له ما يريد من إخراجهم من المدينة ، وليس بعد إخراجهم منها إلا تشتيتهم فى بلاد العرب والقضاء عليهم .

وهذا المسجد هو مسجد الضرار الذى وردت قصته فى سورة التوبة أيضاً ، وانتهى أمره بهدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بعد رجوعه من غزوة تبوك .

ولكن هذا كله لم يضعف من الروح المعنوية للمسلمين ، لأن قوة العقيدة فيهم كانت فوق كل قوة فى الأرض ، لأنها قوة الحق الذى يعلو على كل قوة ، وقد تكفل الله تعالى بنصره إذا استقام أهله عليه ولم ينحرفوا عنه ، فما إن شاع بين العرب أن الروم يقصدون إلى غزو المدينة حتى بادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاستعداد لغزوهم قبل أن يغزوه ، وكان لهذا أثره فى تقوية نفوس المسلمين ، وفى بقاء الانهيار المعنوى بن القبائل العربية التى نقضت عهودها معهم ، فلم يجاوزوا نقض العهود إلى حربهم كما كان يريد أبو عامر الراهب وأذنابه من منافقى المدينة ، وكانوا أشد ضراوة على المسلمين هم وأبو عامر من تلك القبائل .

وقد مضى المسلمون فى استعدادهم للغزو بكل عزم ، لأنهم عرفوا أنهم لو بدر منهم وهن فى عزيمتهم لكان له أسوأ أثر فيما وصلوا إليه ببذل دمائهم وأموالهم ، وقد تغلبوا بقوة عزمهم على ما كانوا فيه من عسر وشدة بتوالى الحروب عليهم ، وكان لوحدتهم واتحاد كلمتهم أكبر أثر فى ذلك أيضا .

وكانوا يزدادون عزماً على غزو الروم قبل أن يغزوهم كلما ازداد المنافقون فى تثبيطهم وتخويفهم من قوة الروم ، وكان عبد الله بن أبى رئيس المنافقين فى المدينة يقول فى تثبيطه للمسلمين : يغزو محمد بنى الأصفر - الروم - مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال .

وهكذا كان أذناب الروم من العرب يغترون فى جاهليتهم بقوة الروم ، وكان أذناب الفرس منهم يغترون بقوة الفرس ، ويريدون أن يبقوا أذناباً للفريقين فى مستقبل القرون ، إلى أن أثبتت قوة العقيدة فى المسلمين أن قوة الروم لم تكن إلا خرافة ، وأن قوة الفرس لم تكن إلا خرافة ، لأنهما كانتا قوتين رجعيتين تقومان على الباطل ، والباطل لا أساس له ، وكان هذا حين اشتبك المسلمون بالفريقين معاً عقب وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وجمع الإسلام بينهم فى أمة واحدة بعد أن كانت متفرقة إلى قبائل متعادية .

ثم مضى المسلمون فى ذلك العزم القوى إلى تبوك ، فلم يجدوا فيها أحداً من الروم كما أشاع أبو عامر وأذنابه بين العرب ، ولعله كان يريد به ما يسمى الآن حرب أعصاب يقوى به النفوس المنهارة بين مشركى العرب ، ويضعف به النفوس التى تتزايد قوة عزيمتها بين المسلمين ، ولعله يكون له من ذلك أن يحول دون الوحدة التى توشك أن تتم بين العرب ، فكان لغزوة تبوك أحسن الأثر فى القضاء على تلك المحاولة الدنيئة ، وإن لم يكن فيها قتال ونصر ، وإنه ليكفيها ذلك الأثر الذى قضى على محاولة إثارة عوامل التفرقة ، وجعل وحدة الأمة تمضى فى طريق النجاح إلى ما قدره الله تعالى .

وكان ما أراده الله من قيام حكم صالح فى المسلمين يكون قدوة لحكام العالم ، فكان فيهم نبوة أرحم بهم من أنفسهم ، وكان فيهم خلافة رشيدة أشبه شىء بالنبوة ، إذ كان الخليفة يقوم فيهم كأحدهم ، ولا يمتاز بأدنى شىء عليهم ، وليس كما كان قيصر الروم أو كسرى الفرس إلهاً أو شبه إله ، لا يسأل عما يفعل فى حكمه ، ولا تدنو منزلة أحد من منزلته ، وإنما الخليفة فرد من أفراد الناس يأكل مما يأكلون أو أدنى منه ، ويلبس مما يلبسون أو أقل منه ، ويخالطهم فى غدواتهم وروحاتهم ، فلا يعرف من لا يعرفه أنه خليفة عليهم أو حاكم فيهم ، وهو مسئول فى حكمه أمام الله أولا ، وأمام الأمة ثانيا ، والأولى مسئولية أخروية ، والثانية مسئولية دنيوية ، وكل منهما تكمل صاحبتها ، ولا يستغنى بإحداهما عن الأخرى ، وهذه ميزة الحكومة فى الإسلام على غيرها من الحكومات ، وإنما لم تكف فيها مسئولية الحاكم أمام الأمة لأنها قد تفسد وتجر حاكمها معها إلى الفساد ، فتسير معه فى سبيل الطغيان ، ويدركها من غرور العظمة ما يدرك الأمم الطاغية ، فلا تكون كما يريد الإسلام خير أمة للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتكون فى حكمها الصالح قدوة لحكومات العالم .

وهذا هو الحكم المثالى الذى ضربه الإسلام مثلا فى العالم بحكم الخلفاء الراشدين ، وهو حكم الشورى الذى يراد به خير الناس جميعا على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، وهو الحكم الصحيح فى الإسلام ؟

أنا اللغة

أو

الصراع بين القديم والجديد

لصاحب الفضيلة الشيخ علي محمد حسن العماري

المدرس بالأزهر

— ٦ —

لم يكن الشاعر المحدث المغرور أول من شمخ بأنفه ، وغالى بنفسه فى موضع لا مكان فيه للغالاة بالنفس ، وصاح « أنا اللغة » بل سبقه إلى هذه الكلمة وأشباهها شعراء آخرون ، بعضهم قالها فى هدوء واستحياء ، وبعضهم قالها مع صخب ولجاجة .

وربما كان أول من قالها ـ فيما أعلم ـ همام بن غالب الملقب بالفرزدق ، الشاعر التميمي المشهور . فقد كان يخطىء فى قواعد اللغة ، ويرسل شعره دون تهيب من علماء اللغة الذين وقفوا له بالمرصاد يعدون عليه غلطاته ، ويعاسرونه عليها الحساب ، وقف عبد الله بن أبي إسحق الحضرمى عند قوله :

إليك أمير المؤمنين رمت بنا همومُ المنى والهوجلُ المتعسِّف
وعضُّ زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مُسْحتاً أو مجلَّف

وسأله : علام رفعت « مجلف » فأجاب الفرزدق إجابة المتعالى الضائق الصدر وقال لسائله : على ما يسوءك وينوءك .

وتكرر منه الخطأ ، وتكرر من العلماء الإنكار عليه ، ومطالبته ببيان الوجه الذى ذهب إليه فى بعض ما قال فقذفها فى وجوههم كلمة لا تختلف فى كثير أو قليل عن كلمة صاحبنا الشاعر المحدث ، قال الفرزدق للمنكرين عليه من علماء اللغة والنحو : علىَّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا .

أليست هذه العبارة كعبارتنا التى نناقشها منذ شهور تعلن أن اللغة طوع ألسنة هؤلاء القائلين، وأنهم المتصرفون فيها كما يشاءون، ولو رغم أنف اللغويين والنحويين ؟!

بلى . وهى فى الوقت ذاته انطلاق فى آفاق مجهولة لا يقف السائر فيها عند حاجز يحجزه، أو قانون يرده عن غايته، ولا منار يهديه إلا ادعاؤه أنه بلغ من كمال القوة اللغوية ما يجعله حرا فى أن يخلق ما يشاء من أوضاع اللغـة، ثم يجمح به الخيـال والغرور فيرى أن من حقه على الناس أن يتقبلوا كل ما يجيء به، لأنه ـ على الأقل ـ أولى بالاتباع من الأعرابى الذى يأكل الشيح والقيصوم، وهو ـ على حد تعبير بعضهم ـ شخص مجهول لا يعرفنا ولا نعرفه، أما الشاعر المعاصر، أو الشاعر القديم الذى يعرفنا ونعرفه فهو جدير بأن نتقبل قوله ... هكذا يجادل بعض النقاد الكبار فى شأن اللغة .

ولا شك أن أفرادا آخرين من الشعراء بعـد الفرزدق رددوا هذه الكلمة، واتخذوها قانوناً لهم، ولعل من أشهرهم : أبا تمام حبيب بن أوس الطائى، وإن كنت لم أقرأ فى تاريخه كلمة تشبه كلمة الفرزدق، لكنى رأيته فى بعض ما يجيب يشير إلى معنى هذه الكلمة .

سأله عالمـان جليلان، وناقدان بصيران[1] بالشعر بعد سماع بعض قصائده : لم لا تقول ما يفهم ؟ فأجابهما : وأنتما، لم لا تفهمان ما يقال ؟ .

ومضى أبو تمـام يحوك وشيه، ويخترع معانيه، وفى سبيل ذلك لا يبالى أحداً من اللغويين أو النحويين، ولا يعبأ باللحن فى اللغة، ولا بقوانين الخليل بن أحمد فى العروض، ولا بموازين النقاد فى الأساليب، حتى قال المنتصرون للبحترى عن لحن أبى تمـام إنهم لو راموا أن يخرجوه من شعره لكثر ذلك واتسع، ولوجدوا منعه ما يضيق العذر فيـه، ولا يجد المتأول له مخرجا منـه إلا بالطلب والحيلة والتمحل الشديد .

---

(١) هما أبو سعيد الضرير، وأبو العميثل الأعرابى، وكانا من أعلم الناس بالشعر، وكان عبد الله بن طاهر والى خراسان رسم ألا ترفع إليـه قصيدة حتى تعرض أولا عليهما . فلما قصده أبو تمـام وسمعا قصيدته أنـكرا عليه، وأجابهما بمـا أجاب .

ومن علمائنا المحدثين من يلتمس العذر لأبي تمام، ولكنه لا يلتمسه فى تأويلات النحويين، وتخريجات أهل اللغة، وإنما يلتمسه فى حق الشاعر أن يخالف قواعد اللغة، وأنه إذا كان من السائغ فى الكوفة والبصرة فى القرن الأول الهجرى أن يحرم على الشاعر أن يتصرف فى اللغة، فليس ذلك سائغاً ولا مقبولا فى بغداد فى القرن الثالث، بل إنه يظن أننا «أصبحنا نعتقد اللغة ملكا لكل شاعر وكل كاتب، فهو - إذن - يجب أن يصرفها لا أن تصرفه»[1].

وهذا الكاتب هو الذى نعى على شعراء المهجر أنهم حين آنسوا ضعفهم فى اللغة اتخذوا هذا الضعف مذهبا.

وملكية الشاعر للغة هى بعينها كلمة أصحابنا «أنا اللغة»، وقد عبر أبو تمام حياته ينظم وهو يعتقد أن اللغة ملكه، ولكنه لم يصرح بذلك حتى جاء القرن العشرون فإذا كبير من باحثيه يتطوع بها لأبي تمام.

وعلى الرغم من أن الفرزدق ثار فى وجه العلماء، وتصرف فى بعض أشعاره فى اللغة، إلا أن الخصومة العلمية لم تقم حول جديده وقديمه، لأن الرجل لا جديد له يمكن أن يقال إنه خرج به عن عمود الشعر العربى، وكل ما ثار عليه من جدل يتمثل فى تقديمه على جرير أو تقديم جرير عليه.

وجاء مسلم بن الوليد بجديد من أسلوب الشعر هو ما سمى بالبديع، وجاء أبو نواس بجديد، ونعى على العرب بكاءهم الأطلال فى أول قصائدهم، وكان فى حلبة مسلم بن الوليد بشار بن برد وغيره من شعراء البديع، ولكن الخصومة لم تثر حول واحد من هؤلاء، وإنما ثارت حول واحد فقط، واشتدت وعنفت هو أبو تمام.

ويرى الدكتور محمد مندور أن الخصومة لم تنشأ حول مذهب أبى نواس، لأن دعوته «لم تعد أن تكون محاذاة للشعر القديم، والمحاذاة أخطر من التقليد، وذلك لأننا كنا نفهم أن يدعو إلى نوع جديد من الشعر، وأما أن يحافظ على الهياكل القديمة للقصيدة، مستبدلا ديباجة بأخرى... فذلك ما لا يمكن أن يعتبر خلقا لشعر جديد»[2].

---

(١) من حديث الشعر والنثر: ص ١٧٦ للدكتور طه حسين.

(٢) النقد المنهجى: ص ٧٣.

أما أبو تمـام « فإنه - كما يقول صاحب الوساطة - حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح فى غير موضع من شعره ، فقال :

فكأنمـا هى فى السماع جنادل وكأنمـا هى فى القلوب كواكب

فتعسف ما أمكن ، وتغلغل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة ، فإن ظفر به ، فذلك بعد العناء والمشقة ، وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته الكلال ، وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ بمستظرف ، وهذه جريرة التكلف »[1] .

وإنمـا سقت هذه الفقرات لأنها على وجازتها خير جماع رأى خصوم أبى تمام ، وسر الحملة العنيفة التى أثارها ضده المتعصبون عليه من علماء اللغة ، وعلماء النحو ، والأدباء المحافظين ، والشعراء المتحاملين ، والنقاد الذين يتمتعون بذوق عربى سليم ، ومن هؤلاء وأولئك ابن الأعرابى والأصمعى والمبرد والمرزبانى والآمدى ودعبل ابن على الخزاعى الذى أسقط أبا تمـام من قائمة الشعراء فى كتابه الذى ألفه فى الشعر وكان يقول : لم يكن أبو تمـام شاعرا ، وإنمـا كان خطيبا[2] .

وقد بلغ من تعصب ابن الأعرابى على أبى تمام أن قال وقد أنشد شعراً لأبى تمام : إن كان هذا شعراً فمـا قالته العرب باطل ، ويروى : إن كان الشعر مايقوله أبو تمام فليس معنا منه شىء ، وإن كان الشعر ما تقوله العرب فليس مع أبى تمام منه شىء . بل كان يكره أن يروى له شعرا أو يسمع اسمه .

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص : ١٩ . ط : الحلبى .

(٢) الموشح للمرزبانى : ص ٣٠٤ .

وكان الأصمعى الذى يقول فيه بعض الأدباء الكبار : ما رأيت أحداً قط أعلم بالشعر من الأصمعى ولا أحفظ لجيده ، كان هذا شديد التعصب على المحدثين ، وكان شديد التبرم بالخطأ الذى يقع فى أشعارهم ، حتى لقد روى عنه أنه قال : كنا نظن الطرماح شيئاً حتى قال :

وأكره أن يعيب على قومى هجائى الأرذلين ذوى الحنات

لأنها إحنة وإحن ، ولا يقال : حنات ، فأسقط شاعراً أموياً مشهوراً لأنه أخطأ فى كلمة ، ولو أردنا أن نعرف رأيه فى أبى تمام على هذا القياس لقلنا : إنه كان لا يعد أبا تمام إنساناً !.

كأن تهمة أبى تمام الأولى أنه خرج عن عمود الشعر العربى ، وأن كلامه لا يشبه كلام الأوائل ، ومن هنا أبغضه المحافظون .

ولعل مفتاح المسألة عندى أبيات قالها أبو تمام يتحدث فيها عن الشعر ، جاء فى مدحه لأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى :

إليك أرحنا عازب الشعر بعد ما تمهل فى روض المعانى العجائب

غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

فأبو تمام يريح (عازب الشعر) وقصائده (غرائب) وهى (صوب العقول) لا وليدة العواطف .

فى هذه الأمور الثلاثة يكمن السر فى تجديد أبى تمام .

نشأ أبو تمام بمصر ، وكان ـ كما يقال ـ يسقى الماء بجامع الفسطاط ، وفى هذا الجامع آنذاك حركة علمية ناشطة ، يجلس فيه العلماء ، ويفد إليه المتعلمون ، ويحتدم الجدل والمناقشات حول مسائل كثيرة ، وما من شك فى أن أبا تمام الغلام الذكى المغترب جلس إلى هذه الحلقات ، وأخذ كثيراً منها ، وحين رجع إلى بغداد وجد حركة علمية واسعة النطاق ، وجد المترجمين ينشطون بتشجيع الخلفاء والولاة

والوزراء فى ترجمة كثير من الكتب اليونانية والفارسية ، حتى قيل إنه لم يبق علم من العلوم التى ألف فيها الهنود والسريان والفرس واليونان إلا ترجم منها فى العلم الواحد الكتاب أو الكتابان أو الثلاثة ، ماعدا السحر وعبادة الأوثان .

كان ذلك فى عصر المأمون ، وفى هذه الفترة وما وليها عاش أبو تمام فى بغداد ، وكان حريصا على القراءة والدرس ، فتثقف ثقافة واسعة ، ويروى ابن المعتز عن محمد بن قدامة أنه قال : دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفت ساعة لا يعلم بمكانى لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر إلى وسلم على ، فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنظر فى الكتب كثيرا ، وتدمن الدرس فما أصبرك عليها ، فقال : والله ، مالى إلف غيرها ، ولا لذة سواها ، وإنى لخليق إن أتفقدها أن أحسن[1] .

وما زال أبو تمام يعب من هذه الدفاتر وأمثالها حتى أطلق عليه الناس لقب «العالم» .

ويبدو أن ذاكرته كانت قوية ، حتى قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب ، غير المقاطيع والقصائد[2] .

بهذه الثقافة الواسعة دخل أبو تمام رياض الشعر فظهر أثر هـذه الثقافة فى شعره ، وبذلك بعد عن الطبع ، ذلك أن الشعر إذا صدر عن وعى لم يكن شعرا ، فهو ربما أرضى العقل ، ولكنه لا يرضى العاطفة ، وهل الشعر إلا عاطفة ؟ ! .

ولنرجع إلى كلمة صاحب الوساطة لنرى ما عابه المحافظون على أبى تمـام ، وما جعلهم من أجله يتعصبون عليه ، ويحاولون إسقاطه .

كان أبو تمام يحاول الاقتداء بالأوائل ، فيأتى بألفاظهم ، وينسج على منوالهم ، وتلك طريق كثيرة العثار ، فإن الشعر إذا أصبح صنعة يصنع كما تصنع الثياب على حذو ثياب أخرى بعدت عن الطبع ، وبذلك يقل ماؤها ، ويغيض رواؤها ، رووا أن أبا تمـام سمع أرجوزة أبى نواس التى مدح بها الفضل بن الربيع (وبلدة

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز : ص ٢٨٤ .

(٢) معاهد التنصيص : ج ١ ص ٣٨ : ط . السعادة .

فيها زور) فاستحسنها وقال : سأروض نفسى فى عمل مثلها ، فجعل يخرج إلى الجنينة ويشتغل بما يعمله ، ويجلس على ماء جار ، ثم ينصرف بالعشى ، حتى فعل ذلك ثلاثة أيام ، ثم خرق ما عمل ، وقال : لم أرض ما جاءنى .

فهذه المعاناة الشديدة ، وذلك الاحتفال الغريب لتقليد أرجوزة أبى نواس لا يمكن أن تخرج شعراً عليه طلاوة الطبع ، وسماحة الفطرة ، بل هى جديرة أن تقوده إلى الألفاظ الوعرة ، والكلمات الحوشية ، والتعقيد والكزازة ، وذلك ما كان فى جزء كبير من شعر أبى تمام .

وقد قال الآمدى : إن أبا تمام رأى بعض الكلمات الغريبة التى لم يستعملها الأوائل إلا نادرا فأحب ألا تفوته ، فأكثر منها فى شعره ، وهى كلمات لم يعرف الأصمعى معناها [1] .

وكان أبو تمام ربما سئل عن بعض المعانى فيرشد إلى الموضع الذى أخذها منه ، وكانت رغبته فى الإغراب ربما دعته إلى استعمال ألفاظ مستكرهة يستعاذ بالله منها ، فهى - كما يقول المرزبانى - من الغريب المصدود عنه ، وليس يحسن من المحدثين استعمالها ، لأنها لا تجاور بأمثالها ، ولا تتبع بأشكالها ، فكأنها تشكو الغربة فى كلامهم !.

ومن غرام أبى تمام بالإغراب أنه بكر باستعمال مصطلحات العلوم ، وربما كان أول شاعر ذهب هذا المذهب ، وما كنت أظن أن شاعرا قديما كأبى تمام يقصد إلى هذا النحو من التعبير ، رأيت ذلك فى قوله فى الخمر :

لقد تركتنى كأسها وحقيقتى مجاز ، وصبح من يقينى كالظن

ففى أوائل القرن الثالث لم تكن كلمتا الحقيقة والمجاز قد شاعتا ، بل إن المجاز الذى عرف فى كتاب أبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ ﻫ ، وفى « معانى القرآن » للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ ﻫ ، لم يكن مجازا بالمعنى الذى شاع فيما بعد عند علماء البلاغة ، والغريب حقا هو قرن المجاز بالحقيقة فى هذا البيت.

---

(١) الموازنة : ص ٢٤٣ . ط : محي الدين .

و « البديع » لعله يحمل العبء الأكبر فى فساد شعر أبى تمـام ، فقـد قالوا : أول من أفسد الشعر بالبديع مسلم بن الوليد ، ثم اتبعه أبو تمام ، واستحسن مذهبه وأراد ألا يخلو بيت من شعره من بعض هـذه الأصناف ، فسلك طريقاً وعرا ، واستكره الألفاظ والمعانى ففسد شعره .

وبذلك خالف الأوائل ، فإن الشاعر منهم كان يقول من هـذا الفن البيت فى القصيدة ، وربمـا قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحلى ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل[1] .

وكان أبو تمـام متأنقا فى كل شيء حتى فى مطعمه وملبسه ، فسرى حب التأنق إلى فنه ، ولكنه تنكب الطريق الصحيح فأثقل شعره بالبـديع فكرهه أصحاب الأذواق العربية السليمة .

وقد أعجبتنى كلمة للآمدى فى وصف شعر أبى تمـام تعبر أقوى تعبير ، وتعرب أتم إعراب عما يجده القارىء لأبيات البديع ، وصف الآمدى هـذا الشعر بقوله : ذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه ، فهذه الكلمة الأخيرة « نشف ماؤه » من أدق ما يقوله ناقد نفاذ فى وصف أبيات البديع التى بناها أبو تمـام ، فإنمـا الشعر رونق وطبع وماء كماء الشباب فى خدود الغيد الحسان .

والكلام المطبوع سهل عذب ، وله ماء ورقة وحلاوة ، أما الكلام المتكلف فمعقد كز ، وجاس غليظ ، وهكذا كان بعض شعر أبى تمـام .

وطبيعة الشعر القديم تميل إلى السهولة والقصد إلى المعنى ، والاعتدال فى الأحكام ، أما الإسراف والمبالغة فمن طرائق المحدثين .

ولذلك نجد المحافظين من الشعراء والعلماء يفضلون الشعر القديم ، لأنه جاء عن طبع وإسجاح ، كما يفضلون الشعراء الذين يسيرون على نهج القدماء ، ولذلك كانوا يفضلون البحترى ويقدمونه على أبى تمـام ، لأنه حسن العبارة ، حلو الألفاظ ، صحيح المعانى .

---

(١) البديع لابن المعتز : ص ١٦ . ط : الحلبي .

ثم عاب الجرجانى على أبى تمام كما عابه من سبقوا الجرجانى بأنه اجتلب المعانى الغامضة ، فاحتمل فيها كل غث وثمين ، وذلك ولا شك من أثر صدور الشعر عن فكر ، وعقل ، ووعى ، والشعر لمح تكفى إشارته ، ويغنى عن شعره كذبه ، ومن الخطأ أن يخضع للمنطق - كما يقول الشاعر البحترى - .

وقد سمع أعرابى قصيدة أبى تمام التى مطلعها : (طلل الجميع لقد عفوت حميدا) فقال : إن فى هذه القصيدة أشياء أفهمها ، وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه .

وقد دافع بعض الكتاب المحدثين عن غموض المعانى عند أبى تمام ، ورأى أنه ليس على الشاعر أن ينزل إلى الجمهور ، وإنما على الجمهور أن يرتفع إلى الشاعر ، والشعر حين يرقى ويصبح ترفاً يكون للمثقفين ثقافة عميقة دون العامة [1] .

وقد أطال فى هذا الدفاع ، ولكن الكلمة الوحيدة التى ينبغى أن تقال هنا ، إن الشعر لم يكن يوماً من الأيام فصلا من فصول الثقافة ، ولا كان وسيلة لإرضاء العقل ، وتزويده بما يريد أن يتزود .

وإذا كان النقاد فى القرن الثالث ، وفى القرن الرابع قد سخطوا شعر أبى تمام ، أو على وجه الدقة بعض شعره ، فإننا لا نزال وقد امتد بنا الزمن نشعر بمثل ما كانوا يشعرون به حين نقرأ شعر أبى تمام .

فلا زلنا ننكر هذه الاستعارات البغيضة التى أسرف أبو تمام فى إثقال شعره بها ، ولا زلنا ننكر المعانى الغامضة التى لا تفهم إلا بعد العناء والمشقة فى استخراجها .

وأحب أن أقول بعد هذه الرحلة القصيرة إن الإسراف كان طابع الخصومة حول أبى تمام ، وإن الرجل شعراً لا يعلوه شعر غيره من معاصريه ، وقد أنصف على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة إذ قال بعد أن ساق عباراته التى

---

(١) الدكتور شوقى ضيف فى كتابه : « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد كتب فصلا رائعا عن أبى تمام ، لكنه أراد نفسه على أن يحتج له ، ويشيد بما أنكره النقاد وهو - فيما أعتقد - دفاع العالم ، ونحن إنما يعنينا دفاع الأديب .

صدرنا بها هذا البحث : « ولست أقول هذا غضا من أبى تمام ، ولا تهجيناً لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره ، فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع » .

فالفرق واضح بين موالاة الرجل ، وذكر الحق فى شأنه ، فما من شك فى أن أبا تمام أساء فى كثير من استعاراته ، وفى كثير من أبياته التى أكثر فيها من ألوان البديع ، أما حين يترك نفسه لسجيتها ، ويستجيب لطبعه فإنه يبلغ القمة فى حسن التعبير والتأثير ، ألا يعجبنا قوله :

أعوام وصل كاد ينسى طيبها ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت نحوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحــلام

ولو أن أبا تمام أنصف نفسه فأسقط من شعره ما كان يرى أنه ردىء لسلم شعره من شر كبير ، ولكنه كان يعرف البيت الردىء فيبقى عليه ، ويحتج بأن شعر الرجل مثل أبنائه يكون منهم القبيح المتخلف فهو يعرف أمره ، ويرى مكانه ، ولا يشتهى أن يموت .

ولو أن خصوم أبى تمام لم يسرفوا فى عداوتهم له لقد كانوا وجدوا أنصاراً كثيرين ، فإن الحق معهم فى كثير مما عابوه عليه ، ولم يكن من حقه أبداً أن يقول : « أنا اللغة » .

ولو أن أنصار هذا الشاعر اقتصدوا فى تعصبهم له ، والتزموا الجادة عند تفضيله على غيره ، واعترفوا بما يعلمون فى شعره من اقتسار للألفاظ والمعانى أحيانا ، لو أنهم فعلوا ذلك لاتبعهم كثير من النقاد ، لأن الإنصاف يحبب الناس فى المنصفين ، واتباع الحق يشرح الصدور للنصرة والموالاة ، ولما قابل المنحرفون عن أبى تمام إفراطاً بإفراط فبخسوه حقه ، واطرحوا إحسانه ، ونعوا سيئاته ، وقدموا عليه من هو دونه ـ كما يقول الآمدى ـ .

ولكن الرجل كما ابتلى بتسلط نفسه عليه ، ابتلى كذلك بأنصاره وخصومه على السواء .

لم أكثر من الاستشهاد لما أخذ النقاد على أبى تمام ، لأن ذلك قريب من القارىء لو أراد ، فما هو إلا أن ينظر فى كتاب الموازنة للآمدى ، أو كتاب الموشح للمرزبانى ، حتى يجد من ذلك شيئاً كثيراً .

ومع ذلك فلا نغفل هنا بعض ما يناسب هذا الحديث .

ولعل أول ما يدل على الصنعة فى الشعر ، ومجافاة الطبع أن يجىء الشعر غير مُستو ، ويتفاوت تفاوتاً شديداً ، وهكذا كان شعر أبى تمام فجيده لا يتعلق به جيد غيره ، ورديئه - كما عبر بعضهم - « بحر من القاذورات » .

وأشد التفاوت قبحاً ما كان فى البيت الواحد .

حدث بعض الرواة قال : دخل المؤمل بن أميل المحاربى مسجد الكوفة فى يوم جمعة ، وقد نمى إلى الناس خبر وفاة المهدى ، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك ، فقال رافعاً صوته :

(مات الخليفة أيها الثقلان)

قال فقال جماعة من الأدباء : هذا أشعر الناس : نعى الخليفة إلى الجن والإنس فى نصف بيت ، وأمده الناس أبصارهم وأسماعهم متوقعين لما يتم به البيت فقال :

(فكأننى أفطرت فى رمضان)

قال : فضحك الناس به ، وصار شهرة .

ولأبى تمام من هذا اللون أبيات ، من ذلك قوله فى مدح قوم :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوف

فقد تفاوت هذا البيت أشد التفاوت بين الإساءة والإحسان ، ذلك أنه ابتدأ ابتداء رائعاً ، فجعل هؤلاء القوم زينة الزمن ، وكفاة العانى ، وأمان الخائف ، ثم شعبتهم شعوب فتفرقوا ، وتعرى الزمن ، وفقد أهله العون والنصير ، وقد ذكر ذلك فى أروع عبارة ، وأفخم لفظ ، فلما جاء للشطر الثانى أدركه كلال الطبع ، وسوء التصرف ، فجاء الشطر متهافتاً يكاد يسقط إعياء ، وحسبنا أن نتخيل هذه الصورة (زمن يلبس الصوف) .

ومن الأمثلة التى ذكرها الآمدى فى العيب على أبى تمام ، وعلق عليها تعليقاً لطيفاً هذا البيت :

جارى إليه البينُ وصلَ خريدة ماشت إليه المطلَ مَشىَ الأكبد

فقد عده من ردىء الاستعارات وقبيحها ، وقال فى شرحه : الهاء فى « إليه » راجعة إلى المحب ، يريد أن البين ووصل الخريدة تجاريا إليه ، فكأنه أراد أن يقول : إن البين حال بينه وبين وصلها ، واقتطعها عن أن تصله ، وأشباه هذا من اللفظ المستعمل الجارى ؛ فعدل إلى أن جعل البين والوصل تجاريا إليه ، وأن الوصل فى تقديره جرى إليه ، يريد فجرى البين ليمنعه فجعلهما متجاريين ، ثم أتى بالمصراع الثانى بنحو من هذا التخليط فقال : (ماشت إليه المطل مشى الأكبد) فالهاء هنا راجعة إلى الوصل : أى لما عزمت على أن تصله عزمت عزم متثاقل مماطل ، فجعل عزمها مشياً ، وجعل المطل مماشياً لها .

ثم قال الآمدى بعد هذا الشرح :

فيامعشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية : خبرونا كيف يجارى البين وصلها ؟ وكيف تماشى هى مطلها ؟ الا تسمعون ؟ الا تضحكون ؟ .

ولا عجب أن يضيق صدر هذا الناقد الذواقة بمثل هذه الاستعارات التى لا يمكن الدفاع عنها إلا مع التعسف والشطط ، والتنكر لكل القيم الجمالية فى الأدب .

أراد هذا الشاعر أن يجدد ، ولا يمكن لإنسان أن يقف فى تيار التجديد ، لأنه طبيعة الزمن ، ولكن ينبغى أن يحذر كل من يريد التجديد من عثرات الطريق ، ومن خداع النفس والحس ، ومن الغرور الذى يخيل إليه أن اللغة طوع يمينه ، وأن الناس ، أدباءهم ونقادهم ، أهون من أن يقفوا فى طريقه .

وهذا أبو تمام ركب رأسه فى أكثر من ثلث شعره فهجنه ، وأذهب ماءه ، وألب الناس عليه ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ؟

صدام بين السنة والشيعة فى باكستان

فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى

مدير المساجد

نشرت الصحف خبراً مؤداه : أن رجال البوليس فى مدينة كراتشى أعلنوا أن ١٢٠ شخصا من المسلمين قد قتلوا ، كما أصيب ١٦ شخصا آخرين بجراح على أثر معارك دامية نشبت بين السنيين والشيعة فى قرية ثارى التى تبعد ٢٥ ميلا عن العاصمة الباكستانية وأن النيران أشعلت فى القرية التى دارت فيها المعارك ... وأن اشتباكا مماثلا وقع فى لاهور راح ضحيته شخصان ... كما جاء فى الخبر : أن السنيين هم أنصار النبى محمد ، بينما الشيعة هم أنصار على رابع الخلفاء الراشدين .

قرأت هذا النبأ الفاجع ثم أطرقت كئيباً كسير النفس ، يا أسفاه على هذه الدماء المراقة ، وهذه الدور المحروقة .. إن الإسلام ليسمع أنينه خلال هذه الأنقاض المركومة ، وإن الأخوة فى الله لتذهب بددا مع هذه الغارات الضريرة ، لم هذا العراك ؟ أهو بين المسلمين والمستعمرين الذين اجتاحوا ديارهم ؟ أهو بين المسلمين والصهيونيين الذين استولوا على تراثهم ، ومحوا معالمه ، وبنوا فوقه دولة لهم ؟ .

يا حسرتاه ، إنه بين مسلمين ومسلمين ، ران عليهم ليل الجهل ، فهم فى ظلامه يلطم بعضهم بعضا ، ويستبيح بعضهم بعضا ، والرابح فى هذا العراك هو الشيطان وحده .

* * *

على أن هذا الخبر يخفى وراءه قصة طويلة الذيول ، موغلة فى الماضى ، وربما كان العوام أخف الناس جرماً فيما حفلت به من آثام ، أما الذين تثقل كفتهم بالجرائر فهم أولئك الذين يبعثرون بذور الفرقة فى كل ناحية ، ولا يبالون أن تحصد الأجيال مرارتها غارات وثارات ، وأن يحصد الإسلام نفسه جناها ، وهنا فى صفوفه ،

وتقهقراً لقضاياه ، ليس بين المسلمين خلاف تراق من أجله دماء قطيع من الغنم ، فكيف يلقى فى روع الأغرار أن هناك نزاعا بين المسلمين لا يحله إلا السيف .

* * *

إن من أنكر الأمور افتعال الأسباب لتفريق الكلمة وتمزيق الأمة .

ربما اختلفت وجهات النظر فى قضية ما ، وانشعب الناس حولها مذاهب ... لكن حيث لا تختلف الأفهام ، ولا تتعدد الأنظار ، كيف يستبيح بعض الناس لأنفسهم أن يخلقوا الفرقة خلقا ، وأن يقحموها على الواقع إقحاما ، لا لشىء إلا لرؤية الناس أحزابا متناحرة ، وطوائف متدابرة .

إننى آسف لأن بعض من يرسلون الكلام على عواهنه ، لا ، بل بعض من يسوقون التهم جزافا غير مبالين بعواقبها ، دخلوا فى ميدان الفكر الإسلامى بهذه الأخلاق المعلولة فأساءوا إلى الإسلام وأمته شر إساءة .

سمعت واحدا من هؤلاء يقول فى مجلس علم : إن للشيعة قرآنا آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف .

فقلت له : أين هذا القرآن ؟ .

إن العالم الإسلامى الذى امتدت رقعته فى ثلاث قارات ، ظل من بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرنا لا يعرف إلا مصحفاً واحداً مضبوط البداية والنهاية معدود السور والآيات والألفاظ ، فأين هذا القرآن الآخر ؟ ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل ؟ لماذا يساق هذا الافتراء ؟ ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات ، وتلقى بين الأغرار ، ليسوء ظنهم بإخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم ؟ .

إن المصحف واحد ، يطبع فى القاهرة فيقدسه الشيعة فى النجف أو فى طهران ، ويتداولون نسخه بين أيديهم وفى بيوتهم دون أن يخطر ببالهم شىء بتة إلا توقير الكتاب ومُنزِله - جل شأنه - ومبلغه - صلى الله عليه وآله وسلم - فلم الكذب على الناس ، وعلى الوحى ؟ ؟ .

ومن هؤلاء الأفاكين من روّج أن الشيعة أتباع على ، وأن السنيين أتباع محمد ، وأن الشيعة يرون عليّاً أحق بالرسالة ، أو أنها أخطأته إلى غيره !! .

وهذا لغو قبيح وتزوير شائن .

ولكن تصديق هذا اللغو كان الباعث على تلك المجزرة المخزية التى وقعت بين أبناء الإسلام من سنة وشيعة ، فجعلتهم - وهم الإخوة فى الدين - يأكل بعضهم بعضا على هذا النحو المهين .

إن الشيعة يؤمنون برسالة محمد ، ويرون شرف على فى انتمائه إلى هذا الرسول وفى استمساكه بسنته .

وهم كسائر المسلمين لا يرون بشراً فى الأولين والآخرين أعظم من الصادق الأمين ، ولا أحق منه بالاتباع ، فكيف ينسب لهم هذا الهذر ؟ .

الواقع أن الذين يرغبون فى تقسيم الأمة طوائف متعادية لما لم يجدوا لهذا التقسيم سبباً معقولا ، لجأوا إلى افتعال أسباب الفرقة ، فاتسع لهم ميدان الكذب حين ضاق أمامهم ميدان الصدق .

لست أنفى أن هناك خلافات فقهية ونظرية بين الشيعة والسنة ، بعضها قريب الغور ، وبعضها بعيد الغور ، بيد أن هذه الخلافات لا تستلزم معشار الجفاء الذى وقع بين الفريقين .

وقد نشب خلاف فقهى ونظرى بين مذاهب السنة نفسها ، بل بين أتباع المذهب الواحد منها ، ومع ذلك فقد حال العقلاء دون تحول هذا الخلاف إلى خصام بارد أو ساخن .

وكان خيراً للشيعة أن يفهموا أن أهل السنة يضمرون أعمق الود لأهل البيت ، وينفرون أشد النفرة مما يسوءهم . وكان خيراً للسنيين أن يفهموا أن الشيعة يلزمون أنفسهم سَنَنَ صاحب هذه الرسالة ، ويعدون الانحراف عنه زيغا .

أما ما وقع من اختلاف فقهى أو نظرى فلا يعدو أن يكون وجهات نظر لها مصادرها العلمية ، ونية أصحابها إلى الله ، وهم - أصابوا أم أخطأوا - مثابون مأجورون :

وقد يتشدد فريق من الناس فيقول عن الفريق الآخر إنه مخطىء يقينا !! لكن ، فما صلة هذا الخطأ بالقلوب ، وما أودعت من إيمان ؟ هب خطيبا أخطأ فى إعراب كلمة ، أو كاتبا أخطأ فى إملائها ، أو حاسبا أخطأ فى إثبات رقم ، أو مؤرخا أخطأ فى ضبط واقعة ، هب ذلك حدث فما صلة هذا الخطأ بحقيقة الدين ، ونظم عباد الله طوراً بين المؤمنين ، وطوراً بين الكافرين !! .

إذا كان الرجل يؤمن معى بكتاب الله ورسول الله ، ويصلى الخمس كل يوم ، ويصوم رمضان كل عام ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، فكيف أستبيح تفكيره لأنه أخطأ الفهم فى بعض القضايا ، أو أخطأ الوزن لبعض الرجال ؟ ؟ .

لكن هناك خطأ حقيقى وقع فيه هذا أو ذاك ، خطأ لا أقبل الاعتراف به ، فلماذا لا يترك البت فى هذه الأمور للزمان المتطاول يحل المشكلات الفقهية والنظرية بدل أن تحل فى معارك الجدل الذى يفقد فيه المجادلون ضمائرهم وصفاءها ، أو تحل فى معارك القتال الذى تنحل فيه عروة الأيمان ، ويزأر فيه صوت الشيطان . .

إنّ الخلاف الفقهى أو النظرى فى كثير من الأمور ليس خبزاً نتناوله كل يوم ، والقضايا التى دار فيها هذا النزاع يمكن للمسلمين اطراحها جانبا ، ونسيانها أمداً ، يشتغلون خلاله بالبناء لا بالهدم ، بالعمل لله فى المحاريب المخبته أو فى الميادين المنتجة .

أما شغل الناس حتما بخلافات لها أصل ـ وما أقلها ـ أو بخلافات مفتعلة ـ وما أكثرها ـ فليس من الدين فى قليل ولا كثير .

والذين يحرصون على ذلك ليسوا من الله فى شىء ؟

رسالة الإسلام :

اتصلت دار التقريب فى هذا الشأن بالجهات المعنية رغبة فى جمع الشمل وحل هذا الخلاف بما يستل آثاره من نفوس الإخوة ، ويضمن ألا يتكرر فى المستقبل والله المستعان .

الفن الإسلامي

بين الفنون الإنسانية

لفضيلة الأستاذ العالم الرسام عبد المجيد وافى

المدرس بالأزهر

الحديث عن الفن فى الإسلام يستدعى أن أقدم بين يديه تعريفاً بالفن وتنوعات التعبير والأساليب التى زاولها الفنانون قديماً وحديثاً ، حتى يمكن بعد ذلك إلحاق جوانب الإنتاج فى الفن الإسلامى بمثيلاتها من فنون الأمم الأخرى ، أو بيان جهة التميز والانفراد ، وإظهار مكانتها بين قيم الإبداع الإنسانى .

فالفن : كلمة أصبحت تطلق على كل عمل إبداعى أنتجه واحد أو جماعة من الناس ، والمراد بالإبداع إتقان العمل واختصاصه بجانب من جوانب الجمال التعبيرى ، الصادر عن إدراك حساس ، ينفرد بحساسية عن إدراك العامة أو الجماهير .

وبذلك يكون الفن عنواناً على كل ما حقق ذلك التميز ، من شعر الشعراء وألحان الموسيقيين ، وانعكاسات عدسات المصورين ، والزخارف والتماثيل والرسوم والنقوش ، فى مجال التعبير عن انفعال الفرد أو الجماعة بما حولهم ، إذ لا يكون فنا ما يفعله بعض الناس بدعوى الفن ، مغرقين فى فرديتهم وبعدهم عن مدركات وإحساس الجماعات على اختلاف مستوياتها الثقافية .

ومن واقع ما تركه لنا التاريخ البشرى وما خلفته الحضارات ، كان العمل الفنى إما تحفة أو طرفة مستقلة بالتأثير الجمالى فى ذاتها ، أتمها الفنان بدافع شخصى ، أو مكلفاً ممن يحب اقتناء التحف والطرف ، وعاشت لتحكى إبداع اليد الصناع وآثار البيئة والعصر على انفعال المتفنن .

وقد لا ينفرد العمل الفنى بذاتة ، ولكن يدخل فى تصميم معمارى أو تكوين وحدة فى صناعة من الصناعات ، وهو مع ذلك لا يفقد قيمته الجمالية ، بل يرفع من مستوى الجمال لما احتواه فى تكوينه .

والحديث هنا تضيق دائرته على حدود الفن التشكيلى ، حتى لا يتشعب الأمر ، ونقتصر على أنواع الفنون التى اعتمدت اللون والأحجام والتخطيط كوسائل للتعبير وقد سميت تشكيلية لأنها فى تنوعها واختلافها إنما تمثل أشكالا ذات أبعاد كالتماثيل والعمارة ، أو أشكالا متخيلة الأبعاد كالصور والرسوم :

والفن الإسلامى الذى حوت المتاحف كثيرا من راوئعه ، كما نرى آياته ماثلة فى صروح المساجد ومخلفات القصور ، أحاط بكل هذه الأنواع ، وأخذ بكل أساليب التعبير وانفرد بنوع معين لم تشاركه فيه الفنون الأخرى ، ذلك هو استخدام الكتابة كوحدة من وحدات الزخرف فى العمارة ، أو تزيين التحف والطرف .

وذلك واضح فى استعمال الكتابة الكوفية بأشكال كثيرة تنوعت على مر العصور الإسلامية ؛ فاستعملت الحروف المجردة ، فى أوائل العصور الإسلامية ، مثل الكتابات الباقية من العصر الأموى على جدران قبة الصخرة ، وكتابات المصاحف الأولى ، وما وجد على شواهد القبور قبل العصر الطولونى ، ثم دخلتها الزخارف وتضفير القوائم فى أشكال نباتية أو هندسية ، كما فى الكتابات الفاطمية والمملوكية والأندلسية ، وكوفى المربعات الفريد فى بابه .

وكذلك صور الطيور والحيوانات المرسومة تكويناً من كتابة الحكم أو الآيات أو الأحاديث والتى انتشرت فى العصر التركى ونهاية العصر المملوكى .

* * *

وإذا كانت الحفريات وبحوث الأثريين قد كشفت عن الكثير من مخلفات الإنسان منذ العصر الحجرى حتى الآن ، كرسوم الكهوف التى لا تكاد تختلف فى شىء عن رسوم البدائيين المعاصرين من سكان إستراليا وإيريان الغربية .

وروائع العصور الفرعونية ، وبلاد الإغريق ، وفنون الرومان والفرس ومخلفات الأزتيك والانكا فى أمريكا . . . الخ .

وحقق العلماء والباحثون قيمتها من ناحية الأصالة الفنية ومدى صدق الإبداع والتعبير ، كما ربطوا بين ما اكتشف وواقع حياة الشعوب ، واستخلصوا منها دقائق التاريخ وتطور البشرية ، الاجتماعى والثقافى .

فإن الحضارة الإسلامية التى سلخت من عمرها ثلاثة عشر قرناً ونيفا ، وغطت مساحة من الكرة الأرضية بدأت من الجزيرة العربية - مشرق الدعوة الإسلامية - إلى ما وراء الهند حتى حدود الصين شرقا ، وإلى المحيط الأطلسى غربا

لم تتخلف عن غيرها من الحضارات فى جانب الفن ، بل قد امتازت عنها فى تنوع إنتاج الشعوب الإسلامية تنوعا كبيراً ، وظلت رغم هذا التنوع محتفظة بوحدة الطابع ، حتى ليستطيع أى فرد له حظ من ثقافة أن ينسبها إلى معينها وهى الحضارة الإسلامية وهذا أمر لم يتوفر لأى إنتاج فنى فى تاريخ الحضارات .

تنوع الإنتاج :

والأعمال الفنية ، فى مختلف عصور التاريخ الإنسانى ، وبين الشعوب المعاصرة ، تنسب إلى طائفتين من الفنانين :

(ا) الفنان المتخصص الذى تفرغ لعمله الفنى واحترفه ، فأنتج عمله بدافع من رغبة خاصة أو تكليف ، ولا يمنع ذلك أن يكون بين أعماله ما جاء نتيجة لانفعال ذاتى ، أو وحى موضوع ، أو تأثير البيئة .

وتلك الأعمال عرفت بين المشتغلين بالفنون والآثار بـ « الفن التقليدى » .

وفى كل بلد أخذ بقسط من الحضارة متحف أو متاحف تضم الكثير من هذه الأعمال منسوبة إلى عصورها أو صانعيها ، ويهتم كل متحف منها بتدوين دراسات مبسطة عن تاريخ هذه الأعمال وقيمتها ، ودراسات مفصلة للمتخصصين تثبتها فى مستوياتها بين غيرها من البدائع .

(ب) الفنان الذى كانت له دراية أو قدر من ثقافة فنية لكنه لم يحترف الفن ولم يتفرغ له ، وكثيرا ما تكون أعمال هذا النوع من الفنانين بدافع من الانفعالات الخاصة أو تأثيرات البيئة .

أو عامل اشتغل بتنفيذ الأعمال الفنية بتوجيه من مهندس أو معلم ، فاكتسب مهارة أعطته مقدرة على انفراد بأعمال معينة بعيداً عن توجيهات المعلم أو تصميمات المهندس منفعلا بالتفكير الخاص أو البيئه .

وتلك الأعمال عرفت بين المشتغلين بالفنون ونقدها بـ « الفن الشعبي » :

وقد عرف هـذا النوع لـكثير من الشعوب ، وخلفت الحفريات نماذج رائعة من الفنون الشعبية أخذت عناية خاصة من الباحثين لارتباطها بالتقاليد والعادات والأساطير الشعبية فى كثير من الأحيان .

* * *

والفن التقليدى يتميز بارتباطه بأصول معينة ، وخضوعه لقواعد ترسخ بإرساء الأساتذة والمتفننين ، تتفرع على مر الأيام إلى مدارس ومذاهب .

بل وقد تنتقل من بيئة إلى أخرى ملقية عليها بتأثيراتها وخصائصها ، كما حدث بين الفن الإغريقى والرومانى قديما ، وما يحدث فى مدارس التصوير والرسم المعاصرة وانطباع التعبيريين بالتأثيريين وما إلى ذلك .

كما أن الفنون الشعبية تتحرر من قيود التقليديين وقواعدهم ، فيكتسب بذلك إنتاجها خصائص نابعة من هذا التحرر تميزه .

وتتنوع بتنوع الذوق الفردى للفنان الشعبي ، وانطباعاته وإمكانياته ، وتختلف تناولا من ناحية خامات الإنتاج عن الفن التقليدى ، كما نرى فى الفن الشعبي الإسلامى حين يستعمل خامات ممكنة للفنان دون الخامات الغالية التى انتشرت فى الأعمال الرفيعة .

* * *

والفنون الإسلامية قد اجتذبت الباحثين ، ونتج عن تنوعها وكثرة فروعها تفرع البحوث وتعدد أنواع التخصص فى نواحيها بينهم ، ولكنهم عامة لم يلتفتوا إلى تنوع الإنتاج بين شعبي وتقليدى ، إلا حديثا حيث انفرد الأستاذ العالم الأثرى المؤرخ « حسن عبد الوهاب » فى دراسة خاصة له تناولت العمارة والزخارف

والطرف ، معدداً أمثلة من العمل الشعبي وعصوره ، أعدها للمجمع العلمى المصرى ، كما أشار إلى ذلك فى بعض بحوثه قبل ذلك .

وأشار إلى الفن الإسلامى الشعبي أيضاً « دكتور ديماند » أمين القسم الإسلامى بمتحف المتروبوليتان فى أمريكا ، وكانت إشارته عابرة فى كتابه « الفنون الإسلامية » الذى ترجمه الأستاذ أحمد عيسى إلى العربية .

ولكن عدم تناول الباحثين ذلك الأمر باستفاضة ، لم يمنع أنه أمر وقع ، وتأكد وجوده بما نراه الآن بين أيدينا من الأعمال التى نسبت إلى العصور الاسلامية المختلفة .

وقد ظل بعضها يعيش بيننا حتى الآن منتسبا إلى جذور أصيلة من الفن الشعبي الإسلامى كعرائس المولد ، وفوانيس رمضان ، وزخارف الخيام التى تقام فى المآتم والأفراح .

وكالأقمشة التى تنسج على أنوال يدوية وأنواع من البسط والكليم .

وكلها إنتاج طبقة من الفنانين الشعبيين يمثلون استمرارا لفنون كانت أصولها موجودة في عصور إسلامية مضت .

قيمه الفن الشعبي :

والفنون الشعبية الإسلامية انفردت عن غيرها من الفنون الشعبية للأمم الأخرى ، بأنها تشترك مع فنون المتخصصين فى وحدة الطابع ، وكثير من الموضوعات بل وبعض الخامات أيضاً .

وافترقت عنها بظهور جهد العامل أو الصانع واضحا دون أية إشارة إلى تصميم المهندس أو توجيه المعلم ، وهو فرق لا يلاحظه إلا المتعمقون فى دراسة الفنون الإسلامية ، ولعل هذا هو السبب فى اعتبار نوعى الإنتاج شيئاً واحدا عند كثير من المشتغلين بالفنون الإسلامية .

وإذا عرفنا أن كثيراً من الأعمال الفنية الأصيلة كانت منفذة على وفق أصول مرسومة ومدروسة ، مما لا يترك للعامل مجالا فى حرية التصرف فى التصميم ويقصر جهده على التنفيذ طبقا للأصل الذى وضعه المصمم .

فإنه قد وجد الكثير من الأعمال التى ظهر فيها اجتهاد العامل ، وبعده وتصرفه فيما تعودته يده من الأصول المحفوظة ، ولعل بعض هذه الأعمال قد نفذ مباشرة دون تخطيط سابق .

وقد أثبت الأستاذ حسن عبد الوهاب فى بعض كتاباته مستشهدا بالأدلة ، أن المهندسين والمصممين كانوا يخططون لأعمالهم قبل دخولها مرحلة التنفيذ ، ولا أدل على ذلك من دقة المقرنصات التى تعلو أبواب العمائر الإسلامية ، أو الزخارف المفرغة أو المحفورة فى الحجر ، حيث نرى باب مسجد السلطان حسن يحيط به من الجانبين زخرف على شكل « جامة » حفرت حفراً تاما فى واحدة بينما لا تزال الأخرى تخطيطا محفوراً حفراً خفيفا ، والأمثلة كثيرة وواضحة .

كما رأينا النوع الآخر يظهر فيه جهد العامل وحده ، كما نرى فى بعض شبابيك القلل المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى ، حيث يظهر بساطة التخطيط المباشر فى بعضها على شكل طيور أو حيوانات ، بينما تظهر دقة التصميم فى البعض الآخر على شكل فيل أو طاووس بلغت دقته أنه محسوب الفراغات وحركات الخطوط حتى أشبه « الدنتلا » .

وهناك على سبيل المثال بعض أطباق الخزف التى رسم عليها الفرسان ومعهم البزاة ، أو ضاربى المزاهر فى مجالس الطرب ، وإلى جانبها ومن نفس الخامات ، وبوحى من خيال الفنان الشعبي نجد طبقا عليه لاعبان بالعصى فى اللعبة الشعبيه « التحطيب » .

فالأول تقليدى بينما الآخر ظاهر الشعبية

وهكذا يظهر أثر البيئة مرة ، وتوجيه الأستاذ أو المصمم حسب رغبة من تصنع له هذه الأشياء من الخاصة مرة أخرى .

وإذا كانت الفنون بين الحضارات المختلفه قد عبرت بوضوح عن عراقة هذه الحضارات أو بداوتها ، فقد كان الفن الإسلامى على تنوعه واختلافه بين تصوير وتزويق وعمارة وحفر وتطعيم وتكفيت النحاس والفضة والذهب ، شاهداً صادقا على عمق الحضارة الإسلامية بين شعوبها ، ورسوخ قدم فى الدقة والمهارة بين صناعه وفنانيه على مر العصور ؟

عقوبة شارب الخمر

للدكتور عبد العظيم شرف الدين
مدرس الشريعة الإسلامية
فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

دل القرآن الكريم ، والسنة النبوية على تحريم شرب الخمر ، يقول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »[١] .

تهيب هاتان الآيتان بالمؤمنين أن يجتنبوا الخمر والميسر لما ينتج عنهما من شرور وآثام ، وما يورثان من عداوة وبغضاء ، ومن خضوع للشيطان وقوى الإفساد ، فكم من أموال تذهب هباء ، وكم من أخلاق تفسد ، وكم من روابط اجتماعية تتفكك على موائد الشرب والقمار .

وقد دلت الآيتان على تحريم الخمر من وجوه كثيرة :

(١) فالآية الأولى قرنت الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام ، وعبادة الأصنام ، واستشارة الأزلام فيما يقدم عليه الإنسان من أمر خصيصة من خصائص العقلية الجاهلية المغرقة فى الضلال ، وقد جاء الإسلام لتحرير الإنسانية المعذبة من سلطانها الذى كان يحول بينها وبين ما تصبو إليه من سمو وكمال .

---

(١) الآيتان : ٩٠ ، ٩١ من سورة المائدة . الميسر : القمار . الأنصاب : جمع نصب وهو الصنم الذى كان المشركون ينصبونه فيعبدونه . الأزلام : جمع زلم ، وهى قداح ثلاثة كتب على أحدها : أمرنى ربى ، وعلى الثانى : نهانى ربى ، والثالث (غفل) لم يكتب عليه شىء . وكان الجاهلى إذا أراد حاجة استشار هذه الأقداح ، فإذا خرج الأول مضى لحاجته ، وإن خرج الثانى توقف ، وإن خرج الثالث أعاد القرعة . رجس : نجس .

(٢) صرحت الآية الأولى بأن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس ، والرجس نجس يجب اجتنابه شرعا وفطرة ، فالطباع السليمة تعافه وتنفر منه ، كما أمرت باجتناب الخمر والميسر وما ذكر معهما ، ورتبت على اجتنابهما توقع الفلاح .

(٣) بينت الآية الثانية أن شرب الخمر والميسر من عمل الشيطان ، وأن الإقدام عليهما يورث العداوة والبغضاء ، ويصرف المسلمين عن الاستجابة لأقدس الواجبات عليهم : ذكر الله والصلاة .

وروى أبو داود والإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام »[1] ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر ، وأجمعت الأمة على تحريمها ، ولا يؤثر في هذا ما روى عن قدامة بن مظعون ، وعمرو بن معد يكرب ، وأبي جندل بن سهيل أنهم قالوا : هي حلال لقول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فإن علماء الصحابة بينوا لهم أن هذا خاص بمن شرب الخمر قبل تحريمها ، وأقيم الحد على قدامة ومن معه ، ورجعوا إلى القول بالتحريم ، فانعقد الإجماع ، فمن استحلها كان كافرا لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة ، روى ابن عباس رضي الله عنه أن قدامة بن مظعون شرب الخمر ، فقال له عمر : ما حملك على ذلك ؟ فقال : إن الله عز وجل يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » وإني من المهاجرين الأولين من أهل بدر وأحد ، فقال عمر للقوم : أجيبوا الرجل ، فسكتوا ، فقال لابن عباس : أجبه ، فقال : إنما أنزلها الله تعالى عذرا للماضين ، لمن شربها قبل أن تحرم [وذلك أن الخمر حين حرمت قال القوم : قتل فلان . قتل فلان ، وهي في بطونهم ، فأنزل الله عز وجل : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات »[2]] وأنزل « إنما الخمر والميسر والأنصاب » حجة على الناس . ثم سأل عمر عن الحد فيها فقال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى ،

---

(١) المغني : ٨ / ٣٠٣ . (٢) صحيح مسلم : ٦ / ٨٧ .

فاجلدوه ثمانين ، فجلده عمر ثمانين جلدة ، ويروى أن عمر قال لقدامة : « أخطأت التأويل يا قدامة ، إذا اتقيت اجتنبت ما حرم الله عليك » .

ويبدو أن هذا التأويل كان مزلة أقدام كثيرين ، فلم يكن قدامة وأصحابه بدعا فى هذا الظن ، فقد روى أن أناساً شربوا الخمر بالشام ، فقال لهم يزيد بن أبى سفيان : شربتم الخمر ؟ قالوا : نعم بقوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فكتب فيهم إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه : إن أتاك كتابى هذا نهارا ، فلا تنتظر بهم إلى الليل ، وإن أتاك ليلا فلا تنتظر بهم نهارا حتى تبعث بهم إلى لئلا يفتنوا عباد الله ، فبعث بهم إلى عمر ، فشاور فيهم الناس ، فقال لعلى : ما ترى ؟ فقال : أرى أنهم قد شرعوا فى دين الله ما لم يأذن الله فيه ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدوهم ثمانين ثمانين فقد افتروا على الله ، وقد أخبرنا الله عز وجل بحد ما يفترى بعضنا على بعض ، فحدهم عمر ثمانين [١] .

لهذا كله اتفق فقهاء المسلمين على تحريم شرب الخمر ، كما اتفقوا على عقوبة شارب الخمر لأحاديث وردت بها ، غير أنهم اختلفوا فى نوع هذه العقوبة : هل هى حد أو تعزير ؟ .

ومنشأ هذا الاختلاف أنه لم يرد فى القرآن الكريم ولا فى السنة تقدير عقوبة شارب الخمر بمقدار معين لا يزيد ولا ينقص ، ولهذا يصح لنا اعتبار هذه العقوبة تعزيراً لا حداً لأنه لم يرد تقديرها شرعا بقدر معين لا يزيد ولا ينقص كما هو الشأن فى الحدود الشرعية .

ومما يدل على هذا ما رواه أبو داود عن أبى هريره أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أتى برجل قد شرب ، فقال : « اضربوه » قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بنعله ، والضارب بثوبه ، فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك

(١) المغنى : ٨ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تقولوا هكذا ، ولا تعينوا عليه الشيطان »[1] .

فالرسول عليه الصلاة والسلام أمر بضرب الشارب ، ولم يحد الضرب بمقدار معين ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من اعتبار هذه العقوبة تعزيراً لا حداً تصريح الشوكانى بعدم ثبوت مقدار معين لهذه العقوبة عن الرسول عليه الصلاة والسلام . قال الشوكانى :

« والحاصل أن دعوى إجماع الصحابة على الجلد ثمانين فى شرب الخمر غير مسلمة ، فإن اختلافهم فى ذلك قبل إمارة عمر وبعدها وردت به الروايات الصحيحة ، ولم يثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم الاقتصار على مقدار معين ، بل جلد تارة بالجريد ، وتارة بالنعال ، وتارة بهما فقط ، ، وتارة بهما مع الثياب ، وتارة بالأيدى والنعال ، والمنقول من المقادير فى ذلك إنما هو بطريق التخمين ، ولهذا قال أنس : « نحو أربعين » ، والجزم المذكور فى رواية على بالأربعين يعارضه ما نسب إليه من أنه ليس فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سنة ، فالأولى الاقتصار على ما ورد عن الشارع من الأفعال ، وتكون جميعها جائزة ، فأيها وقع فقد حصل به الجلد المشروع الذى أرشدنا إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالفعل والقول كما فى حديث : « من شرب الخمر فاجلدوه » فالجلد المأمور به هو الجلد الذى وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن الصحابة بين يديه ، ولا دليل يقتضى تحتم مقدار معين لا يجوز غيره[2] .

وقال الصنعانى : « قد نقل عن طائفة من أهل العلم أنه لا يجب فيه إلا التعزير » لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينص على حد معين ، وإنما ثبت عنه الضرب المطلق[3] .

وقد ثبت عن على كرم الله وجهه ما يفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يلتزم مقداراً معيناً فى هذه العقوبة ، وهو قوله : « ما كنت لأقيم حداً على أحد

---

(١) سنن أبى داود : ٤ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، نيل الأوطار : ٧ / ٤٩ ، ٥٠ . ومعنى قوله : « لا تعينوا عليه الشيطان » لا تدعوا على من أقيمت عليه العقوبة لما فى هذا من إعانة الشيطان عليه . (٢) ٧ / ٥٣ ، ٥٤ نيل الأوطار . (٣) سبل السلام : ٤ / ٢٤ .

فيموت ، وأجد فى نفسى منه شيئاً إلا صاحب الخمر ، فإنه لو مات وديته ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسنه »[١] .

قال الصنعانى بعد ذكر هذا : « فيه دليل على أن الخمر لم يكن فيه حد محدود من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو من باب التعزيرات ، فإن مات ضمنه الإمام ، وكذا كل معزر يموت بالتعزير يضمنه الإمام ، وإلى هذا ذهب الجمهور ، وذهبت الهادوية إلى أنه لاشىء فيمن مات بحد أو تعزير قياساً منهم للتعزير على الحد بجامع أن الشارع قد أذن فيهما ، قالوا : وقول على عليه السلام إنما هو الاحتياط »[٢] .

وينسب إلى ابن عباس قوله : « إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يوقت فى الخمر حداً »[٣] .

والصحابة قدروا الضرب بأربعين أو نحوها ، فعن أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلد بجريدتين نحو أربعين ، قال : وفعله أبو بكر ، فلما كان عمر استشار الناس ، فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون ، فأمر به عمر »[٤] .

وظل الصحابة يجلدون شارب الخمر أربعين حتى كان آخر عهد عمر ، فتهاون الناس بعقوبة شربها ، وأقبلوا على شربها ، فاستشار من بحضرته من الصحابة ، فأشاروا بالجلد ثمانين ، ولم يخالفهم أحد ، فأمر عمر بالجلد ثمانين . قال وبرة الصلتى : بعثنى خالد بن الوليد إلى عمر ، فأتيته ، وعنده على وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف متكئين فى المسجد ، فقلت له : إن خالد بن الوليد يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن الناس قد انبسطوا فى الخمر ، وتحاقروا العقوبة ، فما ترى ؟ فقال عمر : هم هؤلاء عندك ، قال : فقال على : أراه إذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وعلى المفترى ثمانون ، فاجتمعوا على ذلك ، فقال عمر : بلغ صاحبك ما قالوا . فضرب خالد ثمانين ، وضرب عمر ثمانين »[٥] .

---

(١) نيل الأوطار : ٧ / ٥٤ . (٢) سبل السلام : ٤ / ٣١ . (٣) نيل الأوطار ٧ / ٥٣ . (٤) نفس المرجع . (٥) إعلام الموقعين : ١ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ففى زمن عمر فتحت الشام والعراق ، وسكن الناس فى الريف ومواضع الخصب ، وأصبحوا فى سعة من العيش ، وكثرت الثمار ، وأقبلت عليهم الدنيا ، فأكثروا من شرب الخمر ، فزاد عمر رضى الله عنه فى العقوبة تغليظاً عليهم وزجراً لهم عنها [١] .

وما فعله عمر رضى الله عنه لا يعد استحداث حكم جديد ، وإنما هو دليل على أن هذه العقوبة تعزير يترك أمره إلى الحاكم ، ويختلف باختلاف الظروف ، ولهذا اختلف الحكم باختلاف الأحوال التى جدت أيام عمر رضى الله تعالى عنه .

على أن عمر رضى الله عنه لم يلتزم الجلد ثمانين دائماً ، قال وبرة : « وكان عمر إذا أتى بالرجل القوى المنهمك فى الشرب ضربه ثمانين ، وإذا أتى بالرجل الضعيف الذى كان منه الزلة ضربه أربعين » [٢] .

ويمضى الزمن ويأتى عثمان بن عفان رضى الله عنه خليفة على المسلمين ، فلا يلتزم الجلد ثمانين ، قال حصين بن المنذر : شهدت عثمان بن عفان أتى بالوليد [٣] قد صلى الصبح ركعتين ، ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حُمران [٤] أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ، فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ، فقال : ياعلى ، قم فاجلده ، فقال على : قم ياحسن فاجلده ، فقال الحسن : ولِّ حارَّها من تولى قارها [٥] [فكأنه وجد عليه] [٦] فقال : ياعبد الله بن جعفر ، قم فاجلده ،

---

(١) شرح النووى : ٥ / ١٢٥ . (٢) إعلام الموقعين : ١ / ٢٥٥ .

(٣) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط الذى نزل فيه قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » كان والياً على الكوفة ، وكان شراباً للخمر سىء السيرة ، صلى بالناس الصبح وهو سكران ، ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال بعضهم : وما تزيدنا ؟ لا زادك الله من الخير ، وحصب الناس الوليد بحصباء المسجد ، فشاع ذلك فى الكوفة ، فاستحضره عثمان وأقام عليه العقوبة .

(٤) حمران : مولى عثمان رضى الله عنه .

(٥) يقال فى المثل : ول حارها من تولى قارها . أى ول شرها من تولى خيرها . قال النووى : الضمير عائد إلى الخلافة والولاية ، أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنىء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها ومكروهاتها ، والمعنى : ليتول هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصة أقاربه الأدنين . (٦) حقد عليه .

لجلده ، وعلى يعد حتى بلغ أربعين ، فقال : أمسك ، ثم قال : جلد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكل سنة[1] ، وهذا أحب إلى »[2] .

فهذا يدل على أن الوليد جلد أربعين فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وأن عثمان لم يلتزم الجلد ثمانين ، وكما نسب إلى عمر رضى الله عنه الجلد ثمانين ، وأحياناً أربعين نسب هذا إلى عثمان رضى الله عنه أيضاً ، قال وبرة : « وجعل ذلك عثمان أربعين وثمانين » .

ظهر مما تقدم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يرد عنه تقدير عقوبة شرب الخمر بقدر معين ، وهذا يجعلنا نعتبر هذه العقوبة تعزيراً لا حداً ، وما ورد من تقديرها بأربعين ، فهو تقدير الصحابة للعقوبة التى وقعت فى عهد الرسول ، وأن أبا بكر رضى الله عنه جلد أربعين ، وكذلك عمر فى صدر خلافته ، فلما أقبلت الدنيا على الناس ، وأكثروا من شرب الخمر فى عهد عمر استشار الصحابة ، فأشار بعضهم عليه بالجلد ثمانين فى محضر منهم ، فأمر عمر بالجلد ثمانين ، على أنه لم يلتزم هذا المقدار ، بل كان أحياناً يجلد أربعين ، ولم يكن عمل عمر ملزماً من جاء بعده من الصحابة ، فعثمان وعلى رضى الله عنهما جلد الوليد فى حضرتهما أربعين .

وبعد هذا البيان لهذه العقوبة على النحو الذى قررناه نشير إلى موقف الفقهاء منها:

أجمع الفقهاء الأربعة على أن هذه العقوبة حد لا تعزير ، غير أنهم اختلفوا فى مقدارها ، وكان اختلافهم ناشئاً عن اختلاف الأدلة التى اعتمدوا عليها :

أولا : يرى مالك والثورى وأبو حنيفة ومن تبعهم أن هذا الحد ثمانون جلدة لإجماع الصحابة على هذا المقدار حين استشارهم عمر فى حد الخمر ، وقد تقدم بيان هذا .

ثانياً : يرى الشافعى رضى الله عنه أن هذا الحد أربعون ، لأن علياً جلد الوليد ابن عقبة أربعين ، ثم قال : جلد النبى صلى الله عليه وآله وسلم أربعين . . . الخ ، ولحديث أنس : « فضربه بالنعال نحواً من أربعين » ، وفعل النبى حجة لا يجوز تركه

---

(١) السنة : الطريقة المألوفة ، وقد ألف الناس ذلك فى زمن عمر ، كما ألفوا الأربعين فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأبى بكر .

(٢) المشار إليه هو الحد الواقع بين يديه وهو أربعون ، انظر صحيح مسلم : ٥/١٢٦ .

بفعل غيره ، ولا ينعقد الإجماع على ما خالف فعل النبي وأبي بكر وعلى ، فتحمل الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز فعله إذا رآه الإمام [١].

ويرى الإمامية أن عقوبة شارب الخمر حد مقدر بثمانين جلدة ، ولا فرق فيه بين الحر والعبد ، على المشهور لرواية أبي بصير ويزيد بن معاوية وزرارة عن الصادق عليه السلام ، وقيل : يجلد العبد أربعين لما رواه أبو بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام في مملوك قذف حراً ، قال : يحد ثمانين ، هذا من حقوق المسلمين ، فأما ما كان من حقوق الله عز وجل فإنه يضرب فيها نصف الحد ، قلت : الذي هو من حقوق الله عز وجل ما هو ؟ قال : إذا زنى أو شرب الخمر ، فهذا من الحقوق التي يضرب فيها نصف الحد ، وروى يحي بن أبي العلاء عنه عليه السلام حد المملوك نصف حد الحر ، والتحقيق أن خبر التنصيف أوضح ، وأخبار المساواة أشهر [٢] ، وقد وجدت عند الإمامية ما يدل على مبدأ احترام آراء مخالفيهم ، جاء في قواعد الأحكام للعلامة الحلي : « ويحد الحنفي إذا شرب النبيذ وإن قلّ لأنه حرام عنده » [٣] ، ويرى الزيدية أن حد شارب الخمر كحد القذف وهو ثمانون جلدة [٤] .

ومن هذا نرى أن الإمامية والزيدية قد اتفقوا مع أئمة المذاهب الأربعة في أن عقوبة شارب الخمر حد .

غير أن الراجح ما قررناه من أن هذه العقوبة تعزير لا حد ، وما ورد من تقدير العقوبة التي تمت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فهو تقدير للصحابة لهذه العقوبة ، ولم يرد عن الرسول تحديد لها كما تقدم ، فالأولى أن تكون تعزيراً يترك أمره إلى القاضي ، ويقدره بما يراه محققاً للمصلحة .

هذا ما أردت أن أقدمه للقراء الكرام ، فإن بدا لأحدهم ملاحظات تهدى إلى الحق وترشد إلى الصواب فإني أرحب بها ما دامت توصلنا إلى الحق الذي ينشده كل باحث منصف ، والخير أردت « وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب » .

---

(١) المغنى : ٨ / ٣٠٧ . (٢) انظر : المختصر النافع : ٢٢٢ ، والروضة البهية ج ٢ ص ٣٧٢ . (٣) ص ٢٦٣ : فى النبيذ خلاف بين المسلمين ، فالنبيذ حرام شربه عند الشيعة ويحد شاربه ، والحنفية يرون أنه حرام ، ولهذا يرى الشيعة أن الحنفي يحد إذا شرب الخمر وهذا يدل على مدى الاتفاق بين المذهبين . (٤) انظر : التاج المذهب لأحكام المذهب : ٢٣٢ .

دروس من غيرنا

في اليوم الثالث من شهر يونيو من هذا العام الميلادى ، وقع حادث شغل العالم المسيحى فى مختلف البلاد والشعوب الأوربية والأمريكية وغيرها ، بل شغل العالم كله على تعدد الأديان والمذاهب والنحل ، ذلك الحادث هو وفاة البابا يوحنا الثالث والعشرين الذى تربع على كرسى البابوية منذ خمس سنوات .

وقد نظر المفكرون إلى هذا الحادث من زوايا مختلفة ، كلٌّ حسبَ الاهتمام الخاص الذى يستأثر بتفكيره ، ويتصل ببيئته :

ونحن ننظر إليه من زاويتين :

إحداهما : أن العالم المسيحى كله على اختلاف شعوبه وبلاده ومذاهبه العقائدية كان يبدو مهتما أعظم الاهتمام بصحة البابا حين كان يقضى أيامه الأخيرة ، تنتابه هذه النوبات التى تنتاب الأحياء حين يقبلون على النهاية ، ثم بدا هذا الاهتمام العام أضعافاً مضاعفة ، حين انتقل فعلا من عالم الفناء إلى عالم البقاء :

كانت هناك الحشود الحاشدة ، والألوف المؤلفة ، التى يقف أفرادها متراصين فى ميدان الفاتيكان الكبير ، يستخبرون أخبار المريض ، ويتتبعون نشرات أطبائه ساعة بعد ساعة ، ولا يهمهم المطر الغزير الذى كان ينصب فوق رءوسهم انصبابا ، ولا الوقت الطويل الذى كانوا يقضونه واقفين على أقدامهم ، صابرين على الزحام ، وعلى خواطر الحزن والترقب والتخوف والتلهف وكل ما يمكن أن يقوم بالنفوس البشرية فى مثل هذا الموقف ، وكأنما كان كل فرد من هذه الآلاف يشعر بأن هذا المريض له وحده ، وأنه أولى به وأحنى عليه ممن سواه ، كان يشعر بذلك الرجال على اختلاف أعمارهم ، والنساء ما بين فتيات فى مقتبل العمر ، وعجائز فى خريف الحياة .

وبينما كان هؤلاء واقفين مواقفهم فى هـذا الميدان الـكبير كان هناك مئات من الـكنائس ، بل آلاف ، فى مختلف أنحاء العالم المسيحى ، تقام فيها الصلوات دعاء وابتهالا إلى الله تعالى ، فى شأن هذا الشيخ الـكبير الذى يعالج سكرات الموت ، ويوشك أن يرحل إلى الدار الآخرة .

وكنا نتابع وصف هـذه الحشود الحاشدة فيما تـكتبه الصحف ، ونتخيل الناس هناك ، وقد وقف كل منهم وكأنه يضع يده على قلبه ، ويذرف دموع إشفاقه وحبه ، ويقلب بصره ذات اليمين وذات الشمال ، كما يقلب أذنيه لعله يرى أو يسمع شيئاً عن المريض العزيز ، الذى يقدسونه أعظم التقديس ، ويجلونه أعظم الإجلال ، لأنه رمز لشيء عزيز عندهم ، غال عليهم .

فكانوا يتلقفون كل نبأ يتصل به ، فإذا سمعوا أنه تناول مسبحته تحدثوا بذلك وتناقلوه فيما بينهم ، وإذا علموا أنه كان يتمتم بدعائه ، أو يحرك شفتيه بصلواته ، أمنت قلوبهم ، وخشعت أبصارهم ، وذرفت دموعهم . . . وهكذا .

فلما مات البابا الذى كانوا يشفقون من موته على توقعهم إياه ، تواردت جموع من نوع آخر ، تلك هى الجموع التى اصطفت فى صفوف تُقدَّر أطوالها بالأميال ، والتى جاء كل فرد فيها ليلقى النظرة الأخيرة على جثة هـذا الفقيد الذى يعتبره فقيده الخاص قبل أن يـكون فقيداً عاما لجميع المسيحيين .

وكنا نرقب الصحف أيضا والمجلات ووكالات الأنباء وأجهزة « التليفزيون » وهى تتبارى فى نشر صورة البابا مسجى على فراش الموت ، والناس يمرون عليه فى خشوع وحزن ونظام رتيب ، فيه إجلال للموت ، وفيه تقديس للميت ، وفيه احترام للدين ، وفيه الإخلاص كل الإخلاص للعقيدة التى يدينون بها .

ونـكست الأعلام فى كل مكان ، لا فى العالم الكاثوليكى فحسب ، ولـكن فى العالم المسيحى كله ، بل نـكست الأعلام فى مؤسسات هيئة الأمم المتحدة التى تمثل العالم كله ، كما دقت أجراس الحزن فى كل الـكنائس شرقية كانت أو غربية ، وألغيت الزيارات المقررة التى كان بعض رؤساء الدول سيقومون بها لبعض البلاد . كما ألغيت

الاحتفالات بعيد الاستقلال فى جميع أنحاء الدولة الإيطالية نفسها ، مع أن احتفالات أعياد الاستقلال لا تلغى عادة لشىء ما كما هو معروف .

هكذا كان اهتمام العالم المسيحى بالرجل مريضا يودع الحياة ، وميتاً يودعه الأحياء .

وهؤلاء هم أهل المدنية والحضارة التى تقود الآن وتسود ، والتى تتجه إليها أنظار الدنيا باعتبارها مصدر القدوة والأسوة ، لأنها مصدر القوة والتوجيه .

فهل حالت مدنيتهم وحضارتهم وقوتهم المادية والتوجيهية فى العالم ، بينهم وبين هذا القنوت الروحى ، والخشوع القلبى للدين ، وما يتصل بالدين ؟ هل حالت المدنية بينهم وبين أن يعرفوا لرجل الدين الراحل حقه ، ويعربوا هذا الإعراب العملى ، لا القولى فقط ، عن جميل عرفانهم بما هو رمز له ، وعن عظيم تقديرهم لما كان يمثله ؟ .

كلا . إنهم لم يفهموا المدنية والحضارة ، على أنها حياة توجب الإلحاد ، وتتنافى مع الإيمان ، وتعمل على تحطيم المثل ، وتوغل فى السخرية والاستهزاء بمن يمثلونها أو يدعون إليها .

إن الإنسان يستطيع أن يكون مدنيا متحضرا ، وأن يكون فى الوقت نفسه مؤمناً متدينا يعرف حق الله عليه ، ويستلهم توفيقه ومعونته فى كل شأن من شئون حياته .

فإليكم يامن يستهويهم الغرب بمثله وماله من رسوم وأوضاع ، هل يوصم الدين ورجاله عندهم بالرجعية والتأخر ؟ إن كان لابد أن تقلدوا وتتشبهوا ، ففى مثل ذلك يكون التقليد والتشبيه ، ووالله ما أنتم بمحتاجين إلى أن تستوردوا المثل من غير تاريخكم وصالح سلفكم ، ولكن الشىء بالشىء يذكر ! .

* * *

أما الزاوية الثانية التى ننظر منها إلى هذا الحادث الذى شغل العالم المسيحى ، فهى تاريخ ذلك الرجل نفسه فى الأعوام الخمسة التى قضاها فى مركز قيادته الروحية : لقد كان يهتم إلى أبعد مدى بجمع المسيحية على اختلاف طوائفها وفرقها ، فدعا الأرتوذكس كما دعا الكاثوليك ، بل كل مذاهب النصرانية حديثها وقديمها ، إلى

التكتل ونسيان الفوارق ، وأن يدخلوا فى أحداث العالم ، ومشاكله وقضاياه الدينية والفكرية كمسيحيين فقط ، لا كمذهبيين ، وكم أذاع فى سبيل ذلك من بيانات ونصائح وعظات ، وكم استقبل رجالا دينيين على غير مذهبه ، وطالبهم بما كان يسميه البعض « بالتعايش المسيحى » وأهم نشاط قام به لتحقيق ذلك كان هو عقد مؤتمر المجمع المسكونى فى الفاتيكان فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٦٢ ، وهذا المجمع لم يجتمع - فى الفاتيكان - إلا مرة قبل ذلك فى سنة ١٨٧٠ .

فإذا كان هذا هو شأن النصرانية فى إبان تسلط دولها ، ونهضة شعوبها ، وتبوئها فى العالم الحاضر مقام القوة والمنعة ، فما بالنا نحن المسلمين وقد مرت بنا قرون وقرون ما زلنا نرنو بأبصارنا إلى آثار خلاف قد اندثر ، ويحاول بعضنا أن ينفخ فى الرماد ليوقد ناراً قد أطفأها الله .

هل يعمق مدى اختلافنا بين الشيعى والسنى مثلا ، أكثر مما يعمق مدى الاختلاف بين طوائف النصارى والعياذ بالله ؟ .

كلا ! إن أصولنا واحدة ، وقواعد إيماننا واحدة ، وقبلتنا واحدة ، وصلواتنا واحدة ، وكتابنا واحد ، ورسولنا واحد ، وإنما اختلفنا حيناً من الدهر فى نظريات ومعارف ، ليست أساسية بالنسبة لأصولنا الجذرية ، وعقائدنا اليقينية ، وقد مضى هذا العهد بما فيه ، ولم يعد شىء مما كان يهز المسلم ويستثيره من تلك المشكلات الصورية ، يهز أحداً من أهل البصيرة والإيمان الراسخ الآن فى أى شعب من شعوب الأمة الإسلامية الواحدة .

ونحن مع هذا أحوج إلى التكتل والتوحد لنحيا أقوياء فى هذا العالم الذى يتكتل من حولنا ، والذى يحاول أن يهضمنا حقنا ، ويستغل فرقتنا ، ويعرقل رسالتنا ، ليضرب بعضنا ببعض ، ويؤلب فريقا منا على فريق .

* * *

وهنا لا يسعنا إلا أن نحيي « دار التقريب » التى فطن رجالها إلى ذلك منذ زمان بعيد ، ونسجل لها السبق فى هذا الميدان ، فإنها منذ نشأتها تعمل على التقريب بين طوائف المسلمين قبل المحاولة البابوية الأخيرة لجمع صفوف المسيحيين ، بل وقبل محاولة « إكومنيك » المعروفة من قبل الطوائف غير الكاثوليكية .

وما تزال « دار التقريب » بالقاهرة تعمل فى دأب لتحقيق هذه الغاية الكريمة ويسعى رجالها وهم من أعلام الإسلام لجمع كلمة المسلمين ، يعاونهم فى ذلك أئمة من أهل السنة والشيعة فى شتى البلاد ، ونداؤهم جميعاً ذلك النداء الذى اقتبسوه من كتاب الله ، ونادوا به من أول يوم التقوا فيه على هذا المبدأ : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

* * *

جائزة أكاديمية (جونتجن) للعلوم :

وبهذه المناسبة نذكر أن أكاديمية جونتجن للعلوم بألمانيا ، أعلنت عن مسابقة أعدت لها جائزة كبرى قدرها ثمانيه آلاف مارك ألمانى لأحسن بحث يقدم إليها فى موضوع (الانقسام الدينى فى العصر الأسلامى الأول ، وتطور الشيعة حتى آخر العصر الأموى سنة ٧٠٠ بعد الميلاد) .

ولقد أعلنت الأكاديمية عن هذه المسابقة إعلاناً واسع النطاق فى مختلف بلاد الشرق والغرب ، فما هى الغاية من تشجيع هذه البحوث ، ورصد الجوائز السخية لها ؟ أتراهم حرصاء على تاريخ المسلمين ومعرفة دقائقه فى مراحله المختلفة مخاصين للعلم وحده ؟

كلا ولكنهم يريدون أن تبقى أمثلة الخلاف بين المسلمين حية تنغض برأسها ، وتحرك أطرافها ، لأن مصلحتهم الاستعمارية والدينية مرتبطة بذلك أشد الارتباط .

ولن ننسى ذلك المستشرق الذى كتب يوماً عن (فدك) وحق السيدة فاطمة الزهراء فى ميراثها عن أبيها ، وأراد أن يمتن بذلك على زعيم من زعماء الشيعة الإمامية ، فذكر له أنه أيد موقف الشيعة من هذه القضية بأدلة كثيرة ، فما كان من هذا الزعيم الكبير إلا أن قال له فى صراحة : « يا سيدى إن الشيعة ـ كسائر الفرق الإسلامية ـ لا يمكن أن يستهويهم مثل هذا الأسلوب ، ولو كان فيه دفاع عن وجهة نظرهم فى قضية ما ، وسيقول علماؤهم ومفكروهم : نحن أولى بقضايانا ، ولا نريد أن يتخذ منها أحد وقوداً جديداً لنيران أطفأها الله ! .

فلينظر المسلمون إلى أنه فى الوقت الذى يتجه فيه العالم المسيحى إلى التقريب بين مذاهبه على ما بينها من الفروق الجوهرية ؛ نرى علماءه ومؤسساته العلمية تعمل جاهدة على إحياء صور الخلاف الماضية بين المسلمين .

فى دار التقريب

مشروع شلتوت وقمى :

يذكر القراء ذلك المشروع الكبير الذى تهتم به الآن « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » والذى وضع مخططه بالاتفاق بين صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر ، وصاحب السماحة العلامة الجليل الأستاذ محمد تقى القمى السكرتير العام لجماعة التقريب .

وهذا المشروع هو العمل على جمع الأحاديث النبوية ، وتفاصيل السنة المطهرة التى صحت فى مختلف المذاهب الإسلامية المعتبرة ، والتى التقى عليها الرواة فى شعب الإيمان والعقيدة والفقه وغيرها ، من كل ما يفيد جمعه على صعيد واحد ، لينتفع به الباحثون ، وليجد فيه المسلمون مظهراً واضحاً للتقارب بينهم فى الأصول الأساسية التى يدينون جميعاً بها ، ولا يختلفون عنها .

وفى هذه الأيام يوالى سماحة الأستاذ العلامة القمى اجتماعاته باللجان التمهيدية التى تعمل فى الإعداد لهذا المشروع ، ويدرس معهم ما تلقته دار التقريب وما تتلقاه تباعا من بيانات واقتراحات وأمثلة فى هذا الشأن الهام ، وربما تقرر تأليف اللجنة التنفيذية الدائمة لهذا المشروع من أعضاء هذه اللجان بعد أن يضم إليها فريق من جهابذة علم الحديث والرواية ، وسيتم فى القريب إن شاء الله جمع مكتبة خاصة بالسنة المطهرة يستعان بها فى ذلك ، وبالله التوفيق .

* * *

ذخائر المكتبة الإسلامية :

كان للفصل العلمى الذى نشرناه فى « رسالة الإسلام » من كتاب « تذكرة الفقهاء » أثر بعيد فى الأوساط العلمية ، فقد رأوا فيه صورة واضحة من صور التفكير الفقهى العميق المنظم ، ورأوا هذا التفكير يصدر من أفق شيعى إمامى ، ومن مؤلف قديم من كبار علماء القرن الثامن الهجرى .

وكان كثير من الناس يظن أن ميزان الاعتدال الفقهى ، وقف على طائفة دون طائفة ، وأن جو التحقيق العلمى لا يصفو إلا فى أفق معين ، فلما رأوا هذا البحث وما يمتاز به من عمق وأصالة ، حمدوا الله تعالى ، وتأكدوا بأنفسهم من صدق ما كان يقوله علماء التقريب من أن كل مذهب من المذاهب الفقهية الإسلامية الصحيحة فيه تراث خالد لا يصح إهماله ، ولا ينبغى الانصراف عنه ، لمجرد أنه من مذهب مخالف .

وقد اتصل بنا بعض علماء كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، مثنين على هذا الفصل الذى نشرناه ، راغبين فى أن نتابع نشر بعض الفصول الأخرى ، ليزداد الناس معرفة بفقه السادة الإمامية من كتبهم ، وليعلموا أن دعوة التقريب ليست دعوة تعتمد على جهود أهل التفكير الحديث فحسب ، وإنما تعتمد على أسس ثابتة فى تاريخنا العلمى والفقهى منذ قرون طويلة .

كما اقترحوا علينا اقتراحا خلاصته أن نجمع ما كتب من الفقه الإسلامى فى موضوع ما ، من مختلف المذاهب الإسلامية ، ليرى فيه القارىء صور التفكير الفقهى الإسلامى مقارنا بعضها ببعض ، فيكون لذلك أثره البعيد فى خدمة الفقه ، وفى تحبيب الناس فيه ، ونحن نشكر السادة الأجلاء ، ونذكر لهم أننا بدأنا فعلا فى مشروعنا الأول الذى نعتبره أصلا وأساساً ، لجمع كلمة المسلمين ، وهو مشروع جمع الأحاديث المتفق عليها فى لفظها أو معناها بين الفريقين ، وهى أحاديث كثيرة فى مختلف أبواب الفقه والعقائد والأخلاق ، ومن شأنها أن تثبت للناس بصورة عملية مدى الاتفاق بين المسلمين فى الأصول ، وفى الأعم الأغلب من الفروع ، وأنه لا يبقى بعد ذلك إلا القليل مما لا يضر الاختلاف فيه ، مما هو ضرورة عقلية ما دام هناك تفكير تختلف سماته ، وتتعدد زواياه .

مِنْ ذخائر الفكر الإسلامي

كتاب تذكرة الفقهاء

للشيخ العلامة : الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي
المتوفى سنة ٧٢٦ هـ من كبار علماء الإمامية

نتابع تقديم بعض النماذج الفقهية من كتاب (تذكرة الفقهاء) في فقه الشيعة الإمامية ، فننشر هذا الجزء من كتاب (الوصايا) .

وليس من غرضنا أن ننشره كبحث فقهي فحسب ، ولكن ليتبين قراء التقريب أسلوب هذا المؤلف ، وطريقة معالجته للفقه ، وما يتجلى من الهدوء والسكينة اللذين يجب أن يتحلى بهما العلماء ، ثم ليعلموا أن المذاهب الإسلامية على اختلافها هي مواطن علم ، ومجالي رأي ، وذخائر كنوز ، لايجوز إهمالها ، ولا يسوغ الغض منها ، ولا الغض عنها . [المحرر]

كتاب الوصايا

وفيه مقدمة ومقاصد

أما المقدمة : ففي ماهيتها وتسويغها : الوصية تمليك عين أو منفعة بعد الموت تبرعا ، وهي مشتقة من قولهم : وصى إليه بكذا يصيه صِيَةً إذا وصل به ، وأرض واصية : أي متصلة النبات ، فسمى هذا التصرف وصية ، لما فيه من وصلة القربة الواقعة بعد الموت بالقربات المنجزة في الحياة ، فكأنه وصل تصرفه في حياته بتصرفه بعد مماته ، يقال : اوصيت لفلان بكذا ، ووصيت وأوصى إليه جعله وصية ، وهي جائزة بالنص والإجماع ، قال الله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » وقال تعالى : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » وقال تعالى : « شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان » الآية .

وما رواه العامة عن سعيد بن معاذ قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت يارسول الله ، قد بلغ بي من الوجع

ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا بُنية ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر يارسول الله ؟ قال : لا ، قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . وعن على عليه السلام قال : إنكم تقرأون هذه الآية « من بعد وصية يوصى بها أو دين » وإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قضى أن الدين قبل الوصية ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ماحق امرىء له شىء يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » وقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فسأل عن البراء بن مغرور ، فقيل إنه هلك وأوصى لك بثلث ماله فقبل ثم رده على ورثته ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله أعطاكم ثلث أموالكم فى آخر أعماركم زيادة فى أعمالكم . ومن طريق الخاصة ما رواه حماد ابن عثمان فى الصحيح قال : قال الصادق عليه السلام : ما من ميت تحضره الوفاة إلا رد الله عليه من بصره وسمعه وعقله للوصية أخذ الوصية أو ترك ، وهى الراحة التى يقال لها راحة الموت فهى حق على كل مسلم ، وفى الصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما[1] عليهما السلام قال : الوصية حق على كل مسلم ، وعن على عليه السلام قال : الوصية تمام ما نقص من الزكاة ، وقال الصادق عليه السلام : مرض على بن الحسين عليه السلام ثلاث مرضات فى كل مرضة يوصى بوصية ، فإذا أفاق أمضى وصيته ، وقد أجمع العلماء كافة فى جميع الأمصار على صحة الوصية وجوازها . إذا عرفت هذا فعندنا أن الوصية واجبة لمن عليه حق للآيات السابقة ، ولما رواه الصادق عليه السلام عن الباقر عليه السلام قال : من لم يوص عند موته لذوى قرابته ممن لا يرثه فقد ختم عمله بمعصية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصا فى مروءته وعقله ، وعن أبى حمزة عن أحدهما[1] عليهما السلام قال : إن الله تعالى يقول : ابن آدم تطولت عليك بثلاثة : سترت عليك ما لو علم به أهلك ماواروك ، وأوسعت عليك ، واستقرضت منك لك فلم تقدم خيرا ، وجعلت لك نظرة عند موتك فى ثلثك فلم تقدم خيرا . والأخبار فى ذلك أكثر من أن تحصى ، ولأن ذمته مشغولة بالحق الذى عليه ، فإذا لم يوص فقد فرط فى أداء الحق الواجب ،

---

(١) يريد عن أحد الإمامين : محمد الباقر ، وجعفر الصادق عليهما السلام .

فكان مأثوماً ، ولا فرق بين أن يكون الحق الذى عليه لله تعالى كالزكاة والخمس والحج ، أو دينا لآدمى ، وهل تجب على من ليس عليه حق ؟ الأقرب العدم لإصالة براءة الذمة ، وقيل بالوجوب مطلقا ، والأفضل تعجيل الصدقة فى الحياة لقوله عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا » ، وإذا أراد الوصية فالأفضل تقديم من لا يرث من أقاربه ، ويقدم منهم المحارم ثم غير المحارم ، ثم يقدم بالرضاع .

المقصد الأول : فى أركان الوصية ، وفيه فصول :

الأول : فى الصيغة ، وفيه مباحث :

الأول : الإيجاب : ولا بد من الإيجاب فى الوصية ، ولفظه الصريح : أوصيت له بكذا ، أو أعطوا فلانا بعد موتى كذا ، أو ادفعوا إليه بعد موتى ، أو جعلت له بعد موتى ، أو لفلان بعد موتى كذا وكذا ، كل لفظ دل على ذلك القصد مثل ملكته بعد موتى أو وهبته بعد موتى ، ولو اقتصر على قوله : وهبت منه ونوى الوصية ، فالأقرب أنه يكون وصية ، لأنه أبلغ فى التمليك من قوله أوصيت ، وأظهر وجهى الشافعية أنه لا يكون وصية لأنه أمكن تنفيذ فى موضوعه ، وهو التمليك المتأخر ، ولو قال هو له فهو إقرار يؤاخذ به ولا يجعل كناية عن الوصية لأنه لا يصلح إقرارا ويحتمل أن يرجع إلى نيته ، فإذا قال نويت أنه له بعد الموت كان وصية لاحتمال اللفظ له ، وهو أعرف بنيته وقصده فيرجع إليه فيه ، ولو قال عينت له فهو كناية لأنه يحتمل التعيين للتمليك بالوصية ، والتعيين للإعارة والإخدام فى الحال ، فلا ينصرف إلى الوصية إلا بالتعيين ، فإن عين صحت بالكناية مع النية ، وللشافعية وجهان : أحدهما : ينعقد وتتعين الوصية بالكنايات جزماً ، لأن الوصية فى نفسها تقبل التعليق بالإغرار فأشبهت ما يقبل التعليق بالإغرار كالكنايات ، والخلع ينعقد بالكناية مع النية فالوصية أولى لأنها إذا قبلت التعليق بالإغرار فبأن تقبل الكنايات أولى ، لأن الوصية لا تفتقر إلى القبول فى الحال فتشبه ما يستقل به الإنسان من التصرفات .

مسألة : لا تنعقد الوصية إلا باللفظ مع القدرة عليه ، فلو كتب بخطه إنى قد أوصيت لفلان بكذا لم ينفذ إذا كان الشخص ناطقا ، قاله بعض الشافعية ، كما لو قيل له أوصيت لفلان بكذا ؟ فأشار أى نعم ، ويحتمل القبول مع قيام الإشارة مع الكتابة مقام التصريح باللفظ فى العلم بما دل اللفظ عليه من الوصية ، ولأن الكتابة بمثابة كنايات الألفاظ ، وقد بينا جواز الوصية بالكناية التى ليست صريحة فى دلالتها عليها مع القرينة ، فإذا كتب وقال نويت الوصية لفلان ، أو اعترف الورثة بعد موته به وجب أن تصح ، أما لو اعتقل لسانه ولم يتمكن من النطق فكتب الوصية أو أشار بما يدل على الرضا بها ، أو قيل له أوصيت بكذا فيشير برأسه نعم ، أو يقرأ عليه كتاب الوصية فأشار بها ، فإنها تصح ، وبه قال الشافعى لما رواه العامة أن أمامة بنت أبى العاص أصمتت ، فقيل لها لفلان كذا ولفلان كذا فأشارت أن نعم ، فجعل ذلك وصية . ومن طريق الخاصة ما رواه الحلبى فى الصحيح عن الصادق عليه السلام أن أباهم حدثهم أن أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله تزوجها على عليه السلام بعد فاطمة ، نخلف عليها بعد على عليه السلام المغيرة بن نوفل وأنها توجعت وجعاً شديداً حتى اعتقل لسانها ، فأتاها الحسن والحسين عليهما السلام وهى لا تستطيع الكلام ، فجعلا يقولان والمغيرة كاره ، يقولان اعتقت فلاناً وأهله ؟ فتشير برأسها نعم أم لا ، قلت فأجازا ذلك ؟ قال : نعم . وعن سدير عن الباقر عليه السلام قال : دخلت على محمد بن الحنفية وقد اعتقل لسانه ، فأمرته بالوصية فلم يجب ، قال : فأمرت بالطشت فجعل فيه الرمل ، فقلت له : خط بيدك ، قال : فخط وصيته بيده إلى رجل ونسخت أنا فى صحيفة ، ولأنه غير قادر على النطق فصحت وصيته بالإشارة كالأخرس ، وقال أبو حنيفة وأحمد : لا تصح الوصية إلا أن يكون مأيوساً من نطقه ، لأنه لو لم يوءس من نطقه فلا تقوم إشارته مقام نطقه كالساكت ، والفرق أن الساكت قادر على الكلام .

مسألة : إذا وجدت وصية بخط الميت ، ولم يكن أشهد عليها ولا أقر بها لم يجب على الورثة العمل بها ، بل لهم ردها وإبطالها ، سواء عملوا بشيء منها أو لا ، وقال

الشيخ رحمه الله : يتخير الورثة بين العمل بها وبين ردها وإبطالها ، فإن عملوا بشىء منها لزمهم العمل بجميعها ، لما رواه إبراهيم بن محمد الهمدانى قال : كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام : رجل كتب كتاباً فيه ما أراد أن يوصى به ، هل يجب على الورثة القيام بما فى ذلك الكتاب بخطه ولم يأمرهم بذلك ؟ فكتب : إن كان ولده ينفذون شيئاً وجب عليهم أن ينفذوا كل شيء يجدونه فى كتاب أبيهم فى وجه البر وغيره ، وتحمل هذه الرواية على أنهم اعترفوا بصحة هذا الخط ، فحينئذ يجب العمل بالجميع . واختلف الشافعية ، فقال أكثرهم : لا تنفذ بذلك وصية ، وقال بعضهم : إذا وجد له كتاب وصيته بعد موته ، ولم تقم بينة على مضمونه وجب العمل به ، وقال أحمد : من كتب وصية ولم يشهد فيها وعرف خطه، وكان مشهورا بالخط حكم بها ما لم يعلم رجوعه عنها ، لقول النبي : « ماحق امرء مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » ولم يذكر شهادته ، ولأن الوصية يتسامح فيها ، ولهذا صح تعليقها على الخطر والغرر ، وصحة الوصية للحمل وبه وبما لا يقدر على تسليمه وبالمعدوم والمجهول ، فجاز أن يتسامح فيها بقبول الخط كرواية الحديث ، ولا دلالة فيه، فإن المراد كتابة وصية يعتد العمل بها ، وذلك إنما يتم بالإشهاد فيها والتسامح فيها بما ذكر لا يوجب ثبوتها بغير بينة ، ولهذا نص الله تعالى على وجوب الإشهاد بقوله : « اثنان ذوا عدل منكم » .

مسألة : لو كتب وصية وقال للشهود اشهدوا على بما فى هذه الورقة ولم يطلعهم على مافيها ، أو أشهد جماعة أن الكتاب خطى وما فيه وصيتى ولم يطلعهم على مافيه ، فأكثر الشافعية على أنه تنفذ الوصية بذلك ، ولا يعمل بما فيه حتى تشهد به الشهود مفصلا ، وقال بعضهم : يكفى الإشهاد عليه مبهما ، وبعضهم اكتفى بالكتاب من غير إشهاد ، والوجه الأول .

وحكى عن أحمد أن الرجل إذا كتب وصية وختم عليها وقال للشهود اشهدوا على بما فى هذا الكتاب ، لا يجوز حتى يسمعوا عنه ما فيه ، أو يقرأ عليه فيقر بما فيه ، وبعض أصحابه قبله ، والعجب من أحمد أنه قبل الخط المجرد عن الختم والإشهاد

فعهما أولى بالقبول ، وممن قبل ذلك مكحول ومالك والليث والأوزاعى ومحمد ابن مسلمة وأبو عبيد وإسحاق ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكتب إلى عماله وأمرائه فى أمر ولايته وأحكامه وسننه ، ثم عمل به الخلفاء بعده من كتبهم إلى ولاتهم بالأحكام التى فيها الدماء والفروج والأموال ، يبعثون بها مختومة ولا يعلم حاملها ما فيها وأمضوها على وجوهها ، والوجه الأول ، لأنه كتاب لا يعلم الشاهد ما فيه ، فلم يجز أن يشهد عليه مثل كتاب القاضى والمراسلات اعتمد فيها البناء على العادة وغلبة الظن بأمر الكاتب بما فيه مع معرفته الخط وقلة الخطر فيها .

تذنيب : إذا ثبتت الوصية إما بالإشهاد أو بالإقرار ، فإن حكمها يثبت ويعمل بها ما لم يعلم رجوعه عنها وإن طالت مدته وتغيرت أحوال الموصى مثل أن يوصى فى مرضه فيبرأ منه فيموت بعد ، لأن الأصل بقاؤه ، فلا يزول حكمه بمجرد الاحتمال والشك كسائر الأحكام .

مسألة : ويستحب أن يكتب الموصى وصية ويشهد عليها لأنه أحفظ لها وأحوط لما فيها ، وقد روى عنهم عليهم السلام : ما ينبغى لمسلم أن يبيت ليلته إلا ووصيته تحت رأسه ، فينبغى تصديرها بالعهد الذى رواه الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصا فى مروءته وعقله » قيل يارسول الله : وكيف يوصى الميت ؟ قال : إذا حضرته وفاته واجتمع الناس إليه قال :

﴿ اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم . إنى أعهد إليك فى دار الدنيا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والقدر والميزان حق ، وأن القرآن كما أنزلت ، وأنك أنت الله الحق المبين ، جزى الله محمدا صلى الله عليه وسلم خير الجزاء ، وحى الله محمدا وآل محمد بالسلام ، اللهم ياعدتى عند كربتى وياصاحبى فى شدتى ، وياولى نعمتى ، إلهى وإله آبائى ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبدا ، فإنك إن تكلنى إلى نفسى أقرب من الشر وأبعد من الخير ، وآنس فى القبر وحشتى ، واجعل لى عهداً يوم ألقاك منشورا ، ثم يوصى بحاجته ﴾

وتصديق هـذه الوصية فى القرآن فى السورة التى تذكر فيها مريم فى قول الله عز وجل : « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا » فهذا عهد الميت ، والوصية ، حق على كل مسلم أن يحفظ هـذه الوصية ويعلمها ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : علمنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : علمنيها جبريل .

مسألة : قال ابن الجنيد : لو وصى رجل بغير خطه ولم يشهد إلى أن يحضره الموت ، فقال لجماعة من الشهود بحضرته قد كتبت وصيتى وتركتها عند زيد فاشهدوا على بما فيها ، ثم مات ، كانت شهادتهم كلهم كشهادتهم على شهادة زيد على الموصى ، فإن قال : قد جعلتها على نسختين عند زيد واحدة وعند عبد الله أخرى فاشهدوا على بما فيهما ، فأحضر زد وعبـد الله النسختين قامت شهادة الشهود عليـه مقام شهادتهم على شاهدين غير الآخرين ، ولو كانت مما كتبها بخطه ولم يسترب به جاز للشاهدين أن يشهدا عليه بما فيها إذا أمرهما بذلك ، ولو لم يشهد فيها ، ثم ذكر حالها وأخرجها المعدّ له عنده بعد موته أنفذت ، ولو لم يقرأ الوصية على الشهود وطواها ، ثم قال اشهدوا على بما تضمنته فكتبوا ، جازت الشهادة ، ولو طبع عليها وقال لهم اشهدوا على بما فيها فطبعوا مع طابعه جاز لهم أن يشهدوا عليه بما فيها .

وفى هذه الأحكام كلها نظر ، والوجه المنع من الجميع لما سبق من أنه لا يجوز للشاهد أن يشهد بمجرد معرفة خطه .

البحث الثانى : فى القبول .

مسألة : الموصى له إن كان معيناً كولده وزوجته وأجنبى معين اشترط القبول ، فلا يملك الموصى له الوصية إلا بالقبول ، لأن الوصية عقد فلا يتحقق إلا بين اثنين عن تراض منهما ، والرضى من الأمور الباطنة فلا بد من لفظ يدل عليه ، ولأن الوصية تملك المال لمن هو من أهل الملك متعين ، فاعتبر قبوله كالهبة ، وللشافعية خلاف يأتى ، وإن كانت لغير معين كالفقراء والمساكين ومن لا يمكن حصرهم

كبنى هاشم وبنى تميم أو على مصلحة كسجد أو قنطرة أو حج لم يفتقر إلى القبول ولزمت بالموت ما لم يكن قد رجع عنها ، لأن اعتبار القبول من جميعهم متعذر ، فسقط اعتباره ، كما لو وقف عليهم ولا يتعين واحد منهم فيكفى قبوله ، ولأن الملك لا يثبت للموصى لهم ، وإنما يثبت لكل واحد منهم بالقبض ، فيقوم قبضه مقام قبوله ، أما الآدمى المعين فيثبت له الملك فيعتبر قبوله ، ولا يشترط القبول لفظاً ، بل يكفى من الأفعال مايدل عليه كالأخذ والفعل الدال على الرضا كما فى الهبة ، ويجوز القبول على الفور أى قبل الموت على خلاف ، وعلى التراخى ، أى حين موت الموصى إجماعا .

مسألة : اختلف علماؤنا ، فبعضهم اشترط وقوع القبول بعد موت الموصى . ولا يصح قبول الوصية ولا ردها فى حياة الموصى ، وله الرد وإن قبل فى الحياة وبالعكس ، وهو المشهور عند الشافعية ، لأن لا حق له قبل الموت ، لأن الوصية تحقيق ملك الموصى له بعد الموت ، وقبل الموت باق على ملك الموصى ، وقال أبو حنيفة : إذا قبل فى الحياة لم يكن له الرد بعد الموت ، وإذا رد فى الحياة كان له القبول بعد الموت ، وقال بعض علمائنا : لو قبل قبل الوفاة جاز ، وبعد الوفاة آكد ، فعلى هذا إذا مات الموصى بعد قبول الموصى له فى حياته لم يحتج إلى تجديد قبول آخر ، وكفى الأول فى تمامية الملك واستقراره ، ولو مات قبل موت الموصى بعد قبوله لم يحتج الوارث إلى قبول بعد موت الموصى ، إذا عرفت هذا فإنه لا يشترط الفور فى القبول بعد الموت ، لأن الفور إنما يشترط فى العقود الناجزة التى يعتبر فيها ارتباط القبول بالإيجاب .

مسألة لو مات الموصى له قبل موت الموصى وقبل القبول ، فالمشهور بين علمائنا أن الموصى إذا مات بعد ذلك قبل رجوعه عن الوصية ، فإن الوصية تنتقل إلى ورثة الموصى له ، وينتقل القبول إليهم ، وبه قال الحسن البصرى لأنه مات بعد عقد الوصية فيقوم الوارث مقامه ، كما لو مات بعد موت الموصى وقبل القبول ، ولما رواه محمد بن قيس عن الباقر عليه السلام قال : قضى أمير المؤمنين عليه السلام

فى رجل أوصى لآخر ، والموصى له غائب ، فتوفى الذى أوصى له قبل الموصى ، قال : الوصية لوارث الذى أوصى له إلا أن يرجع فى وصيته قبل موته ، ولأن القبول حق للمورث فيثبت للوارث بعد موته كخيار الرد بالعيب ، قال المفيد رحمه الله : إذا أوصى الإنسان لغيره بشىء من ماله فمات الموصى له قبل الموصى كان ما أوصى به راجعاً على ورثته ، ولم يرجع إلى مال الموصى ، إلى أن قال : ولصاحب الوصية إذا مات الموصى له قبله أن يرجع فيما أوصى له به ، فإن لم يرجع كان ميراثا لمخلفى الموصى له ، ورواه ابن بابويه فى كتابه ، وهو مذهب اشتهر بين الأصحاب ، وقال ابن الجنيد : لو كانت الوصية لأقوام بعينهم مذكورين يشار إليهم ، كالذى يقول لولد فلان هؤلاء فإن ولد لفلان غيرهم لم يدخل فى الوصية ، وإن مات أحدهم قبل موت الموصى بطل سهمه ، وهو يعطى بطلان الوصية إذا مات الموصى له قبل الموصى ، ولا بأس به ، وهو قول أكثر العامة ، وروى عن على عليه السلام ، وبه قال الزهرى وحماد بن أبى سليمان وربيعة ومالك والشافعى وأحمد وأصحاب الرأى ، لأنها عطية صادفت المعطى ميتاً فلم تصح كما لو وهب ميتا ، وذلك لأن الوصية عطية بعد الموت ، فإذا مات قبل القبول بطلت الوصية أيضا ، ولما رواه أبو بصير ومحمد بن مسلم فى الصحيح جميعا ، عن الصادق عليه السلام قال : سئل عن رجل أوصى لرجل ، فمات الموصى له قبل الموصى ، قال : ليس بشىء . وفى الموثق عن منصور بن حازم عن الصادق عليه السلام قال : سألته عن رجل أوصى لرجل بوصية إن حدث به حدث ، فمات الموصى له قبل الموصى ، قال : ليس بشىء ، قال الشيخ رحمه الله : الوجه فى هذين الخبرين أحد شيئين :

أحدهما : أن يكون قوله : ليس بشىء ، يعنى ليس بشىء ينقض الوصية ، بل ينبغى أن تكون على حالها فى الثبوت لورثته .

والثانى : أن يكون المراد بذلك بطلان الوصية إذا كان غيَّرها الموصى فى حالة حياته ، لقول على عليه السلام فى الخبر الذى رواه محمد بن قيس أولا ، إلا أن يرجع فى وصيته قبل موته .

مسألة : إذا رد الموصى له الوصية ، فإن كانت قبل موت الموصى ، فقد قلنا إنه لا اعتبار بالرد ، لكن لو مات الموصى له قبل موت الموصى وبعد رده ، وقلنا أن القبول ينتقل إلى الوارث ، فى انتقاله هنا نظر أقر به الانتقال ، وإن كان بعد موت الموصى فأقسامه أربعة .

(١) أن يرد الوصية قبل القبول فتبطل الوصية ويستقر الملك للورثة ، ولا نعلم فيه خلافاً ، لأنه أسقط حقه فى حال يملك قبوله وأخذه ، فأشبه عفو الشفيع عن الشفعة بعد البيع ، وإبراء المديون بعد الاستدانة ، بخلاف ما لو رد قبل القبول فى حياة الموصى ، لأن الوصية هناك لم تقع بعد ، فأشبه رد المبيع قبل إيجاب البيع ، ولأن ذلك الوقت ليس محلا للقبول فلا يكون محلا للرد ، هذا إذا كان الموصى به عين مال أو منفعة والعين للورثة ، أما لو أوصى بالعين لواحد وبالمنفعة لآخر فرد الموصى له بالمنافع فهى للورثة ، وهو أظهر وجهى الشافعية ، والثانى أنها للموصى له بالعين ، ولو أوصى بخدمة عبد لإنسان سنة وقال هو حر بعد سنة ، فرد الموصى له لم يعتق قبل السنة ، وبه قال الشافعى ، وقال مالك : يعتق قبل السنة .

(ب) أن يقع بعد القبول وقبض الموصى له فلا يصح الرد إجماعا ، لأن ملكه قد استقر ولزم ، فلا يخرج عنه إلا بعقد ناقل ، وليس الرد منه ، فأشبه رده لسائر ملكه ، إلا أن ترضى الورثة بذلك فيكون هبة منه لهم ، ويشترط جميع شرائط الهبة من العقد والقبض .

(ج) أن يقع الرد بعد القبول وقبل القبض ، قال الشيخ رحمه الله : يجوز الرد ، قال وفى الناس من قال لا يصح الرد ، لأنه لما قبل ثبت ملكه إما بالموت أو بالشرطين ، وإذا حصل فى ملكه لم يكن له الرد ، ثم قال : والصحيح أن ذلك يصح ، لأنه وإن كان قد ملكه بالقبول إلا أنه لم يستقر ملكه عليه ما لم يقبضه فصح منه الرد ، كما أن من وقف عليه شىء فإنه متى رد صح ذلك وإن كان قد ملك الرقبة والمنفعة أو أحدهما ، وللشافعية وجهان هذا أحدهما : لأنه تمليك من آدمى بغير عوض فصح رده قبل القبض كما لو وقف ، وهو نص الشافعى فى الأم ، فظاهرهما عندهم المنع ، لأن الملك حاصل بعد القبول فلا يرتفع بالرد كما فى المبيع وكما بعد

القبض ، وهذا هو الوجه عندى ، لأن الموصى له قد ملك بالوصية الجامعة للشرائط فلا يزول ملكه عنه إلا بسبب ناقل وليس الرد ناقلا ، وقول الشيخ لم يستقر ملكه عليه ممنوع فإنه عقد لا خيار فيه بحيث ينقسم إلى مستقر وغير مستقر ، والقياس على الوقف باطل لفساد القياس فى نفسه وقيام الفرق فيه ، لأنه إذا رد لم يحصل القبول الذى هو شرط أو جزء ، نعم لو قبل ثم رد لم يكن للرد حكم ، وللحنابلة تفصيل فقالوا : إن كان الموصى به مكيلا أو موزونا صح الرد لأنه لا يستقر ملكه عليه قبل القبض ، وإن كان غير ذلك لم يصح الرد ، لأن ملكه قد استقر عليه ، فهو كالمقبوض ولأنه لما ملك الرد من غير قبول ملك الرد من غير قبض ، والملازمة ممنوعة .

(د) أن يرد بعد القبض وقبل القبول فإنها تبطل ، لأن القبول جزء السبب وقد حصل الرد قبل فيبطل العقد كما لو لم يكن قبض ، إذ القبض لا عبرة به ولا مدخل له فى التملك .

مسألة : إذا رد الموصى له الوصية ففى كل موضع يصح رده فيه ، فإن الوصية فيه تبطل بالرد ويرجع إلى التركة فيكون لجميع الورثة ، لأن الأصل ثبوت الحق لهم ، وإنما خرج بالوصية فإذا بطلت الوصية رجع إلى ما كان عليه كأن الوصية لم توجد ، ولو عين بالرد واحداً وقصد تخصيصه بالمردود لم يكن له ذلك وكان لجميعهم ، لأن رده امتناع من تملكه فيبقى على ما كان عليه ، ولأنه لا يملك دفعه إلى الأجنبى فلم يملك دفعه إلى وارث يخصه به ، وكل موضع امتنع الرد لاستقرار ملكه عليه فله أن يختص به واحدا من الورثة لأنه ابتداء هبة وتمليك ولأنه يملك أن يدفعه إلى أجنبى فملك أن يدفعه إلى وارث ، فإذا قال : رددت هذه الوصية لفلان ، قيل له ما أردت ؟ فإن قال أردت تمليكه إياها وتخصيصه بها فقبلها اختص بها إذا أتى بإيجاب الهبة ، فإن قال أردت ردها إلى جميعهم لو رضى فلان عادت إلى جميعهم إذا قبلوها ، ولو قبلها بعضهم دون بعض فللقابل حصته منها خاصة وحصة غيره للراد ، وقالت الشافعية : إذا قال الموصى له رددت الوصية لفلان يعنى أحد الورثة ففى الأم : إن قال أردت لرضاه كان رداً على جميع الورثة ، وإن قال أردت تخصيصه بالرد عليه فهو هبة منه خاصة . قال بعضهم : هذا متفرع على تصحيح الرد بعد

القبول ، وإلا فـالا يملكه لا يمـكنه أن يملكه غيره ثم لم يعتبر لفظ الهبة والتمليك ولا بد منه ، وهو القياس عندهم ، ولو مات ولم يبين مراده جعل رداً على جميع الورثة ، فإذا لم يقبل الموصى له ولم يرد فللوارث مطالبته بأحد الأمرين ، فإن امتنع حكم عليه بالرد .

تنبيه : يحصل الرد بقول الموصى له رددت الوصية أو لا أقبل الوصية ، وما يقوم مقام ذلك من ألفاظه ويؤدى معناه . آخر ، لو كانت الوصية لاثنين فقبل أحدهما ورد الآخر ، رجع نصيب الراد إلى جميع الورثة كالواحد ، وقال ابن الجنيد : لا يرجع نصيب الراد إلى الورثة ، وليس بجيد .

البحث الثالث : فى سبب التملك .

مسألة : اختلف علماؤنا فى أن الموصى له متى يملك ما أوصى له به ، قال فى المبسوط[1] : الأقوى أن يقال : إن الشىء الموصى به ينتقل إلى ملك الموصى له بوفاة الموصى ، وقد قيل إنه بشرطين : بالموت وقبول الموصى له ، وقيل إنه مراعى ، فإن قبل علم أنه انتقل بالموت إليه ، وإن رد علم أنه بالموت انتقل إلى الورثة ، ثم قال : وعلى ما قلناه لو أهل هلال شوال وقد مات الموصى وقد أوصى له بجارية ولم يقبل الموصى له بعد لزمه فطرتها ، وعلى القولين الآخرين لايلزمه ، وإنما رجحنا الأول لقوله تعالى: « من بعد وصية يوصى بها أو دين » فأثبت الميراث بعد الوصية والدين ، ولم يقل بعد وصية وقبول الموصى له فوجب أن لا ينفذ ذلك ، وقال قبل ذلك : إذا مات الموصى متى ينتقل الملك إلى الموصى له ؟ قيل فيه قولان :

أحدهما : أنه ينتقل بشرطين : بوفاة الموصى ، وقبول الموصى له ، فإذا وجد الشرطان انتقل الملك عقيب القبول .

والقول الثانى : أنه مراعى إن قبل الوصية تبينا أنه انتقل إليه الملك بوفاته ، ون لم يقبـ ل تبينا أن الملك انتقل إلى الورثة بوفاته .

وقيل فيه قول ثالث : وهو أن الملك ينتقل إلى الموصى له بوفاة الموصى مثل الميراث ، و دخل فى ملك الورثة بوفاته ، فإن قبل ذلك استقر ملكه عليه ، وإن

---

(١) الشيخ الطوسى .

رد ذلك انتقل عنه إلى ورثته ، وهذا قول ضعيف لا يفرع عليه ، مع أنه قال أولا أنه ينتقل بموت الموصى ، وقال فى الخلاف : إذا أوصى له بشىء فإنه ينتقل إلى ملك الموصى له بوفاة الموصى ، وقال ابن الجنيد : فإن اكتسب العبد بعد موت السيد وقبل قبول الموصى له إياه كان ما اكتسبه تابعاً له ، وهو يدل على الانتقال بالموت ، وقال ابن إدريس : الأقوى أنه لا ينتقل بالموت ، بل بانضمام القبول من الموصى له لا بمجرد الموت ، والمعتمد أن نقول : إن كانت الوصية لغير معين لم يفتقر إلى القبول ولزمت بالموت وحصل الانتقال به ، وإن كانت لمعين انتقل الملك إليه بوفاة الموصى انتقالا غير مستقر بل متزلزلا قابلا للزوال ، وإن رد ذلك انتقل عنه إلى ورثته ، لأن الملك بعد موت الموصى إما أن يكون باقياً على ملكه وهو باطل ، لأن الميت لا يملك شيئا ، واستمرار الملك مع الموت بعيد جداً ، وإما أن ينتقل إلى الورثة وهو باطل ، وإلا لكان الموصى له يتلقى الملك من الوارث لا من الميت ، وهو بعيد ، ولأن الوارث لو كره الانتقال إلى الموصى له لم يعتد بكراهيته فى الانتقال ، وحكم به بغير اختيار الوارث ، فإما أن يكون ملكا لله تعالى فلا يختص بالموصى له ، بل يجب انتقاله إلى سبيل الخير لأنها مصب حق الله تعالى ، وإما أن يبقى بلا مالك ، وهو بعيد لاستحالة بقاء ملك بغير مالك فتعين انتقاله إلى الموصى له ، فنقول حينئذ لا يجوز انتقاله إليه على وجه اللزوم والاستقرار ، وإلا لما ارتد عنه بالرد ، والتالى باطل بالإجماع ، فالمقدم مثله والملازمة ظاهرة ، فإن الأملاك المستقره على أربابها لا تزول عنهم بردهم إياها ، ولا يمكن القول بالوقف ، لأنه إنما يثبت الوقف بالنسبة إلينا لعدم علمنا بالحكم فى نفس الامر ، ونحن قسمنا بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر فلم يبق إلا ما ادعيناه .

وأما العامة فقد اختلفوا ، فللشافعى أقوال ثلاثة :

أحدها : أنه يدخل الموصى به فى ملك الموصى له بموت الموصى بغير اختياره ، كما يدخل الميراث فى ملك الورثة ، ويستقر بقبوله ، وهو قول غير مشهور بينهم ، ووجهه أنه يستحقه بالموت فأشبه الميراث ، ولأنه لا يجوز أن يبقى على ملك الميت لأنه صار جماداً ، ولا يجوز أن ينتقل إلى الورثة ، لأن الله تعالى قال : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » فثبت أنه ينتقل إلى الموصى له .

والثانى : أن الموصى له يملك ما أوصى له بالقبول لأنه تمليك بعقد فيتوقف الملك فيه على القبول كما فى البيع ونحوه ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد وأهل العراق ، وعلى هذا فالملك قبل القبول للوارث أو يبقى للميت ، فيه للشافعية وجهان أصحهما الأول .

والثالث : وهو أصح الأقوال عند الشافعية ، وبه قال المزنى : أن الملك موقوف فى الحال ، فإن قبل تبينا أنه ملك من يوم الموت ، وإلا تبينا أنه كان ملكاً للوارث من يومئذ ، لأنه لو ملك بالموت لما ارتد بالرد كالميراث ، وبتقدير أن يرتد وجب أن يكون انتقاله إليهم بحسب الهبة منه لا بحسب الإرث من الموصى ولو ملك بالقبول ، فإما أن يكون قبل القبول للميت ، واستمرار الملك مع الموت بعيد ، أو للوارث وحينئذ فالموصى له يتلق الملك عن الوارث لا عن الموصى ، وهو بعيد أيضاً ، ولأن الإرث يتأخر عن الوصايا ، وإذا بطلت الأقسام وجب التوقف ، والملازمة الأولى ممنوعة ، وإنما يتم لو كان الملك مستقراً لازما ، أما إذا قلنا بأنه متزلزل فلا ، ولا نسلم كون الانتقال مع الارتداد يحسب بالهبة ، بل نقول الارتداد رافع للملك من أصله ، والقياس على الإرث باطل ، لأن الإرث ليس بتمليك بإيجاب ، والوصية بخلافه ، وقد اعترضت الشافعية على قولهم بأنه لو أوصى بعتق عبد معين بعد وفاته انتقل العبد إلى الوارث إلى أن يعتق ولا يجعل على الخلاف ، والفرق أن الوصية تمليك للموصى له فيبعد الحكم بالملك لغير من أوجب له الملك والعتق ليس بتمليك ، وأجابوا أيضاً بأن الوصية بالعتق دون الرقبة ، فلم يمنع من ملك الوارث وهنا الوصية بالملك ، فلم ينتقل ما وصى به إلى الوارث مع استحقاقه الوصيه به . ثم اعترضوا بأن قالوا لم لا يبقى على حكم مال الميت ، كما لو كان على الميت دين فإنه يكون باقيا فى حكم ذمة الميت ، وأجابوا بالفرق بينهما بأنه يجوز أن تجدد عليه وجوب دين ، وهو إذا كان حفر بئراً فى حال حياته فوقع فيها إنسان بعد موته ، ولا يجوز أن يتجدد له ملك بعد موته فلم يبق إملاكه ، قيل عليه كيف يجوز أن يتعلق الملك بشرط مستقبل وذلك محال ، أجابوا بأن هذا غير مانع ، كما إذا قال لها :

أنت طالق قبل موتى بشهر ، فإنه إذا مات تبينا أنه وقع الطلاق أو لم يقع ، وهذا لا يشبه القبول ، لأن الموت ليس بشرط فى وقوع الطلاق ، وإنما تبين به الوقت الذى أوقع فيه ، ولو قال إذا مت فأنت طالق قبله بشهر لم يصح ، قالوا وينبغى أن يكون القبول هنا ليس بشرط فى صحة الملك ، وإنما يبين به اختياره للملك حال الموت فتبين حصول الملك باختياره ، وبعد هذا كله فالقول بأن القبول كاشف عن الملك لا بأس به عندى .

واعترض على القائل بأن الملك ينتقل إلى الوارث بقوله تعالى : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » شرط فى ملك الوارث انتقال الوصية ، والوصية هنا ثابتة فلا يتحقق الملك للوارث ، وأجيب بأن الملك ثبت للوارث بالموت ، والمراد بالآية « من بعد وصية » مقبولة ، ولهذا فإن الموصى له لو لم يقبل الوصية كانت ملكا للوارث إجماعا ، وقيل : قبولها ليست مقبولة ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : « فلكم الربع مما تركن من بعد وصية » أي ذلك لكم مستقر ، ولا يمنع هذا ثبوت ملك غير مستقر ، ولهذا لا يمنع الدين ثبوت الملك فى التركة وهو آكد من الوصية ، ثم قال بعضهم : بأنه يبقى ملكا للميت ، كما إذا كان عليه دين ، واعترضوا على من يقول بملكه بأن الملك بقى له فيما يحتاج إليه مؤنة تجهيزه ودفنه وقضاء ديونه وتنفيذ وصاياه ، ولأنه يتعذر انتقاله إلى الوارث من أصل الوصية ، وامتناع انتقاله إلى الموصى له قبل القبول الذى هو إما جزء السبب أو شرطه ، فإن ذلك يقتضى تقدم المسبب أو المشروط على جزء السبب أو شرطه ، وجوزوا أن يتجدد للميت ملك فى ديته إذا قتل ، وفيما إذا نصب شبكة فوقع فيها صيد بعد موته بحيث ينفذ وصاياه ، وتقضى ديونه منها ، ويجهز أيضا ، فإن رد الموصى له أو قبل ، انتقل حينئذ . فإن قلنا إنه ينتقل إلى الوارث فإنه يثبت له الملك على وجه لا يفيد إباحة التصرف كثبوته فى العين المرهونة . فلو باع الموصى به أو رهنه أو أعتقه أو تصرف بغير ذلك لم ينفذ شىء من تصرفاته ولو كان الوارث ابنا للموصى به ، مثل أن تملك امرأة زوجها الذى لها منه ابن فتوصى به لأجنبى ، فإذا ماتت انتقل الملك فيه إلى ابنه إلى حين القبول ولا يعتق عليه .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين، وتثبيتاً لأقدامهم، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسي لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : —

ا — العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب — نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج — السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

(العددان ٥٣ و ٥٤) المجموعة الثانية

المحرم ١٣٨٣ هـ — يونيو ١٩٦٣ م

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الادارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

العددان ٥٥ و ٥٦

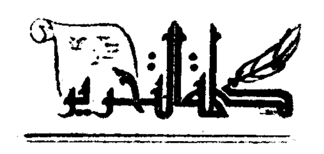
المجموعة الثانية

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم



« التوحيد » هو الحقيقة الأولى التى جاءت بها الأديان كلها : أنزل الله بها جميع كتبه ، وأرسل بها جميع رسله .

ومن قرأ القرآن الكريم قراءة المتدبرين المستبصرين ، وجده يولى هذه الحقيقة الكبرى أعظم عناية ، ويدير الحديث عنها فى أسالب مختلفة ، من التقرير ، والتمثيل ، والقصص ، والمحاورات ، ولفت الأنظار إلى الكائنات وما خلق الله من شىء ، وما للسموات والأرض وما فيهن من تسبيح بحمد الله الواحد الأحد ، كلّ بحسب ما هيأه الله عليه : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً » .

وإنما عرّف الله عباده بهذه الحقيقة ، وجعلها محور أديانه ورسالاته ، وأدار حولها جميع ما يتصل بهذه الديانات وهذه الرسالات من تشريع وأخلاق وآداب ومعاملات ، ومن معارف وعقائد ونظريات ، لأمرين أساسيين :

أحدهما : أنها هى الواقع الحق الذى لا سبيل إلى إنكاره أو المماراة فيه إذا كان الأمر أمر الفطرة والحجة القويمة ، والحديث عن الواقع لا يمكن أن تختلف فيه الرسالات ، ولا أن يتغير الحكم فيه بتغير الزمان أو المكان .

الثانى : أن هذه الحقيقة هى الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية الراشدة ، أو هى الشجرة المباركة التى تثمر جميع الثمرات الطيبة للجنس البشرى

الذى استخلفه الله فى الأرض : من القوة ، والعزة ، والكرامة ، والألفة ، والتعاون ، والمساواة ، والحرية ، والتفكير ، والسمو العقلى والروحى ، والمودة ، والرحمة ، وسائر الصفات السامية التى هى فيض إلهى ، ونبع من صفات الله وأسمائه الحسنى .

* * *

إننا نجد المؤمن المعتقد بوحدانية الله واثقاً بأنه لا تصرف فى هذا الكون على الحقيقة إلا لله ، وأنه لا قوة لمخلوق فيه إلا بالله .

فهو يقرأ قوله تعالى :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » .

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .

« إن وليى الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » .

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه » .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ! » .

« أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام * ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن

أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون » .

ويقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس رضى الله عنهما :

« إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن أهل الدنيا لو اجتمعوا على أن ينفعوك ؛ لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ؛ لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

يقرأ المؤمن هذا فى كتاب ربه جل وعلا ، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيعلم حقاً معنى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ولا يأخذها على أنها عبارة تردد باللسان ، ولا تفقه بالجنان ، وحينئذ يقوى قلبه ويطمئن ، ولا يتزلزل لشىء فى هذه الحياة ، ويكون له هذا الإيمان باعثاً ومنشطاً ودافعاً إلى أن يستمسك بالحق ولو كره المبطلون ، وإلى أن يرفع رأسه فلا يخفضها لمخلوق مثله ، ولكن يخفضها لله الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه .

إن الإنسان ما دام فى الحياة ، عرضة لأن يصطدم بصعوبات ، وبأن يجاهد ويقاوم فى كل مجال ، فإذا اعتقد لحظة واحدة أن هذه الصعوبات أو الذين يثيرونها هم أقوى من أن يُصدموا ، وأعتى من أن يهزموا ؛ فإن قوته تنهار ، وعزيمته تنحل ، فلا يطيق الوقوف أمام الصعاب وهو على هذه الحال من الانهزام النفسى ، والانهيار الداخلى . أما إذا آمن بأن الله تعالى هو وحده صاحب القوة التى لا تقهر ، ورب العزة التى لا تغلب ، وأنه حين يمتثل أمره ونهيه فى مقاومة الباطل والفساد يكون آويا إلى ركن شديد ، فإن هذه العقيدة تنفعه وتدفعه :

أما أنها تنفعه فلأنها تثبت قلبه وتجعله يشعر بالطمأنينة والرضا ، وهذا هو الجزاء المباشر للإيمان ، ومن حرمه بات فارغ القلب مما يقويه ويثبته .

وأما أنها تدفعه فلأنها ستكون هى السلاح المعنوى الروحى الذى يغرى صاحبه

بالتقدم إلى الأمام دون خوف ولا تردد . وبذلك ينتصر الحق على الباطل ، والخير على الشر ، والصلاح على الفساد « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

ومن ظن أن مثل هذا الإيمان عقيدة نظرية ليس لها أثر خارجى ، فقد ضل ضلالا بعيداً ، وعمى عن حقائق القلوب ودخائل النفوس ، وخواص الأفراد والجماعات البشرية .

فإنه ماعمل عامل ، ولا كدح كادح ، ولا نجح ناجح ، ولا انتصر فى الجهاد منتصر ، إلا حين يكون قلبه ممتلئاً إيماناً بما يعمل ، واثقاً من أنه يرمى به إلى غرض شريف يرضى ربه .

أما أولئك الذين يدخلون فى الأمور بقلوب فارغة من الإيمان بجدواها ، والثقة بنفعها وشرف غاياتها ، فإنهم لايجنون منها إلا ثمرات هزيلة ضئيلة لا تسمن ولا تغنى .

• • •

ولقد بعث الله تعالى بهذه الرسالة الأخيرة التى ختم بها رسالاته ، نبياً أمياً فى شعب يحيط به الفقر والحرمان ، وجاءته هذه النبوة بينما كان وحيداً فى غار سحيق ، لا أنيس معه ، ولا عصبة من ورائه ، ولكن قوة الإيمان بوحدانية الملك الديان ، جعلت من هذا الوحيد المنفرد فى الغار ؛ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، فاهتزت الدنيا لدعوته ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا بعد جهاد كبير ، وصبر طويل ، دام أكثر من عشرين عاما ، وها هو ذا دين الله متين البنيان ، ثابت الأركان ، وسيبقى كذلك إن شاء الله إلى آخر الزمان ؟

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر



— ١ —

التعريف بسورة هود ــ من هو هود ــ السورة تتحدث عن الأصول الثلاثة للدين : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ــ الحروف التى بدئت بها السور القرآنية : ما بدىء بحرف ، وما بدىء بحرفين ، وما بدىء بثلاثة ، وبأربعة ، وبخمسة ــ تلخيص لآراء العلماء فى المقصود بها ، وتعقيب نافع بعد هـذا التلخيص فيه تقرير للمنهج السليم فى استقبال هداية القرآن والبعد عما يثير خلاف المتعصبين ــ تقسيم سورة هود باعتبار ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى فصول ثلاثة : (الفصل الأول فى تقرير الدعوة المحمدية بأصولها الثلاثة ــ الفصل الثانى فى تقرير أن هذه الدعوة بأصولها هى دعوة الرسل السابقين ــ الفصل الثالث فى توجيه الخطاب للنبى وصحبه فى الاستمساك بدعوة الله) ــ عرض للآيات الواردة فى أغراض الفصل الأول مع بيان ماتتضمنه هذه الآيات تصريحاً وإشارة ــ تمهيد بذكر ما يتضمنه الفصل الثانى إجمالا ــ والتفصيل للعدد الآتى .

سورة هود : هى السورة الحادية عشرة من القرآن الكريم على حسب الترتيب المصحفى ، وهى من القسم المكى الذى نزل قبل الهجرة .

وهود : اسم النبي الذى بعث إلى قوم عاد ، وقد قالوا إنه أول من تكلم بالعربية ، وهو من ولد سام بن نوح ، الأب الثانى للبشر بعد آدم ، و « عاد » الذى يُنسب إليه قوم هود : هو الولد الثالث لسام بن نوح ، والجد الثالث لهود عليه السلام .

وقد ذكر هود فى القرآن باسمه سبع مرات : مرة فى سورة الأعراف ، ومرة فى سورة الشعراء ، وخمس مرات فى هذه السورة التى سميت باسمه ، ولكثرة ورود اسمه فيها أضيفت إليه ، وعرفت به ، مع أنها تتحدث عن غيره من الرسل السابقين ، ومع أن غيرها من السور تتحدث عنه .

ولما كانت هذه السورة مكية ؛ تحدثت عما تتحدث عنه السور المكية من تقرير أصول الدين : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وإقامة الأدلة عليها ؛ كونية ، ووجدانية ، وتاريخية ، ورد الشبه التى يثيرها حولها المعارضون ، ونحو ذلك .

وسورة هود : هى إحدى السور المبدوءة بحروف هجائية تنطق مقطعة بأسمائها لا بمسمياتها ، وقد بدئت بثلاثة أحرف ، هى : ألف . لام . راء .

وفى القرآن الكريم من تلك السور :

- ما بدىء بحرف واحد ، وهو : ص ، ق ، ن .
- وما بدىء بحرفين ، وهو : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثيه ، الأحقاف .
- وما بدىء بثلاثة أحرف ، وهو : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر .
- وما بدىء بأربعة أحرف ، وهو : الأعراف ، الرعد .
- وما بدىء بخمسة أحرف ، وهو : مريم ، الشورى .

وقد تكلم العلماء عن هذه الحروف ، فاختلفوا فى المراد بها ـ كما جاء فى تفسير الإمام الرازى ـ على واحد وعشرين قولا :

فمنهم من يرى أن كل حرف من هذه الحروف يرمز إلى اسم من أسماء الله تعالى .

ومنهم من يرى أن ما بدئت به السور من هذه الحروف ، إنما هو ألقاب لها .

ومنهم من يرى أنها الحروف الهجائية بعينها ، ولم تجعل رمزاً ، ولا لقباً ، وإنما أريد بها التنبيه على أن القرآن لم يؤلف إلا من حروف لغتهم التي يعهدون ، فإن كان القرآن - كما يزعمون - من عند محمد ، فليأتوا بمثله ، فهم أرباب اللغة التي هذه حروفها ، وإن عجزوا ؛ فذلك برهان على أنه من عند الله .

ومن العلماء من يرى أن هذه الحروف إنما جيء بها للتنبيه على أهمية ما سيأتي بعدها ، وتوجيه النفوس إليه ، فهي أدوات تنبيه خاصة بالقرآن الكريم ، وعلى هذا فهي الحروف الهجائية التي ليس لها في اللغة العربية مدلول سوى أنها الحروف المعهودة .

وبعض العلماء يرون أن هذه الحروف مما استأثر الله بعلمه ، فهي حقائق مستورة لم تكشف لنا .

إلى غير ذلك من الأقوال ، التي ليس للناس حاجة في أن يعلموها ، أو يتجادلوا فيها ، فإن القرآن الكريم واضح بآياته المحكمة ، مستغن عن المناقشة والمجادلة في أمثال هذه الموضوعات ، وكم رأينا الناس ينصرفون عن هدايته إلى التكلم في موضوعات الجبر والاختيار ، أو الاستواء ، أو تعليل الأفعال ، أو الوعد والوعيد ، أو العمل والإيمان - مما هو نظريات لها شبه بالعقائد ، وكذلك نراهم يتكلمون في مثل آيات القتال ، وهل نسخت آيات العفو ، وفي القصص القرآني وما أضيف إليه من الإسرائيليات ، وكذلك نراهم يطبقون القواعد الفقهية والأصولية على القرآن ، أو ينزلون معاني آياته على المذاهب التي يتعصبون لها .

وقد كان علماء السلف - رحمهم الله تعالى - يكتفون بما قرره القرآن في العقائد والأخلاق والقصص ، ولا يحاولون التوسع فيه ، ولا السؤال عن تفاصيله ، وما كانوا يسألون إلا عن آيات الأحكام ذات الوجهين في الدلالة .

وإن منهجهم فى ذلك لهو المنهج السليم الذى يندرىء به الخلاف الضار فى أصول الدين ، وتنقمع به العصبية العمياء التى تقطع أواصر الأخوة بين المسلمين .

° ° °

هذا ويمكن تقسيم هذه السورة باعتبار ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى تقرير الدعوة المحمدية بأصولها الثلاثة المتقدمة .

الفصل الثانى : فى تقرير أن هذه الدعوة بأصولها هي دعوة الرسل السابقين ، وأنهم عليهم صلوات الله وسلامه ، قد أصيبوا من قومهم بالأذى والكيد ، كما أصيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قومه وأن عاقبة المكذبين كانت هى الدمار والهلاك ، وعاقبة الرسل كانت هى الظفر والنجاة .

الفصل الثالث : توجيه الخطاب للنبي وصحبه فى الاستمساك بدعوة الله ، والتحذير من الطغيان والخروج عنها .

° ° °

الفصل الأول : بدأت السورة بتقرير الدعوة ، وذلك بعد آية المطلع الخاصة بأوصاف القرآن الكريم ، وبيان أنه كتاب جمع بين الإحكام والتفصيل ، فلم تكن دقته مخلة بتفصيله ، ولم يكن تفصيله مخلا بدقته ، لأنه من لدن إنه لايفوت حكمته ولا خبرته شيء ، وذلك قوله تعالى : « الر ، كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

وقد استغرق تقرير الدعوة ـ بعد هذه الآية ـ ثلاثا وعشرين آية تبدأ من الآية الثانية : « ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير » ، وتنتهى بالآية الرابعة والعشرين : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

وقد قررت هذه الآيات :

* وحدانية الله فى العبادة : « ألا تعبدوا إلا الله » .
* وأنه هو المرجع فى طلب المغفرة ، وفى التوبة : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » .
* وقررت مهمة الرسول ، وهى الإنذار والتبشير : « إننى لكم منه نذير وبشير » .
* كما قررت عقيدة البعث : « إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » .
* وأشارت فى أثناء ذلك إلى نوعى سعادة الدنيا والآخرة المترتبة على الإيمان بتلك الدعوة : « يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله » .
* كما أشارت إلى الشقاء الأبدى الذى يصيبهم بالتولى والإعراض عنها : « وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير » .
* ثم عرضت فى هذا السياق إلى تصوير إعراض الجاحدين ، وأنهم مهما حاولوا تغطية أنفسهم عن سماع الحق ، فإن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » .
* ثم نبهت على بعض أدلة التوحيد فى العبادة والربوبية بأن الله أعد لكل كائن حى رزقه وما يحتاج إليه فى هذه الحياة ، كما أنه خلق الكون بسمائه وأرضه ، وولّده من الماء ، فكان هذا العالم بما فيه من أسرار مسخراً للإنسان ، وميداناً لعمله فيه ، أيعمل بالخير فيكون من الشاكرين ، أم بالشر فيكون من الكافرين : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كلٌ فى كتاب مبين ، وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .
* وقد عرضت بعد ذلك إلى بعض الكلمات التى يثيرها المعارضون للتشكيك فى الدعوة ، وصرف الناس عنها مع وضوح أدلتها فى رزق الأحياء ، وخلق

الكون مسخراً للإنسان : « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

ثم تشير الآيات إلى أن وقفة هؤلاء المعارضين دون الإيمان ترجع إلى زعزعة نفوسهم واضطرابها بين اليأس والكفر عند إذاقتها الرحمة ثم نزعها منه ، وبين الفرح والبطر عند النعماء تصيبهم بعد الضراء ، ولو أنهم قدروا الابتلاء ، وأنه يكون بالشكر عند النعماء ، وبالصبر عند البلوى ؛ لاطمأنت قلوبهم إلى ما هم فيه ، ورجعوا به إلى مصدره الأول ، وهو الله سبحانه وتعالى : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

* ثم أخذت الآيات تبعد بالنبي عن جو الضيق ، وروح التبرم حين يسمع منهم الآيات المقترحة : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » .

* ثم أخذت تتحداهم بالقرآن ، وتدعوهم إلى الاستعانة بمن يستطيعون على الإتيان لا بمثله ؛ بل بعشر سور مثله إن كانوا صادقين : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » .

* ثم ترشد إلى أن هذه الوقفة منهم لم تكن بناء على حجة ولا برهان ، وإنما هو سلطان الدنيا ، وسيمكنون فيها مما يريدون ، وسيكون لهم الجزاء المعد لأمثالهم في الآخرة : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم

فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

* ثم أخذت تزيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثقة بحقية دعوته ، بأن من كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؛ فهذا وأمثاله يؤمنون به ، وحسبك أن يؤمن بدعوتك من يفهمها ويدرك سر اتصالها بدعوة الله السابقة : « أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

* أما من لم يؤمن بها فهو الظالم المفترى على الله كذباً وزوراً ، وقد وصف الله هؤلاء الذين ظلموا الحقيقة ، وما سيكون لهم من فضيحة على رءوس الأشهاد ، وما ينالهم من خسران وسوء عاقبة : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون ، أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

* ثم تضع الآيات طائفة المؤمنين بإزاء هؤلاء فى آية واحدة تبين جزاءهم وما أعد لهم من نعيم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

* ثم تزيد الأمر توضيحا فى الفرق بين المؤمنين والكافرين فتضرب لهم المثل المحس الذى يرونه بأعينهم : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون » .

الفصل الثانى : أما الفصل الثانى فهو فى تقرير أن هذه الدعوة التى شرحت بأصولها وبأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، وما كان من إعراض عنها - إن هذه الدعوة هى دعوة الرسل السابقين من مبدأ الخليقة إلى عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى هذا أولا تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كإخوانه السابقين ، وفيه ثانيا عظة وذكرى لقومه بما حدث لأسلافهم المتقدمين .

وإنا لنلمح من هذه القصص التى يسوقها القرآن الكريم عن الرسل السابقين أن شبه المبطلين الذين يلقون بها لإخفاء الحق واحدة فى كل عصر ، وإننا لنرى مثل هذا التوحد فى أساليب الخصومات السياسية ، ولعل ذلك يرجع إلى أن المبطل ينتحل أدلته ، ولا يأخذ فيها بواقع صحيح ، أما المحق فالكون كله شاهد له :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

* * *

وإلى العدد الآتى إن شاء الله تعالى ، لنورد التفصيل الذى كتبه فضيلة الأستاذ المغفور له الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت لهذا الفصل الثانى ، عن القصص التى جاءت بها سورة هود ؟

رجال صدقوا

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الأستاذ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

تتميز حقبة من الزمن عن سواها بما يقع فيها من أحداث ، وكلما ازدادت أهمية تلك الأحداث ، ازداد الاهتمام بزمن وقوعها .

ويتميز رجال عن غيرهم بما يصدر عنهم من أفكار وأعمال ، وكلما كانوا أبعد أثراً ، كانوا أبقى ذكرا ، حتى ليسجلهم التاريخ فى الخالدين .

وتتميز فكرة عما عداها بما يترتب عليها من آثار قد تصل بها إلى مرتبة المبادىء الضرورية التى تفرض وجودها ويكتب لها البقاء .

وقد أراد الله أن يكون ربع القرن الأخير من الزمان ظرفا لحدث تاريخى فى الإسلام يميزه عن غيره من الأحقاب .

كما أراد سبحانه أن يجتمع فى هذه الحقبة القصيرة نفر من المصلحين ، قلما يجتمع نصف عددهم فى قرن من الزمان ، وأن يحملوا فكرة إصلاحية كانت أمل كثير من المصلحين منذ قرون ، وأن يكونوا أقوياء لا يخافون فى الله لومة لائم .

وأراد الله لفكرة أصيلة مدروسة ممحصة أن تطلع على العالم الإسلامى فى صورة دعوة إصلاحية دينية تعالج أعظم داء ابتلى به المسلمون ، وهو التفرق المذهبي ، وأن تصبح هذه الدعوة نقطة انطلاق ومبدأ تحول فكرى لعالمنا الاسلامى فى وقت يحتاج فيه إلى اجتماع كلمة أبنائه كى يتمكنوا من نشر رسالتهم على هذا العالم المضطرب .

صحيح أن ربع القرن الذى انقضى من عمر دعوة التقريب ـ وفيه سنوات التمهيد ـ ليس شيئاً يذكر فى عمر الدعوات ، فإن خمسة وعشرين عاما فى عمر الدعوات ليست إلا كساعات أو أيام فى عمر الانسان ، إلا أن ما تم فيها من أعمال ، وما أنجز فيها من أمور خلدت هذه الحقبة من الزمن .

فما السر فى ذلك ؟ .

السر هو إيمان القائمين على هذه الدعوة وملاءمتها للفطرة السليمة .

والإيمان يصنع ما يشبه المعجزات ، إنه يمنح صاحبه من القوة ما يتخطى به كل عقبة ، ويتغلب به على كل صعوبة .

فنى هذه الحقبة من الزمن اجتمع نفر من المصلحين من مختلف المذاهب ، ومن شتى البلاد ، وتفاهموا رغم اختلاف مذاهبهم وديارهم ، ولم يكن للتعصبات المذهبية عليهم تأثير ، ولا كان فى أعماق تفكيرهم رواسب ، واتفقوا على العمل ، وأفرغوا فيه جهدهم ، فأخذت الدعوة لون المدرسة الفكرية العلمية التى تقوم بذاتها وبدراساتها ، ولا ترتبط بذوات الأشخاص أو بمراكزهم ، ولا تتأثر ببقاء الأشخاص أو زوالهم ، وبمعرفة الناس بهم أو جهلهم إياهم ، حتى ان بعض من تفانى فى خدمة هذه الفكرة ثم اختاره الله إلى جواره ، لم يعرف الناس إلى الآن عنهم شيئا .

لم يكن الحال يوم بدأت فكرة التقريب كما نحن عليه الآن ، كان سلطان التعصب قويا يتحدى أى إنسان يروج لمثل هذه الفكرة ، وكان عامة الناس لا يطيقون أن يسمعوا عن التقريب بين الشيعة والسنة ، إذ الشيعة فى زعم بعض السنيين هم الغلاة وأصحاب مصحف خاص ، والسنة فى زعم بعض الشيعة هم النواصب والمجسمة ، وإذا كان الخاصة وهم أئمة الفكر والدين قد عرفوا الحقائق ، فإن أحداً منهم لم يقدم على عمل إيجابى ، خوفا من الشائعات التى كانت تلصق بكل فريق وتصدق عند الفريق الآخر ، وخوفا من أنصاف العلماء أو أشباه المثقفين الذين لا يعرفون غير كتب مذهبهم ، ولا يقرءون سواها ، ولهم تأثيرهم المباشر فى عامة الناس .

فلم يكن بد إذن من تهيئة الجو قبل الإقدام على أى عمل إيجابى ، والتمهيد للفكرة قبل الخروج بها على الناس ، وهكذا مرت فكرة التقريب بمراحل ثلاث : مرحلة التمهيد ، ومرحلة التكوين ، ومرحلة التنفيذ .

وهناك رجال عاشوا فى التقريب منذ المرحلة الأولى ، وآخرون بدءوا مع المرحلة الثانية ، والأحياء من هؤلاء وأولئك لا يزالون يجاهدون فى هذه الدعوة

وأعمالهم تتحدث عنهم ، أما الذين سبقونا إلى رحمة ربنا فإن علينا نحوهم واجبا يقتضينا أن نشير إلى بعض ما قاموا به ونقدمه للتاريخ .

وما دام فقيدنا الأخير ، فقيد الاسلام شلتوت ، بجانب عضويته الدائمة فى التقريب منذ سبعة عشر عاما ، قد تولى مشيخة الأزهر فى السنوات الخمس الأخيرة ، فإننا سنذكر فى هذه العجالة شيوخ الأزهر الشريف الذين خدموا فكرة التقريب ، سواء من كان فى جماعتنا وتولى مشيخة الأزهر ، أو من لم يكن رسميا من أعضاء الجماعة ،

إن الذين أسهموا من شيوخ الأزهر بطريق مباشر أو غير مباشر فى دعوة التقريب أربعة ، هم المغفور لهم : / محمد مصطفى المراغى ، و/ مصطفى عبد الرازق ، و/عبد المجيد سليم ، و/محمود شلتوت ، والأولان لم يكونا رسمياً من أعضاء الجماعة ، لكنهما كانا يؤمنان بالفكرة إيماناً عميقاً ، وقد وقف أحدهما بجانبها وهى فى مرحلة التمهيد ، ووقف الثانى بجانبها وهى فى مرحلة التكوين .

أما الشيخ المراغى فكان على رأس الأزهر حين جئنا إلى مصر أول مرة سنة ١٩٣٨ داعين لفكرة التقريب ، وكان رحمه الله شيخاً وقوراً ، قوى الشخصية ، متزن الفكر ، واسع الأفق ، لمست فيه أول مالقيته إيماناً بالفكرة ، إلا أنه كان بحكم مركزه لا يستطيع أن يدعو إليها بنفسه ، بل أنه وهو إمام أهل السنة لم يكن يستطيع أن يظهر بمظهر المؤيد لفكرة كهذه أمام الجو الذى كان يسود الأزهر ، وبالتالى يسود هذا البلد العزيز .

لكنه رحمه الله عرف كيف يخدم الفكرة ، ففتح أمامنا المجال لالقاء محاضرات فى الأزهر وخارجه ، وسهل لنا الاتصالات الشخصية برجال الأزهر للتفاهم ، وكان يجمعنا بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب من العلماء الذين يعترف بعلمهم ، وحسن استعدادهم لدراسة الفكرة ، وكنا على اتفاق فى أن المسألة دقيقة ، وأن أية فكرة لايمهد لها يقضى عليها فى مهدها ، ثم استقر الرأى فيما بيننا على أن يقوم الأزهر بعمل شىء فى مناسبة عيده الألفى الذى أزمع عقده بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين ، إلا أن اتساع الحرب العالمية الثانية حال دون عمل شىء ، وإن لم يقض على ما وصلنا إليه من تفاهم .

وانتقل الشيخ المراغى إلى رحمة ربه ، بعد أن أسهم بصورة فعالة ، فى إيجاد التعارف الشخصى ، والاتفاق على النقط الأساسية ، وتهيئة الجو عند بعض القادة من علماء الدين ، وفى مقدمتهم الشيخان : مصطفى عبد الرازق ، وعبد المجيد سليم .

وإذا كانت الحرب قد أطاحت بكثير من المثل ، وهدمت بيوتاً وبلاداً ونفوساً وأرواحاً ، إلا أنها لم تعصف بما ثبته الله فى قلوب علماء مؤمنين من تفاهم وتعاطف فظلت عامرة بهذه المعانى إلى أن عدنا لمصر سنة ١٩٤٦ ، وقد أكسبتنا مرحلة التمهيد تجارب خرجنا منها بأن الاتصالات الشخصية التمهيدية لا بد أن تسبق كل دعوة ، وأن أية فكرة يراد لها البقاء يجب أن تخرج من النطاق الشخصى ، وتوضع على أكتاف جماعة من المؤمنين العاملين بحيث إذا غاب فرد حل مكانه سواه .

وفى تلك الفترة بدأت مرحلة التكوين ، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر ، واستقر الرأى على أن يكون هو بجانب الدعوة فى خارج الجماعة يساندها إذا توتر الجو ، وأن يكون الشيخ عبد المجيد سليم فى الجماعة ، وكان يرى أن عبد المجيد سليم هو شيخ العلماء وأفقهم بلا منازع .

وقد وقع ما كان يخشاه ، فإن المتعصبين ما إن سمعوا بتكوين الجماعة حتى هاجوا وماجوا ، وشوهوا الفكرة عند المسئولين ، وأدخلوا فى روع السلطات كثيرا من الظنون والأوهام ، وهنا يقف مصطفى عبد الرازق حين استفحل الأمر ، يقف أمام المسئولين مدافعاً عن سلامة الفكرة ، وسلامة العاملين لها وقيمهم وشخصياتهم ومراكزهم فى مصر وفى البلاد الأخرى ، ولولا هذا الموقف الصريح من هذا الرجل المؤمن الصادق لقضى على الفكرة فى بدء مرحلة التكوين .

كذلك كان له رحمه الله فضل اختيار بعض الأعضاء من علماء الأزهر ، وذكر بعض النقط فى القانون الأساسى للجماعة . ووقف معنا يومئذ داخل الجماعة شيخنا الامام عبد المجيد سليم بجهده وجهاده وعلمه وإيمانه .

وبعد مدة وجيزة ذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى ربه ، وكأنما كان عليه رسالة أداها ومضى .

وظن بعض المتعصبين المتربصين أن وفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق فرصة للهجوم، لكن أعضاء الجماعة، وفى مقدمتهم عبد المجيد سليم، صمدوا للهجوم وصدوه، ومن ذلك الحين لازم عبد المجيد سليم التقريب وجعله همه ورسالته، فلما اختير بعد سنوات شيخاً للأزهر، احتفظ بعضويته فى الجماعة، وكثيراً ما كان يوقع خطاباته بصفته «شيخ الأزهر ووكيل جماعة التقريب» وفى عهده فتحت صفحة جديدة فى علاقات السنة والشيعة، فهو الذى افتتح الكتابة إلى علماء الشيعة وتلقى ردودهم، وهو الذى بدأ تحويل الأزهر إلى جامعة إسلامية عامة بدل كونها قاصرة على المذاهب الأربعة الخاصة ليحقق الوارد فى القانون الأساسى لجماعة التقريب بالنسبة للجامعات الاسلامية، وهو الذى أدخل - لأول مرة - فى قانون الأحوال الشخصية المصرية بعض ما كان يرجح فى نظره من فقه الإمامية، وهو الذى اقترح على دار التقريب طبع تفسير مجمع البيان.

ثم ترك رحمه الله مشيخة الأزهر ولم يترك جماعة التقريب ولا دارها حتى فارق الحياة، فعم الحزن كل من عرف مكانة الرجل العلمية والدينية، وبقى التقريب برجاله يشق طريق دعوته، متوكلا على الله، ومحتسبا عنده فقد هذا الامام الجليل.

وكان الأستاذ الأكبر محمود شلتوت، من أعضاء جماعة كبار العلماء، وأستاذاً بالجامعة الأزهرية يوم اشترك فى تكوين هذه الجماعة، وظل مع زملائه فى الفكرة يقوم بواجبه نحو التقريب، وهو الذى اقترح فى أحد جلساتنا أن يعتبر السنة والشيعة المشتركون فى الجماعة مذاهب إسلامية لا طوائف أو فرقا، ثم أسندت إليه وكالة الأزهر فلم تشغله عن الإسهام فى التقريب، وهو الذى كتب المقدمة العلمية المعروفة لتفسير مجمع البيان، كما كان يكتب تباعا تفسيره فى «رسالة الاسلام» ثم أسندت إلى الفقيد مشيخة الأزهر، وإذا كانت فتواه المشهورة بشأن المذاهب الاسلامية، وجواز اتباع مذهب الإمامية قد صدرت حين توليه مشيخة الأزهر، فإن هذا كان مجرد ميقات زمنى لصدورها، على سنة التدرج فى التنفيذ لا فى الفكرة والمبدأ، ذلك بأن هذه الفتوى كانت منبثقة عن مبدأ على ثابت مدروس من أول الأمر،

هو أساس من أسس التقريب ، فهى فى المعنى ليست فتوى رجل واحد ، وإنما هى فتوى كل أولئك الرجال الذين حملوا أمانة التقريب ، وفى مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم .

وذهب شلتوت إلى ربه ، واهتز العالم الإسلامى لوفاته ، ولأول مرة فى التاريخ الإسلامى يظهر جليا اشتراك السنة والشيعة فى الأسى على شيخ للأزهر ، ذلك لأنه كان يعمل لفكرة التقريب ، وتوحيد كلمة المسلمين ، ونحن نؤمن ببقاء الله وحتمية الموت ، إلا أن هـذا لا يعفينا من الحزن الشديد لفقد زميل عزيز ، وعالم جليل ، ومجاهد من الطراز الأول .

ولقد لفت نظرنا معنى تردد فى كثير من البرقيات والرسائل والمقالات التى كتبت حول فقيدنا شلتوت ، فإن كثيرين ظنوا أن التقريب مؤسسة أزهرية ، وأن من يتولى أمر الأزهر يتصدر التقريب ، وكثرت أسئلة المنزعجين : ماذا بعد وفاة الشيخ ، وماذا يكون الأمر إذا لم يكن الخلف على سيرة السلف ، ونحن مع شكرنا لهؤلاء المهتمين نريد أن نقول : إن التقريب فكرة إصلاحية إسلامية مستقلة قائمة على البحث الصحيح والعلم ، وإن الأزهر جامعة إسلامية رسمية لها رسالتها العلمية ، ويعتبر مناراً للدين ، وهذه الجامعة العتيقة خدمت الاسلام كثيراً ، وتخرج فيها كثير من العلماء ودعاة الاسلام ، فمن الطبيعى أن تلتقى أفكار التقريب والأزهر ، مثل ذلك كمثل الأفكار الحسابية تصل دائماً إلى نتيجة واحدة ، وكمثل الخطوط المستقيمة إذا وضعتها فوق بعض انطبقت تماما ، وهذا هو شأن الأفكار السليمة المنبثقة من مبادىء دينية ، لاسيما إذا كان الدين دين توحيد ، والدليل على ذلك أن دار التقريب أنشئت فى القاهرة بلد الأزهر الشريف ، ومن أول من لبى هذه الدعوة عدد من أئمة العلم والدين من علماء الأزهر ، فوقف الأزهر الرسمى لا يؤثر فى التقريب ، بل إن بعض الرسميين لم يحسنوا إدراك رسالة التقريب فى كثير من الأحيان ، ولم يؤثر هذا فى سير التقريب ، ولم يمنعنا من احترام الأزهر ورجاله ، فإن موقف الأزهر الرسمى شىء ، وموقف علمائه شىء آخر .

إن التقريب يسير اليوم فى طريقه ، وبين جماعته رجال مؤمنون سيقدمون بإذن الله لأمتهم مثل ما قدم أسلافهم الصالحون .

وإن جهاد ربع قرن قد بدل الحال غير الحال ، ولعل المتصلين بالتقريب لا يحسون بمدى التحول إلا إذا نظرنا إلى الأيام الأولى ونظرنا إلى ما نحن عليه الآن ، وسنجد أن بعض من كانوا فى مقدمة المهاجمين لفكرة التقريب يسرهم اليوم أن يسلكوا فى أصحاب هذه الفكرة ، ونرى أن ما كان يعتبر من قبل وسيلة للهجوم ، يعتبر اليوم دليل تقدمية وإصلاح ، وإذا كانت دعوة التقريب قد نجحت ، فليس معنى هذا أن أصحابها والمشتغلين بها قد استراحوا وزالت من طريقهم العصبيات ، كلا ، فما زالت النفوس المريضة ، والكتب المشحونة بالدس والقطيعة كثيرة قوية التأثير ، وأرباب التبشير والمتأثرون بهم لا يزالون يكتبون ، وتجار المذهبية لا يزالون منبثين ، والسياسات المفرقة لنا بالمرصاد .

هذه هى بعض مشاكلنا رغم المغالاة فى التفاؤل عند بعض المتفائلين ، ومع ذلك نحن نرحب بالمعارضة ، فإن الدعوة لم تخسر منها شيئا بل كسبت من ورائها الكثير ، وفى نفس الوقت نقول لمن تخالجهم بعض الشكوك : إن الخطوات التى تمت لا رجوع فيها ، ونحن إلى الأمام إن شاء الله سائرون ، وأن الذين تحرروا من سجن الضيق الفكرى ، لن يعودوا إلى سجنهم أبدا بعد أن أصبحوا قادة التحرر الفكرى فى محيط المسلمين ؟

مقدمة قصة التقريب

لفقيد الإسلام المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت
شيخ الجامع الأزهر

وإنه ليحق للمسلمين أن يفخروا بأنهم
كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملا
فى تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم .

أحسنت دار التقريب صنعاً ، إذ فكرت فى إصدار كتاب تسجل فيه قصة هذه الفكرة الإسلامية ، وتذكر أطوارها وتاريخها ، وما صادفها من تأييد المؤيدين ، أو معارضة المعارضين ، حتى أصبحت من الحقائق العلمية الثابتة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وسرى بها روح من الإصلاح والمحبة والأخوة بين المؤمنين ، تحقيقاً لقول الله جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولقد كنت أود لو أستطيع أن أكتب هذه القصة بنفسى لأسجل فيها ألواناً من المشاعر والأفكار التى مرت بى فى فترات مختلفة من العصر الذى عشته فى جوها ، والذى عاصرت فيه إخوة أعزاء ، أحببتهم وأحبونى فى الله ، وناظرتهم وناظرونى بحثا عن الحقيقة ، والتماساً لآفاق من العلم الدينى من واجب المؤمنين أن يلتمسوها ، وأن يردوا لأهليهم أوديتها .

كنت أود لو أستطيع ذلك بنفسى لأسجل لمحات كنت ألمحها فى فكرة تعرض، أو رأى ينفذ، أو اجتماع يعقد، أو بحث ينشر، أو رسالة ترد، أو وفد يفد . . . فإن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، وهى دعوة الإسلام والسلام، وإن أسلوبها الذى تنتهجه لهو الأسلوب الحكيم الذى أمر الله به رسوله الكريم إذ يقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وإذا اتجهت العقول إلى البحث فى إخلاص وتضامن، لا هم لها إلا ابتغاء الحق، لمعت أمامها الأضواء، وسرت إليها أشعة الهداية الربانية، وكان لها قبسات، وكان لها لمحات، وإنى لأرجح أن قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » يشمل الأمر بالتجرد عن كل هوى من شأنه أن يخل بتقوى الله حين يتجه المرء إلى محراب العلم ملتمساً أن يفيض الله عليه من نفحاته .

إن المتقى لله فى مقام ابتغاء العلم هو ذلك الذى لا تأخذه عصبية، ولا تسيطر عليه مذهبية، ولا ينظر يميناً أو شمالا دون قصده .

كنت أود لو أستطيع ذلك بنفسى لأصور فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربئون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذى لا مرية فيه ،

وأن على سائر الناس أن يتبعوه ، ولكن يقول : « هـذا مذهبي وما وصل إليه جهدى وعلى ، وليست أبيح لأحد تقليدى واتباعى دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت ، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتى ، والحديث إذا صح فهو مذهبي » .

وكنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخى الإمام المصلح محمد تقى القمى ، ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذى لا يتحدث عن نفسه ، ولا عما لاقاه فى سبيل دعوته ، وهو أول من دعا إلى هـذه الدعوة ، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد بلد الأزهر الشريف . . . فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله ، وظل يتعهدها بالسقى والرعاية بما آتاه الله من عبقرية وإخلاص ، وعلم غزير ، وشخصية قوية ، وصبر على الضير ، وثبات على صروف الدهر ، حتى رآها شجرة سامقة الأصول باسقة الفروع تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون فى هذا البلد وفى غيره ، ولكنى أعود فأقول :

من هو أدرى بالدعوة وظروفها من داعيها الأول ؟ .

لقد آمنت بفكرة التقريب كنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها ، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة ، كان منها تلك الفصول المتتابعة فى تفسير القرآن الكريم التى ظلت تنشرها مجلتها ﴿ رسالة الإسلام ﴾ قرابة أربعة عشر عاما حتى اكتملت كتابا سويا أعتقد أنه تضمن أعز أفكارى ، وأخلد آثارى ، وأعظم

ما أرجو به ثواب ربى ، فإن خير ما يحتسبه المؤمن عند الله ، هو ما ينفقه من الجهد الخالص فى خدمة كتاب الله .

ولقد تهيأ لى بهذه الأوجه من النشاط العلمى أن أطل على العالم الإسلامى من نافذة مشرقة عالية ، وأن أعرف كثيرا من الحقائق التى كانت تحول بين المسلمين واجتماع الكلمة وائتلاف القلوب على أخوة الإسلام ، وأن أتعرف إلى كثير من ذوى الفكر والعلم فى العالم الإسلامى ، ثم تهيأ لى بعد ذلك ، وقد عهد إلى بمنصب مشيخة الأزهر أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ، المعروفة المصادر ، المتبعة لسبيل المؤمنين ، ومنها مذهب الشيعة الإمامية « الإثنا عشرية » وهى تلك الفتوى المسجلة بتوقيعنا فى دار التقريب التى وزعت صورتها الزنكغرافية بمعرفتنا ، والتى كان لها ذلك الصدى البعيد فى مختلف بلاد الأمة الإسلامية ، وقرت بها عيون المؤمنين المخلصين الذى لاهدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة ، وظلت تتوارد على الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على فكرتها أؤيدها فى الحين بعد الحين ، فيما أبعث به من رسائل للمستوضحين ، أو أرد به على شبه المعترضين ، وفيما أنشىء من مقال ينشر ، أو حديث يذاع ، أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والالتفاف حول أصول الإسلام ، ونسيان الضغائن والأحقاد ، حتى أصبحت والحمد لله حقيقة مقررة ، تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كان المرجفون فى مختلف عهود

الضعف الفكرى ، والخلاف الطائفى ، والنزاع السياسى يثيرون فى موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل .

وهاهو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة ، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية ، سنيها وشيعيها ، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان ، وتخلو من التعصب لفلان أو فلان ، كما أنه يعتزم فى تكوين مجمع البحوث الإسلامية أن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية .

وبهذا تكون الفكرة التى آمنا بها . وعملنا جاهدين فى سبيلها قد تركزت الآن وأصبحت رسالة الدار محل التقدير والتنفيذ .

وكنت أود لو أستطيع أن أتحدث عن الاجتماعات فى دار التقريب حيث يجلس المصرى إلى الإيرانى ، أو اللبنانى أو العراقى أو الباكستانى ، أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية ، وحيث يجلس الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى بجانب الإمامى والزيدى حول مائدة واحدة تدوى أصوات فيها علم ، وفيها أدب ، وفيها تصوف ، وفيها فقه ، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة ، وذوق المودة والمحبة ، وزملة التعليم والعرفان .

وكنت أود لو أستطيع أن أبرز صورة كصورة الرجل السمح الذكى القلب ، العف اللسان ، رجل العلم والخلق المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أو صورة كصورة الرجل المؤمن القوى الضليع فى مختلف علوم الإسلام ، المحيط

بمذاهب الفقه أصولا وفروعا الذى كان يمثل الطود الشامخ فى ثباته، والذى أفاد منه التقريب فى فترة ترسيخ مبادئه أكبر الفائدة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رضى الله عنه وأرضاه، أو صورة كصورة ذلك الرجل الذى حنكته التجارب واحتضنته محافل العلم والرأى المغفور له الأستاذ محمد على علوبة، جزاه الله عن جهاده وسعيه خير الجزاء.

ولعلى أيضاً كنت أستطيع أن أتحدث عن صور لكثيرين ممن وهبوا أنفسهم لهذه الدعوة الإسلامية، ووقفوا عليها جهودهم وآمنوا بالتقريب سبيلا إلى دعم قوة المسلمين وإبراز محاسن الإسلام، وغير هؤلاء كثيرون ممن سبقونا إلى لقاء الله من أئمة الفكر فى شتى البلاد الإسلامية الذين انضموا إلى التقريب، وبذلوا جهودهم لنشر مبادئه، وساجلناهم علما بعلم، ورأيا برأى، وتبادلنا وإياهم كثيراً من الرسائل والمشروعات والمقترحات، وفى مقدمتهم المغفور له الإمام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردى أحسن الله فى الجنة مثواه، أو المغفور لهما الإمامين الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى رضى الله عنهما.

لقد تلقى أولئك الأعلام دعوة التقريب فى أول نشأتها، ففتحوا لها قلوبهم وعقولهم، وأصفوها أكرم جهودهم حتى ذهبوا إلى ربهم راضين مرضيين، وإن لهم لتاريخا يذكر، وفضلا يجب أن يسجل ويؤثر، وغير هؤلاء كثير، ولسنا بصدد العد والإحصاء.

ولقد ذهب هؤلاء إلى ربهم راضين مرضيين ، وإن لنا لأخوة آمنوا بالفكرة ، ولا يزالون يعملون فى سبيل دعمها ، وهم أئمة الإسلام وأعلام الفكر فى شتى الأقطار الإسلامية ، أطال الله أعمارهم ، وسدد فى سبيل الحق خطاهم « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

وإذا كان هذا جانبا من جوانب التأييد والتلاقى حول فكرة التقريب ، فإن جانبا آخر من الحرب والمعارضة قابل هذه الدعوة ، وحاول أن يصد عنها ، شأن كل دعوة إصلاحية حين يتصدى لها الذين لم يألفوها ، فلقيت بذلك دعوة التقريب نصيبا كبيرا من المعارضة لها ، والهجوم عليها بقدر أهميتها وعظم هدفها ، وكان هذا النصيب متعدد الأشكال والأنواع .

كان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئاً بالطعون والتهم ، مشحوناً بالافتراءات وأسباب القطيعة وسوء الظن من كل فريق بالآخر ، حتى عد تكوين الجماعة بأعضائها من المذاهب المختلفة ، السنية الأربعة ، والإمامية ، والزيدية ، نصراً مبيناً أهاج نفوس الحاقدين ، وهوجمت الدعوة لا من فريق واحد بل من المتعصبين أو المتزمتين من كلا الفريقين ، السنى الذى يرى أن التقريب يريد أن يجعل من السنيين شيعة ، والشيعى الذى يرى أننا نريد أن نجعل منهم سنيين ، هؤلاء وغيرهم أساءوا فهم رسالة التقريب فقالوا : أنها تريد إلغاء المذاهب ، أو إدماج بعضها فى بعض

حارب هذه الفكرة ضيقوا الأفق ، كما حاربها صنف آخر من ذوى الأغراض الخاصة السيئة ، ولا تخلوا أية أمة من هذا الصنف من الناس ، حاربها الذين يجدون فى التفرق ضماناً لبقائهم وعيشهم ، وحاربها ذوو النفوس المريضة وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة ، هؤلاء وأولئك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات مفرقة لها أساليبها المباشرة وغير المباشرة فى مقاومة أية حركة إصلاحية ، والوقوف فى سبيل كل عمل يضم شمل المسلمين ويجمع كلمتهم .

كانوا يهاجمون الفكرة كل على طريقته ، ويسممون الجو بقدر استطاعتهم بغية القضاء على تلك الدعوة الواضحة المبادىء والأركان ، القائمة على العلم والدراسة والبحث ، الداعية إلى فتح المجال أمام الدليل من أى أفق طلع .

كنت أود لو أستطيع أن أبرز هذه النواحى كلها فى قصة التقريب أكتبها بنفسى وأتتبع تفاصيلها كما لابستها وعشت ظروفها ، ثم أتتبع مجلة « رسالة الإسلام » التى أدت أمانتها وأحسنت سفارتها وكانت معرضاً لآراء العلماء من كل فريق ، يمدونها بالبحوث وينتظرها كل منهم حريصاً عليها ، فتزدان بها مكتبة الشيعى ، كما تزدان بها مكتبة السنى ، وينهل من معارفها الغربى كما ينهل من معارفها الشرقى ، ولكن حسبى أن أكتب هذه المقدمة مشيراً بها إلى بعض جوانب هذه القصة .

وإنا لنحمد الله سبحانه أن أصبحت فكرة التقريب نقطة

تحول فى تاريخ الفكر الإصلاحى الإسلامى قديمه وحديثه ، وأنها أثرت تأثيراً بعيد المدى .

وإنه ليحق للمسلمين أن يفخروا بأنهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملا فى تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم ، وقد نجحوا فى ذلك بفضل إخلاص القائمين على أمر هذه الدعوة ، وسلامة تفكير المسلمين .

وإنا لنسأل الله تعالى دوام النجح لهذه الدعوة حتى يعود للإسلام مجده وللمسلمين عزهم ، ويتحقق فيهم وصف الله عز وجل :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » ، « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

معالم التقريب

للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

التقريب ، إجمالا ، هو اتجاه جاد داخل الإسلام مجرد تماماً من اللون الطائفى أو الإقليمى ، للتخلص من العداوة المتبادلة بين أهل المذاهب الإسلامية المختلفة ، وصيانة وحدة المسلمين .

ويخرج من نطاق هذا التعريف التبشير بالإسلام عند غير المسلمين ، وكذا التبشير بمذهب من المذاهب الإسلامية عند أهل مذهب آخر منها ، كما يخرج التقارب بين أهل الأديان المختلفة سواء أكان الاسلام من بينها أو لم يكن ، كما يخرج منه رد الغلاة الذين ينتسبون للإسلام بالاسم مع الإخلال بركن أو أكثر من أركانه ، ويخرج كذلك منه رد المقصرين من المسلمين ، وأخيراً يخرج منه المدارس والمذاهب الإسلامية ، وكل اختلاف فى الرأى بين المسلمين لا يصحبه عداوة تحدث انقساماً فى وحدة الجماعة الإسلامية .

ذلك أن التقريب مرتبط ارتباطاً تاماً بوحدة المسلمين ، إذ هو محاولة للدفاع عن هذه الوحدة واستنقاذها .

ووحدة المسلمين تدور على محورين :

أولهما : التسليم بحقوق عامة للمسلم فى كل مكان من بلاد الإسلام ، بغض النظر عن مذهبه وطبقته وجنسه ولونه ولغته ، وأهمها عصمة دمه وماله وعرضه ، وألا يظن به السوء .

وثانيهما : اعتقاد أخوة المسلم للمسلم تبعاً لأخوتهما فى الله .

فليس التقريب حركة تبشيرية بأى وجه ، ولا يدخل فى رسالته الدعوة للإسلام بين غير المسلمين ، ولا الدعوة لنشر هذا المذهب أو ذاك بين المسلمين فى أى مكان ، لأنه لا ينشد إزالة المذاهب الإسلامية ، ولا إضعاف ولاء المسلمين

لمذاهبهم، وإنما ينشد إزالة العداوة المتبادلة بين أهل هذه المذاهب، لأنه لا تلازم بين وجود المذهب والولاء له، وبين عداوة المنتسبين إلى المذاهب الأخرى وبغضهم.

ولا يدخل فى مهمة التقريب التقارب بين أهل الأديان المختلفة توحيداً لمساعيها فيما تتفق عليه مبادئها من البر والخير والفضيلة والاهتمام بروح الإنسان، وفى دفاعها ومقاومتها للمذاهب والحركات المادية التى انتشرت فى هذا الزمن.

ولا يشتغل التقريب بمحاولة رد الغلاة من الفرق والطوائف الغالية إلى الاسلام الحق، لأن هـذه المحاولة مع وجوبها مهمة قائمة بذاتها تحتاج لمن يتوفرون عليها ولا يشتغلون بسواها.

كذلك ليس من اختصاص التقريب رد المقصرين من المسلمين عن تقصيرهم فى أداء الالتزامات التى يوجبها الاسلام على المسلم فى العبادات والمعاملات، فهذا مع لزومه عمل ضخم يتناول كل جوانب حياة المسلم الحديث، وظروفه وظروف العالم الذى يحيا فيه.

ثم لا شأن للتقريب باختلاف المسلمين فى الرأى، ولا بالمذاهب ومدارس الفكر عندهم ما دام الاختلاف الفكرى لا ينقلب إلى عداء وانشقاق وعزلة، أو لا يصحبه شىء من ذلك، لأن وجود المذاهب ومدارس الفكر المختلفة داخل الاسلام شىء طبيعى مرغوب فيه ليس منه بد ما دام الاسلام ديناً حيا لأحياء لكى يزدادوا حياة، وليس ديناً ميتا لأموات لكى يهيىء لهم الانسحاب من الدنيا.

والاسلام نفسه شحنة هائلة من النشاط العقلى الروحى تأبى أن يتحول المسلمون إلى مجرد نسخ متطابقة تتكرر باستمرار وبلا اختلاف من عقل واحد أيا كان هذا العقل، حتى لا يهلك المسلمون من الإجداب والرتابة والركود والشعور بالقدم، ومقت أنفسهم ودنياهم، فالمسلم ليس نسخة من أحد، وإنما هو أصل فذ يعقد عليه الاسلام آماله ويضن به على الدنيا بأسرها، وليس يُرضى الاسلامَ أن تلد المسلمات إمعات مكرورة معتمة، وإنما يرضيه ويعليه إنجاب العقول الجديدة اليقظة النشطة التى تتسلم دينها ودنياها بشغف وحماس، وتحلل ببلوراتها الصافية المتنوعة الطاقات والأبعاد ضياء الاسلام إلى ما لا حد له من الألوان المبهجة الملهمة.

ستظل المذاهب ومدارس الفكر فى الاسلام توجد ما بقى للمسلمين حاجة إلى التعبير عن ثرائهم العقلى والروحى ، وإلى استدامة الصلة بين أصول دينهم وبين واقع الحياة فى العصر والمحيط اللذين يعيشون فيهما ، ليس من مصلحة الاسلام والمسلمين كبت النشاط العقلى والروحى داخل الاسلام ، لأن من أجل ما يقدمه المسلم لدينه أن يفكر فيه ويشعر به ، والاسلام يندثر ويدرس إذا لم يعد يفكر فيه ويشعر به إلا الحمقى والجهلاء ، والمسلم لا شك يفقد روحه إذا خاف من التفكير وتهيب عقله ورهب كل تجربة روحية عميقة ، وترك الضحالة والمحاكاة والرتابة والآلية تطمس أعماقه وتأكل إرادته ، وتحيله إلى مسلم تافه سطحى معدوم الروح والشجاعة .

ليس الاسلام دين الآليين المملين ، ولا هو إيمان العجائز وأشباه العجائز من الغائبين الذاهلين ، وإنما هو دين الأيقاظ الأفذاذ ، وإيمان الشجعان القادرين الصابرين .

وبديهى أن الخلاف الفقهى بين المدارس والمذاهب الإسلامية ليس مما تشتغل أو تنظر فيه العامة ، ولا نعنى هنا بالعامة العوام ، وإنما نعنى كل من لا يهتم بمعرفة فقه المذاهب وهم معظم القارئين الكاتبين ، وفى زمننا هذا معظم المثقفين المتعلمين .

وهؤلاء يلتقطون عادة نتفاً ونكتاً عن المذاهب من هنا وهناك لا يتحرون أصلها ولا صدقها ، وهم لو وجدوا الفرصة ، ووجدوا من أنفسهم الاهتمام الكافى ، قادرون بلا شك على تحصيل صورة صحيحة عن المذاهب الإسلامية .

أما العوام والدهماء فلا يقوون على النظر لأنفسهم فى هذه الأمور ، ولا يستطيعون إلا أن يقلدوا ما يمكنهم تقليده ، والخلاف المذهبي لا يمكن أن يصل إلى العوام والجهلاء والدهماء إلا عن طريق الدعوة والدعاة ، ولا يصل إليهم عادة إلا بعد أن يفقد كل ما فيه من فكر وفقه ، ويتحول أكثره إلى دعاوى عريضة ساذجة ، واتهامات صارخة منكرة ترددها ألسنة ناعقة فى رءوس فارغة على أنها حقائق لا تحتاج إلى بيان أو برهان . وللباطل دائماً حيوية تتناسب مع عدد معتنقيه ومصدقيه ، ومع أمد بقائه بين ظهرانيهم ، ومبلغ اختلاطه بأحداث حياتهم ، فإذا

توالدوا انتقل من الآباء إلى الأبناء ، وكساه هذا على مر الزمن عراقة وقداسة ، فحفظته الصدور والسطور ، وتبارت فى تأييده وتمجيده العقول ، وبُذلت فى نصرته المهج والأعمار .

والفكر الإسلامى ؛ شأن كل فكر ؛ مفتوح الأبواب ، وقد مارسه الخيرون فى نزاهة وحسن قصد واحتياط وتحرٍ للصدق ما وسعهم ، كما مارسه المفسدون واستغله ذوو المصالح والأهواء .

وزاد مسعى هؤلاء سهولة وخطورة اتصال الفقه الإسلامى بالدين ، ويسر الخلط بينه وبين الدين ذاته ، وشدة حساسية عامة الناس فى أمور الدين وقلة رويتهم وصبرهم فيما يتصل بها ، لهذا وغيره لابست مدارس الفكر الاسلامى من قديم فى كثير من بلاد المسلمين عصبيات تجمعت حولها طوائف من الناس جعلت فى ظل الانتماء إلى هذه المدارس والمذاهب الاسلاميه تتناحر على أسباب الرزق والجاه ، وعلى النفوذ السياسى والاجتماعى ، فلم يعد الخلاف بين هذه العصبيات خلافا بين فكر وفكر ، وفقه وفقه ، وإنما صراع على النفوذ والقوة بين مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية لايهمها خير الاسلام والمسلمين تختفى وراء عداوة جاهلة سافرة تذكى نارها باستمرار بين الكتل المنتمية إلى هذا المذهب أو ذاك .

لقد تداول الناس فى بلاد الاسلام تلك الدعاوى والاتهامات الحمقاء عن طوائفهم جيلا بعد جيل قروناً وأحقابا ، كرهوا على أساسها وأحبوا ، ومدحوا وذموا ، وعظموا وأهانوا ، ودعوا ولعنوا ، ووصلوا وقطعوا ، ونصروا وخذلوا ، وأعطوا وحرموا ، وهاجموا وهوجموا ، وقاتلوا وقوتلوا ، حتى اختلطت هذه الركائز الشائهة بعواطفهم وتفكيرهم ، وصارت جزءاً من عقليتهم وسلوكهم يستغله ذوو الأغراض ويستخدمه أعداء الاسلام فى محاربة الاسلام .

وهذا الاعتياد القديم على تبادل العداوات ، بعد أن جر على المسلمين الويلات فى الماضى يوشك فى الظروف الحرجة التى يمر بها الإسلام الآن أن يعصف بالاسلام نفسه ، وهو اعتياد ماكر مخادع يتلون ويتشكل ، وتختلف صوره باختلاف

الأشخاص وظروف المكان والزمان ، بين تبادل الاسترابة وتبادل الازدراء فى الخفاء والترحيب بالأراجيف وتغليب ظن السوء ، ورفض التواصل والتعاون والاشتراك ، وتخذيل مساعي الأخوة بين المسلمين ، وتعطيل المشروعات وإفسادها ، وبين المجاهرة بالاتهام والمقت واللعن والتكفير والعدوان على الأنفس والأموال والتحريض عليه ، وبين الاستعانة على المسلمين بأعداء الاسلام ، وقطع الروابط الباقية بالجماعات الاسلامية الأخرى ، وتمجيد العزلة عن بقية المسلمين ، ومحاولة الانفراد بمصير ووجهة غير مصيرهم ووجهتهم .

والتقريب يحارب هذا الاعتياد الماكر فى جميع صوره وكافة ألوانه ، ولا غرض للتقريب ولا غاية إلا محاربته واقتلاعه وإزالته .

ولا يبحث التقريب عمن هو المسئول عن تلك العداوة ، ولا يهمه هذا البحث لأنه لافائدة منه للغرض الذى يسعى إليه ، لا يبحث التقريب فى المسئوليات سالفة أو حاضرة ، ولا يقف من أى فريق من الناس موقف القاضى أو الحكم ، ولا يفاضل بين سلوك جماعة وسلوك جماعة أخرى ، ولا يحاول مراجعة الماضى ولا إعادة كتابة تاريخه ، لأن التقريب كما يبين من اسمه أداة تقارب وجمع شمل ورأب صدع ، ولأنه لا يستطيع أن يشغل نفسه بمسائل معظمها شائك خلافى تضيع فيها جهوده وتصرفه عن غرضه الأساسى .

بل يقف التقريب بكلياته لمشكلة لا يتركها ولا يشتغل عنها ، ومشكلته قبل كل شيء مشكلة اعتياد لا تحل إلا باعتياد مضاد ، فالتقريب من هذه الزاوية هو محاولة لتعويد عامة أهل المذاهب الاسلامية على اختلافها كف أذى بعضهم عن بعض فى السر والعلن ، وتبادل حسن المعاملة فى السر والعلن ، والتواصل والاشتراك والتعاون فى السر والعلن .

ونقطة البداية هى إقناع عامة أهل هذه المذاهب بأنهم جميعاً ليس بينهم أى خلاف فى الأساسيات : إلههم واحد ، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، لا يختلفون على أى ركن من أركان الاسلام ، وإفهامهم أن هذا القدر

المجمع عليه بينهم هو جوهر الاسلام ورأس مال المسلم أياكان مذهبه ، ولا ينقص هذا أو ذاك بانتماء المسلم لأحد المذاهب وتعلقه به ، أو نظرته فى الأصلح للقيام بأمر المسلمين ، وأنه متى تحقق جوهر الاسلام لإنسان فقد انعقدت بينه وبين سائر المسلمين فى كل مكان أخوة فى الله ورسوله ، يحرم معها عليه أن يخذلهم أو يعاديهم أو يؤذيهم أو ينحاز إلى من يعاديهم أو يؤذيهم ، وليست نقطة البداية هذه من الهينات ، لأن عامة أهل المذاهب يعتقدون فى الغالب أنهم هم وحدهم الذين فيهم تحققت حقيقة الاسلام ، وكثيراً ما يتصورون أن الآخرين من المنتمين لمذاهب أخرى لايعبدون نفس الرب ، أو لايتبعون نفس النبى ، أو لايقرءون نفس القرآن ، أو ليست صلاتهم صلاة ، ولا زكاتهم زكاة ، ولا حجهم حجا ، وأنهم إما كفرة أو زنادقة على الجملة ، وتلك حال نشأت من العزلة الطويلة التى فرضها تبادل العداوات من قديم ، فصارت كل طائفة تجهل حقيقة إسلام أختها . وتصدق فى شأنها أراجيف وترهات ، وتتمثلها فى صور غريبة من الانحطاط الفكرى والروحى .

قد يقال كما قيل : إن الحديث عن تلك العزلة وآثارها لم يعد له الآن موضع بعد أن زحفت المدنية الحديثة على بلاد الاسلام ، وقدمت إليها المطبعة والصحافة والإذاعة والسيارة والطيارة والكهرباء والآلات والمصارف والبورصات والتعليم المدنى والعلوم الوضعية ومشاركة المرأة فى الأعمال والسياسة ، وبعد أن تغيرت عادات المسلمين من حيث مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وملبسهم وزينتهم وأشغالهم وفنونهم ولهوهم بل وحزنهم والاحتفال بموتاهم ـ تغييراً أدى إلى تقريبهم بعضهم من بعض ، وإلى إبعادهم عما اعتاده آباؤهم وآباء آبائهم ، بحيث إن العين لتجد مثلا بين الإيرانى والمصرى الآخذين بالعادات الحديثة من وجوه المشابهة والتقارب ما لا تجده بين كل منهما ، وبين جده لو كان فى المقدور رؤية جده بأكثر من عين الخيال ، وإن ما يرجوه التقريب ويسعى له ويستعجل حصوله حاصل فعلا بلا ضجة ودون أن تتلفت إليه الأنظار بقوة التقدم الحضارى الذى يكتسح بلاد الاسلام ، وإن من وصلت إليهم المدنية الحديثة من المسلمين لم يعودوا يهضمون الخلافات الدينية ، أو ينظرون إلى ما يحدث بسببها من شغب وعنف إلا على أنه حمق مخجل

وبقايا متخلفة لعناصر غير متطورة ، وإن الفكرة العالمية عن الانسان وحقوق الانسان تشجب التفرقة الدينية أو المذهبية ، وهذه الفكرة تجد طريقها مع المدنية الحديثة والتعليم الحديث إلى عقول المسلمين فى كثير من بلادهم ، ولم يعد الكثيرون منهم يقبلون أن يتهموا بالتفرقة الدينية ، أو بعداوة أحد من أجل دينه أو مذهبه مخافة أن يتهموا بالتخلف والتأخر والرجعية .

وهذا الاعتراض مردود أساساً بأن المسلمين لا يستغنون عن الإسلام بالمدنية الحديثة ، أو بالمطبعة والصحافة والإذاعة والسيارة والطيارة إلى آخر القائمة ، كما أنهم لم يتركوا الاسلام لأنهم غيروا عاداتهم فى المأكل والمشرب والملبس إلى آخر القائمة أيضاً ، وليس فى حساب الاسلام ألا يغير المسلمون عاداتهم ، أو ألا ينتفع المسلمون بالمخترعات والمكتشفات والعلوم التى توجد فى زمانهم ، إذ المسلم ابن زمانه ، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك .

ولكن ليس من شك فى أن تيار المدنية الحديثة قد غير من اهتمامات المسلمين الآن ، فلم يعودوا فى كثير من بلاد الاسلام يهتمون بكل ما كان يهتم به آباؤهم فى الجيل الماضى ، أو بنفس الدرجة التى كان يهتم بها آباؤهم ، وهذا طبيعى لأن لكل جيل اهتماماته تبعاً لعقليته وظروفه ، ومع ذلك لا يستطيع منصف أن يقول إن المسلمين الآن لا يهتمون بالاسلام بعامة ولا يحبونه ، وهم فى الواقع يهتمون بدينهم ويحبونه ، وإنما على طريقتهم وعقليتهم لا على طريقة آبائهم وعقليتهم ، فهم من خلال المطبعة والصحافة والإذاعة والسينما والمسرح والسيارة والطيارة والكهرباء والآلات ، ومن خلال العادات الجديدة ، والعلوم الوضعية العصرية وأنواع النشاط الحديثة يمارسون إسلامهم ويهتمون به ويحبونه ، وهم لا يعتقدون أن المدنية يمكن أن تغنى عن الاسلام أو تلغيه ، ولا يصدقون أن هذه المدنية يمكن أن تحل مشاكل العالم الاسلامى ، ولا يرتقبون منها أن تساعد عامدة على حل مشاكله ، لأنهم يعلمون أن أصلها غير إسلامى ، وأنها فى جوهرها نهضة تطبيقية تكنولوجية قائمة إلى حد المغالاة على تدريب العقول والجوارح على المهارات والكفايات الموصلة إلى السيطرة

على العالم المادى تكاد تغفل وتهمل ما عدا ذلك من الجوانب الروحية والشعورية فى الانسان ، وأن هذه المدنية فى اندفاعها إلى إيجاد المهارات والكفايات المفيدة فى السيطرة على المادة أوجدت وتوجد باستمرار جماعة أو جماعات روحية ونفسية تكتسح هذا الكوكب يعانى منها ملايين البشر فقدان التوازن الداخلى والجوع إلى الاستقرار النفسى ، والشعور بالضياع ، وانعدام المعنى . وعدة المسلمين فى هذه الجماعة أو الجماعات إسلامهم وإدراكهم لأخوتهم فى الاسلام .

ثم إن امتداد المدنية الحديثة إلى بلاد الاسلام لا يستتبع عادة أى تنقية فى الأفكار والاعتقادات الدينية لدى المتأثرين بالمدنية ، بل تقل لديهم فرص تنقية هذه الأفكار والعقائد بتلقى العلوم الحديثة الوضعية ، وممارسة أساليب الحياة العصرية فى العمل أو فى المعيشة ، ولا يجعل الانسان أقدر على تصحيح أفكاره الدينية ، بل يجعله أميل إلى التقليد واتباع من يظن فيهم التخصص ، إذ المغالاة فى الإيمان بالتخصص من سمات المدنية الحديثة ، ومثل هذا الانسان قد تلقى أفكاره المتعلقة بطائفة وموقفها من غيرها من الطوائف الاسلامية بلا بحث نقلا عن يظن أنهم أكثر علماً بها منه ، وتلقى معها شحنة الكراهية والعداوة المصاحبة لهذه الأفكار ، وكل ما يميزه عن سواه أنه يتحاشى ما أمكنه الجهر بهذه العداوة ، بينما يمارسها فى الخفاء كل يوم على صور شتى ، ومثله فى حاجة إلى جرعة من التقريب قد لا تقل عن الجرعة التى يحتاج إليها من لم يتأثر بالمدنية .

على أنه مما يستوقف النظر فى المدنية الحديثة قدرتها الغريبة على إضعاف نفوذ الآباء والأمهات فى جميع البلاد ، وهذا قد لا يكون شراً محضاً لو أتاح فرصة للأجيال الحديثة من أبناء المسلمين أن تتخلص من تعصب آبائها الطائفى وعداواتهم غير المعقولة .

وإذن ثمة عزلة روحية ما تزال موجودة بين بعض طوائف المسلمين على الأقل مشحونة بالكراهية والعداوة برغم انتشار المدنية الحديثة وطرق النقل والتواصل والإعلام ، وبرغم ممارسة أساليب الحياة العصرية فى العمل والمعيشة ،

وليس لنا أن نعول فى إصلاح ما بين المسلمين على تطور المدنية الحديثة بين طوائفهم ، لأن تطورها لا يسير فى اتجاه الاسلام ، وإنما يسير فى اتجاه المذاهب والحركات المادية ، ولو ترك المسلمون للمدنية الحديثة مهمة إزالة التعصب والعداوة بين طوائفهم فإنها ستزيلهما مع إزالة الاسلام نفسه لتحل محلهما تعصباً أشد ضراوة هو تعصب المذاهب والحركات المادية .

وقد قيل فى نعى التقريب على تلك العزلة الروحية وما يصاحبها من اجترار العداوات والأحقاد : إن التقريب يطلب العسير حين يطلب أن يتناسى أهل هذا المذهب أو ذاك أجزاء من ماضيهم الطائفى وتاريخهم المذهبي عزيزة على نفوسهم فيها مواقف وحوادث وتضحيات وبطولات ونماذج يعيش عليها ولاؤهم لمذهبهم وتعلقهم به ، والتقريب لا يكلف أحداً إلا اليسير الميسور ، ولا يطلب إلا ما يتطلبه السلام والعقل من كل جماعة تريد أن تحسن العيش فى هذا العالم ، وإذا كانت الحروب والفتن والاضطهادات والمذابح والعداوات أحياناً يضىء فى ظلمتها وسوادها وحمقها وقسوتها وفسادها وشرها ، تضحيات ومواقف وبطولات ونماذج من الإيثار والثبات على العهد ، فذاك أمر عرضى لا يهون من تلك الكوارث ، ولا يجعلها شيئاً يرغب فى بقائه وبقاء أسبابه ، فالذى يبيع السلام بالحرب ، والوفاق بالفتنة ، والأخوة بالعداوة ، والعمار بالخراب من أجل فرص للبطولة ، ونماذج للثبات والإيثار أحمق قد بلغ غاية الحمق ، وتعويل المذهب فى استبقاء ولاء أنصاره وتعلقهم به على عداوتهم للمذاهب الأخرى أمر لا يشرفه ولا يشرفهم وهو ، بعد ، أمارة ضعف وقصر نظر وقرب إدبار ، والنسيان الذى يتطلبه التقريب من أهل المذاهب أمر لا بد منه لأى سلام حقيقى ، فما يمكن أن يقوم سلام أو أمن يبقى إذا ظل الجانبان صباح مساء يرددان أناشيد الحرب ، ويقلب كل منهما كل يوم صحف الماضى كى لا ينسى ما فيها من المثيرات والأحقاد والعداوات . إنما يريد التقريب من أهل المذاهب أن يعطوا أنفسهم عمداً أو قصداً فرصة لنسيان الماضى بعض النسيان تتجه خلالها عيونهم وقلوبهم صوب المستقبل المشرق الذى ينتظر المسلمين إذا تآخوا واتحدوا ؟ « يتبع »

المُوَفَّق المُوَفِّق

الإمام المصلح "محمود شلتوت"

للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

فى كتابات الإمام الفقيد ـ الشيخ محمود شلتوت ـ كلمات لها طابعها الذى تتميز به بين أمثالها من الكلمات فى كتابات غيره ، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية .

ولعل أبرز هذه الكلمات فى كتاباته ، وفى أحاديثه ، كلمة « الشخصية » .

يلحقها بوصف العقيدة ، ووصف الفرائض المقدسة ، بل يجعل العقيدة ـ كما يجعل الفريضة ـ معلماً من معالم شخصية الأمة ، وشخصية الإنسان فى حياته الباطنة وحياته الظاهرة .

قال رحمه الله فى مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر : « إن للإنسان فى هذه الحياة فرداً كان أم جماعة شخصيتين ، حسية ومعنوية ، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين ، وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض ، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه فى الحياة ، وما له من عقل وتدبير وثبات ومثابرة فى سبيل مبدئه وهدفه » .

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية : « إنها ترجع إلى إقامتها فى الإقليم الذى نشأت فيه ، وإلى الأصل الذى تنتسب إليه » . . . أما شخصيتها المعنوية فهى ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية ، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعله والحرص عليها وعلى معارفها التى تكونها ، وعلى الإيمان بمصدر تلك المعارف .. يكون لها. بين الأمم من آثار الوجود المعنوى .

وكتب عن الصلاة فى فصل من فصول « الإسلام عقيدة وشريعة » فقال عنها : « إنها العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية » .

وعلى هذه الوتيرة كانت كلمة « الشخصية » تتردد فى أحاديثه للدلالة على قوام كل « وجود » حتى يتميز به عقل الإنسان وضميره فى حياته الروحية ، وهى لمحة من لمحات التعبير الباطنى تدل على معناها ، وتدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية واقترانها بحق الإنسان وواجبه ، وبالتبعة التى تناط بها الحقوق والواجبات ، وتقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الأخرى فى إبداء الرأى والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع .

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد ، بل هى أولى تلك الخصال فى كل ترتيب لكفايات المجتهدين . من كان له رأى وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد ، لأنه يلقى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه ، ويحجم عن العمل فى سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل .

وتلك هى الخصلة التى توفرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة ، وبفضل الثقة التى كانت تملأ نفوسهم من هذه الخصلة ، كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهل العلم من الصحابة والتابعين : إنهم رجال ونحن رجال .

** ** **

وإذا اجتمع الاجتهاد فى كلمات معدودات صح أن يقال إنه هو القدرة على الرجوع إلى روح القرآن الكريم ، أو أنه بعبارة أخرى : تفسير المذاهب بمعانى القرآن الكريم ، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعانى المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها .

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين ، وكان هذا هو منهجه فى الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه ، مستقلة عما يضاف إليها من شروح المختلفين ، وتأويلات أصحاب الرأى أو أصحاب اللغة من المفسرين .

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهى هذا المنهج فى تقديمه لتفسير الإمام الفقيد فقال : « التفسير الذى نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن » .

ثم قال عن المنهج الذى اختاره الأستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال : « إنه منهج جعل السورة وحدة واحدة ، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادىء إنسانية عامة » ، وأنه لا يقحم فيه القرآن على القرآن من رأى خارج عنه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضا ، كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد دون أن يحمل على مايراد .

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن تفسيراً للمسلمين جميعاً ، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين ، وهى أمانة لا يضطلع بها غير أهلها من القادرين على الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بما ينبغى للمجتهد من الشجاعة الصادقة ، ووسائل الإقناع بإحسان ، وما ينبغى للمجتهد المعلم خاصة من الصعود إلى غاية التعليم ، وغاية المعهد العلمى الذى يتولاه .

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامى الأكبر ، فقال فى بضع كلمات : « إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين » .

ومن أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر ، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم ، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب فى ناحية إعجازه التى لا مراء فيها ، وهى معجزة الأثر الخالد التى نستطيع نحن - أبناء هذا العصر - أن ندركها ، وأن يكون إدراكنا لها أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين .

معجزة الأثر فى ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التى شهدها أبناء القرن الأول ، ثم شهدها أبناء القرون الأولى بعد عصر الدعوة . . . فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التى لا نظير لها ، والتى تقاصرت عنها الهمم ، ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم ، وتم بها مايتم بعمل إله وقول إله ، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله .

أربعمائة مليون من بنى آدم فرقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان ، وجمعتهم كلمات القرآن .

وكلمات حفظت اللغة التى نزلت بها ، وليست هذه اللغة هى التى حفظتها ،

ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين ، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس ، ولم تعش لغة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس ، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب ، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام ، وبقيت لغة القرآن حية فى عالم الديانة ، وفى عالم الكتابة ، وفى عالم الثقافة ، وستحيا غداً كما حييت بالأمس ، ما شاء الله ، وصح فيها قول الأستاذ الفقيه : « إنها ليست فى هذا المقام عربية الإقليم والجو ، ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس ... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصرى العروبة والإسلام » .

ولما تكلم عن غايته من التعليم فى المعهد الأكبر الذى تولاه قال : « نريد تخريج تبريز لأئمة فى اللغة وفروعها ، وأئمة فى الفقه وأصوله ، نريده تخريجاً أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمى الذى يكون الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية ، لا نريده تخريجاً نلتزم فيه مخلفات الماضى من آراء ومذاهب ، بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن حاجة اليوم فى الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالأمس ، وأن نؤمن بأن فضل الله فى كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين » .

ونستعير من أسلوب الفقيد فنقول : إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر « شخصيته » على تمامها كما ينبغى أن يضطلع به المجتهد فى جميع العصور ، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذى يواجهه المجتهدون عما قريب .

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له فى هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهراً بهذا الجلاء وهذه الضرورة فى عصر من عصوره الماضية .

فهاهنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين فى العصر الذى ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الأجنبى ، ووجب أن تحل فى مكانها روابط القربى بين أمم الإسلام على تباعد الديار ، وتباعد الشيع والمذهب التى لا بقاء لها مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين .

وها هنا عنصر اللغة فى عصر النهضة العربية وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التى تتحد بها ثقافة الإسلام فى جميع اللغات .

وهاهنا عنصر « الاستقلال » فى عصر الحرية الفكرية أو عصر « الإنسان » الحر فى الجماعة الحرة ، وقد مضت الجماعات فى طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستغلال .

وهاهنا العصر الذى أصبح فيه معهد الإسلام الأكبر كما قال الشيخ رحمه الله : « يضم السودانى ، والمغربى ، والحبشى ، واليمنى ، والشامى ، والفلسطينى ، والأندونيسى ، والتركستانى ، والسعودى ، والأفغانى ، والتركى ، والروسى ، واليونانى ، واليوغسلافى ، والكردى ، والعراقى ، والكويتى ، والإيرانى ، والسيامى ، والباكستانى ، والفليبينى ، والملاوى ، والبرمى ، والأردنى ، واللبنانى ، والزنجبارى ، والأوغندى ، والليبى ، والتونسى ، والجزائرى ، والمراكشى ، والأرتيرى ، والسنغالى ، والصومالى ، والنيجيرى ، . . . إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الأيام بلا انقطاع ، لا جرم كان من بشائر الأمل - كما أسلفنا فى غير هذا الموضع - أن ينهض الشيخ شلتوت بمشيخة الأزهر فى الزمن الذى تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبى عليها وبين هذا المعهد الذى لا معهد فى العالم الاسلامى أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخلف بين المسلم والمسلم حيثما كان فى أقاصى البلدان .

« ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة ، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة ، تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار » .

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات فى مجمع اللغة العربية ، فتعودنا أن نعرفه « قرآنيا » فى دراسته لأسرار اللغة ، قبل أن نعرفه « لغويا » فى دراسته لأسرار القرآن ، وكنا نسمعه يقول : « إن القرآن معجز بما هو به قرآن ، ويعنى بذلك نسقه الذى ينتظم ألفاظه ومعانيه ، ويوحى من معانيها بما ليس فى مفردات الكلم ،

ولا فى أجزائه التى يقتضيها الإعراب فى كل عبارة . . . فليست الكلمة الواحدة هى محل الاعجاز ، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التى تتم بها جملة الفعل والفاعل ، أو المبتدأ والخبر أو الجار والمجرور ، أو المضاف والمضاف إليه ، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان ، وبين الوحى والبصيرة ، مما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان ، وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتاباً للمسلمين جميعاً يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف ، أو يختلف فيه المختلفون ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه فى وجهات نظره بين حين وحين ، وبين اعتبار واعتبار .

وبهذه النظرة « القرآنية » عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه للدروس بمعاهد التعليم ، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية ، وعلاقته ببلاد العرب أجمعين . والجديد فى خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية ، أو اللغة القرآنية ، شىء يتعلمه العربى المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربى ، فلم يكن على المسلمين غضاضة فى هذه المساواة الشاملة ، ولم يكن للعربى إيثار على غيره ، لأن عروبته فى هذا المنهج هى عروبة القرآن الذى يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس ، وبكل لسان .

ولئن مضى الإمام المجتهد ولم يعقب برنامجه المفصل للتطبيق الشامل « العملى » فى المستقبل الذى سيواجهنا عما قريب ـ لقد عمل وعلم وأعقب المثال الذى يهتدى به من عمل معه ، ومن تعلم على يديه ، ومن يقدر على مجاراته فى اجتهاده والزيادة عليه بما يتهيأ لهم من وسائلهم ولم يتهيأ له فى حياته ، وإنهم لكثيرون بعون الله ، يجزيهم الله وإياه ؟

الأوردالياً والبُشعةُ والقُرعة
وانتزاع الاعتراف بالتعذيب

لحضرة الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

من أهم ما ترمى إليه المجتمعات الإنسانية من العقوبات التي توقعها على مرتكبي الجرائم أن تظل حدودها بمأمن من الاعتداء ، وتصان نظمها ، ويتوطد ما لها في النفوس من قدسية وجلال ، ويزول من طريقها كل ما يعوق سيرها من عقبات ، ويشتد الحرص على تحقيق هذه الأغراض كلما كان الجرم خطيراً في نظر المجتمع ، ولذلك اتسع نطاق المسئولية في هذا النوع من الجرائم كل الاتساع ، حتى إن بعض المجتمعات لتعاقب فيها على مجرد النية ، أو على مجرد الحدث بدون قصد ، أو على مجرد الملابسة للجرم في صورة ما ؛ بل إن بعض المجتمعات لتأخذ فيها بالظنة والشبهة ، وتتحايل على إثباتها بطرق غريبة لا تدل في ذاتها على شيء ، ولكنها تعيد للمجتمع هدوءه وتحقق زجر الغير ، وترهب الأفراد ، وتشعرهم بصرامة المجتمع حيال هذه الجرائم ، وقسوته على مرتكبيها ، وحرصه على الثأر ممن تسول له نفسه ارتكاب مثلها ، وتبعد من أذهانهم احتمال غفرانها أو التساهل فيها .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة التي تلجأ إليها بعض المجتمعات في الجرائم الخطيرة لتعيين مرتكبيها وإنزال العقوبة بهم ما يسمونه بطريقة « الأورداليا » Ordalie (كلمة مأخوذة من الانجليزية ـ السكسونية القديمة ـ وكان معناها في الأصل الحكم على الإطلاق ، ولكنها استعملت في نوع خاص من الأحكام ، وهي الأحكام التي يطلقون عليها اسم « الأحكام الإلهية » أو « الامتحان الإلهي ») التي أخذ بها في تحقيق هذا النوع من الجرائم كثير من الشعوب المتحضرة في العصور القديمة ، ومن بينها

الشعب اليونانى نفسه فى أرقى عصور نهضته ، وأخذت بها الأمم الأوروبية المسيحية فى العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة فى جرائم السحر والإلحاد وما إليهما من الأمور التى كانت تعد حينئذ من كبار الذنوب ، وذلك أنه كان يؤتى بقطعة من حديد فتحمى حتى تصير نارا ويكلف المتهم أن يقبض عليها بيده ، أو يكلف المشى على جمر الفحم الحجرى ، أو يضع يده فى الماء وهو فى درجة الغليان ، فإن أصابه ضرر من هذه الأمور دل ذلك على إدانته ؛ وإن نجا منها فأصبحت النار والمياه الغالية برداً وسلاما عليه كان ذلك آية على براءته ؛ ولكن هيهات كان يحدث هذا الإعجاز ! وأحياناً كانت تلف يده بعد ذلك بضماد وتختبر بعد ثلاثة أيام ، فإن قام فى أذهان المحققين أن الحرق فى طريق البرء دل ذلك على براءة المتهم ، وإلا ثبتت إدانته .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة « البشعة » ـ بضم الباء أو كسرها وسكون الشين ـ التى تسير عليها بعض القبائل العربية فى الشام ومصر ، وخاصة من يسكن منهم محافظة الشرقية (قبائل المعازة والدراجين والعبايدة والحويطات . . الخ) فى تحقيق الجرائم الخطيرة كالقتل وما إليه . وذلك أنه يؤتى بطاس من حديد ويحمى حتى يحمر ويصبح كالجمر ، ويكلف المتهم أن يلعقه بلسانه ، ويتناول جرعة ماء يتمضمض بها بعد ذلك ، فإن أحجم عن لعق الإناء أو لعقه وأصابه منه ضرر اعتبر مديناً ، وفى كلتا الحالتين يعرض أمره على المحكمين ليقضوا فى شأنه بما يرون وفقاً لعرفهم القضائى . وأما إذا لعق الإناء ولم يصبه منه ضرر فإنه يعد بريئاً .

ويشرف على هذه الإجراءات إخصائى يسمى « المبَشِّع » ـ بكسر الشين المشددة ـ ويعتقدون أنه لا يوجد فى القطر المصرى إلا مبشع واحد ، وأن هذه الوظيفة قد آلت إليه بالوراثة ، وأنها تنتقل منه إلى أكبر أفراد أسرته سناً . . . وهكذا ، وأن بجسمه هو حصانة وراثية تجعل النار برداً وسلاماً عليه ، حتى لقد جرت العادة أن يمسح المبشع نفسه الطاس المحميه بيده قبل أن يقدمها للمتهم بدون أن يناله أى ضرر من هذا المسح .

ويجرى التبشيع عادة فى حفل يشهده المبشع والمحكمون وطرفا الدعوة (المتهم والمجنى عليه أو ولى أمره) وعدد من أقربائهما ، ويحضره كذلك شاهد للطرفين يسمى « سامعة » ، ووظيفته تقرير أقوال الطرفين وتلخيصها ، والشهادة بما يعرفه وما يستنتجه ، ويتقاضى « السامعة » أجراً على شهادته ، كما يتقاضى المبشع نفسه أجراً على عمله « يقدر أجر المبشع عادة لدى قبائل العرب فى الشرقية بخمسة جنيهات على كل متهم » .

ويظهر أن هذه الطريقة قد دخلها كثير من الغش والحيلة فى أعمال المبشع ؛ حتى إنه ليقال إن فى إمكانه أن يدبر لمن يتحيز إليه من المتهمين لسبب ما بعض وسائل للنجاة من أضرارها .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة « القُـرعة » التى أخذت بها طائفة من الأمم فى بعض الجرائم الخطيرة . ففى حالة الاشتباه فى المجرم ، وعدم استطاعة الاهتداء إليه بالذات ، كانت تضرب القرعة بين طائفة من المشتبه فيهم ، فمن أصابته منهم وقع عليه الجزاء ، وقد أخذ بطريقة القرعة بعض المذاهب الإسلامية نفسها فى تحقيق بعض الجرائم ، فمذهب الشيعة الجعفرية أو الاثنى عشرية (وهو المذهب الذى يدين به معظم سكان إيران ونحو ثلث سكان العراق وبعض جماعات فى الأحساء وسوريا ولبنان وغيرها) يقرر فى حالة قربان إنسان لبهيمة ، أنه يجب ذبح البهيمة وحرقها ويحرم لحمها ولحم نسلها بعد الوطأ إن كانت مأكولة اللحم ، ويجب بيعها فى بلد آخر ويتصدق بثمنها إن كانت غير مأكولة اللحم ؛ وأنه إذا لم يتم دليل قاطع على تعيين البهيمة التى لابسها هذا الجرم ضربت القرعة على البهائم المشتبه فيها ، فما أصابتها القرعة من بينها تعتبر البهيمة المقصودة وتتخذ حيالها هذه الإجراءات (انظر كتاب « أصل الشيعة وأصولها » للمرحوم الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رئيس الشيعة بالعراق ، الطبعة الثانية ص ١٥٨) .

* * *

ومن هذه الطرق الغريبة كذلك طريقة « انتزاع الاعتراف بتعذيب المتهم » التى سار عليها فى تحقيق بعض الجرائم الخطيرة عدد كبير من الأمم فى مختلف العصور ، ومن بينها الأمم الأوروبية المسيحية فى العصور الوسطى والحديثة ، وخاصة فى « محاكم التفتيش Inquisition » الشهيرة التى أنشئت فى كثير من البلاد الأوروبية لمحاربة جرائم الإلحاد والردة والسحر وما إليها من جرائم العقيدة ، وظلت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر . بل إن الكلمة التى تدل على معنى السؤال أو الاستجواب فى كثير من اللغات الأوروبية Puestion تحمل فى مدلولها القديم معنى التعذيب ، بل لا تزال تحمله فى هذه اللغات إلى الوقت الحاضر . وذلك أن الاستجواب كان يصحب غالباً بالتعذيب لانتزاع الاعتراف - وتقتضى طريقة التعذيب هذه أن يسام المتهم مختلف أنواع العذاب حتى يعترف بالجرم - وكان القضاة أنفسهم هم الذين يشرفون على ذلك ، وكان الأمر ينتهى بالمتهم فى الغالب إلى الاعتراف صادقا كان أم كاذبا ليتخلص مما يسامه من عذاب ، وفى بعض الأحوال ما كان ينتظر اعترافه الصريح لإثبات إدانته ، بل كان يكتفى فى ذلك بعلامات تافهة كتلجلج صوته أو تقطع نبراته أو اضطراب حديثه أو تفكك عباراته أو إحجامه عن الكلام . وقد بقى لهذا النظام بعد إلغائه رواسب كثيرة فى عدة شعوب ، وخاصة فى تحقيقات البوليس .

وبعض الشعوب البدائية كانت تلجأ لتعذيب أسرى الحرب لانتزاع اعتراف منهم بخطئهم وضعفهم وقوة قاهريهم ، ومن هؤلاء عشائر « الأباش » من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية ، فقد بلغ هؤلاء فى تفننهم وقوة ابتكارهم لألوان التعذيب التى كانوا يصبونها على الأسرى لهذا الغرض درجة منقطعة النظير تشهد بخصب خيالهم وسعة حيلتهم ، أو بالأحرى بخصب خيال نسائهم وسعة حيلتهن ، فقد كان يعهد بذلك لنساء ، وكن يؤدينه على أعنف وجه ، وأشده قسوة ، وأدناه إلى طبائع التوحش والافتراس ، وكان الباعث الرئيسى على هذا التعذيب أن ينتزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الخسف ، اعتراف بخطئه وخطأ عشيرته وضعفهم وقوة قاهريهم ، وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق فى نظرهم إلا إذا ظهرت

عليه الذلة والمسكنة والانهيار ، فاعترف بخطئه وخطأ قبيلته وضعفهم ، وعدم قدرته على احتمال ما يحتمله الكماة من الرجال ، أو طلب الرحمة من آسريه ، غير أنه كان من المتعذر فى الغالب أن ينتزع من الأسير اعتراف من هـذا القبيل مهما بولغ فى تعذيبه ، فقد وصل هؤلاء البدائيون فى اعتزازهم بأنفسهم وعشائرهم وترفعهم عن الظهور بمظهر الذلة والعجز وقدرتهم على احتمال الآلام إلى درجة لم يكد يصل إلى مثلها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض ، ولعل صنوف العذاب التى كان لزاما أن يذوقها كل واحد منهم مختاراً فى أثناء مرحلة التعميد الدينى هى التى كان لها الفضل فى بث هـذه النزعة فى نفوسهم ، وفى تدريبهم على قوة الاحتمال ، وفى مبلغ ما وصلوا إليه فى الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من نكال ، فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ، وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى « أغانى الموت » يعدد فيها مناقبه ومناقب عشيرته ، وما أثر عنه وعنهم فى ميادين الوغى من شجاعة وإقدام ، ويزهو بأنه لم ير بعد من هو أقوى منهم فى شئون الحرب أو أشد لها مراساً ، ويستخف بآسريه وبما يسومونه إياه من عذاب ، وكلما زادوه نكالا زاده هذا إمعاناً فى زهوه وتحقيره إياهم ، فينتهى بهم الأمر إلى اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من اعتراف صريح بالضعف ، وحينئذ يقنعون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمنى بذلك فى تأوه أو رعشة ألم ، وحتى هـذا الاعتراف الضمنى ما كانوا يستطيعون فى الغالب سبيلا إلى الحصول عليه ، فقد كان الأسير يقطع إربا إربا بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتهكم بأعدائه ، فتتجه جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكاته بأية وسيلة ، وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا ليستطيعوا فى الغالب سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعا من بين فكيه !

* * *

هذا إلى أنه ليس بلازم فى الجرائم الخطيرة أن تكون قد حدثت بالفعل ،

وإنما يكفى أحيانا أن يكون قد خيل إلى المجتمع أنها حدثت ، وأن حياته يتهددها من جراء ذلك بعض الأخطار ، وأنه فى حاجة إلى أن يستعيد هدوءه وطمأنينته على نفسه ، فى مثل هذه الأحوال يندفع مطالباً بالقضاء على من تحوم حولهم الشبهات ، أو من يكونون موضع سخطه واشمئزازه : كالفرد تنبعث حركاته المنعكسة فى الخوف كلما خيل إليه أن خطراً يتهدده ، ولو لم يكن هناك أى خطر فى الواقع ، فكثيراً ما يخيل الى الشعب أن ثمة خيانة وطنية ، أو مؤامرات غدر ، أو تجسساً لدولة معادية ، أو استغلالا سيئاً للسلطان ، فيندفع مطالبا برءوس الخونة والجواسيس والطغاة والمستغلين ، وتجد محاكمه كثيراً من كباش الفداء ؛ مع أنه لا يكون هناك فى الواقع خيانة ولا مؤامرة ولا تجسس ولا طغيان . ومن هذا القبيل ما حدث فى أوروبا المسيحية فى أواخر العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة ، إذ خيل إلى رجال الدين أن السحر قد نشط من عقاله ، وأن خطراً داهما يتهدد العقيدة الدينية من جراء ذلك ، مع أنه قد ثبت فيما بعد بالتحقيق التاريخى أن هذا كان مجرد وهم ومحض خيال ، ولكن ذلك كان كافياً فى إثارة المجتمع وخوفه على دينه ، فنشأت تلك القضايا التى اشتهرت فى التاريخ باسم « قضايا السحر » والتى استأثرت أمدا طويلا يزيد على القرنين (من الخامس عشر الى أواخر السابع عشر) بنشاط رجال الدين الذين كانوا مسيطرين حينئذ على جميع شئون الحياة ، وقد ذهب ضحية هذا الوهم آلاف من الخلق يتألف معظمهم من النساء ، لأنه كان يظن أن جنسهن أكثر استعداداً لارتكاب هذه الجرائم من جنس الرجال ؟

العمل بالحديث وشروطه عند الامامية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

إن مصادر الإسلام ومبادئه أصولا وفروعا أربعة : الكتاب ، والسنة والإجماع ، والعقل .

معنى السنة :

ومعنى السنة باصطلاح العلماء قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو فعله ، أو تقريره ، ومعنى التقرير : الرضا والموافقة .

أدلة الثبوت :

وقد نستكشف رضا النبي وموافقته من الكتاب ، أو الإجماع ، أو العقل ، وقد يحصل لنا الوثوق بأنه قال ، أو فعل ، أو وافق ، عن طريق النقل والرواية .

وعقدنا هذا البحث لإثبات السنة بطريق النقل والرواية فقط ، وعلى الأصح لبيان القيود والشروط التي يجب توافرها في الخبر الحاكي عن السنة عند الإمامية .

وقد ذهبوا إلى أن الباحث المنقب عن السنة النبوية لا يجوز أن يعتمد لإثباتها على خبرته الشخصية ، ومجرد اجتهاده ونظره ، مهما كان مصدر الظن والاجتهاد . ولا على مجرد خبر الراوي أيا كان ، وكانت صفته ، وإنما تثبت السنة بخبرين لا غير : الخبر المتواتر ، والخبر الواحد .

الخبر المتواتر :

وعرفوا الخبر المتواتر بأنه خبر جماعة بلغوا من الكثرة مبلغا أحالت العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب ، على شريطة أن يستوي التواتر في جميع الطبقات .

بحيث تكون الطبقة الأولى التى أخذت عن صاحب السنة مباشرة متواترة ، وكذا الطبقة الثانية والثالثة ، ولا تشترط العدالة فى رواة الخبر المتواتر بالاتفاق ، أما عددهم فلا يتعين بحد ، والمهم أن نعلم بامتناع التواطؤ على الكذب ، وأن يكون الخبر من شأنه وطبعه مفيداً للعلم ، بحيث لو اطلع عليه ذو الفطرة السليمة لعلم بوجود السنة ، فلو افترض أن شخصاً اطلع عليه ، ولم يحصل له العلم ، لسبب من الأسباب يكون ـ مع ذلك ـ حجة عليه ، ويلزمه العمل به(١) .

الخبر الواحد :

الخبر الواحد فى اصطلاح العلماء هو الذى لا يبلغ حد التواتر ، سواء أكان الراوى له واحداً ، أو أكثر ، فوصف الوحدة هنا يراد به عدم التواتر ، لا عدم التعدد ، وبتعبير ثان أن المتواتر أخذ « بشرط شىء » أى بشرط التواتر ، والواحد أخذ « بشرط لا » أى بشرط عدم التواتر ، والخبر الشامل لهما معا « لا بشرط » أى لا يشترط فيه التواتر ولا عدمه ، ومن هنا قالوا : « إن كلا من الخبر المستفيض والخبر المشهور نوع من الخبر الواحد .

والمستفيض فى اصطلاحهم ما رواه أكثر من اثنين ، ولم يبلغ مبلغ المتواتر ، والمشهور ما اشتهر على الألسن ، وفى الكتب ، وإن كان راويه واحداً ، وعليه تكون الاستفاضة وصفا لرواى الخبر لا للخبر ، والشهرة وصفا للخبر لا للراوى .

أما الخبر الذى حصل العلم بصدوره من القرائن الداخلية أو الخارجية ، كخبر « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى » أما هذا ، وما إليه فلا جدال ولا نقاش بين العلماء فى أنه حجة معتبرة ، لا للشهرة أو الاستفاضة ، ولا للتواتر أو أى شىء آخر ، بل لمجرد العلم بالصدور الذى هو حجة بنفسه ، وبدون جعل جاعل .

---

(١) وبهذا يتبين ما فى قول صاحب « الأصول العامة للفقه المقارن » فقد جاء فى صفحة ١٩٦ طبعة أولى : « أن المدار على العلم ، فان حصل فهو الحجة » ويلاحظ بأن المدار على صفة التواتر الذى من شأنه أن يفيد العلم نوعا ، وإن لم يحصل للفرد . . . هذا ، إلى أن الخبر المتواتر ليس بأسوأ حالا من الخبر الواحد ، اللهم إلا أن يدعى بأن الخبر المتواتر هو الذى يحصل منه العلم الشخصى . . . وهذا مجرد دعوى .

وبهذا يتبين معنا أن كلا من الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن المفيدة للقطع يجب الأخذ به ، والاعتماد عليه بالاتفاق . أما الخبر الذى لم يبلغ حد التواتر ، ولم يعلم بصدوره من القرائن فهو محل الكلام والبحث ، سواء أكان مستفيضا ، أو مشهورا ، أو غريبا ، لم يروه إلا فرد ، ولم يشتهر على الألسن ، ولا فى الكتب .

وتكلم الفقهاء عن هذا الخبر من جهات شتى ، تكلموا فى أصل صدوره عن صاحب السنة ، وقسموه من هذه الجهة إلى أقسام : صحيح وضعيف وحسن وموثق ، وتكلموا فى جهة الصدور ، وأنها لبيان الواقع أو غيره ، وأيضا تكلموا فى متنه . والمعنى الظاهر من لفظه ، وفى إرادة هذا الظهور ، وفى الدليل على اعتباره ووجوب العمل به . . أما نحن فينحصر كلامنا فى أصل الصدور ، وبالأصح فى ذكر شروط السند التى تسوّغ نسبة الخبر إلى صاحب السنة فى حال عدم العلم والقطع بصدوره عنه ، وبديهة أن أهم شىء فى الحديث هو الإسناد ، لأنه كالأساس للبناء .

الشروط :

اتفق الإمامية ـ إلا من شذ ـ[1] على أن السنة تثبت برواية الراوى ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، فقال بعضهم : إن كل خبر يحصل منه الظن بالحكم الشرعى ، أو بحجية الخبر فهو حجة متبعة ، سواء أكان الراوى ثقة ، أم غير ثقة ، واستدل هؤلاء ، بأنا نعلم بوجوب الرجوع إلى السنة والعمل بها تماما كما يجب الرجوع إلى القرآن الكريم ، فإن أحرزنا السنة بالعلم فذاك ، وإلا فلا بد من الرجوع إلى الظن لتعيينها ، ومعنى هذا أن علينا أن نطيع أوامر الله بطريق العلم ، فإن تعذر العلم وانسد بابه وجب الامتثال بأقرب الطرق إلى العلم ، وليس من أن أقرب الطرق إليه الظن . . وهذا فى حقيقته عمل بالظن لا بالخبر الواحد ، والعمل به عمل بلا دليل ، بل قام الدليل

---

(١) ذهب ابن قبة ومن تبعه إلى وجوب الاقتصار على الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن القطعية ، وعدم العمل بالخبر الواحد إطلاقا ، وحاول بعض العلماء أن يوجه ذلك بما يرجع إلى قول الأكثرية الغالبة ، فقال : إن مراد ابن قبة ومن إليه عدم العمل بالخبر الواحد الذى لم يجمع الشروط . ومهما يكن فإن هذا القول متروك .

على تحريم العمل بالظن ، لأن مجرد الشك فى حجية الشيء ، أى شيء ، دليل على عدم حجيته ، هذا ، إلى نص القرآن الكريم على أن الظن لا يغنى عن الحق شيئا .

ومهما يكن ، فقد استثنى علماء الإمامية من تحريم العمل بالظن موارد قام الدليل القطعى عندهم على اعتبارها ، وأنها تماماً كالعلم ، منها الظن الحاصل من الخبر الواحد إذا كان راويه مسلما عاقلا بالغا موثوقا ضابطا .

اشترطوا الإسلام فى الراوى ، مع أن غير المسلم قد يكون صادقا فى النقل ، وربما أصدق من بعض المسلمين ، اشترطوا الإسلام تعظيما لنبوة محمد والإيمان بها ، وبديهة أن المجنون لا يعتمد عليه فى شيء ، والصبى ملحق به ، واشترطوا الوثوق والأمانة فى النقل للاحتراز من الكذب ، أما الضبط فلأن المغفل قد يزيد أو ينقص ، ويغير ويبدل فيما يسمع .

القوى والضعيف :

يعتقد كل من السنة والشيعة أن فى أحاديثهم القوى والضعيف ، والصحيح والسقيم ، ومن هنا وضعوا علم الرجال ، وألفوا فيه العشرات من الكتب للغربلة والتصفية ، قال المحقق القمى فى الجزء الثانى من كتاب القوانين ص ٢٢٢ طبعة سنة ١٣١٩ هـ : « إن دعوى قطعية أخبارنا ـ أى العلم بصحتها جميعا ـ من أغرب الدعاوى . . مع أن فى الأخبار الموجودة فى كتبنا ما يدل على أن الكذابة والقالة قد لعبت أيديهم بكتب أصحابنا ، وأنهم كانوا يدسون فيها » .

وروى الشيخ الأنصارى فى كتاب « الرسائل » الذى هو عمدة التدريس فى النجف أن الإمام الصادق قال : « إنا أهل بيت صديقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا . إن الناس أولعوا بالكذب علينا ، كأن الله افترضه عليهم ، ولا يريد منهم غيره . . إن لكل منا من يكذب عليه » .

ونقل صاحب سفينة البحار فى الجزء الأول مادة « حدث » أن بعض أهل البصرة جمع الأحاديث الموضوعة ، وعرضها على الإمام الصادق .

وفى إحدى خطب نهج البلاغة ذكر الإمام رواة الحديث ، وفى طليعتهم « المنافق الذى لا يتأثم ولا يتحرج من الكذب على رسول الله متعمدا » .

وأفضل كتب الحديث عند الإمامية كتاب « الكافى » للكلينى ، ومع هذا ضعّف علماؤهم الكثير من أحاديثه ، وأحصى بعض الفضلاء الأحاديث التى ضعفها ووهنها العلامة المجلسى فى شرحه للكافى ، فبلغت الألوف .

والآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات تركت القلم ، ورجعت إلى أصول الكافى ، وعددت ثلاثين حديثا من أوله ، فوجدت منها ثلاثة عشر حديثاً ضعيفاً ، وثمانية أحاديث مرسلة ، وحديثين راويهما مجهول ، والسبعة الباقية من الثلاثين بين صحيح وموثق بشهادة الشارح المتتبع العلامة المجلسى الذى وصف الكافى بأنه « أضبط الأصول وأجمعها ، وأحسن المؤلفات وأعظمها عند الإمامية » .

فهل بعد هذا يقال : إن لدى الإماميه صحاحا فى الحديث ، أو صحيحا واحدا من أوله إلى آخره ؟ .

ولو صدق هذا القيل لكان احتجاج مجتهد على مجتهد إمامى بحديث من الكافى تماما كالاحتجاج بآية من آى الذكر الحكيم ، مع أن لكل مجتهد إمامى أن يرفض أى حديث لا يرتضيه فى الكافى وغيره ، ويأخذ بحديث موجود فى البخارى أو مسلم ، ولا يحق لأحد أن يحتج عليه من وجهة دينية أو مذهبية .

من هو الثقة عند السنة ؟ :

ذكرت فى كتاب « الشيعة والتشيع » ما يلى :

سألنى أحد الإخوان : أصحيح أن السنة يشترطون فى الراوى أن لا تكون فيه رائحة التشيع ؟ وهل وجدت فى كتبهم مصدراً لهذا القول ؟ .

قلت له : هذا قول المتعصبين منهم[1] ، وليس مبدأ عاما عند علمائهم ، فقد نقل الغزالى عن الشافعى فى كتاب المستصفى أنه قال : « تقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة ، لأنهم يرون الشهادة بالزور لمن وافقهم بالمذهب » .

وقال الخضرى فى كتاب أصول الفقه : « أما المبتدعون ببدع غير مكفرة

---

(١) راجع كتاب « فواتح الرحموت » المطبوع مع المستصفى : ص ١٤٠ ج ٢ ، لتعرف من هؤلاء المتعصبون . . إن أحببت أن تعرفهم .

فأكثرهم - أى أكثر علماء السنة - على القول بقبول رواياتهم، وهو المعقول ما داموا لا يدينون بالكذب ، ولا نظن هذا معتقداً لأى طائفة من المسلمين ، وإن نسب إلى الخطابية أنهم يدينون بالشهادة لمن يوافقهم فى الاعتقاد »[1] .

وروى أصحاب الصحاح الستة عن رجال من الشيعة ، كأبان بن تغلب ، وجابر الجعفى ، ومحمد بن حازم ، وعبيد الله بن موسى ، وغيرهم .

من هو الثقة عند الإمامية ؟ :

والذى جرى بين علماء السنة جرى أيضاً بين علماء الإمامية ، حيث اشترط البعض أن يكون الراوى إماميا ، وذهب المحققون منهم إلى الاكتفاء بمجرد الوثوق بصدق الراوى ، إماميا كان أو غير إمامى ، من هؤلاء العلامة الحلى فى كتاب « الخلاصة » ومنهم صاحب القوانين ، قال فى الجزء الأول ما نصه بالحرف : الأظهر قبول أخبار غير الموثقين منهم - أى غير الإثنى عشرية - فإن التثبت يحصل بتفحص حال الرجل فى خبره ، فإذا حصل التثبت فى حالة ، وظهر أنه لا يكذب فى خبره فهذا تثبت » .

وقال السيد القزوينى فى حاشيته على الجزء الثانى من القوانين : « إن المعتبر تحصيل ما يوجب الوثوق بصدق الرواية » .

وجاء فى كتاب « تنقيح المقال » ج ١ ص ٢٠٦ : « ورد النص عن الإمام أن نأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه ، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذى هو فى اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامى » .

وقال الشيخ الأنصارى فى « الرسائل » عند كلامه فى الخبر الواحد : إن الإمام الصادق قال : « خذوا ما رووا ، وذروا ما رأوا » ثم قال الأنصارى : « والأخبار متواترة بالأخذ بخبر الثقة والمأمون » .

---

(١) جاء فى أحاديث أهل البيت أن الخطابية يشهد بعضهم لبعض بالزور ، والخطابية نسبة لأبى الخطاب محمد بن مقلاص ، وكان فى عهد الإمام جعفر الصادق ، وقد تبرأ منه الإمام ولعنه .

وقال السيد محمد تقى الحكيم فى « الأصول العامة » ص ٢١٩ طبعة أولى :
« اعتبر الشيعة الإمامية أخبار مخالفيهم فى العقيدة حجة إذا ثبت أنهم من الثقات ، وأسموا أخبارهم بالموثقات ، وهى فى الحجية كسائر الأخبار ، وقد طفحت بذلك جل كتب الدراية لديهم »[1] .

وبهذا يتبين معنا أن علماء السنة والشيعة متفقون على أن مقياس العمل بالحديث هو الثقة بصدق الراوى ، وأمانته فى النقل ، سنياً كان أو شيعياً تماماً كالحكمة يأخذها المؤمن أنى وجدها .

وبالتالى ، فقد كتبت هذه الكلمة الموجزة بمناسبة الحركة المباركة التى تعتزم القيام بها « دار التقريب » من جمع الأحاديث المتفق عليها بين السنة الشيعة ، والتى ترتكز على الوثوق بصدق الراوى ، جمعها فى كتاب واحد ، عملا بمبدأ الدار ، وتحقيقا لهدفها الإنسانى الإسلامى ، وبهذا تقدم الدار شهادة العدل والصدق على أن الفريقين يصدران من معين واحد .

أخذ الله بيدها ، وكتب لجميع مشاريعها الخيرية النجاح والفلاح ؟

---

(١) اهتم الإمامية بالحديث اهتماماً بالغاً ، وألفوا فيه كتباً متنوعة : النوع الأول أدرجوا فيه الأحاديث بألفاظها ، والثانى تكلموا فيه عن أحوال الراوى ، وهل هو ثقة أمين أو لا ؟ وهذا هو علم الرجال ، والثالث تكلموا فيه عن حكم الحديث بمجموعه ، وقالوا : إن كان الحديث كذا فحكمه كذا ، وأسموه علم الدراية .

من ثمرات المعقول والمنقول

للشاعر الكبير الأستاذ على الجندى
العميد السابق لكلية دار العلوم

الدَّيْلم :

جيل من العجم كانت بينهم وبين العرب عداوة راسخة ، فصارت العرب تسمى كل عدو ديلميًّا ، وفى ذلك يقول المتنبى :

ولا نبحت خيلى كلابُ قبائل كأن بها فى الليل حَمَلاتُ ديلم

سكن الميم من حملات للضرورة وحقها الفتح .

احترام الأذان :

كانت الكأس فى يد سيف الدولة بن حمدان ، فحدث أن أذن المؤذن بالصلاة ، فوضع سيف الدولة الكأس من يده ، وكان المتنبى حاضرا ، فقال مرتجلا :

ألا أذِّنْ فما أذكَرْتَ ناسى ولا ليَّنْتَ قلبا وهو قاسى

ولا شُغِل الأميرُ عن المعالى ولا عن حقِّ خالقه بكاس

ليت هذا الأمير المحارب الباسل المجاهد لم تحمل يده الكأس قط ، فهذا هو الأشبه بمثله .

يلقيهم فى النيل :

اتصل قوم من الغلمان فى مصر بالأمير « أنجور » الإخشيدى ، وحاولوا إفساد العلاقات بينه وبين كافور الوصى عليه ، فطالبه كافور بتسليمهم إليه فأبى ، وجرت وحشة بينهما ، ثم سلمهم إليه فألقاهم فى النيل !! واصطلحا بعد ذلك ، وهى إحدى هفوات كافور على تقواه !!.

من عادات العرب فى الحرب :

كان من عاداتهم فى الحرب : أن يركبوا الإبل ، ويجنبوا الخيل - إذا كانت الرحلة طويلة - حتى إذا وصلوا إلى أرض المعركة ركبوا الخيل وهى مستريحة قويه على القتال ، وهذا من بصر العرب بالحروب .

ومعنى : جنبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

الشاب والكهل :

فى المغرب : الشاب ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، وفى الصحاح : الكهل : ماجاوز الثلاثين ، فيكون الشاب إلى الثلاثين ، وقيل : الكهل ابن ثلاث وثلاثين .

وذكر الإمام النووى : أن سن الكهولة ينقضى ببلوغ أربعين سنة ، وتدخل بالأربعين سن الشيخوخة ، وليس بينهما زمان ، والشباب : جمع شاب ، ويكون مصدراً بمعنى الحداثة ، وهى خلاف الشيب ، ولم يجمع فاعل على فعال - بفتح العين - غيره . وقد جاء فى الحديث : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ، ومعنى الحديث : أن الحسنين سيدا كل من مات شابا ودخل الجنة ، والإخبار بالشباب لأنهما كانا دون ثمان سنوات عند موت الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - !! . ولكن المتبادر من العبارة أنهما ماتا شابين مع أن سنهما كانت فوق الأربعين بالإجماع .

والجواب : أن من لم يتجاوز الستين قد يعد فى العرف شابا لا شيخا . وما معنى « شباب أهل الجنة » مع أن الجنة ليس فيها غير الشباب ؟ والجواب : أن الإضافة : إضافة توضيح باعتبار بيان العام بالخاص .

طلاق الإمام للدنيا :

تزينت الدنيا لعلى - عليه السلام - فقال لها : أنت طالق ثلاثا لارجعة لى فيك .

وكانت تكفيه واحدة للسُّنة ، لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور الهوى جواز المراجعة ، ودينه الصحيح ، وطبعه السليم يأنفان من المحلل ، كيف وهو أحد رواة حديث : « لعن الله المحلل » .

حجاب الغفلة :

قال بعض الزهاد : ما علمت أن أحدا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان ، فقال له رجل : إنى أكثر البكاء . فقال : إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مُدِل بعملك ، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه !! فقال الرجل : أوصنى ، فقال : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها ، وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيبا ، وإن أطعمت أطعمت طيبا ، وإن سقطت على شىء لم تكسره ، ولم تخدشه .

الأمر والنهى :

قال سهل التسترى : ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهى : لأن آدم نُهِى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه ، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه .

الخوف من العُجْب :

ذكر ابن سعد فى الطبقات عن عمر بن عبد العزيز : أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه !! وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه !! ويقول : اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى !! .

حلواء الرسول :

كانت حلواء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ المجيع بوزن جميع . والمجيع : تمر يعجن باللبن ؛ والعارف بما قاله الأطباء فى اللبن والتمر يعرف قيمة هذا الغذاء مع رخصه ويسره وخفته على المعدة ، وحلاوة مذاقه .

مقلة الرحمن :

مقلة الرحمن وردت فى قول ابن حمديس الصقلى :

فلك الويل من النار إذا مقلة الرحمن لم تنظر إليك

أقول : المعروف فى مثل هذا : عين الله ؛ تقول : رعتك عين الله أو عين العناية ، والأسلم الوقوف عند المأثور فى مثل هذه التعبيرات .

شمس بن مالك :

روى بفتح الشين كما يسمى ببدر ونحوه . وروى بضم الشين ، وهو فى هذه الحال يحتمل أن يكون جمع شموس بالفتح ؛ قال الأخطل :

شُمْس العداوة حتى يُستقادَ لهم   وأعظم الناس أحلاما إذا قدَروا

ويجوز أن يكون ضم الشين على وجه تغيير الأعلام . وقال بعضهم : ليس فى كلام العرب شمس بالضم إلا هذا الموضع . وقال الحسن العسكرى فى كتاب التصحيف : شمس مضموم الشين : بطن من الأزد من مالك بن فهم ، وكل ما جاء فى أنساب اليمن فهو شمس بالضم ، وكل ما جاء فى أنساب قريش فهو شمس بالفتح .

العفـــاء :

العفاء بفتح العين : التراب . قال صفوان بن محرز : إذا دخلت بيتى ، فأكلت رغيفا ، وشربت عليه ماء ، فعلى الدنيا العفاء !! .

أقول : وقريب من هذا قول بعض الزهاد :

خـبز وماء وظل   هو النعيم الأجل

جحدت نعمة ربى   إن قلت : إنى مُقل

أحمدَ إليك الله :

أى أشكره معك ، أو لأجل نعمته عليك .

المكلفون :

المراد بالمكلفين : من يصح تكليفهم ، وإن لم يكونوا مكلفين بالفعل ، ولذلك قالوا : إن وضوء الكافر جائز ، حتى إذا أسلم لا يلزمه تجديده مع أنه غير مكلف بالفروع على أصح الأقوال .

القراءة المنكوسة :

قال ابن بطال : لا نعلم أحداً قال بوجوب القراءة على ترتيب السور ، لا داخل الصلاة ولا خارجها ، وأما ما جاء عن السلف من النهى عن قراءة القرآن منكوسا .

فالمراد به أن يقرأ آخر السورة إلى أولها . وقد كان جماعة يصنعون ذلك فى القصيدة من الشعر مبالغة فى حفظها ، فمنع السلف ذلك فى القرآن ، وهو حرام ، كما ذكر ابن حجر فى باب تأليف القرآن فى شرح البخارى .

القيام للمصحف :

فى التبيان : أنه يُستحب القيام للمصحف إذا قدّم به إليه .

ويقول عز الدين بن عبد السلام : القيام للمصحف بدعة لم تعهد فى الصدر الأول .

ويقول النعسانى الحلبي : ليس بين العبارتين مغايرة ، فليس كل أمر لم يعهد فى الصدر الأول يكون مذموما ، نعم إنه لا يكون من الدين ، وصاحب القول الأول : إنما ادعى أنه محمود حسن ، ولم يذكر أنه من الدين وهو كما قال .

القرآن والحديث القدسى :

قال الكرمانى فى أول كتاب الصوم : القرآن لفظ مُعجز ، ونزل بواسطة جبريل - عليه السلام - . والحديث القدسى : غير معجز بدون الواسطة ، ومثله : يسمى بالحديث القدسى والإلهى والربانى . وقال الطيبي : القرآن : هو اللفظ المنزّل به جبريل على النبي - عليهما السلام - والقدسى : إخبار الله - تعالى - معناه للرسول بالإلهام أو المنام ، فأخبر الرسول أمته به بعبارة نفسه . والفرق بين الحديث القدسى وسائر الأحاديث : أن القدسى مضاف إلى الله - تعالى - ومروى عنه بخلاف غيره ، فانه لا يضاف إلى الله - تعالى - ولا يروى عنه ، أو أن القدسى : ما يتعلق بتبرئة ذاته - سبحانه - وصفاته الجلالية والكمالية .

القتل الخطأ :

قال صاحب الهداية : لا إثم فى القتل الخطأ ، والمراد : نفى إثم القتل ، فأما فى نفسه فلا يَعْرَى عن الإثم من حيث ترك العزيمة ، وعدم المبالغة فى الحرص والتثبت .

والقوانين الوضعية لا تعفى من يقتل خطأ من العقوبة ، إلا أنها لا تصل به إلى درجة الإعدام .

حروف المعجم فى بيت :

قال بعض الشعراء :

مُزَرْفَن الصُّدغ يسطو لحظه عبثا بالخلق جذلان إن تشكُ الهوى ضحكا

الزرفين ـ بضم الزاى وكسرها ـ : حلقة تكون للباب أو معرب عام ، وزَرْفن صدغيه : جعلهما كالزرفين .

اللؤم :

اللؤم : اسم لخصال تجتمع ، وهى البخل ، واختيار ما تنفيه المروءة ، والصبر على الدنية ، ودناءة النفس ، وعدم الإباء .

وضده الكرم : وهو اسم لخصال تضاد خصال اللؤم .

الهُمام :

الملك العظيم الهمة ، أو السيد الشجاع السخى ، وهو خاص بالرجال .

العباد :

أكثر ما تستعمل فى الإضافة إلى الله ـ تعالى ـ .

وقد أضافها المتنبى فى مدح سيف الدولة إليه ، فقال :

أنلت عبادَك ما أمّلوا أنالك ربك ما تأمل

قال الواحدى : ولو قال : عبيدك لكان أحسن .

من معانى الحسب :

من معانى الحسب : عدد ذوى قرابة الرجل ، من أولاده وغيرهم .

ويفسر ذلك : أن هوازن أتوا النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالوا : أنت أبر الناس وأوصلهم ، وقد سُبى أبناؤنا ونساؤنا ، وأخذت أموالنا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « اختاروا إحدى الطائفتين : إما المال ، وإما السبى » فقالوا : أما إذ خيرتنا بين المال وبين الحسب ، فإننا نختار الحسب ، فاختاروا أبناءهم ونساءهم ، فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنا خيرناهم بين الأموال والأحساب فلم يعدلوا بالأحساب شيئا » فأطلق لهم السبى .

قال الأزهرى : فبين هذا الحديث : أن عدد أهل بيت الرجل يسمى : حسبا .

تقديم الإناث على الذكور:

ورد تقديم الإناث على الذكور فى قوله ـ تعالى ـ : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » أقول ـ والله أعلم بمراده ـ إن تقديم الإناث على الذكور فى معرض الهبة ، يفيد كثرة الإناث على الذكور ، فالمعروف منذ بدء الخليقة : أن الطبيعة سخية بالإناث ، لأن الأنوثة مصدر النتاج ، واعتبر فى هذا بالدجاج مثلا ، فمائة دجاجة مع ديك خير وأجدى من ألف ديك مع دجاجة ، بل إن المقارنة لا تصح ؛ ولهذا يقول الجاحظ : انظر فى أى جهة كنت أمامك وخلفك ويمينك وشمالك ؛ فإنك لا بد أن تجد عدد الإناث أكثر من عدد الذكور .

لم أسلمت ؟ :

قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم ـ : عن أى شىء أسلمت ؟ وما ذا رأيت مما دلك على أنه رسول الله ؟ .

فقال : ما أمر بشىء ، فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء ، فقال العقل : ليته أمر به ، ولا أحل شيئا ، فقال العقل : ليته حرمه ، ولا حرم شيئا ، فقال العقل : ليته أباحه .

وقد احتج هذا الأعرابى للإسلام بهذه الكلمات القصار الفطرية بما يغنى عن حجج علماء الكلام جميعاً ، وأشهد أننى زدت بها إيماناً .

مراتب الزهد :

قال الإمام أحمد : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، وترك الفُضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، وترك ما يشغَل عن الله ، وهو زهد العارفين .

الزهد والورع :

قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة ، والورع ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة .

قال ابن القيم : وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى الزهد والورع وأجمعها .

سُرُج الإسلام :

كان الإمام أحمد يرى المحابر بأيدى طلبة العلم ، فيقول : هذه سرج الإسلام . وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه ، فقال له رجل : إلى متى يا أبا عبد الله ؟ فقال : المحبرة إلى القبر .

قطع السارق :

قال بعضهم :

يدٌ بخَمْسِ مِيءٍ منعسجد وُدِيتْ ما بالُها قُطِعتْ فى ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من العار

فأجابه بعض الفقهاء : إنها كانت ثمينة لمَّا كانت أمينة ، ونظمه الشاعر فقال :

يد بخمس مىء من عسجد وديت لكنها قطعت فى ربع دينار
حماية الدم أغلاها ، وأرخصها خيانة المال فانظر حكمة البارى

وأعداء الإسلام من الغربيين الذين يفنون الملايين من النفوس فى حروبهم التى لا تنتهى ، ومن لف لفهم من الملاحدة الشرقيين يستعظمون قطع يد السارق فى الشريعة الإسلامية !! مع أنه ثبت أن قطع بضع أيد لأشرار عتاة فاسدين مفسدين فى البلاد التى تقيم هذا الحد قطع دابر تلك الجريمة ، وأراح المجتمع من شرها !! .

وليت شعرى ما ذا يقول هؤلاء فى روسيا الحديثة التى تُعدم السُّرَّاق والمرتشين ولا تكتفى بقطع أيديهم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

رؤية الله :

سأل أعرابى محمد بن على بن الحسن : هل رأيت الله حين عبدته ؟ قال : لم أكن لأعبدَ من لم أره ، قال : فكيف رأيته ؟ قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العِيان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يُدرَك بالحواس ، ولا يُشبَّه بالناس ، معروف الآيات . منعوت بالعلامات ، لايجور فى القضيَّات ، ذلك الله الذى لا إله إلا هو . فقال الأعرابى : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

الانتفاع بالقرآن :

إذا أردت الانتفاع بالقرآن ، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضُر حضور من يخاطبه به من أوحى به سبحانه إليه - وهو الرسول الكريم - فإن القرآن خطاب من الله لك على لسان رسوله ، قال تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » فالقلب : المراد به القلب الحى الذى يعقل عن الله تعالى . وألقى السمع : وجّه سمعه إلى مايقال له ، وهو شرط التأثر بالكلام . وهو شهيد : قال ابن قتيبة : شاهد القلب حاضر غير غائب . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحى ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شىء آخر ، حصل الأثر ، وهو الانتفاع والتذكر .

الأوّاب :

قال عُبيد بن عُمَير : الأواب : الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها .

وقال مجاهد : هو الذى إذا ذكر ذنبه فى الخلاء استغفر منه .

وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يُذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب .

آية لكشف المرض :

فى قوله تعالى : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » . جمع فى هذا : الدعاء بين حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة فى المتملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدة حاجته هو وفقره .

قال ابن القيم : ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه ، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة ، كشف الله ضره .

حديث لزوال الهم :

فى المسند وصحيح أبى حاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما أصاب عبداً همٌّ ولا حُزنٌ ، فقال : اللهم ، إنى

عبدُك ابنُ عبدك ابنُ أمَتِك ، ناصيتي بيدك . ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ في قضاؤك ، أسألكَ بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكانه فرحا » .

قالوا : يارسول الله : أفلا نتعلمهن ؟ قال : « بلى : ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

اللهو واللعب :

يقال . لها بالشيء : أي اشتغل به . ويقال : لها عن الشيء : إذا انصرف عنه . واللهو للقلب ، واللعب للجوارح ، ولهذا يجمع بينهما ، تقول : لها ولعب بالشيء .

مراتب التقوى :

التقوى ثلاث مراتب : إحداها : حِمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات . والثانية : حميتها عن المكروهات . والثالثة : حميتها عن الفضول وما لا يعني . فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وبهجته .

منازل القوم :

أول منازل القوم : اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا ، وأوسطها : هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وآخرها : تحيتهم يوم يلقونه سلام .

حياة الخضر :

أنكر الإمام ابن حزم الظاهري ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني امتداد حياة الخضر - عليه السلام - وليس في القرآن الكريم ، ولا السنة الصحيحة دليل على حياة الخضر ، ولم ينقل عن أحد من الأثبات أنه رأى الخضر صاحب موسى - عليه السلام - والقول بحياته إلى يوم القيامة من تلفيق القصاصين وترويجهم ، كالقول بحياة المسيح - عليه السلام - ولم تجر العادة أن يحيا الإنسان هذا العمر الطويل الذي قد يمتد إلى آلاف الملايين من السنين ، والله تعالى يقول : « وما جعلنا

لبشر من قبلك الخلد ، ولم يُنظر أحداً من خلقه إلى يوم القيامة غير إبليس « إنك لمن المنظرين » فهى خصوصية له وإن تكن لغير مزية ولا أفضلية . ولكن ليبتلى بذلك عباده ، ولتتم على إبليس اللعنة والحرمان .

اختيار الأوقات :

نقل عن الإمام على ـ عليه السلام ـ : أنه كان يكره السفر والنكاح فى محاق الشهر ، وإذا كان القمر فى العقرب .

مات حتف أنفه :

الحتف : الهلاك . وقد كان العرب يتخيلون : أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته : هكذا فى النهاية . ويقول صاحب النهج : المراد به : أن يموت الميت على فراشه من غير أن يعجله القتل ، إنما يتنفس شيئاً فشيئاً حتى ينقضى ؛ نخص بذلك الأنف ، لأنه جهة لخروج النفس وحلول الأجل ، فالميتة هنا ذات مُهلة ، فلا يستعمل ذلك فى الغرق والهدم وجميع فجاءات الموت ، وإنما يستعمل فى الميتة الماطلة .

النور والضياء :

فى الصحاح : النور : الضياء ؛ ولذا يقال : نور القمر ، وضياؤه وضوءه . وقال الغزالى : النور : يطلق على نفس الذات المستنيرة أيضا ، وعلى غير المحسوس كنور العقل ، بخلاف الضياء . وفى القاموس : النور : الضوء أيا كان أو شعاعه : أى شعاع الضوء ، ومحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والذى يبين الأشياء . والقرآن الكريم : أضاف النور إلى القمر ، والضياء إلى الشمس ، وهو فقه لغوى دقيق ، قال تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » .

كلمة ذات وجوه :

خطب الإمام على ـ عليه السلام ـ يوماً فقال : ماقتلت عثمان ، وما كرهت قتله . وقال فى مقام آخر : من كان سائلى عن قتل عثمان فالله قتله وأنا معه . قال ابن سيرين : هذه كلمة قرشية ذات وجوه : أما قوله : ما كرهت قتله ، فمعناه : أن قتله كان بقضاء

الله وقدره ، ونال درجة الشهادة ، وأنا ما كرهت قضاء الله وقدره ، وما كرهت الدرجة التى نالها . وقوله فى المقام الآخر : الله قتله وأنا معه ؛ فمعناه : أنا معه مقتول اقتل كما قُتل هو ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره بأنه يستشهد ! .

دعاء مأثور :

من أدعيتهم : اللهم إنى أعوذ بك من مال يكون علىّ فتنة ، ومن ولد يكون علىّ كلاًّ ، ومن حليلة تقرِّب الشيب ، ومن جار ترانى عيناه وترعانى أذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شراً طار به .

الصلاة الوسطى :

ذهب الجمهور : إلى أنها : العصر ؛ لأنها بين صلاتىْ نهار وصلاتىْ ليل ، وقد رووا أيضاً فى ذلك روايات . بعضها فى الصحاح . وقياس مذهب الإمامية : أنها المغرب ؛ لأن الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ، إلا أنهم يروون عن أئمتهم : أنها الظهر ، ويفسرون الوسطى بمعنى الفضلى ، لأن الوسط فى اللغة هو خيار كل شىء ، ومنه قوله تعالى : « جعلناكم أمة وسطا » وقد ذهب إلى أنها المغرب قوم من الفقهاء أيضاً . وقال كثير من الناس : إنها الصبح ؛ لأنها أيضاً بين صلاتى ليل وصلاتى نهار ، ورووا أيضاً فيها روايات ، وهو مذهب الشافعى . ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية . ولم يُسمع عن أحد أنها العشاء إلا قول شاذ ذكره بعضهم ، وقال : لأنها بين صلاتين لا تقصران .

ورع الخلفاء :

استعدى رجلٌ على الإمام علىّ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ وكان الإمام جالساً ، فالتفت إليه عمر وقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك ، فقام الإمام فجلس معه وتناظرا . ثم انصرف الرجل ورجع الإمام إلى محله ، فتبين عمر التغير فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيرا ؟ أكرهت ما كان ؟ قال : نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : كنيتنى بحضرة خصمى !! هلا قلت : قم يا على فاجلس مع خصمك !! فاعتنق عمر عليا ، وجعل يقبل وجهه ، وقال : بأبى أنتم !! بكم هدانا الله !! وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور !! .

ظرف الشعبي:

ارتفعت جميلة بنت عيسى بن جراد - وكانت جميلة كاسمها - مع خصم لها إلى الشعبي - وهو قاضي عبد الملك - فقضى لها، فقال هُذَيل الأشجعي:

فُتِنَ الشَّعبيُّ لما رَفعَ الطَّرْفَ إليها
فتلته بثنايا ها وَقوسَيْ حاجِبَيها
ومشت مشياً رُوَيداً ثم هزَّت مَنكِبَيْها
فقضى جوراً على الخصـ ـم ولم يَقْضِ عليها

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطا.

قال ابن أبي ليلى: ثم انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء - وقد شاعت الأبيات، وتناشدها الناس ونحن معه - فمررنا بخادم تغسل الثياب وتقول:

فتن الشعبي لما

ولا تحفظ تتمة البيت، فوقف عليها ولقنها وقال:

رفع الطرف إليها

ثم ضحك وقال: أبعدَه الله!! والله ما قضينا لها إلا بالحق!!.

فأزلهما الشيطان:

المعنى الصحيح في الآية: أن آدم وحواء كانا مندوبيْن إلى اجتناب الشجرة، وترك التناول منها، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما؛ لأن الأنبياء لا يُخلون بالواجب. فوسوس لهما الشيطان حتى تناولا من الشجرة، فتركا مندوباً إليه، وحرما بذلك أنفسهما الثواب. وسماه إزلالا؛ لأنه حطٌّ لهما عن درجة الثواب، وهو الأفضل. وقوله تعالى في موضع آخر: «وعصى آدم ربه فغوى» لا ينافي هذا المعنى؛ لأن المعصية قد يسمَّى بها من أخل بالواجب والندب معاً. وقوله: «فغوى» أي خاب من حيث لم يستحق الثواب على ما ندب إليه.

نوادر الحصَر:

صعد ابن لعديّ بن أرطاة المنبر، فلما رأى الناس حُصِر، فقال: الحمد لله الذي يُطعم هؤلاء ويَسقيهم. وصعد رَوْح بن حاتم المنبر، فلما رأى الناس قد

رشقوه بأبصارهم ، وصرفوا أسماعهم نحوه ، قال : نكِّسوا رءوسكم ، وغُضوا أبصاركم ، فإن أول مركب صعب ، فإذا يسر الله - عز وجل - فتح قفل تيسر ، ثم نزل . وخطب مُصعب بن حَيان خطبة زواج فحصر ، فقال : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية : عجل الله موتك !! ألهذا دعوناك ؟ . وخطب مروان بن الحكم فحصر ، فقال : اللهم إنا نحمدك ونستعينك ، ولا نشرك بك . وقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل : قم فاصعد المنبر ، فلما صعد حصر ، فقال : الحمد لله الذي يرزق هؤلاء وبقي ساكتا . فأنزلوه وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس فوقعت عينه على صلعة رجل ، فقال : أيها الناس ، إن هذا الأصلع قد منعني الكلام ، اللهم فالعن هذه الصلعة !! فأنزلوه !! . وقالوا لوازع اليَشْكُري : قم إلى المنبر فتكلم ، فلما صعد ورأى الناس ، قال : أيها الناس ، إني كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتي حملتني على إتيانها ، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثاً ، فأنزلوه . وخطب عبد الله بن عامر مرة فأرتج عليه ، وكان ذلك اليوم : يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيا ولؤما : من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ !! .

بَلِ الرفيق الأعلى :

قالت السيدة عائشة : كثيراً ما كنت أسمع رسول الله يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره ، فلما احتضر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان آخر كلمة سمعتها منه : « بل الرفيق الأعلى » ، فقلت : إذا والله لا يختارنا ، وعلمت أن ذلك ما كان يقوله من قبل . وقد روى كثير من الناس ندب « الزهراء » أباها يوم موته ، وبعد ذلك اليوم ، وهي ألفاظ معدودة مشهورة ، منها : يا أبتاه ! جنة الخلد مثواه ! يا أبتاه ! عند ذي العرش مأواه ! يا أبتاه ! كان جبريل يغشاه ! يا أبتاه ! لست بعد اليوم أراه !! . رحم الله الزهراء !! إنها لتقطع قلوبنا بهذا الندب المؤمن النبيل البليغ بعد هذا العهد الطويل ، كأنما نسمعه منها الآن !! .

كلمة انفرد بها الإمام :

من قول الإمام علي - عليه السلام - : سلوني قبل أن تفقدوني ، فلأنا أعلم

بطرق السماء منى بطرق الأرض . وقد أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلونى » غير الإمام ، كما ذكره ابن عبد البر فى كتاب « الاستيعاب » والمراد بذلك : ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيما فى الملاحم والدول ، وقد صدّق هذا القول ما تواتر عنه من الأخبار بالغيوب المتكررة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشك والريب فى أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق . وقد تأوله قوم على وجه آخر ، قالوا : أراد بالأحكام الشرعية ، والفتاوى الفقهية ، أعلم منى بالأمور الدنيوية ، فعبر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهية ، وعبر عن هذه بطرق الأرض ، لأنها من الأمور الأرضية . قال ابن أبى الحديد : والأول أظهر ؛ لأن فحوى الكلام وأوله يدل على أنه المراد .

غسل الرسول :

تولى غسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على والعباس ـ رضى الله عنهما ـ ! . وكان الإمام يقول بعد ذلك : ما شممت أطيب من ريحه . ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى .

من المنكرات :

عن عبد الله بن ظالم قال : لما بويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً ـ عليه السلام ـ فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ؟ ! .

وعن على بن الحسين قال : قال لى مروان بن الحكم : ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم ، قلت : فما بالكم تسبونه على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك .

وخطب مروان ، والحسن ـ عليه السلام ـ جالس . فنال من الإمام ، فقال الحسن : ويلك يامروان ، أهذا الذى تشتم شر الناس ؟ قال : لا ، ولكنه خير الناس ! .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ : كان أبى يخطب فلا يزال مستمراً

فى خطبته ، حتى إذا صار إلى ذكر على وسبّـه ، تقـطّع لسانه ، واصفر وجهه ، وتغيرت حاله ، فقلت له فى ذلك ، فقال : أوقد فطنت لذلك ؟ إن هؤلاء لو يعلمون من على ما يعلمه أبوك ، ما تبعنا منهم رجل !.

وسبَّ عدى بن أرطاة عليا - عليه السلام - على المنبر ، فبكى الحسن البصرى وقال : لقد سُبَّ هذا اليوم رجلٌ ، إنه لأخو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى الدنيا والآخرة !.

وحدث إسماعيل بن إبراهيم قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين فى الجمعة مما يلى أبواب كندة ، فخرج المغيرة بن شعبة فخطب ثم وقع فى على - عليه السلام - فضرب إبراهيم على فخذى أو ركبتى ، ثم قال : أقبل علىَّ فحدثنى ؛ فإنا لسنا فى جمعة ! ألا تسمع ما يقول هذا ؟ !.

وعن أبى بكر بن عبد الله الأصبهانى : أن دعيا لبنى أمية يقال له : خالد ابن عبد الله لايزال يشتم عليا - عليه السلام - فلما كان يوم جمعة وهو يخطب الناس قال : والله إن كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليستعمله ، وإنه ليعلم ما هو !! ولـكنه كان خَتَنَـه : أى صهره

وكان سعيد بن المسيب قد نعس ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكم !! ما قال هذا الخبيث ؟ ! لقد رأيت القبر انصدع ، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم يقول : كذبت يا عدو الله !.

وعن أبى عبد الله الجدلى قال : دخلت على السيدة أم سلمة أم المؤمنين ، فقالت لى : أيسب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسب على - عليه السلام - ومن يحبه .

وعن السدى قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت ، إذ أقبل راكب على بعير ، فوقف فسب عليا - عليه السلام - فحف به الناس ينظرون إليه ، فبينما هو هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبى وقاص ، فقال : اللهم إن كان سب عبداً لك صالحاً ، فأر المسلمين خزيه ، قال : فما لبث أن نفر به بعيره فسقط فاندقت عنقه ! وكان سعد - رضى الله عنه - مجاب الدعوة .

وقال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بنى عليا إلا بخير ، فإن بنى أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزده الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبن شيئاً قط إلا رجعت على ما بنت فهدمته ، وإن الدين لم يبن شيئاً قط وهدمه .

وعن الزهرى قال : قال ابن عباس لمعاوية : ألا تكف عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يربُوَ عليه الصغير ، ويهرَم فيه الكبير ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه ، فقال الناس : ترك السنة ، وقول الناس مصداق للحديث الشريف الذى رواه عبد الله بن مسعود : « كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، فيجرى عليها الناس فيتخذونها سنة ، فإذا غُيِّر منها شىء قيل : غُيرت السنة » .

وقد وضع عمر - رحمه الله - بدل السب قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وقد مدحه الشعراء على ذلك ، فمن ذلك قول كثير عزة :

وليت فلم تشتم عليا ، ولم تخف ... بَرِيًا ولم تتبع مقالة مُجرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضيا كل مسلم

ورثاه الشريف الرضى بقوله :

يابن عبد العزيز لو بكت العين ... فتى من أميةٍ لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتم ... فلو أمكن الجزاء جزيتك
غير أنى أقول إنك قد طبت ... وإن لم يَطب ولم يَزْكُ بيتك
« دَيرَ سمعان » لاعدتك الغوادى ... خير مَيتٍ من آل مروان مَيتك

ودير سمعان : البلد الذى توفى فيه - رضوان الله عليه - !

أيهما أفضل ؟ :

لما فتح هولاكو بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ، أمر أن يُستفتى العلماء : أيُّهما أفضل ؟ السلطان الكافر العادل ، أم السلطان المسلم الجائر ؟ .

ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك ، فلما وقفوا على السؤال أحجموا عن الجواب .

وكان رضى الدين على بن طاوس حاضراً هذا المجلس - وكان مقدما محترما - فلما رأى إحجامهم تناول رقعة السؤال ، ووضع خطه فيها بتفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطهم بعده ، روى هذه القصة الفخرى فى تاريخه ، ولا شك أن المراد : الأفضلية فى الحكم والسياسة والولاية .

العبث المدمر :

لعب محمد الأمين الخليفة العباسى مع وزيره الفضل بن الربيع بالنرد ، فتراهنا فى خاتميهما ، فغلب الأمين فأخذ الخاتم ، وأرسل فى الحال وأحضر صائغا - وكان على الخاتم مكتوب : الفضل بن الربيع - فقال للصائغ انقش تحته « يُصفع » فنقش الصائغ ذلك فى الحال ، ثم أعاد الخاتم إلى وزيره وهو لا يعلم ما نقش عليه .

ثم مضت على ذلك مدة ، فبعد أيام دخل الفضل عليه ، فقال الأمين : ما على خاتمك مكتوب ؟ قال : اسمى واسم أبى ، فتناوله الأمين وقال له : ما هذا المكتوب تحت اسمك ؟ فلما قرأه الفضل فهم القضية وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! هذا والله هو الخذلان المبين !! .

أنا وزيرك ولى كذا وكذا يوماً أختم الكتب بهذا إلى الأطراف وهو على هذه الصفة !! هذا والله آخر الدولة ودمارها !! والله لا أفلحت ولا أفلحنا معك .

فكانت الفتنة بعد ذلك بيسير .

بناء بغداد :

لما أراد المنصور بناء بغداد ، سأل بعض رهبان الدير المعروف هناك بدير الروم أحد حاشيته عنه ، فقال له : أمير المؤمنين المنصور . فقال له : ما اسمه ؟ قال : عبدالله ، قال : فهل له اسم آخر ؟ قال : اللهم لا ، إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور .

قال الراهب : فاذهب إليه وقل له : لا تتعب نفسك فى بناء هذه المدينة ، فإنا نجد فى كتبنا أن رجلا اسمه « مقلاص » يبنى ههنا مدينة ، ويكون لها شأن من الشأن ، وأن غيره لا يتمكن من ذلك .

فجاء الرجل إلى المنصور وأخبره بما قال الراهب ، افنزل المنصور عن دابته

وسجد طويلا ، ثم قال : أما والله كان اسمى مقلاصا ، وكان هذا اللقب قد غلب على ثم ذهب عنى .

وذلك : أن لصاً كان فى صباى يسمى مقلاصا ، وكانت تضرب به الأمثال ، وكانت لنا عجوز تربينى ، فاتفق : أن صبيان المكتب جاءوا يوما إلىّ وقالوا لى : نحن اليوم أضيافك ولم يكن معى ما أنفقه عليهم ، فأخذت غزلها وبعته وأنفقته عليهم فلما علمت العجوز أنى سرقت غزلها سمتنى مقلاصا ، وغلب هذا اللقب على ، ثم ذهب عنى ، والآن عرفت أنى أبنى هذه المدينة ! ! .

صورة تذكر بخالقها :

قال بعض الأدباء الحكماء : الجمال الصريح : ما استنطق الأفواه بالتسبيح .

وقال الجندى :

ليت شعرى ما رابنى من جمال	هو لله حُجَّــــةٌ بيضاءُ
رُب حُسن هدىَ إلى خالق الحُسـ	ن حَيارَى لم تهْدِهم أنبياء
ودُعاء باسم الملاحة يُزجى	تتلقـــاه بالقـبول السماء
ذَكـِّرينا يا «جُمْلُ» باللهِ، فاللهُ	جمـالٌ هامت به الأصفياء
وارْجعينا إلى الحياة ، فقد مُتْـ	نا وإن ظُنَّ أننا أحياء

* * *

شَقِىَ الناسُ بالجمال ، ويَشقَى	فى ظِلال السَّعادةِ الأغبياء
لو دَرَوْا سِرَّه أظلهُم السِّلـ	مُ ورَفّتْ عليهمُ النَّعْماء
ليتَ مَن أشعَلوا البسيطة ناراً	عَرَفوه ! ! فلم يُصِبْنا البَلاء

في القصص القرآني

للأستاذ أحمد الشايب
وكيل كلية دار العلوم

— ٢ —

٦ — والآن نتقدم إلى قصص القرآن الكريم لبيان أهدافه ومنهجه، كما تدل عليه الآيات والأساليب القصصية نفسها.

اشتمل القرآن على كثير من قصص الأنبياء والأمم الخالية، ساقها الله تعالى للعبرة والموعظة بأحوالهم: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفترى»[1]، كما ساقها ليثبّت فؤاد النبي ويصبره على مشاق الدعوة الإسلامية «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»[2]، وهكذا يعرض شئون الماضين وكفاح المرسلين، وكيف انتهى بهم الأمر وبشعوبهم حين صدقوهم أو كذبوهم، كل ذلك تحقيقاً لأهدافه، فوق ما قد يكون في قصصه من تشريع.

ومعنى ذلك أن القرآن حين يقص ـ مع صدق ما حكى من أنباء ـ ليس يهدف أساسيا إلى تعليم التاريخ، ولا ينهج منهج كتبه المدرسية من حيث التبويب والتفصيل والترتيب والاستقصاء والتزام المقومات الزمانية والمكانية والوقوف عند الجزئيات، وإنما يسوق القصة بأسلوبه البليغ منوها بمواطن العبرة فيها، وهو يسوقها في المواضع التي تناسبها، موجزاً مرة ومطنباً أخرى، ومعنى ذلك طبعا أن القصة قد تحكى أكثر من مرة متى جاءت مناسباتها، وتحتوي في كل مرة من الحوادث والأنباء ما يستلزمه المقام دون التشبث بالاستقصاء والتفصيل.

(١) يوسف: الآية / ١١١. (٢) هود: الآية / ١٢٠.

كذلك يقال بالنسبة للقصص ، فمن المعروف أن القصة فى العصر الحديث تتناول حوادث تاريخية أو خيالية ، وهى حين تتناول التاريخ لا تلتزم بواقعه الحقيقى ، وهى بعد ذلك تخضع لمنهج مقرر من التبويب والتفصيل والمناظر والاستيعاب ، بحيث تكون سلسلة مترابطة من الأفكار والأحداث ينتهى تسلسلها إلى الغاية التى كتبت من أجلها ، فهى كتاب يؤرخ أحداثا أو أفكارا ، ولكنه لا يتشبث بالواقع ، ومن حقه أن يخترع ، ويزيد وينقص ، ويصور ويتخيل ، لا حرج عليه فى ذلك ما دام يتخذ من هذه الوسائل ما يحقق هدفه المنشود .

ولكن القصص القرآنى ليس من هذا الأسلوب الحديث ، فهو ـ كما قلنا ـ يَرِد بحسب المناسبات الوعظية ، ويقتصر من القصة على ما يناسب المقام ، ويعرضه بأسلوب رائع ، ويتحرى الحقائق والواقع ، فلا تزوير ولا تزييف ، ولا كذب ولا تدليس ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وبهذه المناسبة يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده عند تفسير قوله تعالى : « وإذ استسقى موسى لقومه »[1] : « إن كثيرا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ، ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه ، وقبل الأمر بدخول تلك القرية ، فذُكر هنا بعد تلك الوقائع ، والجواب عن هذه الشبهة يُفهم بما قلناه مراراً فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن ، وهو أنه لم يُقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها ، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها ، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير »[2] .

ومع أن القصص القرآنى لم يهدف إلى تعليم التاريخ ، ولم يلتزم أشكاله المدرسية فإن أخباره تاريخية أى أنها صادقة واقعية لا تبديل فيها ولا زيادة ، وبذلك يعتمد عليه فى التحقيق للتاريخى من هذا الوجه .

---

(١) البقرة / ٥٨ ـ ٦٠ . (٢) تفسير المنار : ج ١ ص ٣٣٧ .

ثم يقف بعض الناس عند تفسير المنار لقوله تعالى : « ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى . . . . » الآيات[١] ، يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده فى هذا المكان : « يظن كثير من الناس الآن ـ كما ظن كثير من قبلهم ـ أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفاصيلها ، وإنما يذكر ما يذكر لأجل العبرة »[٢] . وهنا يقف هؤلاء المعارضون عند قوله : « وليس القرآن تاريخا ولا قصصا » ظانين خطأ أنه يريد بذلك أن أنباء القرآن ليست واقعية ولا حقيقية ، ولكن سائر كلامه فى هذا المكان وفى غيره كما قدمنا وكما يلى يدل على أنه يريد أن قصص القرآن لا يخضع لشكليات التاريخ المدرسية ، ولا لشكليات القصص الحديثة من حيث التبويب والتفصيل والاستقصاء كما بينا منذ حين ، ويجب أن نذكر هذا النص فإنه ينفعنا حين نوازن بين قصص القرآن وبين التاريخ القديم والتوراة والإنجيل ، وليس هذا فقط هو ما تورطوا فيه ، بل سنجد أنهم تقولوا على الشيخ محمد عبده ما لم يقله إما جهلا وإما كذبا .

٧ ـــ وأحب هنا أن أطيل بعض الشيء لأؤكد للقراء مذهب الأستاذ الإمام فى فهم القصص القرآنى دفعا لما يحمله عليه من لم يفهم غرضه أو مذهبه . فالأستاذ الإمام عند تفسير قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . » الآيات[٣] يقول ما نصه : « جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحدة ، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهز النفوس إلى الاعتبار هزا ، وقد راعى فى

(١) البقرة / ٢٤٦ . (٢) تفسير المنار : ج ٢ ص ٤٦٤ / ط ١٣٢٥ هـ
(٣) البقرة / ٦٧ ـــ ٧١ .

قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى . . . إلى آخر ما قال »[١] ، وقد جاء فى تفسير المنار ما نصه : « قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه فى قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى فى البشر ، وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام لا حوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال ، وقد حكى هذا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التى أيده الله تعالى بها عقب تبليغ الدعوة[٢] ، وفى قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وتصريحهم بالشك فى صدقه ، وزاد فى سورة الشعراء طلبهم الآية منه ، وكل ذلك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد » .

٨ — والقرآن الكريم حين يقص أخبار الماضين يوردها على حقيقتها وواقعها التاريخى غير كاذب ، سواء أكانت أقوالهم وعقائدهم - فى ذاتها - حقاً أم باطلا ، فليس القرآن مسئولا عن أكاذيبهم وجهالاتهم التى يحكيها عنهم ، فإن المهم أنه يسوقها كما هى لا يزيد ولا يبدل[٣] ، وفى ذلك يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده ما نصه : « بيّنا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار ، لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو مواطن الهداية ، ولا بد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح »[٤] ، وذلك كقوله تعالى : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »[٥] ، وقد حكى القرآن ترديد اليهود وجهالاتهم فى عدد أصحاب الكهف ، ثم عقب على ذلك بقوله : « قل الله أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل »[٦] ، ثم يقول

---

(١) تفسير المنار : ج ١ ص ٣٤٦ . (٢) الأعراف / ٧٣ . (٣) راجع تفسير الرازى : ج ٢ ص ٤٨٧ . (٤) تفسير المنار ج ١ ص ٣٩٩ . (٥) الكهف / ٥ وراجع أوائل سورة البقرة . (٦) الكهف / ٢٢ ، وراجع سورة : المنافقون / ١ ، وسورة البقرة / ٨ — ١٦ .

الأستاذ الإمام بعقب ما مر وما أشرنا إليه من قبل : « وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم ، وإن لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله : « كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وكقوله : « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف ، فإننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم ، ولا سيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ، ولا يعتقد أحدهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية ، ويقول أهل السواحل : غربت الشمس ، أو سقط قرص الشمس فى البحر أو فى الماء ، ولا يعتقدون ذلك ، وإنما يعبرون به عن المرئى »[1] .

والغريب بعد هذا أن يقول خصوم القرآن إنه يُقر هذا الباطل وهو يحكى الماضى « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » وكل هذه المحاولات الباطلة يقصدون بها أن قصص القرآن تخليط بين الكذب والخطأ والتزييف ، كأنهم مأجورون على ذلك البهتان والزور .

٩ — ولما كان القرآن يرمى من وراء قصصه إلى العظة والاعتبار تراه يكرر القصة ويعيدها فى كل مناسبة تقتضيها ، منوها فى كل مرة بما توحى به من عبرة وموعظة ، مقتصرا منها على ما يستوجبه المقام موجزاً أو باسطا حيث يحسن هذا أو ذاك ، لأن القصة الواحدة ينتفع بها فى أكثر من موضع[2] ، ومن هنا كانت القصص المكررة متكاملة وإن لم تكن مستوعبة دائما ، فهى يكمل بعضها بعضا ، فقد ترد بعض عناصر القصة أول مرة ، فإذا أعيدت وردت عناصر أخرى لم ترد فى المرة الأخرى ، لأن المقام يقتضى ذكرها هذه المرة . والأمر إذاً ، هو اختيار الحوادث والمواقف التى تناسب كل موطن[3] ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده : « بينا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور ، فى كل سورة منها ما ليس فى

---

(١) تفسير المنار : ج ١ ص ٣٩٩ . (٢) الرازى : ج ٧ ص ٤٦٤ .

(٣) الرازى : ج ٧ ص ١٠٩ ، و ج ٦ ص ٤٠٥ ، وقصة إبراهيم فى سورتى الأنبياء والصافات ، وقصة لوط فى سورتى هود والشعراء .

سائرها ، ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا مايفيد العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها ، فذكرت في بعضها بآية وفي بعضها بآيتين فما فوقهما من جمع القلة ، وما في هذه السورة ـ سورة هود ـ هو أطولها جميعاً »[1] ، وبهذا يندفع ما يورده المبشرون وأضرابهم من اتهام القرآن بالتناقض والاختلاف .

وإذا كانت قصص القرآن متكاملة فهي أيضاً متشابهة ، أي يشبه بعضها بعضا في المنهج والأسلوب والهدف ، فهي متشابهة في طريقة الأداء القائمة على اختيار المناسب لكل موضع تحقيقاً للعظة والاعتبار ، وهي متشابهة في الأسلوب البليغ الذي يتفرد به القرآن الكريم ، وهي متشابهة في الهدف الذي يرمي إليه من بعث الهداية والتأثير ، يكون ذلك عند تكرار القصة الواحدة كما هو بين القصص كله ، وكذلك تتحقق هذه المشابهة عند تكرار المعاني وإن اختلفت الألفاظ .

١٠ ــ وهنا نقف لحظة عند من يقولون إن القصص القرآني من المتشابه بذلك المعنى الاصطلاحي الذي يدور بين التفويض والتأويل جريا منهم وراء الذهاب في نصوص القصص مذهب التفويض والتأويل حسبما يرغبون من فروض يفرضونها على القرآن لا يمكن أبداً أن تقبلها نصوصه وأساليبه القصصية ، يعلم ذلك من وقف عند قوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وقوله : « الرحمن على العرش استوى » وقال إنه من المتشابه الذي يجري فيه التسليم أو التأويل ، وأن ظاهره مما يتنافى مع التنزيه ، وأنه يفهم على طريقة التمثيل أو المجاز [2] .

أما القصص القرآني فليس من هذا الباب ، إذ ليس في نصوصه ما يستوجب هذا التأويل ، ولم يقل الشيخ محمد عبده ولا غيره من الثقات إن القصص من المتشابه بذلك المعنى الدائر بين التفويض والتسليم ، وإنما عرض الشيخ محمد عبده في تفسير المنار لقصة الخليفة وأوّل فيها ، لا من حيث أنها قصه وإنما قال ما قاله هناك لأنه

(١) راجع تفسير المنار : ج ١٢ ص ١٠١ ، وتفسير الرازي : ج ٥ ص ١٦ .

(٢) راجع تفسير المنار : ج ١ ص ٢٥٢ .

رأى أنها من الآيات المتشابهات التى لا يمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة ، وذلك محال على الله ، وإما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم و محاجة وجدل ، وذلك لا يليق بالله أيضا ولا بملائكته ، ولا يُجامع ما جاء به الدين من وصف الملائكة بكونهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[١] ، فالأستاذ الإمام لم يُؤوِّل فى هذه القصة إلا لمجرد أنه جاء فيها ما ينافى ظاهره التنزيه والعصمة ، وهـذا شأن عام فى كل ما جاء على هـذا النحو من قصص وغـيره ، ولا ريب أن القصص القرآنى لم يجىء كله ولا معظمه على هذا النحو المخالف بظاهره لما يجب لله من تنزيه حتى يصح إجراء التأويل فيه ، وسنفرد فيما بعد مقالا لقصة الخليفة وكيف وقف منها الأستاذ الشيخ محمد عبده .

ويجدر بنا هنا ـ كما يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ـ أن نشير فى إيجاز إلى فرق واضح بين ما يكون تأويلا ، وما يكون على خلاف الواقع : « فالتأويل أن يُصرف اللفظ عن ظاهره المعروف إلى معنى آخر ثابت مقرر قريبا كان أو بعيدا ، فيكون هناك معنى يحمل اللفظ عليه ، ومثاله أن يفسر النمل مثلا فى قصة سليمان بقبيلة ضعيفة ، أو يفسر إحياء الموتى فى قصة عيسى بتعليم الجاهلين وإرشاد الضالين ، أو تفسر الكواكب فى قصة إبراهيم بجواهر نورانية نورها عقل لا حِس ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباطنية ، أو يفسر « والسموات مطويات بيمينه » بالاستيلاء والتمكن والقوة ، كما هو مذهب أهل البيان ، فاللفظ فى كل هـذا له معنى عند المؤوِّل وإن كان غير ظاهره ، أما فى مثل القصة التى يقال فيها إنها لا تتحرى الصدق ولا التعبير عن واقع حدث ، وإنما يراد بها مجاراة واقع نفسى لأحدٍ من الناس ، أو يراد بث غرض من الأغراض التى تترتب على مضمونها ، فليس هذا بتأويل ، لأن ألفاظ القصة على هذا لا تعبر عن معنى من المعانى لا ظاهراً ولا تأويلا »[٢] ؟

---

(١) تفسير المنار : ج١ ص٢٥٢ وما بعدها . وتعليق للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت من تقرير له ، وذلك عند تفسير المنار للآيات الكريمة : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » من سورة البقرة . (٢) من تقرير للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت بشأن مشروع رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » .

١١ — وإذا كان المبشرون ومن لف لفهم يطعنون فى صدق القصص القرآنى ويدّعون لذلك أنه مخالف للتاريخ القديم من جهة ، ولما فى التوراة والإنجيل من جهة ثانية ، ثم يستغلون اسم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده استغلالا جاهلا كاذباً فى هذا المجال ، فقد آن الأوان لتناول هذا الجانب من البحث فى هذه الفصول .

إلى أى مدى يصح لنا الاعتماد على التاريخ لنحكمه فى قصص القرآن ؟ كان المعقول أن نتخذ من التاريخ الوثيق مقياساً نحتكم إليه فى بيان القيمة الواقعية الحقة لقصص القرآن ، ولكن صحة المنهج تقضينا أن نوثق التاريخ أولا ، وأن ننتهى إلى أنه حق مطلق لا تحريف فيه ولا تبديل ، وهنا نسير مطمئنين فى ضوء الحق اليقين لنقيس عليه القصص القرآنى ونفصل فى قيمته التاريخية ، ولكن أنىّ لنا هذه الثقة الحاسمة فى أخبار التاريخ القديم الذى لم يُدوَّن فى حينه ، ولم تستكشف وثائقه ومصادره ، وإن ما يروى منه نتف مضطربة ، وأساطير تافهة ، وروايات مخلطة ، لا تنتهى أبدا إلى يقين يمكن الاطمئنان إليه أو الاعتماد عليه فى تحقيق صور الماضى واتخاذها مقياساً حاسماً نحتكم إليه فى بيان صدق القرآن أو ضد ذلك .

وعن هذا التاريخ القديم نجد الرازى عند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعون ياهامان ابنِ لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى »[١] يورد الاعتراض على هذه الآية بأن هامان لم يكن موجوداً زمن موسى وفرعون ، ثم يقول : « والجواب أن تواريخ موسى وفرعون قد طال بها العهد واضطربت الأحوال والأدوار ، فلم يبق على كلام أهل التاريخ اعتماد فى هذا الباب ، فكان الأخذ بقول الله أولى »[٢] .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد عبده عن حال التاريخ قبل الإسلام : « كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى » يقول هذا الكلام فى نسبة قصص القرآن إلى التاريخ ، وقبل ذلك قال : « يظن كثير من الناس الآن ـ كما ظن كثير من قبلهم ـ أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن

---

(١) غافر : ٣٦ ، ٣٧ . (٢) تفسير الرازى ج ٧ ص ٢١٨ .

تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة » ثم يقول فى هذا الشأن نفسه : « وإذا ورد فى كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره الصادق ، وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطىء أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه » ويقول : « وقد قلت لكم غير مرة إنه يجب الاحتراس فى قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء ، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين ، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشىء من تاريخ تلك الأزمنة التى يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحرى والبحث واستخراج الآثار ، فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التى لا يوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته »[1] .

ونحن مع ذلك لن نغلق باب الجدل فى وجه المعارضين ، فليأتوا بدليل يثبت دعاواهم إن كان عندهم دليل ، أما أن يعكسوا الوضع ويفرضوا على القرآن تهماً من عند أنفسهم ، ثم يلجئوا إلى آى الذكر الحكيم فيتعسفوا فى فهمها ، وإلى أقوال العلماء فيفهموها خطأ أو يحرفوها ويبتروها ويزوروا فيها - كما سترى - فإن ذلك لا يستحق الوقوف عنده ، ولا الاستماع إليه .

١٢ — أما عن التوراة والإنجيل ومكانهما من التوثيق ، وما عسى أن يكون لهما من حجية فى هذا السبيل ، فإن الأمر فيهما سهل نترك الكلام فيه لأصحابهما وقبل ذلك أرجو أن يلاحظ القراء أن ما أورده هنا ليس إلا نقطة صغيرة جدا مما نشر فى هذا الموضوع ، ولم يقصد به مهاجمة أهل الكتاب ، وإن كان يحتمه البحث العلمى المنصف المستنير ، ونبدأ بالتوراة .

يعترف القرآن الكريم بالتوراة كما أنزلت على موسى ، أى فى صورتها الأصيلة

---

(١) تفسير المنار : ج ١ ص ٣٤٧ .

غير المبدلة ، وسأترك شهادة القرآن بذلك الآن ، وأورد ما قاله العلماء الغربيون أنفسهم ، فالتوراة عبارة عن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم : تكوين - خروج - لاويون - عدد - تثنية . فالسفر الأول يتناول قصة خلق العالم ، والثاني خروج بني إسرائيل من مصر وفيه الوصايا العشر من صورتين مختلفتين يرجح أنها ليست لموسى ، وسفر اللاويين خاص بالطقوس الدينية وهارون وأبنائه ، وسفر التثنية أو تثنية الشريعة أو إعادتها . ولم يصلنا هذا السفر في صورته الأولى ، بل تناولته يد التغيير والتبديل ، والنص الموجود يدل على أنه خليط من نسخ متنوعة مختلفة ، ويرجح أن تأليفه كان بعد عصر النبوة ، ولا يوجد في التوراة التي بين أيدينا خبر يدل على أن موسى هو الذي جاء بها ، أو أنها هي التي أنزلت عليه ، بل على النقيض من ذلك يوجد فيها ما يؤيد عكس ذلك[1] ، من ذلك ما جاء في الآية السادسة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية عن وفاة موسى : « ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا » فبعيد كل البعد أن يكون هذا الخبر صادراً عن موسى نفسه ، وفي الآية العاشرة من نفس الإصحاح : « لم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى » وبعيد جداً أن يكتب موسى عن نفسه في الآية الثالثة من الإصحاح الثاني عشر من سفر العدد فيقول : « وأما الرجل موسى فكان حليما جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » فمثل هذه الآيات تدل على أن المؤلف شخص آخر غير موسى .

وقد أثبت النقد العلمي الذي نهض به ربانيو اليهود أن التوراة التي بين أيدينا ليست من تأليف شخص واحد ، ونتيجة هذا وغيره أن التوراة ليست من الثقة بحيث يحتج بها على قصص القرآن ويحتكم في قيمه إليها .

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم بعد ما سبق نجده يقول في سورة الأنعام : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون

---

(١) رجعت في هذا الفصل إلى مجلة لواء الإسلام عدد ٩ من السنة ٤ للأستاذ عبد الوهاب حمودة .

كثيراً »[١] وفى سورة آل عمران : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون »[٢] . يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسير هذه الآية : « إن ما يحفظونه من الكتاب هو جزء من الكتاب الذى أوحاه الله إليهم ، وقد فقدوا سائره ، وهم مع ذلك لا يقيمونه بحسن الفهم له والتزام العمل به ، ولا غرابة فى ذلك ، فالكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام التى يسمونها بالتوراة لا دليل على أنه هو الذى كتبها ، ولا هى محفوظة عنه ، بل قام الدليل عند الباحثين من الأوربيين على أنها كتبت بعده بمئات السنين » ويقول القرآن الكريم : « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[٣] .

١٣ — كذلك يعترف القرآن الكريم بالإنجيل ، ولكن فى صورته الأصلية التى أوحيت إلى عيسى عليه السلام ، ولم ينلها التبديل والتحريف : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور »[٤] . والأناجيل كثيرة جداً ، حتى قيل إنها بلغت نيفاً ومائة إنجيل ، ولكن الكنائس والمجامع الدينية المسيحية تعترف بأربعة منها ، هى : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، ولم يكتب شىء من هذه الأناجيل ولا غيرها فى زمن المسيح عليه السلام وفى حياته ، فهى منقطعة السند ، ولا توجد نسخة إنجيل بخط من تلاميذ ذلك المؤلف . يقول (هورن) فى تفسير التوراة فى الفصل الثانى بالقسم الثانى من المجلد الرابع : « إن الأخبار التى يقصها المؤرخون القدامى للكنيسة عن تأليف الأناجيل بتراء وغير موثوق بها ، بل هى هزيلة جداً ، حتى لايستطيع الباحث أن يستخلص منها أمراً معينا أو يصل إلى نتيجة ما ، والشيوخ القدماء الأولون صدقوا هذه الروايات الواهية وكتبوها ، وجاء الذين بعدهم فقبلوا

(١) الآية : ٩١ . (٢) الآية : ٢٣ . (٣) راجع تفسير الكشاف ج ١ ص ١٩٧
(٤) المائدة : ٤٦ .

ماوجدوه مكتوباً تعظيما لسلفهم ، على أن ما فى تلك الأناجيل من الأخبار والقصص بعضها باطل ، وبعضها صادق ، وبعد مضى مدة اعتبرت كأنها فوق النقد ، [١] ، ثم يُثبت أن تلك الأناجيل كتبت بعد المسيح بأزمنة بعيدة ، وتقول دائرة معارف الكتاب المقدس (ص ٤٩٨٠) من المجلد الرابع : « إن العهد الجديد كتبه كتاب مسيحيون للمسيحيين ، هذا وإنه كتب باللغة اليونانية ، وكان أسلوبه باللغة الدارجة وإن ما بين الأناجيل من التناقض مع ذلك لم يكن اتفاقا ومصادفة ، بل كان عن قصد وعمد ، والظاهر أن يد التغيير فى نصوصها قد امتدت إليها من عهد قديم منذ طفولتها ، والحق الذى ينبغى أن يقال إن العهد الجديد لم يكن يعتبر منذ نشأته أنه كتاب موحى به ، لذلك كانت التنقيحات التى تتناوله يقدم عليها فى غير ما تردد ، ولا تحرج كلما دعت الضرورة إلى ذلك » وكتب (موريس غوغويل) من علماء فرنسا يقول : « إن كثيراً من روايات الأناجيل غير واقعية ، بل مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد ، وإن هذا فى واد ، والتاريخ فى واد » .

والتناقض شائع بين الأناجيل ، نذكر منه مثالا واحداً هنا ، فقد ورد فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١ : أرسل اليهود الكهنة واللاويين إلى يوحنا (يحيى) ليسألوه من أنت ؛ فقالوا له : هل أنت إيليا ؟ فقال لهم : لست إيليا ، وقال متى ص ١١ : إن المسيح قال إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى ، يريد بذلك يوحنا (يحيى) وقال متى أيضاً ص ١٧ : وسأله تلاميذه قائلين : فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغى أن يأتى أولا ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : إن إيليا يأتى أولا ويرد كل شىء ، ولكنى أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا ، كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم ، حينئذ فهم المسيح أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) .

فأى النصين نصدقه : قول يحيى الذى قال إنى لست بإيليا وهو رسول لا يكذب أم قول عيسى الذى قال إنه إيليا ؟ وهذا من أثر المصنفين .

---

(١) راجع فى فصل الإنجيل بمجلة لواء الإسلام سنة ٤ عدد ١٠ للأستاذ عبدالوهاب حمودة .

ويقول القرآن الكريم : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »[1] ، وقال عن اليهود : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا »[2] ، ويقول : « يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل »[3] ، وهكذا ليس الإنجيل من الثقة متنا وسندا حتى يحتج به على قصص القرآن كما يدعى المغرضون .

١٤ — ننتهى بعد ذلك إلى القرآن الكريم لنعرف مكانته فى التوثيق أولا ، وموقفه من التاريخ والتوراة والإنجيل ثانياً ، ورأيه فى قصصه ثالثاً .

وقد بينا منذ حين أن التاريخ القديم الذى يوازنونه بالقرآن ، ويريدون أن يحكموه فى قصصه ، هذا التاريخ لا يمكن الاعتماد عليه أو الثقة به ، فلا سلطان له على القرآن ، ويبقى القرآن بذلك صادق القصص واقعى الأنباء ، ولا سيما أنه وثيق المتن والسند ، كذلك كان موقفه من التوراة والإنجيل ، فهو قد أثبت عليهما التغيير والتبديل ، وأيده فى ذلك ما قاله علماء اليهود والنصارى ، وإذاً فلا قيام لشبهة يوردها المبشرون وأضرابهم على قصص القرآن وتاريخه ، كما لا قيمة لما يوردونه على تشريع القرآن وعقائده ، فالقرآن مهيمن على كل ما سواه من تاريخ وكتب سماوية ، وهو مصدق لها فيما لم يحرف ، ومبين لما كانوا يخفون ويحرفون : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب »[4] ، « إن هـذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيـه يختلفون »[5] ، « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه »[6] .

والقرآن يقول عن قصصه كثيراً ودائماً إنه القصص الحق ، ويقول عن الرسل : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه »[7] .

---

(١) المائدة : ١٥ . (٢) البقرة : ٧٩ . (٣) المائدة : ٦٨ . (٤) المائدة : ١٥ .
(٥) النمل : ٧٦ . (٦) المائدة : ٤٨ . (٧) يوسف : ١١١ .

١٥ — ولسنا في حاجة إلى الكلام في توثيق القرآن لولا أننا نكتب هذا سداً لحاجة المنهج من وجه، ولمن يريد أن يلم بذلك ممن لم يستوعبوا تاريخ القرآن، ذلك أن الله تعالى قد تكفل بحفظه: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[1]، «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[2]، لذلك توافرت له كل أسباب الحفظ، وتكاملت له عوامل الصيانة، فبقى كما أنزله الله على محمد لم ينله تغيير ولا تبديل[3].

فقد كان للرسول كتاب يكتبون الوحى بين يديه على أثر نزول الآيات، ومن أشهرهم زيد بن ثابت شيخ هؤلاء الكتاب، وكان الرسول حريصا على ألا يفلت شيء منه، فكان يحرك به لسانه وشفتيه حرصا على حفظه، فأنزل الله عليه: «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه»[4] كما كان يشجع القراء على حفظ القرآن ويحتم على الناس قراءة شيء منه في الصلاة، وهكذا جُمع القرآن في حياة الرسول أول ما جمع كاملا وثيقاً، ولما توفى عليه الصلاة والسلام وكانت حركة الردة وقتل فيها كثير من القراء أمر أبو بكر زيد ابن ثابت لجمع القرآن مما كتب فيه من العسب واللخاف، مستأنسا بما حفظ الحافظون، وبجل القرآن في صحف بقيت عند أبي بكر فعمر فابنته حفصة حتى أخذها عثمان وعمل على كتابة عدة مصاحف وزعها بين بعض الأمصار الإسلامية، وهي التي بقيت صورتها إلى الآن، ويقول الناس دائماً المصحف العثماني لذلك.

وخلاصة هذا البحث أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتحاكم إلى التاريخ القديم ولا التوراة والإنجيل، إذ ثبت أنه الثقة الحجة، وأنه هو الذي يهيمن على ما سواه وأن قصصه حق لا شك فيه، وأن الشك فيه ضلال كبير لا يليق بمسلم ولا بعالم، ولننقل بعد ذلك في المنهج السليم لدراسة القصص القرآني، ثم في مادته وما يدور حولها من شبهات ؟

---

(١) الحجر: ٦. (٢) فصلت: ٤٢. (٣) راجع مجلة لواء الإسلام سنة ٤ عدد ٨ للأستاذ عبد الوهاب حمودة. (٤) القيامة: ١٦.

تعريفٌ بالقرآن

للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء
ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بريرى

هـذا بحث تمهيدى لدراسة شاملة وفاها حقها شيخنا الجليل العلامة الكبير الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز أحله الله دار المقامة مع الصديقين والشهداء والصالحين .

نظر الأستاذ فى كتب علم الأخلاق التى يضعها علماء الغرب ، فوجدهم يتخذون بداية : لهم الوثنية الإغريقية ، فإذا خلصوا من مفكريها وفلاسفتها ومفهوم الأخلاق عندهم ، انتقلوا إلى الأخلاق عند اليهود لينتهوا إليها فى المسيحية ، فهى مراحل ثلاث يقفزون بعدها بغتة إلى العصر الحديث مغفلين الإسلام والقرآن إغفالا تاما .

وإنها لخسارة كبيرة على الفلسفة والأخلاق والفكر الإنسانى عامة ، ونقص يجب أن يستكمل .

لهذا فرّغ الأستاذ نفسه لذلك الأمر ـ وهو له أهل ـ فأخرج بالفرنسية سفراً ضخما سماه : « الأخلاق فى القرآن » ، وهو دراسة نظرية عملية مقارنة ، لم يترك فيها نظرية أخلاقية قال بها « كانت » ، أو « برجسون » ، أو غيرهما من أعلام الفلسفة حادثها والقديم إلا ناقشها مناقشة محيطة ، ثم قفى بالحل القرآنى بوصف كونه الحل المثالى الصالح لبنى الإنسان فى كل زمان ومكان .

استخرج الأستاذ « النظرية الأخلاقية » و « المجموعة الخلقية » من الكتاب المبين ، ولكنهم فى « السربون » يبتغون إليه أن يعرفهم بالكتاب كله فعسى أن

يكون فى أجزائه الأخرى ما يمس الموضوع الذى سيناقشونه فيه ليحصل على الدكتوراه فكذلك كان التدبير .

وإنه لأقل ما يقال في البحث التمهيدى والدراسة الأصلية : إن الأستاذ حصل بهما على الدكتوراه من جامعة باريس ، إذ واقع الأمر أنهما سدا فى الدراسات الإنسانية العليا ثغرة كان الشيخ حقيقاً أن يسدها ، إنها لإضافة عظيمة إلى المعرفة ، بل هو عمل ضخم لا يتصدى لمثله غير أفراد من ذوى العقول الأصيلة ، وهو ضرب من الرجال جد قليل . [أحمد محمد بريرى]

* * *

هذا وقد بعث إلينا فضيلة الأستاذ الشيخ السعيد شريف المدرس بمعهد القاهرة صهر المرحوم الدكتور دراز وأحد تلاميذه بهذه النبذة المختصرة عن تاريخ حياته ، لتكون بين يدى هذا البحث ، وليفيد منها من أراد .

ونحن ننشرها فيما يلى ، ثم نورد البحث .

قال فضيلة الأستاذ السعيد شريف :

ولد المغفور له الأستاذ الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ ، فى قرية محلة دياى بمحافظة الغربية وحفظ بها القرآن قبل أن تبلغ سنه عشر سنوات ، وانتقل إلى الإسكندرية فى أوائل سنة ١٩٠٥ ، ثم حصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩١٢ ، وكان أول الناجحين فيها ، وحصل على الشهادة العالمية النظامية سنة ١٩١٦ ، وكان أول الناجحين فيها أيضا ، ثم عين مدرسا بمعهد الإسكندرية عقب تخرجه ، وبدأ يستغل بدراسة اللغة الفرنسية فى المدارس الليلية حتى كان أول الناجحين فى شهادة القسم العالى منها سنة ١٩١٩ ، ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حبا فى المظاهر ، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع ، فكان يطوف مع أفواج من الشباب الوطنى على السفارات الأجنبية سنة ١٩١٩ ، ويعرض قضية بلاده بهذه اللغة ، وكان يدافع بها عن حقائق الإسلام فى جريدة الطان ، وفى سنة ١٩٢٨ اختير للتدريس بالقسم العالى بالأزهر ، ثم بقسم التخصص سنة

١٩٢٩ ، ثم بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٠ ، ثم فى قسم التخصص بها ، وفى سنة ١٩٣٦ سافر لأداد فريضة الحج ، ثم عاد ليجد الاختيار قد وقع عليه ليسافر إلى فرنسا فى بعثة أزهرية ، والتحق بكلية الآداب بجامعة السوربون ، وحصل على الليسانس سنة ١٩٤٠ ، ثم اشتغل بتحضير رسائل الدكتوراه ، فألف رسالتين باللغة الفرنسية عن القرآن وآدابه حصل بهما على الدكتوراه برتبة الشرف العليا فى أواخر سنة ١٩٤٧ ، مع تبادل الرسالتين ، وعاد إلى مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ ، فندب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة ، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء بالأزهر فى سنة ١٩٤٩ ، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم ، واللغة العربية بالأزهر ، وتدريس فلسفة الأخلاق فى كلية اللغة العربية أيضا ، وفى سنة ١٩٥٣ اختير عضوا فى اللجنة العليا لسياسة التعليم ، كما اختير عضوا فى المجلس الأعلى للإذاعة ، وفى اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر ، إلى جانب اختياره فى المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر والأزهر ، وكانت آخر رحلة له رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامى فى مدينة لاهور حيث وافاه الأجل بين أعضاء المؤتمر من جميع أنحاء العالم .

وكان ينفق وقته فى الدرس والبحث والتأليف، بالعربية وبالفرنسية .

ومن كتبه : النبأ العظيم ، وهو نظرات جديدة فى القرآن ـ والمختار فى الحديث ـ ونظرات فى الإسلام ـ والصوم ـ والمسئولية فى الإسلام ـ وكلمات فى مبادىء الفلسفة والأخلاق ـ وتفسير بعض سور وأجزاء من القرآن الكريم .

وله باللغة الفرنسية : كتاب الأخلاق فى القرآن ـ وكتاب التعريف بالقرآن .

ومن بحوثه باللغتين معا : مبادىء القانون الدولى العام فى الإسلام ـ والربا فى نظر القانون الإسلامى ـ والأزهر الجامعة القديمة والحديثة .

فضلا عن مقالاته الممتعة الغنية بالثقافة الواسعة فى المجلات العلمية والأدبية والصحف اليومية ، ومحاضراته التى كان يطالع بها المسلمين فى الإذاعة ويقدم بها آى القرآن الكريم ، وغير ذلك من الأحاديث الدينية والاجتماعية التى تهدف إلى إصلاح المجتمع وفقا لمبادىء الإسلام وآدابه ؟

والآن نور ما تمت ترجمته من هذا البحث القيم لفضيلة المغفور له الدكتور دراز ، راجين أن نتابع نشر ما يتم ترجمته السيد الأستاذ أحمد بربرى فى الأعداد القادمه إن شاء الله تعالى .

— ١ —

فى وسعنا أن ندرس القرآن من جهات جد مختلفة ، إلا أنها يمكن أن تنتهى إلى اثنتين ، هما : اللغة والفكرة ، فالقرآن فى وقت واحد ، وبنسبة واحدة ، رائعة أدبية ، ودعوة دينية ، وبوصف كونه عملا فنيا لسانيا بلاغيا تفترض دراسته - إلى حد كبير - معرفةً عميقة باللغة العربية التى صيغ فيها النص .

وبالنظر إلى أن أغلبية الجمهور الجامعى الأوربى الذى نتجه إليه أصلا بالخطاب لا يألف تلك اللغة لن ينصبّ أكبر جهدنا على هذا النحو الذى يأتى فى المحل الثانى من حسابنا وسيلة إعلاء ودعم لسلطان التوجيه الذى يحتويه القرآن ، ولكن ثم وجهة أخرى لا تتطلب غروبة أو عربية كيما ندرس القرآن دراسة مثمرة : أريد ذلك الكنز من الفكر الذى نكتشفه فى أضواء الصورة الأدبية للقرآن ، والذى يكفى أن نعرض فيه لثلاث مجموعات :

أولاها : طبيعة رسالته ، مجموعة الحلول التى يقترحها حسما للشكلتين الأبديتين : العلم والعمل .

ثم وسائل الإقناع التى يعمد إليها لتأسيس حقيقة تلك الرسالة . . .

وأخيراً منهجه فى التدليل على الطابع القدسى الإلهى الذى ينسبه إلى رسالته .

فنى كل وجهات النظر أولئك يمكن فى الواقع دراسة القرآن مستقلا عن حرفه العربى بشرط أن تكون لدينا ترجمة جيدة [١] ، وفى هذه الدراسة المستقلة نريد أن نسهم بعملنا هذا .

والحقيقة أن الهدف الأصلى لدراستنا إنما كان استخلاص القانون الأخلاق القرآنى ، بغض النظر عن كل ما يصل هذا القانون بسائر الكتاب ، ولكن قبل استخراج هذه الخلية الحية من جهازها العضوى الذى هو الرسالة القرآنية ، وعلاجها منعزلة ، وذلك عمل خصصنا له سفراً آخر ، رأينا أنه عدل ومنفعة أن نقدم الخطوط الكبرى لهيكل تلك الرسالة فى وحدتها التى لا تقبل القسمة . وكذلك يتبين المكان الذى يشغله العنصر الأخلاق من النظام المتكامل ، ومن أجل هذا سنلق على الهيكل القرآنى نظرة سريعة حقا إلا أنها عميقة بما يكفى لتمييز الأفكار الأمهات فى كل من أجزائه ، وواسعة بما يكفى لاستيعاب المظهر العام للمناهج المستعملة والغايات .

وبغض النظر عن بعض المعلومات التاريخية الضرورية التى أضفناها استجابة للرغبة الحقة التى أبداها مسيو « موريس باترودنيس جاندهالك » الأستاذ بجامعة السربون ، فإن الموضوع الأساسى لهذا المؤلف هو أن نعرض للرسالة القرآنية فى مجموعها ، كما تتبدى هى نفسها لا كما فهمت أو فسرت أو طبقت بأمانة وافية أو قاصرة خلال التاريخ ، وسيصادفنا فى سيرنا لمناسبة هذا الكتاب المقدس ، إما أحكام قاسية يجب أن تعدل ، وإما استنباطات متعجلة يجب أن تقوم ، على أن الأصل الذى التزمناه هو أن نترك النص القرآنى نفسه يتكلم ويتولى هو الدفاع عن نفسه وتعليله فإن تدخلنا لا يعدو ـ على وجه التقريب ـ التجميع والربط فى تسلسل منطقى لأجزاء تلك المرافعة ، تاركين للقارىء مهمة الحكم فى الصحة التاريخية والفلسفة للتدليل .

(١) بالرغم من أنه حتى الآن لا نجد ترجمة فرنسية خالية من الشوائب ، فإنه يبدو أن القوم يسعون حاليا فى هذا الاتجاه ، وسلفا يمكن الإفادة من ترجمتى « كازيمرسكى » و « بيسل تيجانى » بإصلاح كل منهما بالأخرى ، فبين يدينا عناصر ترجمة هى فى الأغلب الأعم مبقية بما فيه الكفاية على أمانة النص ، نحيل القارىء إذن على هاتين الترجمتين ما دمنا لا نجد خيراً منهما ، ونوجه نظره إلى أن كل المترجمين ينقلون عن طبعة القاهرة العربية فيما يتعلق بأرقام الآيات ، وإلى تلك الطبعة نرجع « الرقم الرومانى يتعلق بالسورة ، والعربى بالآية » .

إنها إذن دراسة موضوعية بقدر ما يستطيع المفكر أن ينفصم عن أحواله الذاتية ، على أننا إذ نمثل - أو نلعب - دور البطل ، لا بد لصيغنا من أن تتقمص شخصيته إلى حد ما ، ولهجته الحازمة ومضاءه الإقناعي . فذلك كانعكاس يلقيه الأصل على مرآته وليس محولا جديداً فى جوهره مرده إلى نهجنا التفكيرى .

ويجب أن يلاحظ أننا إذ نستخرج الفكرة القرآنية من غلافها ، ونستخلصها كذلك من بيئتها المحلية لتجد لها متسرباً إلى العقول التى لم تألف اللغة العربية لا نفعل أكثر من أن نرد لها جزءاً من مقدورها الحقيق ، فالقرآن يستشهد - فى إصرار - العقل وسلامة الإدراك والعواطف الإنسانية أشدها عمومية ، إنما يخاطب فى واقع الأمر الإنسان فى أى مكان من الأرض كان ، وأيا كان الجنس الذى ينتمى إليه . . إنه لتوجيه عالمى يريد الأخلاق على أن تصفو ، والعقائد على أن تستنير وتصطلح ، فتسقط حواجز الجنسيات ، وعصبية القوميات ، ويستبدل بقانون « حق الأقوى » قانون الحقيقة والعدالة .

زيادة على الإسهام فى عمل الفلسفة العالمية ، ترى أى معونة نفيسة : فى هذا السباق الجنونى إلى السلطان والقوة المدمرة الذى يجتاح عصرنا ؛ يمكن أن تحققها دراسة مثل تلك الرسالات القويمة .

الجزء الأول : مقررات تاريخية تقديمية :

قبل أن ندخل فى تحليل منهجى لكتاب الإسلام المقدس يجب أن نذكر الأحوال التى ظهر فيها ، والمراحل التى اجتازها كى يصل إلينا :

أولا : بعض النوازع المتعلقة بحياة النبى السابقة : مادام تاريخ كل منهما - القرآن والنبى - مرتبطا بالآخر ارتباطا لا انفصام له . . ومهما يكن الرأى فى الأصل الإلهى أو الإنسانى للقرآن ، فإن أحداً لا يشك من حيث التاريخ أن القرآن محول محمدى ، سواء أكان استقاه كما يقول غير المؤمنين من أعماق روحه أو من معارف بيئته ، أم كان تلقاه نصاً كما يؤكد القرآن منجما بإملاء رسول سماوى وساطة بينه وبين الله تعالى إنه الروح الأمين « سورة ٢٦ الآية ١٩٣ » إنه الملك جبريل « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين « السورة ٢ الآية ٩٧ » .

وما دمنا لا نستطيع عن الطريق التجريبي أن نصل إلى هذا المصدر فوق الإنساني فنحن في النهاية آخذو النص من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، سواء أكان مؤلفه الحقيقي أم ناقله الوحيد وموصله إلى الإنسانية .

الباب الأول : حياة النبي السابقة :

بالنظر إلى تلك الصلة الوثيقة بين الرسول ورسالته ، وإلى أن مؤلفنا مخصص لخطاب بيئات قليلة الألفة لترجمة الرسول العربي سنبدأ برسم صورة مصغرة للرسول منذ طفولته إلى أن كلف عمله العالمي .

من هو إذن ذلك الإنسان ؟ إنه من أسرة جد مشهورة في مكة : قبيلة قريش من الفرع الهاشمي المعروف بشرف ديني أكبر منه سياسياً . . والسنة تصله بإسماعيل ابن إبراهيم عن طريق أجيال لا تعطينا توكيدا عنها من حيث العدد والاسم إلا إلى واحد وعشرين ، أي حتى عدنان ، أما الباقي فيغلفه الشك والغموض [1] .

ويقول الرأي الإجماعي لأصحاب الترجمة : إن محمدا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولد يوم الاثنين [2] في الأسبوع الثاني من الشهر القمري ربيع الأول من السنة التي

---

(١) معلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمتنع أن يصعد في سلسلة نسبه فيما فوق عدنان ، بل نعلم أنه كان يتهم النسابين بالضلال والمغامرة في هذه السبيل ، وإذا صدقنا أثرا ينتمي إلى ابن عباس « نهاية أنوار » فإنه يكون بين عدنان وإسماعيل ٣٠ جيلا مجهولا ، وهذا يجعل إسماعيل الجد الواحد والخمسين لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن ما دام مسلما عامة أن عهد إبراهيم يقع بين القرن العشرين والقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، فإنه يجب أن نفترض على الأقل ٢٢٦٠ سنة بين إسماعيل وعبد الله والد محمد صلى الله عليه وآله وسلم « إسماعيل مفروض أنه ولد سنة ١٧٢٠ قبل الميلاد ، وعبد الله في سنة ٥٤٠ بعد الميلاد » فواضح أن الواحد والخمسين جيلا المشار إليها في هذا الأثر لا تكفي لملء هذا الفراغ ، إلا إذا حسبنا الجيل ٤٤ سنة بدل ٣٣ في المتوسط .

(٢) مع الإجماع على الاثنين من ربيع الثاني يتردد الأثر ما بين ٨ ، ١٠ ، ١٢ من الشهر ، والعالم الفلكي المصري محمود باشا الفلكي في مذكرته عن التقويم العربي قبل الهجرة ص٣٨ ، يحدد لميلاد النبي على وجه الدقة ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٣١ من =

سميت سنة الفيل ، يعنى هذه الغزاة لأرض الحجاز التى قام بها - وأخفقت - نائب ملك اليمن أبرهة تحت ظل الحكم البيزنطى بجيش كان فيه أكبر فيل فى المملكة الحبشية ، والعلماء الحائزون على أكبر الثقة يجعلون هذا التاريخ موازيا ٥٣ قبل الهجرة ، أى ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام .

ولد محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتيما « سورة ٩٣ آية ٦ » إذ توفى أبوه عبد الله لسبعة أشهر قبل ميلاده ، وكما يقضى العرف الذى أقره وجهاء المدينة بتنشئة الطفل فى هواء البادية الصحى ، عهد به إلى مرضعة بدوية : حليمة السعدية حتى سن الرابعة . ثم تكفلت بتربيته أمه آمنة تعاونها أمة حبشية هى أم أيمن ، إلا أنه لم يستمتع طويلا بحنان الأمومة ، فقد ماتت أمه فى سنته السادسة ، فضمه جده عبد المطلب الذى كان يرعاه بمودة خاصة متنبئاً له بمستقبل عظيم ، وما إن يصل الثامنة من سنى حياته حتى يفقد جده فيتولاه عمه عبد مناف المكنى بأبى طالب ، وعلى الرغم من أنه يعول أسرة كبيرة ويعانى عسرا فى مركزه المادى يكن أبو طالب لابن أخيه حباً أبويا صادقا ، ويلاحظ أن شيئا من اليسر النسبى قد شمل الأسرة مذ دخلها هذا الغلام الصغير ، فكان يحرص على أن يكون دائماً بجواره ، وكان الصبى يبادله هذا الشعور ، فلا يرغب إلا فى العيش غير منفصل عنه ، وكذلك نرى محمدا فى سن الثانية عشرة يصحب عمه فى رحلته إلى سورية سنة ٥٨٢ لأعماله التجارية ، وبهذه الرحلة يتصل النبأ الشهير اتصلته الأولى بالوسط الدينى فى شخص زاهد مسيحى من بصرى

= التاريخ الحولى ، وهو فى هذا متفق مع سيلفستردى ساسى ، وإذا أدخلنا فى الحساب واقعة أن تحديد اليوم الأول من الشهور العربية لا يتبع عموما الاتصال الفلكى للقمر مع الشمس بل لا يتبع حتى إمكان رؤية الهلال ، ولكن يرتبط بعامل متغير جدا حسب أحوال الظواهر الجوية المحلية ، وهو الرؤية الأولى الفعلية للهلال بعد غروب الشمس أدركنا فى يسر لماذا تردد المترجمون القدماء بين تلك البضعة الأيام ، أما عن التوافق بين التاريخين القمرى والشمسى فإن المؤرخ الفرنسى « كوشان دى بير سيفال » يعطينا رقماً مختلفاً ، فهو يبدأ بافتراض اضطراب اعترى التقويم العربى حيناً قبل عهد النبى ، ولم يزل إلا بفضل تدخله صلى الله عليه وسلم ، ويعتقد العلامة الفرنسى أنه استطاع أن يرد تاريخ ميلاد النبى إلى يوم ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ ، من تاريخ ميلاد المسيح (كتابه عن تاريخ العرب جزء ١ ص ٢٨٣) .

« سورية » اسمه بحيرا ، فلقد لاحظ هذا الحبر فيما تروى الآثار أمارات أعلنتها النصوص المقدسة تلازم القافلة فى سيرها ، فدعا رجال القافلة إلى طعامه وأخذ يتفرس فى ملامحهم ليقابل بينها وبين ما يجده عنده فى الوثيقة التى يملكها فلا يجد وجهاً للمقابلة .. ولكنه أخيراً يسائل صاحبنا الصبي الذى وصل متأخراً .. ثم يقترب من أبى طالب ويقول له : إنه لمقدور لهذا الغلام أن يؤدى عملا عظيما فى العالم ، عد به فى أسرع وقت إلى بلدك ، واسهر عليه أبدا ، واحذر عليه خاصة اليهود الذين سيلحقون به ضرراً لو علموا عنه ما أعلم[1] .

معلوماتنا قليلة التفصيلات عن الرسول بين هذا التاريخ وتاريخ زواجه ، وإنما نعرف فى الجملة أنه قضى شبابه فى حال قريبة من الفقر ، يشهد بذلك القرآن « آية ٨ سورة ٩٣ » والسنة تبينه ، فلقد مات أبوه صغيراً فى حياة جده ، ولم يؤل إليه من ميراث أمه حين ماتت إلا أمة سوداء وقطيع من الغنم وخمس قلائص .. وكان أهم ما يشغله خلال تلك الحقبة فيما يبدو هو عمل الراعى ، وهو كما ينبؤنا فيما بعد عمل الأنبياء السابقين ، ومن بينهم موسى وداود ، ولكن الذى يميزه بين الشباب إنما هو أخلاقه المصفاة ، وفى المقام الأول عفته البالغة وبعده عن ملذات الشباب الرخيصة ، فطهره لا شك كامل . ولقد كان يوحى الرعاية الحية لكل من تجمعه به صلة ، والثقة التى كانت له فى قلوب أصحابه تشرح أو تعلل اللقب الذى أعطوه إياه : الأمين .. إن أخلاقا قوية كأخلاقه لا تلبث فى الغالب أن تسترعى إلى صاحبها انتباه الرأى العام ، لذلك تراه وهو لما يزل حدثا « فى نحو العشرين من عمره » يدعى ليجلس جنباً إلى جنب مع الرؤساء الكبار شيوخ القبائل فى حلف الفضول[2] ، وزواجه فى سن الخامسة والعشرين إذ يهيىء له فرصة لشىء من اليسر ، يكشف فى الوقت نفسه عن مزايا له صلى الله عليه وآله وسلم ليست أقل سموا ، فلقد كلفته خديجة ، تلك السيدة الفاضلة الغنية النبيلة الأرملة ذات الأربعين عاما ، عملا تجاريا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٥ .

(٢) كلمة فضول تعنى حرفيا التدخل الحميد ، وهذه الجمعية الملكية كان هدفها حماية الضعفاء ونصفة المظلومين ، وتحقيق السلام بين القبائل ضد من يحاول انتهاكه كائنا من كان .

أداه فى ذكاء وشرف أكدا عندها اللقب الذى حصل لوكيلها من ذى قبل ، وعلى الرغم من الفارق الذى يفصل بين وضعيهما الماديين رغبت إليه فى الزواج ، فقبل على ما بينهما من فرق السن ، وكذلك بقيت ربع قرن من الزمن زوجه الوحيدة التى لم يستطع غير الموت أن يفصلها عنه . . وما ينفك وفاؤه لذكراها يثير غيرة عرسه الفتية فيما بعد ، لقد كان زواجا جد سعيد جد مثمر ، فولدت له صلى الله عليه وسلم ولدين ، هما : القاسم وعبد الله اللذين ماتا فى سن صغيرة[1] ، وأربع بنات اعتنقن كاهن الإسلام : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وهذه الأخيرة ستصبح زوج على بن أبى طالب « الخليفة الرابع » واللتان تكبرانها مباشرة تزوجتا على التعاقب عثمان بن عفان « الخليفة الثالث » أما كبراهن زينب فقد بنى بها قبل الإسلام أبو العاص أحد بنى خالها وأسلم فيما بعد ، ولقد ماتت قبل أبيها بسنتين تاركة بنتها أمامة التى تزوجها على بعد موت فاطمة .

كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبا رحيما ، وزوجا وفيا عميق الحنان والبر بولده وحفدته ، كان يسعى على قدميه عدة أميال ليراهم ويقبلهم عند مرضعاتهم ، ويتركهم يتعلقون برقبته فى أثناء الصلاة ، ويقطع الخطبة ليستقبلهم ويجلسهم إلى جواره على المنبر ، ونحن نعرف مناقشاته مع بدويين من تميم فى شأن تلك العاطفة الأبوية[2] .

وإذا كان قد ناله شىء من الثراء نتيجة زواجه ، فلقد ظل دائماً بسيطاً متقشفاً ، ولم يستغل هذا اليسر إلا فى إشاعة السعادة فيما حواليه . . وكذلك من أجل أن يفى

---

(١) وفى المدينة فيما بعد ولد له صلى الله عليه وآله وسلم ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، ومات هو أيضاً قبل أبيه ببضعة أشهر .

(٢) يذكر البخارى مناقشتين فى هذا الصدد ، إحداهما مع الأقرع بن حابس الذى يرى الرسول يقبل حفيده الحسن ، فيقول هذا التميمى : إن لى من الولد عشرة ولا أقبل واحداً منهم ، فيجيبه الرسول : إن الله لا يرحم من لا يرحم ، وفى المناقشة الثانية يصيح بدوى آخر هو على الراجح قيس بن عاصم : أتقبل الصغار إنا لا نفعل ذلك أبدا ، فيجيب الرسول : ماذا أستطيع أن أصنع لك إذا كان الله حرمك كل عطف إنسانى « انظر أيضاً كتاب كوسان دى بير سيفال مسالف الذكر » ج ٣ ص ٣٣٦ .

بدين عمه أبي طالب الذى رعى طفولته يتكفل بإعانته فى تربية ابنه الأخير علىّ الذى يزوجه من فاطمة صغرى بناته .

إن أشهر عمل وقع له بين تاريخ زواجه وبين إعلان دعوته إنما كان حين بلغ الخامسة والثلاثين لمناسبة إعادة بناء الكعبة . نحن نعلم خطورة هذا الأثر الذى يمكن أن نعده المعبد الوطنى للبلاد العربية كلها ما دامت القبائل على اختلاف عبادتها تحيطه كلها بأعمق مظاهر الاحترام ، لذلك نراها جميعاً تحرص الحرص كله على أن يكون لها شرف الإسهام فى أعمال إعادة البناء . . وبنوع من تقسيم العمل أمكن إرضاء الجميع حتى وجدوا أنفسهم يوماً فى مواجهة العمل الذى لا يقبل القسمة : وضع الحجر الأسود المشهور ، إن أحداً لا يريد أن ينزل عن حقه فى أداء هذا العمل ولا يستطيع إنسان أن يمنع الخطر الداهم ، على أنهم قبل أن يلجأوا إلى تحكيم السلاح عقدوا مؤتمراً أخيراً تقرر فيه أن يحكموا ويرضوا بحكم أول من يدخل الحرم المقدس من باب بنى شيبة ، وتشاء المصادفة أن يكون الداخل الأول هو محمد ، وما إن رأوه حتى صاحوا : الأمين الأمين ، ولم تخب آمالهم فى انتظار الحل العادل فى سرعة بديهة ، وبما عرف به دائما من عدم المحاباة ، بسط محمد صلى الله عليه وآله وسلم رداءه على الأرض ووضع الحجر الأسود وسطه ، ورجا إلى الرؤساء ذوى الشأن أن يأخذ كل منهم بطرف من الرداء ، وأن يرفعوه معاً فى وقت واحد إلى العلو المطلوب ، ولما وصل الحجر كذلك إلى المكان الذى يجب أن يشغله تناوله هو ووضعه بيديه ، فرضى الجميع تمام الرضى ، وقر قرار السلام فورا .

فى هذه السن كان محمد جسما وعقلا وخلقاً رجلا فى تمام الرجولة ، وخلقه الذى تكون كذلك سيظل يلازمه حتى آخر حياته . ذو قامة ترتفع قليلا عن المتوسطة ، وهو مبنى بنية قوية ، عريض الصدر والمنكبين ، عظيم الهامة ، واسع الجبهة الصافية ، واسع الفم ، ينفرج عن أسنان بيض متباعد قليلا بعضها عن بعض ، غزير اللحية ، أسود الشعر يتموج فى ضفائر تنحدر قليلا إلى أذنيه ، أسود العينين مع حمرة ترتسم فى بياض الحدقة ، أبيض اللون متورده قليلا ، تجمع مشيته إلى الرشاقة الوقار ، يخيل إليك أنه يتكفأ من عل ، بسيط اللباس

النظيف المعتنى به ، ومع القناعة النادرة لا يحجم عن استعمال الطيبات من الأشياء إذا جاءت تلقائيا ، يحتمل المكاره والمتاعب دون أن يبحث عنها خاصة ، هادىء عادة ، قليل الكلام ، ولكن هذا القصد فى القول لا ينفى حسن تقبل أحاديثه ولا إحساسه الدعابة البريئة ، وحين أصبح الرئيس والسيد الوحيد للدولة لم يغره نشب هذه الدنيا ولا أموالها ، بل تناءى - فى إصرار - بنفسه وبذويه عن كل ضروب الترف من أى لون كان .

ولقد نرى انفجار معارضته الصريحة لمناسبة بعض المطالب المادية لأسرته التى أرادت شيئاً من زهرة هذه الحياة الدنيا وبريقها ، وأخيراً حتى الأشياء القليلة التى كانت فى حيازته لن يكون مصيرها أن يرثها ذووه بعده ، بل توزع بتمامها بعد وفاته على الفقراء .

هذا وتتجلى عظمته صلى الله عليه وآله وسلم فى الفضيلة الاجتماعية ، فهو ذو لطف ورقة مثاليين لا يتخليان عنه وهو فى أوج سلطانه ، لا يقطع الحديث أيا كانت منزلة المتحدث إليه ، ولا تبدر منه أية بادرة لإنهائه ، وليس هو الذى يسحب يده أولا من يد محدثه . . ومع ما يبدى من الحزم وعدم التحيز حين يطبق أحكام العدالة العامة تراه ماينفك متساهلا فى كل مايتصل بحقوقه الشخصية ، ويؤكد أنس بن مالك - أحد خدمه - أنه خلال السنين العشر التى خدمه فيها لم يوجه إليه لائمة قط ، ولا سأله عن البواعث التى من أجلها أدى هذا العمل ولم يؤد ذاك ، ولكنه إذا كان قد حي حتى الآن فى سلام مع الجميع ، عالماً كيف يكون محبوباً معجباً به فى كل البيئات فإنه لن يلبث أن يهيج العداء والمعارضة عند أولئك الذين لم يكونوا قصروا فى إعزازه ، إنه يشارف الأربعين عشية الحدث الحاسم الذى سيرسم لسيرته اتجاهاً جديداً ، ويكون تحولا حقيقياً فى التاريخ العام .

ولقد كان أول إرهاصات استعداده النبوى - كما يقول هو نفسه لعائشة - أن كل ما يراه فى النوم يتحقق حرفيا فى اليقظة فى وضوح يشبه فلق الصبح المبين ، ثم يحس رغبة فى العزلة فيقع اختياره على جبل حراء أو جبل النور شمالى مكة ، مكانا لخلوته هناك بعيداً عن وسط الرجس والفساد فى المدينة ، وبعيداً كذلك عن

كل الشواغل الدنيوية ، كان يحب أن يعتزل[1] فى غار يطل على معبد الكعبة المقدس وعلى الفضاء اللانهائى للسماء التى تمتد خلفه .. وها هو ذا فى إحدى الليالى فى ذلك السكون الشامل ، بالدقة يوم ١٧ من شهر رمضان ، فيما يروى لنا ابن سعد - فبراير سنة ٦١٠ من التاريخ المسيحى - محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتصل المرة الأولى بعالم الغيب بما هنالك ، فكانت تجربته الأولى لظاهرة الوحى بمعناه الصحيح ، وإن صاحب التجربة نفسه ليروى لنا كيف تم الأمر ، يعطينا إياه فى صورة حوار بين معلم وتلميذ : بينه وبين جبريل .

يقول الملك : اقرأ - أو اتل - فيجيب فى دهشة : لست ممن يعرفون القراءة ، فيغطه غطة تحتمل بصعوبة ، ويقول مكررا : اقرأ ، ماذا يجب أن أقرأ . ؟ كذلك يجيب فيسمع الأمر بالقراءة يتكرر مع غطة أعنف من الأولى ، كأنه يوقظ انتباهه إلى أبعد مدى ، ويلقن روحه كل هذا التكليف فوق الإنسانى الذى سيفرض عليه ولكن كيف أقرأ أو أتلو ؟ كذلك يجيب صاحبنا صاحب الخلوة وقد أخذه الرعب ، حينئذ يقرأ الملك أمامه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (١ - ٥ سورة ٩٦) ثبت هنا الكلام نهائيا فى ذاكرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخذ يكرره لنفسه ، ويختفى الملك ، ولكنه ما إن يخرج من الغار ليمم شطر مسكنه حتى يسمع صوتاً يناديه فيرفع رأسه وإذا الملك يملأ الأفق ويصرح له : يا محمد أنت حقاً رسول الله وأنا جبريل ، وعبثاً يحول بصره ، فحيثما تقدم أو تأخر لا يستطيع أن يشخص ببصره فى أى نحو من أنحاء السماء دون أن يرى الملك ، ظل كذلك بعض الوقت ، ثم لم يعد يرى شيئا .

إن الاضطراب الذى خامر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم من جراء تلك الظاهرة

---

(١) إن نص البخارى لا يحدد المدة الكاملة لهذا الاعتكاف ، بل يكتفى بالإشارة إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتحنث بالغار عدة ليال ، وأنه كلما نفد زاده عاد إلى أسرته ليأتى بزاد جديد ، ولكن ابن إسحاق يحدد مدة هذا الاعتكاف الذى كان يعتريه الانقطاع بشهر .

المزدوجة سمعاً وبصراً التى لم يسمع بمثلها ، استلزم - على الراجح - أن يساوره الشك لحظة فى شخصية صاحب الصوت الموحى وشىء من الخوف أن يكون ضحية وسوسة شيطانية ، هو الذى لم يبغض شيئا كما أبغض وسائل السحرة والعرافين ، أفلا يخشى أن يصبح واحداً منهم ؟ كذلك لا يبعد عن الحقيقة أن تكون الآلام الجسيمة التى سببها ذلك اللقاء فيما يرى شبيهة بآلام نزع الروح ، وأن يعتقد أنه ميت منها ، ولقد يعود إلى داره مباشرة بهذه العقدة من الاضطراب المعنوى والجسمى ، ينفضه ضرب من ضروب الحمى الباردة ، فيطلب أن يدثروه فى الأغطية الثقيلة حتى يزول عنه الروع ، ثم يقص على خديجة قصص هذا الحادث الذى وقع له معبراً لها عن مخاوفه وحيرته ، فتسكن رفيقة حياته من جأشه بأحسن ما تستطيع من الكلام الأملأ حكمة والأقوى سكينة ، قالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبد ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ولكنها على كل حال لم يكن فى استطاعتها أن تعطى بيانا إيجابيا محققاً لطبيعة الظاهرة نفسها ، بل كانت فى حاجة إلى رأى بعض ذوى الثقة والاختصاص فى مثل هذا الأمر ، فقررت أن تذهب به لتستشير هذا الثقة وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الشيخ الذى كان يدين بالمسيحية ، والذى كان ضليعاً فى العبرية ، وأليفاً للكتب المقدسة على الرغم من أنه الآن كفيف البصر ، قال لهما ورقة : هذا الناموس[1] الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ، فقال محمد صلى الله عليه وآله وسلم : أومخرجى هم ؟ وأجاب ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا .

ولكن حياة ورقة لم تمتد كما أراد ، وإذا كان كلامه المشجع قد استطاع أن يلقى بعض أشعة الأمل فى تلك النفس القلقة ، الطامعة فى المعرفة ، المولعة بالوضوح واليقين .. أوعسى أن يقول فى هذا الروح الوضعى ، فسنرى أن هذا الأمل لم يكن جد قوى ، وأنه على كل حال لم يعمر طويلا ، وفى واقع الأمر أى شىء أقرب إلى

---

(١) الناموس : يعنى كاتم السر السماوى الأكبر أو القانون .

الطبيعة إذا كان هذا العلم الموعود قد أعلنه صوت الحقيقة من أن ينظر تحقق هـذا الوعد من يوم ليوم؟ ولـكن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم يعود فى الغالب ليبحث عن الدرس الثانى هناك حيث تلقى الأول ، فيضع نفسه فى الأحوال نفسها كالماضى . يجوب الجبل ويقلب بصره فى كل الأنحاء ، والأيام تمر والأسابيع تمضى والشهور تتعاقب على الشهور ، وينصرم عام ، وثان يبدأ ، وعند الشعبي يبدأ ثالث ولا يرى شيئاً يرده ، إنه فى كل مرة يجد نفسه على حافة هاوية اليأس يرى ويسمع : يا محمد إنك لرسول الله وإنى جبريل ، فيسكن لهذه الكلمات قليلا ، ولكن الوحى الجوهرى ما يزال يطيل أمد انتظاره ، فيتردى فى الحزن نفسه والحرج نفسه ، سيقول بعضهم إنها لم تكن إلا إفراطاً فى الجنون ، وآخرون فيما بعد يفرضون أنه كان فى الحق عرضاً سماويا أثمن من أن يقدر ، ولـكن محمدا استبان بضعف مقاومته غير كفء له وغير جدير بالرسالة الإلهية . . كلا فإن الوحى عما قريب مؤمنه بنصين قصيرين من القرآن « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ، « ما ودعك ربك وما قلى » ينفيان هذا الاحتمال المزدوج المرعب ، ولكنه لا يعطى التوجيه الذى طال انتظاره :

إن سنه الآن ثلاث وأربعون سنة هلالية ، وهو يجب أن ينتظر درساً ، هذه الكلمة الثقيلة الخطيرة الموعود بها : « يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

بل لقد اصبح من عادته منذ الإيحاء الأول أن يخلو على جبل حراء فى العهد نفسه ، يعنى شهر رمضان . . وأخيراً لقد كان أتم وقت اعتكافه هناك ، ونزل على السفح فى اتجاهه إلى المدينة حين سمع من يدعوه . . وينظر يميناً ويساراً ووراءه فلا يرى شيئاً ، ويرفع بصره فى السماء فيعرف الملك الذى كان رآه فى حراء ، إلا أن بغتة الظهور والعظمة الهائلة للمخلوق السماوى بهرتاه إلى درجة أن ساقيه لم تقويا على حمله ، ارتعش رعباً ، وربما أيضاً من برد يناير ، وعاد إلى خديجة يبتغى أن تعنى به كما فعلت فى المرة الأولى . . وهاهو ذا الزائر المحترم يلحق به فى البيت حاملا إليه الأمر الذى يخوله به اختصاصه الثانى : « يأيها المدثر . قم فأنذر » .

وكذلك يجب على محمد أن ينقل التوجيه الإلهى للناس لا أن يتلقاه فحسب ، فمهمته نبيا تزدوج من الآن فصاعدا بمهمته رسولا .

لقد رأينا فى الفترة بين البلاغين كيف أبطأ الوحى على محمد صلى‌الله عليه وسلم ، وكيف انقطع وكم كان قليلا ، ولـكنه منذ الرسالة سيتلقى النبى - على النقيض - الوحى إن لم نقل بانتظام فبـكثرة وباستمرار ما ودون انقطاع طويل .

إن سنة ٦١٢ بعد عيسى عليه الصلاة والسلام لهى نقطة البداية فى عمل رسول الإسلام ، عمل جاء التاريخ الهجرى[١] يقسمه إلى عهدين متساويين على وجه التقريب : عشر سنين بمكة مدينة ميلاده ، وعشر أخر بالمدينة مقامه الجديد حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى فى ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة (٧ أو ٨ يونية سنة ٦٣٢) تماما فى سن ٦٣ سـنة هلالية ، أو على وجه التقريب ٦١ سنة شمسية[٢] .

---

(١) معنى الهجرة : قطع الصلات والابتعاد الاختيارى ولو كانت الأسباب التى حملت عليها اضطراريه ، ومعلوم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فى أثناء قيامه بالدعوة هاجر من بلده يوماً - عشية ائتمر القوم به ليقتلوه - إلى المدينة حيث وصل فى بداية شهر ربيع الأول ، فى الثانى أو الثامن أو الثانى عشر منه ، على خلاف فى رواية المؤلفين ، واعتماداً على عـدة وثائق ، عين الفلـكى المصرى آنف الذكر يوم الاثنين الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح على أنه يجب ألا ننسى أن التاريخ الإسـلامى لم يبدأ من يوم الهجرة بل من أول السنة القمرية التى وقع فيها ذلك الحدث ، والتى كانت قد بدأت منذ شهرين وبضعة أيام . . أول محرم يعنى ١٥ أو ١٦ يوليو سنة ٦٢٢ ، وبالتالى فإن ٣٣ سنة قمرية تساوى ٣٢ سنة شمسية تقريبا ، فيـكفى لتحويل التاريخ الهجرى إلى التاريخ الميـلادى أو العـكس أن نسلك الصيغتين التاليتين :

$$\text{هجرية} + ٦٢٢ - \frac{\text{هجرية}}{٣٣} = \text{شمسية}$$

$$\text{شمسية} - ٦٢٢ + \frac{\text{شمسية} - ٦٢٢ \quad ٣٢}{٣٢} = \text{هجرية}$$

(٢) من مقال عنوانه (سن محمد) « الجريدة الأسبوعية مارس - إبريل ١٩١١ م » أراد « لامانس » أن ينقص سن النبى صلى‌الله عليه وسلم نحو ١٠ سنين دون أن يدعم —

إنه لشيق دون شك أن نتبعه صلى الله عليه وآله وسلم فى نشاطه الدعوة الذى لم يعرف التعب خلال تلك السنوات العشرين التى تمخضت عن ثورة من أعظم الثورات الحضارية التى عرفتها الإنسانية ، ولكن بما أن الموضوع الأصلى لهذا العمل إنما هو تحليل النظام القرآنى نفسه ، وقد وصلنا فى دراسة الحياة المحمدية إلى النقطة التى يتم فيها الاتصال بين الرسول والرسالة ، فإنا نستطيع الآن أن ننظر فى الكتاب الذى تركه لنا .

وفى الباب الثانى سيكون علينا أن نصف الطريقة التى تألف بها الكتاب ورتب وحفظ ونقل خلال التاريخ ؟

= دعواه تلك بأى دليل سوى أنه قد بدا له أن رجلا تجاوز الخمسين من عمره يستحيل أن يكون له من الطاقة ما يمكنه أن يصطنع لنفسه حياة جديدة ، ولا حجة له على قول النبي : « ولدت فى زمن الملك العادل كسرى » وقوله « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » ولا على الشهادات الثابتة لأصحابه : معاوية وابن عباس والسيدة عائشة ، والوقائع التاريخية المتفقة فى السنويات المختلفة الأوربية والفارسية والعبرية ، سوى أنه يكتفى بأن يورد بيانات ملتقطة من مؤلف مجهول المؤلف ، وأساطير موضوعة متضاربة فيما بينها ، فينتهى به الحال إلى بضع علامات استفهام ، لا عن هذه المشكلة الخاصة وحدها ، بل عن جملة حياة النبي وكل ما يتصل بها ، وبناء على مقولته : التواريخ والوقائع والشخصيات وكل ما هو ثابت ثبوتاً تاريخياً مقطوعا به مظنات شبهة ، فهى إنما وضعت لأغراض معينة عن طريق التوفيقات التفسيرية واللغوية ، وعن طريق البحوث التنسيقية . . فكل أعمال الاستغراق اتجهت فى الطريق الضالة المضلة وراء المؤرخين العرب ، أفيبقى للمسلم شىء يمسك به من تلك المساهمة السلبية بل التدميرية ؟ على أن ما هو أكثر خطراً عند « لامانس » أنه لا يكتفى باتجاهه الساخر حيث السخرية تلذع فى كل خطوة وراء هذا الشك العضال ، بل إن إصراره على هذا المسلك « البيرونى المشكك » ما إن يعثر برأى يجافى محمدا ولو كان رأيا عديم الثمرة أو واضح الاستحالة حتى ينقلب تشككه يقينا مثبتا : تحيز حاقد إذن لا يستحي أن يتكلم باسم النقد وهو يهدم المنطق نفسه .

جولات روحية
فى سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

لا تزال المجتمعات منذ خلق الله الدنيا منطوية على عناصر الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والحق والباطل ، ومن تطلب الدنيا على غير ما هى عليه ، فقد طلب محالا ، وتصور ما لا يمكن أن يكون .

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار !

ولو كان عهد من العهود أجدر بأن يتطهر من عناصر الشر والفساد والباطل ، لكان هذا العهد هو عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ولكنه كان - كما يصوره القرآن الكريم - عهد تضال بين الإيمان والكفر ، وبين الإيمان والنفاق ، على أشد ما يكون النضال ، حتى نصر الله الحق على الباطل ، وأحبط أعمال الكافرين والمنافقين ، وهى بشرى لكل من استقام على صراط الله العزيز الحميد ، واحتمل فى سبيل استقامته ضروب الأذى والاضطهاد : أن يحسن الله عاقبته ، ويخذل خصمه ، مهما طال أمد الكفاح ، وتطاول أهل البغى والعدوان .

ولقد جلت جولات روحية فى سورة « محمد » - صلى الله عليه وسلم - وهى سورة مدنية ، تعرف أيضا باسم سورة « القتال » ، فوجدت هذه السورة الكريمة مبنية على عقد كثير من المقارنات بين أهل الحق وأهل الباطل ، على وجوه متنوعة هى جديرة كل الجدارة بأن ندرسها ، لنتفهمها ونفقه مراميها .

* * *

١ - فأول ذلك افتتاحية السورة الكريمة ، وهى توضح هدفها من أول الأمر ، وتؤلف مطلعا بارعا لها ، إذ تعقد المقارنة الأولى بين الكافرين والمؤمنين ، فتقول :

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم

وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

فهذه الآيات الثلاث توازن بين الفريقين المتقاتلين اللذين لا يخلو منهما زمان ولا مكان ، وهما : « فريق المؤمنين وفريق الكافرين » فتسم الأولين بميسم الكفر على أسلوب الموصول والصلة ، فتقول : « الذين كفروا » ولا تقول : « الكافرون » لأن الموصول وصلته يشعران بتعليل الحكم إذا كان الكلام متضمنا حكما ، ثم تصفهم بوصف جامع لكل أساليب الشر والباطل والفساد ، على شدة رجازته ، فتقول : « وصدوا عن سبيل الله » ، وبذلك تبين أن كفرهم لم يكن مجرد عقيدة قلبية لهم ، ليس لها آثار إيجابية عملية ، ولكنه عقيدة ينبعث عنها كل شر ، فإن الصد عن سبيل الله هو مدافعة الناس عن كل ما هو خير ، فليس لله سبيل تنسب إليه إلا سبيل الفضيلة فى أية صورة من صورها : فى العقيدة ، وفى الأعمال ، وفى السلوك الاجتماعى ، وفى كل ما هو خلق كريم تنعكس آثاره الطيبة على الأفراد والجماعات ، فإذا كان هناك من يترصد صراط الله المستقيم ليصد الناس عن سلوكه ، فأولئك هم جنود إبليس الذى يقول : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

ثم تأتى بعد ذلك بالحكم عليهم ، وبيان عاقبتهم فتقول : « أضل أعمالهم » ، أى أبطلها وأذهبها ، على حد قوله تعالى فى آية أخرى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

وبعد أن يتحدث مطلع السورة عن الكافرين ويصفهم بصفتهم الجامعة لمختلف أساليبهم فى معاداة الحق ، ويحكم عليهم بضلال أعمالهم وبطلانها ، يذكر المؤمنين ، فيختار لهم أسلوب الموصول والصلة ، إذ يقول : « والذين آمنوا » ليغرس فى النفوس من أول الأمر سر فلاحهم وصلاحهم ، فإن « الإيمان » هو القوة التى يصدر عنها كل خير ، والتى تمنح صاحبها هدوء النفس ، وراحة البال ، والتى تدفع إلى الجهاد والتضحية فى سبيل كل معنى شريف ، ثم يقرر أنهم مع إيمانهم « عاملون » لأنه لا فائدة فى الإيمان إذا كان مجرد صورة ظلية ساكنة لا حراك بها ، ولا خير

فى صاحبه مالم يعمل ويتحرك ويجل فى ميادين السعى والجهاد غير وان ولا وكل، ولذلك يتبع الله الإيمان « بالعمل » فى هذه الآية وفى غيرها من آيات الكتاب العزيز، فيقول : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى آمنت قلوبهم اعتقادا، وانقادت جوانحهم عملا وجهاداً، فتلاقت بذلك بواطنهم وظواهرهم، ثم يصفهم الله تعالى بوصف هو من قبيل عطف الخاص على العام فيقول : « وآمنوا بما نزل على محمد » ليبين بذلك بياناً فاصلا أنه لابد من الإيمان بهذا الرسول الكريم الخاتم بعد بعثته، مشيراً إلى أن الذين يؤمنون بالرسل قبله ولا يؤمنون به، لم يحققوا « شرط » الإيمان المقبول، ولم يستحقوا أن يسلكوا فى عداد الذين وعدهم الله بالنجاة، وما أبلغ الجملة المعترضة التى جاءت بعد ذلك فى قوله تعالى : « وهو الحق من ربهم » فإنها بيان للحقيقة، وتمش مع المنطق، كأنه تعالى يقول لهم : إننا لم نشترط الإيمان بما نزل على محمد إلا لأنه الحق الذى صدر من عند الله رب العالمين.

وبعد ذلك يأتى الحكم وبيان العاقبة : « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ». والإنسان مهما آمن وعبد الله وأخلص، لا بد أن يقع فى هفوات، وأن تصدر منه سيئات، فما لم يعلم أن رحمة الله تعالى أوسع من ذنبه، وأنه جل شأنه سيتغمده برحمته وفضله فإنه يدركه اليأس والتراخى عن العمل الصالح، وربما خرج بذلك إلى الزيغ وارتكاب السوء، فالله تعالى يتكفل لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن يكفر عنهم ما عسى أن يكون لهم من سيئات، أو أن يكونوا قد اقترفوا من هفوات، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وإن الله تعالى يقول : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ».

وقوله تعالى : « ويصلح بالهم » يدل على أن مجتمع أهل الإيمان هو مجتمع القرار والسكينة والطمأنينة، فإن صلاح البال إنما يكون بصلاح كل أمر، واستقامة كل شأن.

والشعوب إذا صلحت أحوالها، واستقامت شئونها، هدأ بالها، واستقرت وسكنت وتمتعت بالحياة السعيدة فى ظل هذا الهدوء وهذا الاستقرار.

وقد التقت الآيتان على هذا المعنى حيث تقول هذه الآية : « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » وتقول الأخرى، وهى فى سورة النساء : « نكفر عنكم سيئاتكم

وندخلكم مدخلا كريماً » وليس فى الكلام ما يدل على أن هـذا المدخل الكريم الذى وعد الله به عباده هو الآخرة فحسب ، حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم مقيم ، ولكن الوعد الإلهى صالح لأن يراد به أيضاً المدخل الكريم فى الدنيا ، حيث الهدوء واستقرار النفس ، والنجاح فى الحياة ، وأن يتبوأ الناس فيها منازل كريمة ، ومراكز حسنة .

وبعد أن تنتهى هذه « الموازنة » بين الذين كفروا والذين آمنوا ، ويتبين منها مصير هؤلاء وهؤلاء يبين الله تعالى سر هذين الحكمين ، وأن كلا منهما إنما صدر عن عدل وحكمة وسنة إلهية لا تتبدل : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » أى : فلذلك أبطلنا أعمال أهل الباطل ، وأصلحنا بال أهل الحق ، وليس من سنتنا أن نسوى بين هؤلاء وهؤلاء « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » .

ويختم الله هـذه الموازنة بقوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » لتكون العبرة عامة فى كل زمان ومكان ، ولئلا يعتبر خصوص فى الكفار على عهد معين دون عهد آخر ، ولا فى المؤمنين كذلك ، فالكفار فى كل زمان ومكان هم الكفار ، والمؤمنون هم المؤمنون .

* * *

٢ — وموازنة ثانية تأتى بعد ذلك لبيان حكم الله فيما يجب أن يأخذ به المؤمنون هؤلاء الكافرين الوثنيين من عنف وشدة ، ومن حرب لا هوادة فيها ، تفريعاً على ما تقدم ذكره فى الموازنة الأولى من أوصاف لهم لا يستحقون معها المسالمة والمهادنة .

وذلك قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

فهذه الآيات الثلاث تبدأ ببيان حكم الله فيما يعامل به الكافرون ، وتأتى « الفاء » فى أول الكلام إيذاناً بأن الحكم الذى سيذكر هو تفريع عما سبق ، فكأن تقدير الكلام : إذا كان هذا هو حال هؤلاء الكافرين ، وكنتم وإياهم على طرفى نقيض ، فليكن الأمر بينكم وبينهم على مايحكم به العقل والمنطق السليم بين النقيضين فهل يجتمع النقيض والنقيض .

يصور الله المؤمنين مجاهدين مسيطرين ، لهم القوة ، وفى يدهم زمامها ، لأنه يأمرهم بضرب رقاب الكافرين إذا لقوهم ، وبأن يثخنوهم إثخانا ، أى يمعنوا فيهم قتلا وقهرا ، حتى إذا تحقق هذا القهر وذلوا واستسلموا انتقلوا إلى مرحلة أخرى هى شد الوثاق - أى الأسر - وذلك كقوله تعالى فى آية أخرى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » أى حتى يحطم شوكة الكافرين تحطيما ، لكيلا تقوم لهم قائمة ؛ لأن الشرك والوثنية لا يحترمان أمام دين التوحيد ، ولا يمكن أن يقبل لهم وضع فى أية أمة مخلصة لعقيدتها .

وينبغى أن يفهم أن هذا إنما هو بالنسبة للمشركين المعبر عنهم هنا بقوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا » .

وأما أهل الكتاب فهم فى ذمة المسلمين ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، ومن حقهم أن يعيشوا بينهم أحراراً يؤدون شعائرهم ، ويزاولون طقوسهم ، وشتان بين ذى وثن من الأوثان ، وذى دين من الاديان ، فلا يقل أحد : أين حرية الاعتقاد ما دام الاسلام يأمر بضرب الرقاب والإثخان وشد الوثاق ؟ لا يقل أحد ذلك ، لان الحرية لا تكون فيما يخالف المبدأ الاساسى الذى تقوم عليه الامة ، وهذه الامة هى أمة التوحيد ، بل إن التوحيد هو الحقيقة الاولى التى جاءت بها الرسل ، وأجمعت عليها الأديان ، فالإسلام يحترم أديان المخالفين مادامت أديانا ، أما الوثنية والشرك ففساد فى الفطرة ، وإهدار للعقل والمنطق والدليل الواضح ، وإهدار لكرامة الإنسان فى أبشع صورة من صور الإهدار ، حيث يعبد الانسان العاقل المدبر المتصرف الذى سخر له كل مافى الكون ، حجراً أو شجراً أو مخلوقا كائناً ما كان .

ولا يصح أيضاً أن يقال : يجب احترام حرية العقيدة إذا كان هذا القول فى

معرض الإبقاء على إلحاد الملحدين ، ونظريات الوجوديين ، وفلسفات المارقين ، وأمثال هؤلاء وهؤلاء ممن يستخفون بالعقول ، ويهزءون بالأديان ، فليس هناك منطق يحمى هؤلاء أو يقبل السكوت على خيالهم العقلى والعملى . وما لهم ولأمثالهم إلا ضرب الرقاب تطهيراً للشعوب والجماعات منهم .

وقد فرق القرآن الكريم بين المشركين وأهل الكتاب ، فأمر بقتال المشركين عامة ، ولم يقبل تخلية سبيلهم إلا إذا تخلوا عن شركهم ، وذلك حيث يقول الله جل شأنه : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » فهو يأمر بقتالهم ولا يرضى منهم بغير التوبة وإقامة الصلاة ، أى « بالاسلام » ولا يجعل أمد قتالهم منتهياً إلا بذلك ، أى أنه لا يرضى بأن يعيش الكفر - فى صورة الشرك أو الوثنية أو الإلحاد أو اللادينية - مع دين الحق جنباً إلى جنب ، بينما يقول فى شأن أهل الكتاب : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » أى عن طاعة والتزام بنظام المجتمع الاسلامى بحيث لا يخشى شرهم ولا انتقاضهم على دولة الاسلام . فإذا دفعوا الجزية برهاناً على ذلك ، فهم إذن فى ذمة المسلمين ، كأهل كتاب فاءوا إلى رشدهم ولم يغلوا فى دينهم ، وابتعدوا عن صور الشرك والكفر الأساسية ، وإن خالفوا فى الدين ، « فلنعايشهم » ولنسالمهم ما داموا لنا مسالمين ، وعن الإلحاد والعناد والخروج على الله ناكبين .

وبذلك يتبين أن الموازنة هنا تفرض المؤمنين غالبين قاهرين ، لهم قوتهم واستطاعتهم وحرصهم على تنفيذ حكم الله فى الكافرين ، وهو ضرب الرقاب ، وشد الوثاق . وتفرض الكافرين ، أى المشركين والوثنيين والملحدين وأمثالهم ، محكوماً عليهم بالفناء ، وهذا يقتضى أن يستعد المسلمون بالقوة والمنعة والعلم والروح القوى والخلق المتين ، لتنفيذ ما أمرهم الله به ، فإن فرطوا حوسبوا على ذلك ، فنالوا جزاء تفريطهم فى الدنيا والآخرة .

هذا وفى التخيير بين المن والفداء فى قوله تعالى : « فإما مناً بعد وإما فداء » كلام ليس هـذا موضع تفصيله وبيان ما يدل عليه فى شأن موقف الاسلام من « الرق » فإنما نحن بصدد ما فى السورة من مقارنات .

ومعنى قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » يتوقف إدراكه على المراد « بالحرب » هنا : هل هى الحرب التى كانت فى عهد الرسول حتى تم نصر المؤمنين ، وانكسرت شوكة المشركين ، فإذا وضعت هـذه الحرب أوزارها ، أى أثقالها وأحمالها ـ وهو كناية عن انتهائها ـ فلا حرب بعدها ، أو الحرب مستمرة ما دام هناك شرك ووثنية .

وقد فهم بعض الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولكنه لم يقر هذا الفهم .

فإنه يروى عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إنى سيبت الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت لا قتال . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « الآن قد جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

وهذا يدل على أن « الجهاد » باق ، لأن الأرض لا تخلو من كافرين ومؤمنين ، ولذلك قال مقاتل فى تفسير قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » معناه : حتى لا يبقى مشرك .

وفى القرآن الكريم آية أخرى تحدد الأمد الذى ينتهى فيه القتال والجهاد ، وهى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ، ويفهم منها أن القتال والجهاد لا يبطلان ما دام هناك فتنة فى الدين ومحاولة لصرف المسلمين أو صدهم عن دين الحق الذى ارتضاه الله ، وختم به رسالاته .

ولما كان هذا الصد موجوداً فى كل زمان ، وكان العالم لا يزال فيه فريق يحاول فتنة المسلمين عن دينهم ، وإخراجهم من ديارهم ، والمظاهرة على إخراجهم ، فالجهاد باق ، وهو فرض على المسلمين للدفاع عن دينهم وأنفسهم وبلادهم .

ولهذا جاء فى الحديث عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال » .

وقال الكلبى : حتى يسلموا أو يسالموا .

وقال الفراء : حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم .

والخلاصة : أن أسباب الجهاد فى الاسلام ترجع إلى أمرين :

أحدهما : اقتلاع جذور الشرك والوثنية وما فى معناهما من الإلحاد والوجودية ونحو ذلك ، فإنه لا يليق بالانسان الذى كرمه الله بالعقل ، وأمره بأسباب العلم ، ويسر له إدراك البرهان الساطع فى شأن الألوهية ، أن يتجه إلى غير الله ، أو أن يفسد حياته باعتقاد فاسد يؤدى به إلى كثير من الأوهام والخزعبلات ، أو يخرجه من دائرة الثقة والطمأنينة النابعة من الإيمان .

الثانى : تأمين الدعوة الاسلامية ، والدفاع عن حرم الاسلام والمسلمين ضد المعتدين الذين يعملون على زلزلة المؤمنين عن عقائدهم ومثلهم أو على استعمار بلادهم ، أو إخراجهم من ديارهم .

هذا هو منطق الاسلام فى الأسباب التى تدعوه إلى امتشاق الحسام : دفاعا عن كرامة الانسان ، وعن دعوة الحق ، وعن مثل الفضيلة والخير .

ويقول الله تعالى مبيناً الحكمة فى تشريع الجهاد :

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض » أى ذلك حكم الله فى الكافرين ، والله قادر على أن ينتصر منهم بفعل منه مباشر ، كما انتصر قبل من الطغاة والظالمين ، بالقارعة والصاعقة والصيحة والرجفه والغرق وغير ذلك ، ولكن الله شرع الجهاد لحكمة بالغة ، ولتحقيق مصالح يعلمها ، منها ابتلاء الله بعضكم ببعض ، أى اختباركم وإظهار حقيقتكم ودخائل أنفسكم ، كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

ومنها إيقاع العذاب الدنيوى بالكافرين على أيدى المؤمنين ، شفاء لصدور

أهل الحق حين يرون الباطل مخذولا ، كما قال تعالى فى سورة التوبة : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » .

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن المؤمن يجوز له أن يعمل للاشتفاء من أعداء الله بهزيمتهم والتنكيل بهم ، وأن يلتمس إذهاب الغيظ من قلبه بجهادهم ، حيث جعل الله تعالى شفاء الصدور ، وذهاب غيظ القلوب من ثمرات القتال المشروع .

ومن بقية الموازنة بين المؤمنين والكافرين ما ذكره الله تعالى من أنه تكفل للشهداء بحفظ أعمالهم ، وعدم إضلالها ، أى إذهابها هباء دون ثمرة ، بل يبرز آثارها ، ويحقق ؛ مهما طال المدى ؛ أهدافها فى الدنيا ، وينميها ويكثر ثوابها فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » .

والواقع الذى تدل عليه حوادث التاريخ أن أعمال المجاهدين المخلصين المضحين بأنفسهم فى سبيل الله ، لا تذهب عبثا ، ولا تضيع هباء ولو غلبوا على أمرهم ، وتراءى للناس أن مثلهم لم تظهر ولم تنتصر فى أول الأمر ، ذلك بأن المبادىء والعقائد التى كانوا يكافحون عنها تحيا بهذا الكفاح ، وكأنها شجرة لا ترويها إلا دماء المجاهدين ، ويظل الناس يذكرون قيامهم للنضال ، وانبعاثهم للتضحية فى سبيل الله ، ويكبرون فى ذكراهم الاقدام والشجاعة ، ويعرفون حقهم وحق مبادئهم ، فيجعل الله لهم بذلك لسان صدق فى الآخرين - وهو الذكرى الطيبه - ويجعل لمبادئهم ومثلهم حياة من بعدهم ، طال الأمد أو قصر ، ولذلك يقولون : أن المبادىء الساميه وتعاليم الحق والفضيلة لن تموت ، بل تحيا وتنتصر باستشهاد أصحابها ، وتلك سنة من سنن الله فى خلقه « لا يضل ربى ولا ينسى » .

وقوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » وعد بفضل آخر للشهداء ، والهداية بالنسبة للشهيد الذى قتل وانتهت حياته فى الدنيا ، هى الهداية إلى الجنة ، كما فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » ، وإصلاح بالهم وعد جاء على سنة وعده تعالى للأحياء ، فكما قال عن إحياء المؤمنين فى أول السورة « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »

قال عن شهدائهم هنا : « سيهديهم ويصلح بالهم » وفى ذلك إشعار بأن لهم حياة أخرى، هى المذكورة فى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقوله تعالى : « ويدخلهم الجنه عرفها لهم » يشير إلى عرفان المؤمن بالجنه التى وعد المتقون ، فقد وصفها الله فى كتابه فاستقرت صفتها فى نفوس عباده المخلصين ، فعشقوها وتطلبوها وعملوا لها .

هذا وفضل الشهداء عظيم ، وقد رويت فيه أحاديث كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » .

وفى رواية : « ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها » .

* * *

٣ — وتأتى بعد ذلك موازنة ثالثة هدفها بيان عاقبة الصراع الذى يكون بين الحق والباطل ، إذ يقول الله عز وجل :

« يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .

وقد تضمنت هذه الآيات الخمس : وعداً للمؤمنين مشروطاً بشرط ، ووعيداً للكافرين معللا بعلة ، وتذكيراً بما مضى من تاريخ الجبابرة ، وكيف قصمهم الله ، وأن هذه سنته جل شأنه فى كل كافر ، أن يدمر عليه ، ويحطم ما يبنى من صروح

الباطل ، كما تضمنت سر هذا الوعيد وذلك الوعد ، مبينة أن الذين آمنوا قد آووا إلى ركن شديد ، هو الله مولاهم ، وأن الكافرين قد حرموا حين فرغت قلوبهم من الإيمان أن يكون لهم ركن يأوون إليه ، ويشتد به أزرهم .

فأما الوعد المشروط بشرط ، فهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ومثله قوله تعالى فى آية أخرى : « ولينصرن الله من ينصره » والآية الأولى فيها تعليق صريح استعمل فيه حرف « إن » الشرطية لإفادة أن نصر الله لعباده مشروط بنصرهم له ، والآية الثانية تعليق فى المعنى ، لأنها تقرر أن نصر الله إنما هو لمن ينصر الله .

وإذا علق الله شيئاً على شيء ، وربطه به على هذا النحو أو ذاك ، فهو تعبير عن سنة من سننه التى لا تتبدل ، وعن قانون شبيه بقوانين الحياة الكونية ، فكما أن الشمس والقمر والنجوم والبحار وجميع العوالم مرتبطة بقوانين تكوينية إلهية لا تحيد عنها ، ولا يمكن أن تختل أدنى اختلال ، كذلك عالم الانسان له قوانين من أمر الله تدور حياته عليها ، ويتعامل أفراده طوعا أو كرها بموادها ، ومن مواد القانون الإلهى للإنسان : أنه إذا كان مؤمنا صالح العقيدة فى الله ، ثم جاهد قاصداً بجهاده أن ينصر الله فلا بد من أن ينصره الله ، ويثبت قدمه ، ذلك بأن الضعف والخذلان إنما يأتيان المرء من إحدى ناحيتين : إما من ناحية فراغ قلبه من عقيدة تطمئنه ، وإيمان يحثه ويدفعه . وإما من ناحية فقدانه الإخلاص فيما يقدم عليه ، بأن يكون له اتجاه إلى غير الله ، والمؤمن قد برىء من كلتا الناحيتين ، فإن له من عقيدته فى الله قوة تملأ قلبه طمأنينة وثقة ، وتبعثه على الاقدام فى غير تردد ولا تهيب ، وإن له من إخلاصه ما يجعله متجها إلى ربه وحده لا يشرك به شيئا ، وأحق الناس بهذا الاخلاص والتوحيد هم المجاهدون الذين يحملون أرواحهم على أكفهم ويخوضون غمرات الموت ، لا يعرف المرء منهم إذا أصبح هل يمسى ، وإذا أمسى هل يصبح ! إن هؤلاء هم أجدر الناس بإخلاص النية وتوحيد القصد لله تعالى ، فإن الله هو أغنى الشركاء عن الشرك ، وإنما المجاهد هو من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا ، ولا يمكن أبدا أن يهزم من اتجه بجهاده ذلك الاتجاه الأسمى ، ولقد هزم

جيش المسلمين الأولين أنفسهم فى بعض المواقع التى خاضوها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما تنكبوا السبيل وقصدوا ما لم يكن لهم أن يقصدوه من الغنائم ومتاع الدنيا ، وسجل عليهم القرآن الكريم ذلك إذ يقول : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

وذكرهم بما سلف من « الربانيين » الذين كانوا يقاتلون مع الأنبياء لا يقصدون إلا وجه الله ورضاه ، إذ يقول : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

وهكذا نجد أن قضية نصر الله للمؤمنين الذين ينصرونه ، وتثبيته أقدامهم فى الحياة هى قضية إلهية ، وسنة كونية فى عالم الانسان ، والعكس بالعكس ، فعلى الناس أن يسألوا أنفسهم كلما وجدا ضعفاً أو انهزاماً أو تخلفاً أو تزلزلا ، فيعرفوا الأسباب بعد مراجعة الحساب ! .

وأما وعيد الله للكافرين ، وعلته التى أرشد الله إليها ، فذلك قوله جل شأنه : « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

فالتعس والتعاسة : السقوط والعثار واختلال الأمر والشقاء ، وهو عكس النصر وتثبيت الأقدام اللذين وعدا الله بهما المؤمنين المخلصين الناصرين له ، وقد ذكر الله ذلك مرة بطريق الاشارة ، حيث جاء حرف « الفاء » فى قوله تعالى : « فتعساً لهم » مؤذناً بأن علة هذه التعاسة هى كفرهم ، كأنه قال : كفروا فاستحقوا بكفرهم التعاسة والتزلزل ، ومرة بطريق التصريح حيث علل المصير الذى حكم به عليهم ، بأنهم كرهو ما أنزل الله ، والكراهية عاطفة من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يلتوى عما يكره ، وأن ينظر إليه نظرة تبرم به ، وتخلص من منطقه ،

فلا ينتفع به ولا يركن إليه ، ولما كان ما أنزله الله على عباده إنما هو إرشاد إلى أقوم الطرق ، وتوجيه إلى ما يكون به كل صلاح وكل سعادة ، فهم بكراهيتهم إياه قد فقدوا النور الذى يكون به الاهتداء ، فاختلط عليهم الأمر ، وتراكمت أمام أعينهم ظلمات الحيرة ، فشقوا وخسروا ، وضلت أعمالهم وحبطت ، فليس لها فى الدنيا أثر يدوم ، وليس لها فى الآخرة وزن يقوم : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

ويقرب من هذا المعنى أن نفسر كراهيتهم لما أنزل الله بكراهيتهم للمثل والفضائل ، وتبرمهم بها ، وحرصهم على التحرر منها والانطلاق من قيودها ، وأولئك هم الذين يقولون : ما لنا ولهذه المقاييس التى فرضت علينا وما اشتركنا فى فرضها ، ولا أخذ رأينا فى تقريرها ! وفى جميع المجتمعات من هذا الصنف أفراد متحللون إباحيون ، لا هم لهم إلا مسايرة الشهوات ، ومقارفة اللذات ، فإذا رأوا مستمسكاً بالفضيلة والايمان سخروا منه ، وإذا سمعوا ناصحاً يبذل لهم النصيحة ضاقوا به ذرعا ، ولم يطيقوا له سمعا ، ومن سنة الله تعالى أن يبتلى أهل الدين والغيرة والاصلاح بأمثال هؤلاء ، وفى مقدمة من ابتلى بهم الأنبياء ، فكلهم بذل النصح لقومه ، فاستثقلوا نصحه ، وتبرموا به ، حتى أخذهم العذاب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رساله ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » ، « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » .

ومن أعظم أساليب القرآن الكريم سوقه القصص وأخبار الأمم السابقة ، وما قابلوا به أنبياءهم ، وما صار إليه أمر المعرضين منهم عن دعوات الحق .

فقد ذكر الله قصة فرعون ـ مثلا ـ فى عدة مواضع من كتابه الكريم ، وقص

علينا ما بلغ من طغيانه وعتوه ، وأنه ظل يتعالى ويتمادى حتى ادعى الألوهية لنفسه وأنكرها على إله موسى وإله العالمين جل جلاله ، ثم انتهى أمره إلى الغرق ، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه ما أخذه الله به من النكال والوبال .

ومن ذلك قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » .

وهذه آيات ناطقة معبرة مصورة تفيض بيانا وتحذيرا ، وترسم فى كل جانب من جوانب هذه القصة لوحات رائعة ، تمثل ذهاب موسى إلى فرعون ، وهو ذلك الملك الطاغى المخيف ، ثم موقفه بين يديه وهو يعرض عليه التزكية والهداية عرضا رقيقا مهذبا ، ثم موقفه وهو يريه الآية الكبرى ، عصاه التى تنقلب ثعبانا مبينا ، ثم ما كان من لجاج فرعون وتكذيبه وعصيانه ، ثم حركته المضطربة حين أقامته هذه الدعوه وأقعدته وأقضت مضجعه خوفا من آثارها فى شعبه الذى استضعفه وطغى عليه واستخف به ، وأنه أدبر عن موسى ودعوته ، وجعل يسعى سعيه لإفساد مفعول هذه الدعوة ، وإضلال الناس عنها بالتخويف والإرهاب والتعالى ، وأنه حشر الناس حشرا ، وجمعهم جمعا لينادى فيهم مجتمعين بباطله وكذبه ، إذ يزعم أنه هو ربهم الأعلى ، ثم عاقبته حين أخذه الله بعذابه منكلا به نكال الآخرة والأولى ، جاعلا منه عبرة للمعتبرين .

كل ذلك تفيض هذه الآيات ببيانه ، كأحسن ما تكون الإفاضة ، وترسم مشاهده وصوره كأروع ما يكون الرسم والتصوير !.

ومن ذلك قوله تعالى : « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » .

والطغيان واضح فى هذا الجانب من قصة فرعون ، كما هو واضح فى الجانب الذى ذكرناه من قبل .

ومن يقرأ سورة « القصص » يجد فيها كثيرا مما يبين طغيان فرعون ، ونشره الرعب والخوف فى شعبه ، وفتكه بالأبرياء ، لا لشيء إلا ليثبت دعائم ملكه ، وينفى الأوهام التى تخيل له فى ليله ونهاره أن هناك تآمراً عليه ، وتدبيراً لإهلاكه ، وإن أول هذه السورة ليخلص أمر هذا الطاغية فى أوله وآخره ، وأمر قومه معه ، وما أراد الله لهم من عز بعد الذل ، ومن قوة وتمكين بعد الضعف والخوف ، وذلك إذ يقول الله جل جلاله : « طسم ، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذون » .

وكما ذكر الله فرعون وبغيه ، ذكر قارون واغتراره بماله ، وعاقبة هذا الاغترار ، فأنبأنا أنه آتاه من الكنوز ما يشق على أولى القوة حمل مفاتحه ، وصوره لنا فرحا بطرا يبغى الفساد فى الأرض ، ويعلن فى غرور وكبرياء أنه أوتى ما أوتى على علم عنده ، ثم صوره خارجا على قومه فى زينته وأبهة موكبه ، مرموقا منهم ، يتمنى الجاهلون مثل ما أوتى ، ويأبى العالمون إلا تفضيل ثواب الله الذى ادخره للمؤمنين ، ثم صور عاقبته وأمر الذين تمنوا مكانه فقال : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وكذلك ذكر الله عاداً وثمود وأصحاب الأيكة وقوم نوح وقوم لوط وغيرهم ، مبيناً ما أنزله بهم من قوارع وقواصم .

فالقرآن الكريم مملوء بهذا اللون من القصص المحذرة التى يسوقها الله تعالى فى أجلى بيان ، ويصورها أروع تصوير ، ويناشد الناس أن يفقهوا عبرها ، ويسمعوا نذرها .

وقوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض » يشمل السير الحقيقى للكشف والمعرفة والسير بعين البصيرة والتأمل عن طريق تصفح التاريخ ، واستجلاء عبره .

والمفسرون يفسرون قوله تعالى : « دمر الله عليهم » بمعنى : أهلكهم ، ولكن شتان بين العبارتين ، فإن قوله جل جلاله : « دمر الله عليهم » فيه من القوة والروعة ما يملأ القلوب وجلا ، ويهزها هزا ، إذ هو تمثيل لحالهم ، كأنهم كانوا يشيدون صروحا قوية ، ويعمرون الدنيا بكل ما هو مادة وزخرف ، دون اعتماد على روح الإيمان وقوته ، ثم لا يلبثون أن يروا كل ما شادوا مدمراً عليهم ، محطماً فوق رءوسهم .

وهذا يشمل تدبيرهم المادى الذى يتمثل فى الصروح والحصون والقلاع ، وتدبيرهم السياسى الذى يتمثل فى الاحتياط وأخذ الحذر واتخاذ الأعوان والزبانية والعملاء ، وإتقان أساليب الكيد والبغى والمكر والكبت ، كما رأينا من المستعمرين والمغتصبين ، فإذا جاء وعد الله دمر عليهم كل بنيان أقاموه ، وأفسد عليهم كل تدبير دبروه « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

وفى القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل موجزة حينا ، وحينا مطولة ، تحس إذ تسمعها بالهول مجسما ، ويخيل إليك أن لها دويا يكاد يصم الآذان ، كقوله تعالى فى أهل ثمود : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها » وفى قوم لوط : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » وفى وصف حال المؤمنين يوم الأحزاب : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » وفى وصف جلاء اليهود من بنى قريظة : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

إلى غير ذلك من الآيات الموعدة المرعدة ! .

وقد ذيل هـذا التذكير الإجمالى الذى يشير إلى ما فصلناه مما أصاب الطغاة الأولين ، بقوله تعالى : « وللكافرين أمثالها » ، وهو أيضاً وعيد مخيف ، ومثله قوله تعالى : « وما هى من الظالمين ببعيد » ، وفى ذلك تقرير صريح بأن سنة الله فى أخذ الظالمين لا تتبدل « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين » .

وقد ختم الله هـذه الموازنة بين عاقبة المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، بموازنة إجمالية لبيان السر فى هذا التوزيع العادل بين الفريقين فقال : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » .

ومعنى ولاية الله للمؤمنين أنه معهم بنصره وتأييده كما يكون الولى مع وليه ، والحليف مع حليفه ، وقد ورد هذا المعنى كثيراً فى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ، « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » ، « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

أما الكافرون فقد حرموا هذه الولاية بخروجهم على الله ، وكفرهم به ، فهم أعداؤه وطرداؤه .

ولما ارتجز أبو سفيان يوم هزيمة المسلمين وانتصار المشركين فى غزوة أحد ، قائلا : « اعل هبل ! اعل هبل ! » أمر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يجيبوه فيقولوا : « الله أعلى وأجل » فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » فأجابه المسلمون بأمر رسول الله : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى » فصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؟



قال شيخي

للسيد الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخي :

حلت الخمر وكانت حراما وبلأى ما ألمت تحل

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالى لَخلُّ

حلت له الخمر بعد مطاولة وجهد ومشقة ، كان عليه أن يثأ لخاله الذى قتلته هذيل ، ولقد أخذ منه الهم والبلاء كل مأخذ ، فجسمه خَلّ أو مختل أو مضعضع منهار بلغة العصر ، على أنه قد آن له أن يريح ويستريح ، وأى شيء أروح له من معاقرة الراح ؟ فأنت تعلم أنها كانت داءهم العياء قبل الإسلام ، أو متعتهم الكبرى ، فهى إحدى الثلاث التى لولاها لكان سواء لدى الفتى العربى الأبى أن يموت أو يعيش : الخمر ، والمرأة ، والنجدة إذا استغاثه المكروب أحبط به ، واحسبنا عرضنا فيما سلف لقول طرفة :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى

إلى قوله

لست أدرى ما ذا : « تحت الخباء الممدد »

فليسقه رفيقه : سوادة بن عمرو كيما يمتلىء جسمه هذا الخل ويعود كما كان أيداً متيناً مستحصَد القوى ، مستعدا لما عسى أن يأتى به الحدثان غدوة أو عشيا .

لقد كانوا يحرمون على أنفسهم شرب الخمر وغسل الرأس من الجنابة ، وثالثة كان يحرمها بعضهم فقراً أو تجملا دون تكليف ، أو استكمالا لمثالية الحرمان ، ذلك أنه لا يأكل اللحم فهو أيضاً مما لا يحله إلا أن يعطى السيف حقه حين يتغافل غيره عن أداء هذا الحق الكريه .

إن الشواء والنشيل والرغف وصفوةَ القدر وتعجيلَ اللقف
والقينة الحسناء والكأسَ الأنف للطاعنين الخيل والخيلُ قطف

اللحم مشويا أو مسلوقا فى القدر ينشل منها ، بل صفوة تلك القدر أو أطيب ما فيها ، والرغف ـ جمع رغيف ـ وتعجيل التقاف شحنة الفم ، وأما بعد : فالحسناء العروب أو اللعوب ، والكأس المترعة : كل أولئك حق الذين يطعنون الخيل أو أصحاب الخيل وهى قطف : تمشى على مهل فذلك شأنها حين اللقاء .

فأنت ترى أن تأبط شرا لا يأتى بدعا من الأمر قولا أو فعلا حين يبتغى إلى صاحبه أن ينهله ويعله ولا بأس أن يتخير له ألوان النقل .

قلت : طبيعة الأشياء أن الشعوب البدائية لا تعرف الخمر ، ولحكمة يعلمها علام الغيوب شاء أن تعرف العرب الخمر فى جاهليتها ، وتدمنها أشد الإدمان ، إلا من عصم الله من تلك القلة التى يحدثنا عنها أصحاب الأخبار والسير .

قال : لا تنس أولا أن الشعوب التى حدثنا عنها أصحاب الأخبار كلها عرفت الخمر أشكالا وألوانا .

ثانياً : أن العرب فى جاهليتها لم تكن شعبا بدائيا بالمعنى الاصطلاحى الذى يعنيه أصحاب « علم الإنسان » بل لقد كانت تجاوزت « طور البربرية » وهو كما تعلم طور تقدمى بالقياس إلى « البدائية » نعم فلقد كان للعرب حين ذاك حضارة أو مدنية حتى فى قلب الصحراء ، مع ملاحظة أن لفظ « مدنية » له دلائل أخر غير النسبة إلى المدينة أو التطبع بطوابعها ، اقرأ القرآن وفكر وقدر وتدبر ، فلن يعدوك أن تراه يخاطب قوما غير بدائيين ولا مبربرين ، بل قوما لهم منطقهم ولهم خصائصهم المميزة وكبرياؤهم وغرورهم الذى يشاء لهم أن يقسموا بنى آدم إلى قسمين :

القسم الأول : العرب . . وإنها لأولية معنوية هم بمقتضاها الخلاصة .

والقسم الثانى : بقية بنى آدم ، أسودهم وأحمرهم سواء ، فكلٌّ أعاجم أو عجماوات إن اهتديت بهدى « أبى علاثة » الذى لم يكن يسيراً عليه أن يقول : سبحانه وتعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا

إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وإذا قال لهم النذير : كلكم لآدم وآدم من تراب ، أو الناس سواسية كأسنان المشط ، لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، ولا أقل من أن يخرجوه من البلد ، وما دروا أن ربه يخرجه من بيته بالحق ، لقد كانوا قبله يعلمون أنهم فيما بينهم سواء « كأسنان الحمار » بيد أن تلك المساواة والسوية التى تقتضيها أمور خاصة لا يجوز أن تجوز حيزها الخاص إلى المحيط العام .

قلت : ولماذا الجاهلية وتمثل أمثالها ، فلقد يتهيأ لى أيام كنت صبياً يسألنى سائل : أمسلم أنت أم عربى ؟ ولما كنت من بيئة مسلمة كان يتعذر على أن أجيب إجابة لا تتضمن أنى مسلم ، إلا أنى عربى مستمسك بعروبتى ، فيتعذر على كذلك أن أجيب إجابة تغفل هذه العروبة ، فكنت أجيب أنى عربى مسلم ، ولكن السائل يريد أن يعبث بى فيلحف فى المسألة : كلا لا بد أن تختار أحد الأمرين ، فأنت إما عربى وإما مسلم ، ويغيثى الله برجل واسع الأفق يقول لى : أجب بأنك عربى تام ، فإن العروبة لم تتم بل كانت معنى منقوصاً أتمه الإسلام أو أكمله ، فإذا قلت أنا عربى تام أو عربى كامل تضمن هذا التعبير وأشباهه أنك مسلم ، ولم يكن عجيباً أن أفقه هذا النحو من الكلام على صغر سنى ، فإن الصغار يفهمون أشياء تبدو متعذرة الفهم متى كان الشارح ممن يحسنون الإفهام فوق إحسان الفهم ، كذلك لم يكن عجيباً أن يستجيب العرب لدعوة الرب حين أرسل إليهم محمدا صلى الله عليه وعلى آله والتابعين .

لست أدرى من فقيه اللغة أو « اللغات المقارنة » الذى قال إن لفظ « عرب » أصله العتيق هو « على الرب » صارت إلى « عرّب » ، ثم خففت الراء فهى « عرب » كما أن لفظ « عجم » أصله « على الجم » أى على الماء صارت عجَّم ، ثم خففت الجيم كما خففت راء عرب ، فالعرب فى عيشها على الله أو على الرب مع الكلأ حيث شاء الله أن ينبت ، فإذا استنفدته يممت غيره ، فإن أرض الله أريضة عريضة وفيها مراغم كثير وسعة على خلاف غيرها من الأمم التى تضرب أو « تخيم » أو تبنى قراها على الماء وعلى الأنهار ، أو تستنبط الماء من الآبار لتسقى الزرع أو ترويه ريا فنيا لا يعرفه أولئك الذين يحلون ويرتحلون حيث شاءت منازل الغيث ، إنه لتعليل

تسكن إليه النفس العربية سواء أصدق أم كان رجما مما ترجم به الظنون ، أن مبادىء اللغات وسائر المقولات والمحسات والمجردات والماديات والمعنويات ، كلها لا سبيل إلى اليقين فيها ، وإنما هى احتمالات وراجحات ومرجوحات ، وهو - وحده سبحانه - بكل شىء محيط ؛ على أنه يرد على هذا الذى أقول أن العرب فى جاهليتها الأولى لم تكن أمة راعية فحسب ، بل كانت زارعة تزرع وتروى بالطرق الفنية . . وإلا فقيم الضياع - جمع ضيعة - والقطائع - جمع قطيعة - أفليست هى المزارع بمعناها الفنى العصرى .

قال : على رسلك ، فلقد انتجعت وأبعدت النجعة ، أما « الجاهلية الأولى » فهى فى اصطلاح أصحاب التاريخ ، تلك التى كانت ثم درست وبادت ولم يبق منها باقية إلا « النقوش » والأحجار ، أعنى الآثار فى مختلف صورها ، وإذا صدقت الذين كتبوا التاريخ وحياً أو استيحاء من تلك الآثار فهم يقررون أن العرب التى أرسل إليها محمد صلى الله عليه وسلم كانت قد أنسيت تاريخها هذا القديم المجيد ، فلم يغالب الزمان منه إلا عقابيل ارتسمت فيما يسمونه العقل الباطن أو ما وراء الشعور . . والقرآن نفسه يؤيد هذا النظر إذ يقول عن أحد تلك الشعوب العربية البائدة : « فهل ترى لهم من باقية » ؟ فهذا التعبير يدل على أنهم اجتثوا أو استؤصلوا فلن ترى منهم شيئا يمكن أن يسمى باقية ، إن الجاهلية التى يمكن أن تتكلم عنها بما يملأ الفم لهى تلك التى سبقت الإسلام بنحو مائة أو مائتين أو ثلاثمائة سنة أو أكثر أو أقل فيما هو قريب من هذا الحيز الزمنى الذى لم توضع فيه أصول اللغات العربية وغيرها من أخواتها الساميات ، ذلك عهد استأثر الله بعلمه ، ولا حيلة للمنقبين ، أو - كما سماهم ابن النديم - المنقرين غير الحدس والظن واستنطاق « الصم الخوالد » التى « لا يبين كلامها » كما قال لبيد فى معلقته :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يَبينُ كلامها

نعم فإن حديث الصم الخوالد لبيداً عن السيدة أو الآنسة « نوار » التى غنيت ما شاء الله أن تغنى « بمنى » ثم رحلت عنها « فتأبد غولها ورجامها » لا يختلف عن حديثها إلى مؤرخى الغرب حين يكتبون عن الشرق والعرب ، إلا من حيث إن لبيدا

لم يكن متأثراً بأحكام سابقة وأغراض خفية حتى على أصحابها الذين يتجنون ويظلمون وهم لا يشعرون ، أفلم يكن رينان ـ مثلا ـ من وجوه التاريخ الوجيهة التى زارت الأماكن المقدسة وشهدت الأرض التى بارك الله حولها ؟ بلى ولقد كتب فى ذلك صحفاً خالدة فى تاريخ الفكر الأوربى ، وإنه ليستطرد إلى العالم القديم أيام المسيح عليه السلام حين كانت تلك البلاد عامرة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، تأكل من فوقها ومن تحت أرجلها إلى حد أن الإثراء كان ميزة ربما نزل عنها صاحبها اختياراً ، إذ لا فرق يذكر بين اثنين أحدهما غنى والآخر فقير ، فيم إذن تبعة الغنى وتحمل أعباء ليس ثم ما يدعو إلى تحملها الذى لا يعطى الإنسان شيئا يحرمه غيره من بنى الإنسان ، ولكننا فى نهاية القرن التاسع عشر ، إذ نرتاد تلك البلاد ، لا نجد إلا الحرمان : الجوع والمرض والجهل وملحقاتها التى تتعلق بها تعلق الظل بصاحبه ، على أنه لا يفوتك أن تلاحظ مع هذا الشقاء الإنسانى فى أبشع أشكاله أن النساء فى « الناصرة » جميلات فاتنات رضيات الخلق كريمات طيبات ، أفتراها حقا كرامة شاء الله أن يكرم بها السيدة العذراء ، كما فطن لذلك أحد كتاب القرن السادس الميلادى وغيره ممن راعتهم تلك الظاهرة ؟ إن « رينان » ليتساءل هذا التساؤل على الرغم من إعلانه أنه كفر بالمسيحية ، أجل ولكنه مؤمن بالمسيح مرتبط بأخلاقه ، وهو فى واقع الأمر لم يكفر إلا اضطراراً إذ استمع إلى حديث عقله ، آه لو استطاع أن يلغى هذا العقل المشؤوم ، إذن لعاش سعيداً ومات سعيداً كغيره من النصارى الصادقين المخلصين .

والمهم فيما نحن فيه أنه علل هذا الإجداب بعد الإخصاب ، والفقر بعد الغنى ، والشؤم بعد اليمن ، بتلك الكارثة التى ابتلى الله بها الإنسانية ، فاستولى المسلمون على بيت المقدس ، فكانت النتيجة الطبعية أن يغيض ماء الحياة جراء هذا البلاء العظيم .

قلت : مدى علمى أن « رينان » من المفكرين الأحرار المؤرخين الجادين الذين لا يعنيهم إلا كشف الحقيقة ، سواء لديه أرضى الراضون أم سخط الساخطون ، كان « مثالياً علمياً » يريد العلم على أن يقوم بين الناس مقام المعتقدات القديمة البالية التى لم يعد فى الإمكان حمل الناس عليها بعد أن أصبحت مقولاتها كذباً صراحا يستحيل

أن يكون موضع خلاف ، على أن هذا الكذب الصراح ليس إلا الشكل أو الصورة ، فأما اللب أو الجوهر فهو الحقيقة الأبدية الخالدة التى عبر عنها السيد المسيح عليه السلام ، وهو من أجل هذا متخلق بخلق المسيح مرتبط بجوهر الدين ، والمتدينون الحقيقيون لا بد متبعوه آخر الأمر .

قال : رويدك بعض حماستك ، فلقد تركتك تهذى ما شاء لك رينان أو الشيطان فلست أحسبه إلا إحدى أحابيله .

إنها لمدرسة رئيسها « سانت بيف » وليس من شك أن رينان كان من التلاميذ النجباء الذين يعتقدون أن السيد رئيس المذهب بكل شيء عليم ، فتلك عبارة رينان نفسه فى كتاب « ذكريات طفولته وصباه » .

أو تدرى ما العلم الذى ترهب له أولئك السادة فكانوا حوارييه وقديسيه القائمين يصلون فى المحراب ؟ إنه مجموعة العلوم الاجتماعية : التاريخ والاجتماع واللغات وفقهها إلى آخر قائمة الحساب ، حساب تلك العلوم التى يأبى أصحاب العلم الحق : الطبيعة والكيمياء وغيرهما من مجموعة العلم بمعنى الكلمة الاصطلاحى عند العلماء الذى درسوا الكون من أعلى أفلاك السماء إلى الذرة السوداء ، أعنى هذه الأرض التى كانت إلى عهد قريب مركز الكون ، حتى جاء « كوبرنيك » فكانت الثورة الفكرية التى ما نزال فى معمعتها . يقول لك رينان صاحبك هذا الذى أردت أن تمضى فى الحديث عنه ، لولا أن وقفتك أن العلم ـ بالمعنى العلمى ـ لا علاقة له بتشككه أولا ، ثم بيقينه بعدُ أن الكتاب المقدس لا يعبر عن الحقيقة ، ولكنه فكر وقدر ونظر فى فقه اللغات السامية ، ومنها العربية التى يعترف أنه كان ضعيفاً فيها ضعف أستاذه الكبير العلامة « لاهير » فكان نتيجة نظره أنه كفر والعياذ بالله . لقد مكر به الله وهو خير الماكرين ، وأتاه من حيث لا يحتسب ، جاءه من حيث اللغة التى يقول فيها الشماخ بن ضرار رضى الله عنه :

كما خط عبرانية بيمينه بتيماء حبرٌ ثم عرّض أسطُرا

يريد الشماخ أن هذا الحبر بتيماء كتب بالعبرانية ، أو خط بها سطوراً تكاد لا تتبين ، فهى غير واضحة ، إلا أنه عرّض بضعة أسطر ، أى كتبها محسنة منمقة

عريضة بينة ، فذلك هو التعريض ، وكذلك معالم الأطلال التى وقف عليها الشماخ بعضها خفى لا يدركه البصر ، وإنما تدركه عين القلب أو البصيرة ، أو كما قال آخر :

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

وبعضها واضح المعالم لا يخفى على العين الكليلة بله العين الحادة ، يشبه تلك السطور العريضة التى سطرها حبر تيمياء ذلك الذى يحدثنا عنه الشماخ حديثاً يكاد يفصح عن أنه كان يعرف القراءة والكتابة ، وإلا فمن أين له هذا التمييز بين كتابة مبهمة تتعب عين القارىء ، وبين ثانية واضحة لا خفاء فيها ، على أنها ليست حجة قاطعة ، فعسى أن يكون الشاعر العربى سمع أن الكتابة العبرانية من شأنها أن تكون حيناً غير معتنى بها ضيقة خفية ، وحيناً مفروغا لها مزوقة واسعة تعرّض تعريضاً ، ومن يدرى فلعل رينان فى بعض ما استنبط من العبرانية أو السريانية أو اللاتينية أو اليونانية ، نظر لحكم لحسم كما أحسم أنا الآن ـ إن قطعت ـ أن الشماخ كان يجيد العبرية قراءة وكتابة ، ذلك بأنه قال هذا البيت بيت حبر تيمياء . . قال « رينان » وأصحاب المثالية العلمية كافة : إن الدين ليقوم على المعجزات وخوارق العادات وإن شيئا من هذا لم يتحقق فى عهدنا الحاضر ، وأولى ألا يكون تحقق فى الغابر ، فرد الذين أوتوا العلم الحق ، أعنى أصحاب الرياضة والعلوم التجريبية . . بل إن المعجزات وخوارق العادات أولى أن تكون دليلا على عدم وجود الله ، ذلك بأنه يمكن القول إذا اخترقت قوانين الكون ، لماذا لا تكون هذه العوالم وليد المصادفة ما دامت الشمس تشرق مرة من الغرب وأخرى من الشرق ، ويتكرر الصيف و الشتاء فى حين أن اتساق هذا الكون اللانهائى ـ بله المجموعة الشمسية التى لا تساوى فى الجملة شروى نقير ـ دليل قاطع على الوحدة ، وحدة المخلوق والخالق ، إنه المعجزة الأزلية الأبدية التى نحيا فى ظلها مذ كان وجود غير وجود الأول والآخر والظاهر والباطن ، بل إنها الحقيقة الوضعية المطلقة الوحيدة التى يستطيع رجل العلم أن يشهدها ويقررها ، ففيما عداها لا يتعدى علمنا الأعراض أو ظواهر الأشياء التى هى وحدها موضوع دراسة الدارسين ، وبحث الباحثين ، فأما الحقائق حقائق الأشياء أو جواهرها فغير معلومة لنا ، ولا يمكن أن نعلم علمها ، بل إن علمنا الظاهرى هذا

إضافى نسبى لا يرتقى مرتقى الإطلاق . . فالأرض ـ فيما نعلم ترجيحا لا تحقيقا يقينيا ـ تدور حول الشمس . وربما كان العكس هو الصحيح ، فكانت الثوابت سيارات والسيارات ثوابت ، ولن تتغير النتائج ، وإنما ينخرم قانون « بذل الجهد الأقل » الذى لا يزيد على كونه كغيره نسبياً ، إن وحدة النتائج لا تعنى وحدة الأسباب ، إن السبب الواحد لا ينتج إلا نتائج واحدة ، ولكن النتائج الواحدة ربما كانت خلائف أسباب كثيرة يعرف بعضها ويجهل بعضها ، أو لعل ما نعرفه وهم لم يكشفه العلم ، وسوف يكشفه أو لن يكشفه ، فعلم ذلك عند مالك الملك الواحد القهار .

إن اليقين فى « الكونيات » مستحيل ، لا نطمع أن يكون يوماً فى حيز الممكنات حتى لقد تساءل فلاسفة العلم : إذا كان التطور سنة الوجود ، أفلا تكون قوانين هذا التطور نفسها داخلة فيه بمعنى أن القوانين الكونية التى نستظل بظلها الآن غير التى كان يستظل بظلها أسلافنا منذ ألوف السنين أو ألوف الألوف ؟ .

لقد أرسل الله الرسل بالآيات وخوارق العادات الذى كذب بها الأولون زمان كان الإنسان طفلا اجتماعيا قاصراً عقله أن يدرك تلك المعجزة الكونية الكبرى التى يحدثنا عنها « بوانكاريه » وأضرابه من فلاسفة العلم الحديث . . فلما بلغ القاصر سن الرشد ، وكبر عقله بالقدر الذى يمكن له أن يسبر غور هذا الهول الهائل ، أرسل محمدا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين خاتم الأنبياء والمرسلين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

إنك لتعلم أنى لست ممن يفسرون القرآن بالعلم الحديث ، فليس هو كتاب هندسة أو جبر أو طبيعة أو كيمياء ، ولكن حضّه الناسَ على أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، أو توجيهه النظر إلى هذا النظام أو الاتساق الكونى المعجز ليس من هذا الضرب فى التفسير الذى لست منه فى شىء : . أفتراك لو رُدت توابع الشمس فزرعت المريخ حنطة ، والزهرة شعيرا ، والقمر أعنابا ، وسائر المجموعة ما شاء الله أن تزرع انتقصت قاعدة « ما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

كثيراً أو قليلا ؟ . كلا بل أنت كاشف مجاهل جديدة كنت تحسب من قبل أن علمك بها وفير غزير .

لقد بهر علم النهضة الأخيرة التى نهضها الإنسان عينيه وأثار إعجابه وغروره إلى حد الإيمان بالعلم إلهاً جديداً ، فظن « فولتير » أنه آن لبنى آدم أن يكفروا بإله هو الخبز يؤكل ، أو النبيذ يشرب ، وخلف من بعده خلف وخلف ، ثم سكن الإنسان من ثائرته فى أعقاب القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، بيد أنه قبل ذلك قد حاك ما شاء أن يحوك من خرافات العلم ، ولماذا لا تكون للعلم الحديث خرافاته . . أفلم يكن لأهل الأديان خرافاتهم ، لا أعنى الإسرائيليات فحسب ، بل قل ما شئت عن خرافات النصارى والمسلمين ، ودعك من عصور أساطير الأولين .

إنه لو قدر لهذه الأرض أن تمتد بها الحياة لجاء زمن تبتسم فيه الناس لترهات عصرنا هذا ، كما نسخر نحن من ترهات السابقين .

إن حديثك عن « رينان » ليذكرنى بلطيفة يرويها هو عن نفسه فى بعض ما كتب يقول : إنه يتسلم مرات فى السنة منذ عدة سنوات كتابا نصه الدائم الذى لا يتغير هذه الكلمة « ومع هذا إذا كان ثم جحيم » فالكاتب إليه رجل طيب يخشى عليه أن يكون من حطب جهنم جزاء ما فجر وكفر وخرج على الكنيسة التى علمته وهيأته ليكون من رجالاتها الأفذاذ .

ويقول فى صورة هازلة : إذا كان ثم جحيم فلست أعتقد أنى أستحقها ، بيد أنى لا أمانع أن أقيم مدة فى « المطهرة » ثم يقيض لى الله أرواحا خيرة تنتشلنى منها فإن الله غفور رحيم ، ما ظنك فى أنى أظنه جاداً لا يهزل ، فهو يطمع فى عفو الله عنه ، فتلك فطرة فطر الله الناس عليها عسى أن يخفيها الآدمى أو يحاول إخفاءها ، إلا أنها ما تنفك تستبين فى بعض ما يفعل أو يقول :

قلت : حين كان « رينان » يكتب عن أصول النصرانية والشعب الإسرائيلى والإسلام ، كان « الفكر الحر » هناك يسير فى اتجاهين متضادين : يرى أحدهما أن المسيحية بالنسبة إلى الثقافة « اللاتينية اليونانية » كانت زمن فترة أو حجر عثرة . .

مات « بان » الكبير - رمز الوثنية - فكان موته إيذاناً بزوال النور ، وإقبال الظلمات من هذا الشرق الخرافى الذى سلمت يونان أن تأكلها بربريته ، كما سلمت رومية التى هضمت البرابرة الذين أرادوا أن يبتلعوها فابتلعتهم ، ولكن ما أعجز هؤلاء لم يَعْىَ به الدين الجديد ، فسلام على « زيس » و « جبتير » و « فنيس » والأرباب والربات جميعاً ، فهو عهد الرهبان والأحبار أصحاب اللاهوت الذين هم أحرص الناس وأخلص الحراص وأيقظهم وأصدقهم استحفاظاً على الجهالة ، إنها ألف سنة سلختها الإنسانية فى كهوف تلك الجهالة حتى استيقظت الآلهة القديمة فى عهد النهضة الحديثة ، وهل كانت دلالة يقظتها إلا حركة الإحياء ، إحياء اللاتينية واليونانية على أيدى « إيراسم » وأصحابه « الإنسانيين » الذين أحيوا الدراسات الإنسانية ، أى اليونانية واللاتينية على أنقاض اللاهوتية واللاهوتيين ؟ الإنسان هو سيد هذا الوجود ، وليس ثم قوة أخرى هو مسؤول أمامها ، فعليه أن يحقق وجوده أو ذاته ، وسوف يخضع له الكون ، فله المجد وعليه أن يكسب تلك المعركة أو الحرب الطويلة التى أقامتها الأرض على السماء ، وتمضى الدراسات قدما ، وينصرم القرن السادس عشر ، فالسابع عشر ، فالثامن عشر ، بما انطوت عليه من أحداث وثورات هائلة فى التاريخ البشرى . . وها نحن أولاء فى القرن التاسع عشر ، قرن التدوين والتجميع ، فلقد قيل كل شيء ، ووضعت أصول العلوم ، وما علينا إلا أن نجمع ونرتب ونصنف ونشرح ، وعلى السنوات الألف بخيرها وشرها العفاء ، لقد كانت جاثوماً أو كابوساً أناخ بكلكله على الإنسانية مدة ليست طويلة فى عمر الأرض . . ولقد أدى من سبقونا منذ النهضة مهمتهم أتم أداء ، فعلينا أن نكون خير خلف لخير سلف ، وإذا كان لأصحاب اللاهوت قديسهم « سان داكان » فإن لنا قديسنا « سانت بيف » وليحيي ما قبل المسيحية : تراثنا التليد المجيد موصولا بعهدنا الجديد .

قال لبث قليلا : تقول إن الإنسانية والإنسانيين قامتا مقابل اللاهوتية واللاهوتيين ، فلماذا لم يسموهما الناسوتية والناسوتيين تمييزاً لها من الانسانية والانسانيين بمعنى الطابع الآدمى أو الخلق أو الأدب الإنسانى ، أفليس واضحاً أن

تلك الدراسات تقوم على أساس تمجيد الانسان أو تأليهه كفراناً بالواحد الديان ، أوليس مقتضى التسمية أو مفهوم المخالفة أن كل من ليس على شاكلة « إيراسم » وصحابته فهو عديم الإنسانية فى حين أن هـذا اللبس غير قائم فى اللغات الأوربية فهم يقولون « هيمانيسم » يعنون الدراسات التى تكلمت عنها ، و « هيمانيست » يعنون أصحابها ، ويقولون : « هيمانتى » و « هيمان » يعنون الانسانية بمعناها العام المعروف فى كل اللغات ، سواء منهـا المتصلات بالثقافة اللاتينية واليونانيـة ، وغير المتصلات .

قلت : عسى أن يتجه الشارع اللغوى عندنا هـذه الوجهة ، بل عسى أن يقوم عليها اعتراضات ، والذى يهم فيما نحن فيه الآن ألا ننسى الاتجاه الثانى من « الفـكر الحر » بمعناه الذى تعين وتحقق وأخـذ شكله النهائى فى القرن التاسع عشر . . قال أصحاب ذلك الاتجاه : مهلا وبعض غلوائكم . . لا تغلوا فى مهاجمة الدين وأصحاب اللاهوت بالحق وبغير الحق ، فإن المزامير والأناشيد لم تطمس على « هومير » و « فرجيل » بل أضافت طريفاً على تليد ، وكشفت عن مزايا إنسانية كانت محجبة على الوثنية ، وعلى الآلهة وأنصاف الآلهة والإلاهات ، والعذارى وربات العلوم والفنون . . إن « بان » الـكبير لم يمت ، وإنمـا جاءه أخ له من الشرق يقص عليه قصصا ، ويخبره أخباراً ما كانت لتخطر له على بال لو بقى فى عزلته ، ولم يلتق الشرق بالغرب كرة أخرى بعد التى تمت فيما قبل التاريخ المـكتوب ، فلسنا ننـكر الحقيقة الواقعة ، وهى أن المعرفة اليونانية الأصلية إنمـا جاءت من الشرق ، نعم جاءت بدائية وحشية ، فرعتها يونان حق رعايتها ، وما زالت تتعهدها بالتحسين والتجميل حتى انتهت بها تلك النهاية السعيدة التى تتمثل فى صور الفلسفة والعلم والفن الرفيع فـكذلك نتلق ـ نحن الغرب ـ تلك المسيحية التى جاءنا بها « بولس » بسيطة ساذجة ، فتتعهدها بالعـلم والفن فنفلسفها فتصبح بهجة للناظرين ، إنه لو بعث الآن بولس وبطرس والحواريون لأنـكروا المسيحية أشد ممـا أنـكرها الوثنيون ، إذ أخذتهم بغتة وأرادت أن تصرفهم عما كان يعبد آباؤهم الأولون .

لقـد كانت الحياة الإنسانية الـكريمة فى العـالم القديم شأن البطاريق وأبنـاء

البطاريق ، فأما الرقيق ورقيق الأرض وبنو غبراء جميعا « البليب » فقد كان شأنهم العمل والخدمة كي يقروا تلك الحياة السامية الرقيقة للسادة الأماجد ، فجاء المسيح بالبشرى يخبر خبر السماء ، ويعلن قيام ملكوتها أو مملكتها التي تتسع للبشر جميعاً دون تفرقة ، فلا بطاريق ولا رقيق ، وإنما هم بنو الإنسان أو أبناء الله يحيون معاً أسواء حياة اشتراكية تامة ، فلن يقبل المسيح إلا الإنسان ينزل عما يملك للجماعة المسيحية التي هو فرد فيها ، له مالها وعليه ما عليها ، وكذلك عرفت الانسانية كما يقول رينان نفسه أول ما عرفت ، فلم يكن لفكرة العدالة الاجتماعية وجود من ذي قبل . . ، لقد انتهى عهد التمايز بالدم أو الطبقة ، وأعلن حق الإنسان بوصف كونه إنساناً لا غير . . أفليست تلك قيما روحية أو أصولا خلقية اجتماعية كانت محجبة بالقياس إلى أصحاب الفكر اليوناني اللاتيني ؟ إنها الإضافة الكبرى التي أضافها الدين إلى تراث الآدميين ، فالقول بأن المسيحية قطعت رحلة الانسان التقدمية باطل وزور . . وإذا كنا الآن نرفض المعجزة وخوارق العادات أن نؤمن بها فلسنا نصدق أن المسيح أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، أو بوصف كونه ابن الله ، فليس الله فيما نعلم إلا قانون الطبيعة . . فتلك مظاهر أو قشور كان لا بد لصاحب الدعوة الانسانية الكبرى أن يغلف بها جوهر رسالته ، فإنه لو دعا الناس حين ذاك إلى الأصول والمبادىء التي جاء بها مجردة عن عالم الغيب وما فوق الطبيعة ، إذن ما عبأ به الناس شيئا ، كانت الغيبيات وخوارق العادات والتلقي عن الله الذي خلق الأرض والسموات دأب العصر وروحه ، فأما وقد علمنا وتكشف لنا الغيب وتبينا أن الشيخ الطيب ذا اللحية البيضاء التي يعبث بها الريح وهم صح في الأذهان ما شاءت الطفولة الانسانية أن يصح ، فلن يضيرنا أن نغفل القشر أو المظهر ونحتفظ باللباب أو الجوهر الذي هو حق الانسان في أن يحيا مع أخيه الانسان حياة حرية ومساواة ترعاها وترفرف عليها العدالة الاجتماعية ، أو ما نسميه الاشتراكية التي هي في الحقيقة الواقعة فكرة المسيح التي طبقها تطبيقاً عملياً ، وطبقها بعده الجماعة المسيحية الأولى ، كذلك كان يتكلم الشطر الثاني من المفكرين الأحرار خلال القرن التاسع عشر ، وليس ثم شك في أن « رينان » كان زعيم هذه الطائفة

أيام كان يبشر بالمسيحية الوضعية الطريفة ، وكان من البداهة أن يجر هذا التفكير فكرة أخرى ، فلقد قالت اليهود : نعم أوكان المسيح إلا يهوديا أم كانت البيعة النصرانية إلا بنت الكنيسة الإسرائيلية ؟ لقد أنىّ للبنت أن تعود إلى أمها معترفة بخطيئتها وأنها فرطت فى ذات أمها ، إن المسيحية واليهودية كلتيهما ـ بوصف كونهما دينيين يعمل بهما ـ أصبحتا فى ذمة التاريخ ، فنحن هودا ونصارى لا نتعبد كما كانوا يتعبدون فى القرن الأول وقبل القرن الأول ، وإنما هى قيم روحية ، وأصول خلقية ، وذكريات تاريخية ورثناها ، فنحن فيها أسواء وبمقتضاها أشقاء ، إن كل ما فى الأناجيل وجاءها مستقيا من التوراة ، حى وسوف يحيا ما بقيت على الأرض حياة ، لقد آن للآلهة أن تصطلح وهى ـ كما يعلمنا التاريخ ـ لا تصطلح إلا إذا فقدت محاريبها وكهنوتها ، شاهد ذلك نراه قائماً فى المتاحف ، أفلست ترى فى المتحف آلهة رومية وأثينا ومصر وسورية وغيرها متجاورة هادئة فى وقارها وعظمتها ، نراها على قواعدها الخشبية أو البرنزية وعساها أن تتبادل النظر الشزر ، ولكن كن على يقين أنها لن تمشى بعضها إلى بعض ، ولن تتماسك بالمخانق ، وغاية ما تحنق أوتختصم لن تتجاوز ذلك النظر الشزر ، كذلك كان يقول الأستاذ « جام دار مستتير » ويكتب فى « رسائله الشرقية » أيام كان يحاضر فى « الكوليج ودى فرانس » وهو حبر تحرير من أسرة يهودية مشهورة فى تاريخ الفكر الفرنسى ، فأخوه صاحب كتاب « حياة الكلمة » الذى له أهميته فى فقه اللغة الفرنسية على صغر حجمه .

لقد كان رينان فى الحقيقة راهباً من طراز جديد فى دير جمع مختلف طوائف النصارى وطوائف اليهود ، ولم يكن يخفى هذا التجديد ، بل كان له داعية مسموع الكلمة . . أفلم يقل فى لغة شعرية رائعة أنه شد ما ساورته الرغبة فى أن يجثو على ركبه ـ أو ركبتيه ما دام حديثنا بالعربية ـ وليس عندنا كما عندهم أقل الجمع اثنين ـ مناشدا أوربا المسيحية ألا تتناحر تناحر الأشقاء ، وألا تنسى مهمتها الحضارية الإنسانية ؟ .

لقد بدأ التقريب إذن فى الغرب بداية مدنية أو زمنية غير دينية ، أو دينية بالمعنى الجديد الذى مات رينان معتقداً أن المستقبل له ، وأن الشعوب قد تذوقت

حلاوته ، وأنها بالغريزة تفقة نتائج العلم التجريبي فى أحدث صوره ، فليس فى الإمكان أن تفقه الدين إلا فقهه هذا فى طوره هـذا الذى كان هو رسوله الأمين المبين .

قال : بل أنت مخدوع أو مفتر ، لقد مات يائساً أو شبه يائس ، نقل ذلك عنه « أناتول فرانس » فى بعض ما حدث عنه . . ولقـد حدثنى أستاذ جامعى واع عاد فى الآونة الأخيرة من أوربا بعد أن زار جملة من بلادها ، قال : إن الكنائس ثم عامرة بالشباب ، شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وببقية من الشيوخ المعمرين الذين أبوا أن يؤمنوا بالمسيحية الوضعية إن الكفر والإلحاد فى آيات الله لفترات استثنائية فى تاريخ البشرية ، بذلك قضى الله ولا راد لقضائه يحكم ما يشاء وهو خير الحاكمين . . إن ما كان يليه فى القرن التاسع عشر المدنيون أو الزمنيون أو الأحرار المفكرون أصبح الآن يليه الكنائس والكنسيون ، أفلم يأتك نبأ المجمع المسكونى الفاتيكانى ؟ لقـد تحدث البابا الراحل جان الثالث والعشرون إلى النصارى غير الكاثوليكيين فكان مما قال : إنه سبق له قبل أن يتبوأ الكرسى البابوى أن جمعته خدمة الإنسانية بمسيحيين لا ينتمون إلى كنيسة رومية ، فكان ـ فيما يعلم ـ حريصا وكانوا حريصين على « ألا يخلطوا فى الأصول » تعاونوا على البر والتقوى ، فتحدثوا لم يجادلوا ، وتوادوا لم يتناقشوا » وكيف تريد البابا على أن يقول غير هذا ؟ إن الذين خرجوا على الكثلكة لأصحاب ملل أو نحل ، لا يمكن بحال من الأحوال أن تعترف بها . . وليس قليلا أن يواد كبير المنشق عليهم المنشقين ، وليس معقولا أن يخلط أو يخلطوا فى الأصول ، وحسبهم أن يتعاونوا فى حدود : لكم دينكم ولى دين . وقبل هـذا كان فى نيودلهى مؤتمر المسيحيين غير ذوى الكثلكة التى مثلها هناك مراقبون مستمعون ، وأقيمت صلاة جامعة ، قيل حينئذ بحق إنها كانت الأولى من نوعها ، بل لقـد قدم اقتراح يهدف إلى حسم النزاع مع اليهود ، فتعترف الكنائس أنها فقدت إلى الأبد حق التبشير بين اليهود الذين لا يحملون تبعة قتل المسيح وصلبه . . ذلك بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا شك أن اليهود الحاليين لم يسعوا ولم يأمروا بقتل المسيح أو صلبه ، والخلف غير مؤاخذ بما اقترف السلف .

أذكر أنى قرأت نص هذا الاقتراح ، وقد أنسيت اسم صاحبه ، وعساه أن يكون أحد الكرادلة ، لقد كانت أحاديث القوم تدور حين ذاك حول موجة الإلحاد والكفر بالله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً . . وأنه يعنى المؤمنين به جل وعلا على ما بينهم من خلاف ، فإن الإيمان بالواحد القهار جامعة ، أفلا ترى إلى المؤرخين للأديان يجمعون أصحاب الدين السماوى كلهم تحت عنوان : « أسرة التوحيد » يريدون بها اليهود والنصارى والمسلمين ؟ .

إن الفلسفة المادية لتقوم على أساس إنكار الوحى ، إذ نبت كل شىء من الأرض ولم ينزل من السماء ، فكل موحى إليه ، إنما هو مفتر أو واهم موسوس شبه له أو خيل إليه ، فالوحى ظاهرة اجتماعية كغيرها من الظواهر يجب أن تدرس وتتبين على هذا الأساس وأنت لا تجهل بطبيعة الحال أن دراسات كبيرة قامت عليه ، فأى عجب فى أن يتعاون اليهود والنصارى ليثبتوا ـ مثلا ـ أن الوحى حقيقة سماوية واقعة وليست افتراء مفتر ، ولا وسوسة موسوس ، لقد قال الكاردينال بيا : إن الخلاف من طبائع البشر ، فهو شىء لا يمكن اجتنابه ، فلنختلف كما كان يختلف « برنابا » و « بولس » أو بولس وبطرس ، فإن المسيحية تلمنا آخر الأمر فهى الوحدة الجامعة .

قلت : فأهل الكتاب إذن يتقاربون ، والمسلمون ما خطبهم أولا فيما بينهم ، وثانياً فيما بإنهم وبين الذميين ؟ .

قال : أما فيما بينهم : فإن رقعة التقريب ما تزال مع كر الغداة ومر العشى تزداد اتساعا ، يقول كاتب فرنسى ، هو الأستاذ « سودريل دومينيك » فى كتيب له ظهر حديثاً بعد أن تكلم عن طوائف المسلمين : ومع هذا هم جميعا خارجين وشيعيين وسنيين ـ أهل القبلة أو المسلمون . وأما فيما بينهم وبين الذميين ، فليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وقاله الرحمن مخاطبا سيد بنى الإنسان : « قل يا أهل الكتاب تعالى إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ؟

منهج الإسلام
فى تحرير العقل والفكر

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يس سويلم طه
من كبار علماء الأزهر

ظهرت دعوة الإسلام وشعوب العالم مغمورة بموجة طاغية من فساد الاعتقاد والتدين ، بعضها يهيم فى عماء الجهل والتقليد الأعمى وعبادة الأهواء ، لأن الوثنية التى كانت من مواريث الجهل والتبعية العمياء ، استحوذت على عقولهم وأفهامهم ، فدانوا بعقائدها وخرافاتها ، وعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان .

وبعضها يرسف فى أغلال الحجر العقلى ومضلته ، لأن القادة الدينيين الذين استمدوا قيادتهم من وحى الأهواء وطغيان الشهوات ، كانوا يعلمونهم أن الدين لا يبيح لهم أن ينظروا فى عقائده وتعاليمه بعقولهم وأفهامهم ، وإنما عليهم أن يتلقوها منهم بالتسليم والإذعان ، وإن كانت لا تقبلها العقول والأفهام ، فكان مبلغهم من العلم بالدين أنه مجموعة من العقائد والأعمال التى لا مجال فيها للعقل ، ولا متسع فيها للبحث والنظر ، وبذلك سيطروا على عقولهم وأفهامهم ، وسلبوهم حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وفرضوا عليهم ما شاءوا من العقائد والشرائع التى اختلقوها بجهلهم وأهوائهم ، وبقى هذا الفساد مستحكما فى هؤلاء وهؤلاء ، حتى جاء الإسلام لإصلاح هذه الأوضاع الفاسدة ، وتحرير الإنسان من هذه الأغلال الجاثمة على عقله وفكره ، وإعداده بهذا التحرير الفكرى ، للإيمان والعمل بمناهجه الإصلاحية عن فكر ونظر واقتناع ، فأذّن فيهم بأنه دين التوحيد والفطرة ، والبحث والنظر ، والاهتداء بنور العلم والمعرفة ، وتحكيم الحجة والبرهان ، واستفتاء القلوب ومراجعة الضمائر ، وأقام منهجه فى تحرير العقل والفكر على ثلاث دعائم :

الدعامة الأولى : تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء وتربيته على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره ،

وتكتمل له شخصيته وإنسانيته ، فإن كمال العقل واستقامة التفكير واستقلال الإرادة ، هي أساس صحة العقائد واستقامة التدين ، ومعرفة الحق الذي يجب أن يتبع ، ومعرفة الباطل الذي يجب أن يجتنب ، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى ، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » .

وقد عنى الإسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فجعل البرهان أساس الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة ، وبين أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود على صاحبه ، وأنذر الذين يجادلون فى الله وآياته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما فى قوله تعالى : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان[1] له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه[2] ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

وكشف عن ضلال القادة الدينيين الذين انحرفوا عن العهود والمواثيق المأخوذة عليهم ، وافتروا على الله الكذب ، وانتحلوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم ، إرضاء لأهوائهم ، وإشباعاً لشهواتهم ، وتلبيساً على الناس فى دينهم ، كما فى قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون » ، « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ، « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » ، « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » .

---

(١) صفة كاشفة لبيان الواقع وليست للاحتراز .

(٢) أى لاوى جانبه تكبراً وإعراضاً عن الحق .

ودعاهم إلى كلمة الحق التى يستجيب لها كل ذى قلب سليم وعقل رشيد ، والتى لم يختلف فيها نبي مرسل ولا كتاب منزل ، كما قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وطالب كل ذى عقل بالنظر فى عوالم السموات والأرض ، وما فيها من الدلائل الواضحة على وحدانية الله تعالى فى ألوهيته وربوبيته ، كما فى قوله تعالى : أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ، « قل انظروا ما ذا فى السموات والأرض » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددنا وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

واستنهض العقول ، ووجه الأفهام ، وأيقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ، « ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » ، « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

وبشر الذين يستمعون القول فينظرون فيه نظر الناقد البصير ، ويتبعون منه ما يدل على الحق ويهدى إلى الرشد ، كما قال تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

وذم الغافلين ونعى[1] عليهم غفلتهم وإعراضهم عن دلائل الآيات الكونية ، التى يشاهدونها فى كل لحظة وهم عنها غافلون ، وتطالعهم بدلائلها فى كل آونة وهم عنها معرضون ، كما فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون

(١) نعى عليهم غفلتهم : أظهرها وشهرها — من باب نهى .

بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، « ولقد ذرأنا (١) لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وعاب على أسرى التقليد إعراضهم عن الحق الذى جاءت به أنبياء الله ورسله ، وجمودهم على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، وارتكابهم الفواحش باسم الدين تعصباً للجمود والتبعية العمياء ، كما قال عز وجل : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ، « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

وبين لهم عاقبة التبعية العمياء ، ومدى جنايتها عليهم ، كما قال تعالى : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

فالتقليد الأعمى من شر ما تبتلى به الأفراد والجماعات ، لأنه يميت مواهب الفكر والنظر ، ويوجب جمودها وركودها ، ولا يميز بين الحق والباطل ، ولا بين الصواب والخطأ ، ولا يفرق بين التقليد فى الخير والتقليد فى الشر ، ولا بين تقليد القادة الراشدين والقادة المضللين ، ويحمل أهله على الإعراض عن الحق ومعاداة أهله ، والوقوف فى طريق الإصلاح والمصلحين ، والجمود على العقائد والمذاهب الموروثة والتعصب الجماعى لحمايتها ، لأن قيام العقائد والمذاهب على أساس الوراثة

(١) أى خلقنا .

وتقليد الآباء والأجداد يضفى عليها قداسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها ، وتصرفهم عن التفكير فى صحتها أو بطلانها ، وتدفعهم إلى التعصب الجماعى لحمايتها والإبقاء عليها ، ومعارضة كل إصلاح جديد يخالفها أو ينتقص من قداستها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق فى آيات كثيرة ، كقوله فى شأن معاداة الأمم الماضية لدعوة رسلهم : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » وقوله فى شأن معاداة قريش للدعوة المحمدية : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد » .

وهكذا يفعل التقليد الأعمى وتقديس المعتقدات القائمة على الوراثة ، فهؤلاء كانوا يعرفون الرسول حق المعرفة ، ويعلمون صدقه وأمانته حق العلم ، ولكن التعصب الجماعى القائم على التقليد الأعمى وتقديس ما وجدوا عليه آباءهم ، حملهم على أن يعجبوا من دعوته ويتنكروا لها ، ويقولوا فيه وفى دعوته ماحكاه القرآن عنهم ، ويتواصوا فيما بينهم بالصبر والثبات على شركهم وضلالهم ، ولو أنهم حرروا أنفسهم من سيطرة التقليد الأعمى والتعصب الجماعى ، ورجعوا إلى تحكيم عقولهم وضمائرهم ، وسلكوا الطريق الذى أرشدهم إليه القرآن بقوله : « قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فخلا كل واحد منهم بمن يعرف فيه سداد الرأى واستقامة التفكير ، واستطلع رأيه واستكشف ما فى قرارة نفسه ، أو خلا بنفسه واستوحى عقله واستفتى قلبه ، لزالت عنهم تلك الغشاوة التى عقدها التعصب الأعمى على القلوب والأبصار ، ولعرفوا أن صاحبهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس به مايفترون ، وإنما هو رسول من الله صادق أمين ، ونذير لهم بين يدى عذاب شديد .

وهذه الحقيقة التى قررناها ، وهى أن قيام المذاهب والعقائد على أساس الوراثة والتقليد الأعمى ، يضفى عليها قداسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها ، وتصرفهم

عن التفكير فى فسادها وبطلانها ، وتحملهم على التعصب الجماعى لحمايتها من كل دعوة تخالفها أو تنتقص من قداستها ، هى السر فى تمسك الأمم والطوائف بالعقائد والمذاهب الموروثة وجمودهم عليها ، وإن كانت لا تستند إلى نظر صحيح ، ولا تقوم على أساس من الحق ، وقصارى ما تعتمد عليه هو التقليد القائم على التبعية العمياء ، وتقديس مواريث الآباء والأجداد .

وبهذه الدعامة قضى الإسلام على سلطة المتألهين من أصحاب القيادات الضالة المضللة ، وخلع عنهم رداء القداسة التى انتحلوها لأنفسهم ، وموهوا على الناس بأنها رفعتهم فوق النقد والتجريح ، وجعلتهم أرباباً من دون الله يحللون ويحرمون كما يشتهون ، وأجرى عليهم من أحكام المسئولية والجزاء ما أجراه على سائر الأفراد ، وبين أن ربوبية العبادة والتشريع إنما هى حق خالص لله وحده ، وأهاب بأسرى التقليد والتبعية العمياء ، أن يحرروا أنفسهم من هذه الأغلال الجاثمة على عقولهم وأفهامهم ، وتلك الأكنة المعقودة على أسماعهم وأبصارهم .

وقرر حق الإنسان فى حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وفتح له طريق التحرر الفكرى والاستقلال الإرادى ، وبوأه المنزلة اللائقة بإنسانيته وكرامته ، وعرفه أن الله تعالى لم يخلقه عبداً يقاد كما تقاد الأنعام ، ولا جعل لمخلوق حق السيطرة على عقله وفكره ، وإنما خلقه حراً مالكا لقياد نفسه ، وعبداً خالصاً لربه ، يفكر بعقله ويسترشد بمواهبه ، ويعمل باختياره وإرادته ، ويهتدى بنور العلم فى اختياره وعمله ، ولا يظهر بمظهر العبودية إلا لخالقه ، ولا يدين فى عقائده وسلوكه إلا بدين الحجة والبرهان .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أوضح حقيقتين قد يقع الخلط فى فهمهما :

أما الحقيقة الأولى : فهى أن التقليد الذى ذمه الإسلام وشدد النكير على أهله ، والذى سبق بيان مفاسده وآثاره السيئة فى الأفراد والجماعات ، إنما هو التقليد الذى يقوم على التبعية العمياء ، والجمود على القديم الموروث ، ومحاربة كل جديد يخالفه ولو كان ذلك الجديد أقوم طريقة وأهدى سبيلا ، والذى لا يميز بين التقليد

فى الخير والتقليد فى الشر ، ولا يفرق بين اتباع أهل الحق من الأئمة الراشدين والقادة المصلحين ، واتباع أهل الباطل من أصحاب القيادات الضالة والأهواء الجامحة ، هذا هو التقليد الذى ذمه الإسلام وشدد النكير على أهله ، وأما تقليد أهل الحق من الأئمة الراشدين والعلماء الراسخين ، الذين استمدوا علومهم ومذاهبهم من هدى الكتاب والسنة ، واستقاموا على الطريقة المثلى والمحجة البيضاء ، فليس من قبيل التبعية العمياء التى لا تنظر ولا تفكر فيما تقلد ، وإنما هو من قبيل القدوة الواعية المستبصرة ، واتباع غير العالم لأهل العلم والمعرفة ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى فى سورة النحل : « فاسألوا أهل الذكر[1] إن كنتم لا تعلمون » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث العرباض بن سارية : « فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » فطريق العصمة من ضلال الرأى وطغيان الهوى ، والنجاة من شرور التفرق والاختلاف ، والخروج من ظلمة الجهل ومضلته ، هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ، والسير على سنن الخلفاء والأئمة الراشدين المهديين ، وسؤال أهل العلم الذين عرفوا بالرسوخ والأمانة فى العلم ، والاعتدال فى القصد والتفكير .

وأما الحقيقة الثانية : فهى أن حرية الفكر التى جعلها الإسلام رائداً للتفكير الدينى ، ونبراساً للعقول والأفهام فى الاهتداء إلى معالم الحق ، هى الحرية التى تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلى والكبت الفكرى ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء ، وتُجَلّى لها معالم الحقائق التى كانت محجوبة عنها ، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء وإصلاح وإرشاد ، لا قيادة هدم وإفساد وتضليل ، وتستمد مقوماتها العلمية من هدى الإسلام وتعاليمه ، ونضوج العقل واستقامة التفكير ، والاعتماد على قضايا الحق والمنطق ، وتحكيم الحجة والبرهان ، وتجرى فى فهم نصوص الكتاب والسنة والاستنباط منها ، والاستدلال بها على قوانين النظر والاستدلال وأوضاع اللغة العربية وخصائص دلالاتها ، إذ لو وُكل الأمر فى ذلك إلى الناس

---

(١) أى أهل العلم والفهم .

يفهمونها ويستنبطون منها كما يريدون ويشتهون ، لاختلت موازين الصواب والخطأ في الفهم والاستنباط ، وغابت الحقائق عن الأفهام في غمرة الأهواء والنوازع ، وآل الأمر إلى فوضى لا ضوابط لها ولا حدود ، فإن العقول والأفهام متفاوتة ، والأهواء والنوازع متحكمة ، والكملة في كل زمان ومكان قليلون .

هذه هي حرية الفكر التي نادى بها الإسلام وجعلها نبراس العقل ورائد الفكر .

وأما حرية الفكر التي لا تتقيد بقضايا الحق والمنطق ، ولا تلتزم قوانين النظر والاستدلال ، ولا تخضع لسلطان الحجة والبرهان ، ولا تعبأ بحرمة النصوص الشرعية وقداستها ، ولا تعتمد إلا على السفسطة والغرور العلمي ، إذ ليس لها رائد من الحق تلتزم طريقه ، ولا هدف من الإصلاح تسلك سبيله ، وإنما رائدها وحي الأهواء ونوازع الشهوات ، وسوء القصد واعتلال التفكير ، وهدفها إطلاق العنان للألسنة والأقلام تقول ما تهوى وتكتب ما تشتهي ، وتتهجم على قدسية الدين وتسخر من تعاليمه ، وتشكك الناس في أصوله ومصادره ، وتدعو إلى الحياة المادية القائمة على الإلحاد والفجور والتحلل ، فإنما هي حرية زائفة متحللة ، لا يبيحها الإسلام ولا يرضى عن أهلها ، لأنها مَضلة للعقل ومَفسدة للمجتمع ، وسُبة للفكر وعار على العلم ، فيا من اصطنعتم لحرية الفكر معنى غير معقول ، وفتحتم لها مجالا غير محدود ، حَكموا عقولكم وضمائركم فيما تعملون ، فما هكذا تكون حرية الفكر وقيادة التوجيه ، وما هكذا تكون وسائل الإصلاح والتجديد ، واتقوا الله في أنفسكم وفي أممكم وأوطانكم ، واعلموا أنكم مسئولون أمام الله عن كل ما تقولون وما تكتبون ، وأنه لا مَهرب من الحساب ولا مفر من الجزاء ، وتذكروا قول الله جل جلاله : « إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

الدعامة الثانية : تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته ، فإن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفىء نور القلوب ويعمي البصائر ، ويميت عناصر الحياة والقوة في الأمم ، ويفسد على جماهير الناس مناهج الدين والتدين ، فإنه هو الذي يجعل النفوس مستعدة لقبول ما يحدث في الدين من خرافات وبدع ، لأن أهل

الأهواء والبدع الذين يظهرون بين الناس بمظهر القادة والزعماء الدينيين، يجدون فى الجهل بتعاليم الدين مجالا واسعاً لنشر الخرافات والبدع باسم الدين ، فيسارع أكثر الناس بدافع الجهل والثقة العمياء إلى اعتناقها ، ويعملون بها على أنها من الدين وهم لا يعلمون أن الدين منها براء ، ولقد عُنى الإسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فذم الجهل والجاهلين فى مواطن كثيرة ، كما فى قوله تعالى : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » ، « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » ، « فلا تكونن من الجاهلين » ، « إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وأنحى بالأئمة على الذين يتبعون الظنون والأوهام فى عقائدهم وتدينهم ، كما فى قوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون[1] » ، « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لايغنى من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون » ، « ولا تقف[2] ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وعظم شأن العلم وحث على طلبه ، كما فى قوله تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » ، « وقل رب زدنى علماً » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » ، « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

ونوه بفضل الحكمة وما فيها من الخير الكثير ، كما فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لاحسد[3] إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس » .

ورفع منزلة العلماء ، وجعلهم أهل خشيته ، وقرن شهادتهم بشهادته تعالى وشهادة ملائكته ، كما فى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

---

(١) أى يكذبون . (٢) أى لا تتبع فى عقائدك وأقوالك وأعمالك مالا علم لك به .
(٣) أى لا غبطة ، وهى تمنى المثل .

إنما يتذكر أولوا الألباب » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » .

وجعلهم ينابيع العلم وموارد العرفان ، ورواد الحق ودلائل الهدى ، كما فى قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وخصهم بالتعقل والفهم فى مقام ضرب الأمثال وبيان آيات الله الكونية ، كما فى قوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين[1] » .

وهكذا عرف المسلمون الأولون منزلة العلم وفضله ، وأدركوا مبلغ الحاجة إليه فى تدينهم وبناء مجتمعاتهم ودعم سلطانهم ، وأنه هو الذى يوضح لهم معالم السير على النهج القويم ، ويفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة ، ويكشف لهم عن أسرار العوالم الكونية ونواميسها ، ويقيم لهم وسائل الحياة والقوة ، ويبنى لهم قواعد السيادة والمجد ، عرفوا كل هذا فوجهوا عزائمهم إلى طلب العلوم على اختلاف أنواعها ، ولم يشغلهم عن طلبها ترف الحضارة ونعماؤها ، ولا ثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراؤها ، وبحثوا عنها فى آيات الله التشريعية وآياته الكونية ، وأقاموا لها فى كل قطر إسلامى مناراً عالياً ، وحملوا مشاعلها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يقفوا بجهودهم عند نتاج عقولهم وأفهامهم ، بل اتجهوا بها أيضا إلى علوم السابقين فاستخرجوها من زوايا الإهمال والنسيان ، وأخذوا إبريزها بعد أن زادوه نقاء وصفاء ، وردوا زائفها بعد أن بينوا زيفه وفساده ، لأنهم كانوا يطلبون هذه العلوم طلب الناقد البصير لا طلب التابع المقلد ، واكتمل لهم من ملكات العلوم والفنون فى جيل واحد ، ما لم يكتمل لأمة من الأمم الناهضة فى عدة أجيال ، وفى ذلك يقول بعض المؤرخين الاجتماعيين من علماء الغرب : « إن ملكة الفنون لم يتم تكوينها فى أمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال والاجتهاد ، إلا العرب وحدهم ، فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدأوا فيه بمزاولتها » .

---

(١) العالمون فى الآية الأولى والعالمين فى الآية الثانية : كلاهما جمع عالم ــ بكسر اللام ــ أى العلماء .

وإن تعجب لهذه النهضة العلمية التى تخطت مراحل النهوض فى الأمم ، فعجب أنهم قاموا بها على رغم الأحداث العاتية التى حملوا أعباءها ، والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها ، لأن الأحداث والخطوب وإن بلغت من العنف ما بلغت ، لاتستطيع أن تقف فى طريق العقائد التىانطوت عليها القلوب وانفعلت بها النفوس ، ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى أغراضها وأهدافها .

وبهذه النهضة العلمية استطاعوا أن يعملوا عمل الأقوياء لدينهم ووطنهم ، لأن العمل لبناء المجتمعات القوية فى دينها ودنياها ، لايصدر إلا عن إرادة قوية دافعة ، والإرادة القوية الدافعة ، لا تنبثق إلا من العلم ، فالأمة التى أفقدها الجهل قوة الإرادة وصدق العزيمة ، لا يمكن أن تعمل لدينها ولا لوطنها .

الدعامة الثالثة : تحرير الإنسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لوحيها ، لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه ، والتوائه فى نظره وتفكيره ، وضلاله فى عقائده وتدينه ، فإن الهوى مادخل فى شأن من شئون الدين والدنيا إلا أفسده ، دخل فى فهم الأديان والعمل بها فأفسدها ، ودخل فى سياسة الأمم وتصريف شئونها فأفسدها ، ودخل فى استثمار المال وتسخيره لمصلحة الفرد والجماعة فأفسدهما ، ودخل فى الرأى وقيادة التوجيه فأفسدهما ، لأن الهوى مضلة للعقل ، ومفسدة للرأى ، ومضيعة للحق ، فإذا ملك قياد صاحبه طغى على عقله وفكره ، وحمله على الالتواء فى تفكيره ونظره ، وسد عليه منافذ التفكير السليم والنظر السديد ، وقلب له أوضاع الأمور وعمى عليه معالم الحق ، فلا يرى فى مجال النظر إلا ما يوحى به الهوى ولو كان واضح البطلان ، ولا يخضع لما يخالفه ولو كان حقاً قام عليه الدليل والبرهان .

فعُباد الأهواء لا تسلم لهم طوية ، ولا يستقيم لهم رأى ، ولا تعتدل لديهم موازين الحكم ، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم ، كأن الحق تابع لأهوائهم وأغراضهم ، فإذا سألوا عن حكم شرعى أو رأى مصلحى ، سألوا عنه وصدورهم منطوية على هوى دفين ، فإن أجابهم المسئول بما يوافق ما انطوت عليه صدورهم

رضوا وقبلوا ، وإن أجابهم بما لا تهوى أنفسهم سخطوا وأعرضوا ، وإذا حاول إقناعهم بالتي هي أحسن ، ركبوا رءوسهم ولجّوا في عتوٍّ ونفور ، ودخلوا معه في جدال عنيف لا يقف عند حد ، ونقاش عقيم لا ينتهي إلى غاية ، لأنهم ليسوا طلاب حق يخضعون له ويسلكون سبيله ، وإنما هم أصحاب هوى يسيرون وراءه ويبغون تحقيقه ، لأن طالب الحق يطلب مايطلب من حكم ورأى ، وهو مجرد عن كل هوى يطاوعه أو غرض يتابعه ، مستعد لقبول الحق والرضا به متى ظهر له ، وذلك هو منطق العقل وطريق الوصول إلى الحق والاهتداء لأرشد الأمور ، أما أن يضع طالب الحكم أو الرأى نصب عينيه أمراً معينا ، ويطوى نفسه على هوى دفين ، ويأبى إلا أن يكون الحكم أو الرأى موافقاً لرأيه وهواه ، فذلك هو منطق الهوى وطريق الخداع والتضليل ، ومسلك القلوب العليلة والنفوس المريضة .

ولهذا عنى الإسلام بالتحذير البالغ من اتباع الهوى والانقياد الأعمى لوحيه ، فذم العاكفين على عبادة الأهواء والأغراض ، ونعى عليهم ضلالهم وانحرافهم عن الحق إرضاء لأهوائهم ، كما في قوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ، « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكّرون » ، « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وهكذا طالبنا الإسلام بأن نطهر نفوسنا وسلوكنا من الأغراض الخفية والأهواء الدفينة ، ونحرر عقولنا وأفهامنا من الخضوع لسلطانها والانقياد الأعمى لوحيها ، وأن نجعل أهواءنا تبعا لحكم الله وشرعه ، لا أن نجعل أحكام الله تبعا لأهوائنا ، فإن ذلك من أكبر العوامل في اعتدال النظر واستقامة التفكير ، وصحة العقائد وكمال الأخلاق وصلاح الأعمال .

هذا هو منهج الإسلام فى تحرير الفكر الإنسانى ، ولقد تلق المسلمون الأولون هذا المنهج التحريرى من ينابيعه الصافية ، واستقرت دعائمه فى أعماق نفوسهم ، وانطوت عليها أفئدتهم وجوانحهم ، فكان رائداً أميناً لعقولهم وأفهامهم ، وغذاء روحياً لغرائزهم ومواهبهم ، وطبعهم على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وكره إليهم التقليد والتبعية العمياء ، ووجه عقولهم للبحث والنظر ، وفتح لهم ميادين العلوم والفنون ، فأقبلوا عليها سراعاً ودخلوها من كل باب ، واتخذوا من رياضها مسارح لعقولهم وأفهامهم ، وبذلوا فى سبيلها كل ما تحتمله طاقة البشر من جهد عقلى واحتمال جثمانى .

وبهذه النهضة العلمية ، والثورة الفكرية المتحررة ، استطاعوا فى سرعة لم يعهد لها مثيل فى تاريخ البعث والنهوض ، أن ينتقلوا من أمة الأمية والانطواء على النفس ، إلى أمة العلم والقيادة الفكرية العالمية ، وأن يصبحوا أساتذة العالم وقادة الفكر ورواد العلوم والفنون ، يدرسونها للأجيال المعاصرة كأحسن ما يكون الدرس والتعليم ، ويدونونها للأجيال المقبلة كأحسن مايكون التأليف والتدوين ، وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته ، فقد كانت بعوث الأمم تفد على العواصم الإسلامية من كل ناحية ، فيأخذون عن علمائها ما شاءوا من أفانين العلوم وألوان المعرفة ، ثم يعودون إلى بلادهم حاملين إليها مشاعل هذه العلوم التى أخرجتهم من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة ، والتى نفخت فيهم روح الحياة والبعث ، وفتحت لهم طريق الانتفاع بأصلين عظيمين من أصول الإصلاح الإسلامى ، وهما : حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، كما شهد بذلك المنصفون من علماء الغرب فيما كتبوه عن الإسلام والمسلمين ، واعترفوا فيه « بأن المسلمين كانوا منفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة ، وأن الفضل فى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفى تعلمها كيف تنظر وكيف تفكر ، راجع إلى المسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها إليهم عن طريق أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، وأن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين والعقيدة ، وأن نشأة المدنية فى أوربا قامت على

أصلين عظيمين ، وهما : حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، فلم تنهض العقول للبحث ، ولم تتحرك النفوس للعمل ، إلا بعد أن عرفت أن لها حقا فى طلب الحقائق بعقولهم وأفهامهم ، وفى تصريف شئونهم بإرادتهم واختيارهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح ، حينما سطع عليهم شعاع من آداب الإسلام ومعارف المسلمين » إلى غير ذلك من أقوال الأحرار المنصفين من علماء الغرب وفلاسفته ، التى يعترفون فيها بما كان للإسلام والمسلمين من فضل عظيم فى إحياء العلوم ونشرها فى الشعوب والأمم ، وأثر كبير فى بناء صرح المدنية والحضارة فى ممالك الشرق والغرب .

فوازنوا أيها المسلمون بين ماضيكم وحاضركم ، وبين حال هذه الأمم التى سطع عليها شعاع من آداب الإسلام ومعارف المسلمين الأولين ، وانظروا كيف سهرت هذه الأمم على تنمية هذه الآداب والمعارف حتى بنوا بها الأوطان وملكوا بها الأقطار ، وكيف نام عنها المسلمون حتى ضعفت قوتهم وسلبت أوطانهم ، وأصبحوا يطلبونها ممن أخذوها عن آبائهم وسلفهم ، وهم لا يعلمون أنها تراثهم الذى أضاعوه بتقصيرهم وإهمالهم .

واتخذوا أيها المسلمون من هذه الموازنة أنفع الدروس وأبلغ العظات والعبر ، واعملوا عمل الأقوياء بعلومهم وعزائمهم واتحادهم ، فذلك هو سبيل النهوض بشعوبكم وتحرير أوطانكم واستعادة أمجادكم ، وتذكروا قول الله جل جلاله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ؟

أنا اللغة

أو

الصراع بين القديم والجديد

لصاحب الفضيلة الشيخ على محمد حسن العماري

— ٧ —

ولنترك مؤقتاً سادتنا الشعراء : القدماء منهم والمحدثين ، لنقف وقفة قصيرة مع بعض كتابنا الذين شاءوا أن يسيروا فى درب أبى تمام ومن نهج نهجه ، وأغرموا بالأسلوب الغامض ، وظنوا أنهم بذلك أتوا بما لم يأت به أحد ، وغرتهم قدرتهم على استعارة بعيدة ، أو كناية غريبة ، أو لفظ مهجور .

وعندى أن هؤلاء جهلوا أثر الاعتدال فى البلاغة فظنوا الإغراب غاية البلاغة ، وأخذوا ينحتون من صخر ، ويمتحون من بئر بعيدة الغور ، وكأنهم لم يقرءوا كتاباً واحداً من كتب النقد ، أو كتب البلاغة ، ليعلموا أن أول أسباب الجمال فى الأسلوب إنما هو الوضوح ، وأن البيان إنما سمى بياناً لأنه توضيح وكشف وإظهار ، وكأنهم لم يطيلوا النظر فى أساليب العرب ، وفى الكتاب المنزل الذى لا يمترى أحد أنه فى أعلى درجات البلاغة ليوقنوا أن الإغراب ليس من سمات الأسلوب الجيد .

بلى ، لقد قرءوا فى كتب النقد ، والبلاغة ، وقد نظروا طويلا أو قصيراً فى كلام العرب ، ولكنهم يكابرون فيما لا وجه فيه للمكابرة .

وقد كنت أظن أن الفتنة بالوحشى من الألفاظ ، والمعقد من الأساليب كانت مرضاً قديماً ابتلى به أفراد لم يسلموا من التجريح والسخرية .

كما كنت أظن أن أدباءنا بعد أن قرءوا ما كتب الجاحظ وأمثاله قد اقتنعوا أن لا مكان فى البلاغة للتكلفين المتزيدين .

غير أن هذا الظن كان مسرفا فى التفاؤل ، فلا تزال الصحف تطالعنا فى الحين بعد الحين بكلمات جامدة لا روح فيها ولا ماء ، أبرز صفاتها الغموض ، وأول ما تدل عليه التكلف والمعانات ، وأعدل حكم عليها ما حكم به النقاد من القدماء على أمثالها .

فقد أشبع النقاد أبا علقمة النحوى سخرية ، قالوا إنه شهد عند بعض الأمراء بأن حبشيا شج رأس صقلبي ، فأغرب فى شهادته ، ولم يفهم الأمير منها شيئا ، فكشف الأمير رأسه وقال للصقلبي : شجنى خمسا ، وأعفنى من شهادة هذا .

ووُصف أبو علقمة - فى بعض مواقفه - مع أنه كان عالماً باللغة العربية ، وُصف بأن شيطانه يتكلم بالهندية ، وقد عده بعض المؤلفين فى الثقلاء .

وذكر الجاحظ أن العلماء يديرون فى كتبهم كلاماً غريباً لو خوطب به الأصمعى لجهل بعضه ، ثم قال : فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج ، وشعر الطرماح ، وأشعار هذيل تأتى لهم - مع حسن الرصف - على أكثر من ذلك .

وهذه العبارات التى علق عليها الجاحظ من كلام يحي بن يعمر ، وقد قال : ليس فى هذا الكلام شيء من الدنيا إلا أنه غريب .

ولقد وقفت عند هذا الوصف ، وعجبت للجاحظ تبلغ به الكراهية للغريب أن يجرده من كل صفة تكون فى عالمنا هذا إلا أنه غريب .

كما استوقفنى قوله فى الغريب : وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من دابهم[1] ، وهذا القول يدل على أن هذا الكاتب العظيم تنبه إلى أن للأسلوب صلة قوية بأخلاق الكاتب ، بل هو يرى أن الأسلوب يكون من أخلاق الكاتب ، أو لا يكون من أخلاقه .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ط : هرون .

وهذا الذى يشيد به المفتونون بالغرب منا ، فينسبون إلى كتابه أنهم تنبهوا إلى أن أسلوب الرجل هو الرجل على معنى « أن أسلوب الأديب مرآة صافية لشخصيته كلها ، نقرؤه فنحس بصاحبه يطالعنا دائما بعقله وشعوره وخلقه ومزاجه وعقيدته وكل ما يميزه من سواه » .

والذى يبدو أن التكلف فى الأسلوب يدل على الكزازة فى الطبع ، والجوح فى الخلق ، والغرام بالتفرد والشذوذ ، وكل ذلك ليس من أخلاق الكتاب الذين كان الجاحظ واحداً منهم ، وكان منهم جماعة من فضلاء القوم .

ومن الملح التى ساقها الجاحظ فى هذا الموضع من كتابه ، ونحن نسوقها هنا للترويح عن القارىء أيضا قبل أن نسترسل معه فى الحديث عن المتكلفين ، وسوق الشواهد من كلامهم ، ما رواه عن أبى الحسن قال : كان غلام يقعر فى كلامه ، فأتى أبا الأسود الدؤلى يلتمس بعض ما عنده ، فقال له أبو الاسود : ما فعل أبوك ؟ قال : أخذته الحمى ، فطبخته طبخا ، وفنخته فنخا ، وفضخته فضخا ، فتركته فرخا .

قال أبو الأسود : فما فعلت امرأته التى كانت تهاره ، وتشارّه ، وتجاره ، وتزارّه ؟ ! قال : طلقها ، فتزوجت غيره ، فرضيت ، وحظيت ، وبظيت [1] ، قال أبو الأسود : قد عرفنا رضيت ، وحظيت ، فما بظيت ؟ قال : حرف من الغريب لم يبلغك ، قال أبو الأسود : يا بنى ، كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر السنور جعرها [2] .

وإذا كان لهؤلاء المتقعرين عذر من مرة تتحكم فى عقولهم ، أو حمق يغلب عليهم ، أو رغبة فى الغريب لأنه غريب ، فما عذر كتابنا الذين يعيشون فى القرن العشرين ، ويوقنون حق اليقين أن هـذا التكلف فى الأسلوب لم يعد يحفل به أحـد ، لا من

---

(١) فنخته : أضعفته ، والفنيخ : الرخو الضعيف ، وفضخته : دقته ، تزاره : تعاضه والزر : العض ، حظيت : من الحظوة ، وبظيت : اتباع لحظيت . وهذا الشرح كله من كلام الجاحظ . وفى هامش النسخة : تهاره : تهر فى وجهه كما يهر الكلب ، وتشاره : تعاديه وتخاصمه ، وتجاره : تلحق به الجريرة .

(٢) الجعر : الخرء .

المتعصبين للقديم ، ولا من الموغلين فى حب الجديد ، ولا من المعتدلين ، بين أولئك وهؤلاء ، فليس فى جيلنا ذوق يستسيغه إلا أن يكون ذوقا مريضا .

إن كانوا إنما يكتبون للصيت - ولا أظن - فقد عكسوا على أنفسهم غرضهم ، فمثل هذا الصنيع يكسبهم صيتا ولكن على غير ما يشتهون ، وإن كانوا إنما يكتبونه معتقدين أنه لون رفيع من أساليب البلاغة فقد كابروا فيما اتفقت عليه كلمة النقاد والبلاغيين من حد البلاغة ورسمها ، وإن كان هذا الأسلوب قد أصبح عادة لهم ، فعليهم أن يروضوا أقلامهم وملكاتهم على النهج القويم من أسلوب العربية الواضح الرصين .

وليس من حق واحد منهم أن يقول : (أنا اللغة) - كما سمعت ذلك عن أحدهم - فقد روجع فيما يحشده فى شعره من استعارات غريبة ، وكنايات بعيدة ، فقال : ما الفرق بينى وبين امرىء القيس ؟ لماذا جاز له أن يقيد الأوابد ، ويستوقف الركب ، ويبتكر ما يشاء من المعانى ، ولم يجز مثل ذلك لى ؟ أنا أكتب كما أريد ، وأنظم الشعر كما أريد ، وأتصرف فى الأساليب كما تصرف فيها أوائلنا .

ومرجع ذلك فى نظرى هو الغرور والجهل ، أما الغرور فلأن هذا القائل وضع نفسه فى قمة عالية من كتاب العربية وشعرائها ، ولم يدر أنه ما يزال فى السفح ، وسيبقى فيه إلى أن يموت ما دام يصدر عن مثل هذا التفكير السقيم ، وأما الجهل فلأنه ظن أن اللغة صناعة ، وليست طبعا ، وفاته أن الأعرابى الذى كان يبول على عقبيه ، ويأكل الشيح والقيصوم ، ويعاشر الغيلان أصح منه لغة ، وأقوم طبعا ، ولو قرأ صاحبنا هذا كل ما كتب فى العربية ، ودرسه ، وهضمه .

ومن واجبنا أن ننبه إلى ما يتردى فيه هو وأمثاله من أخطاء فى الأسلوب ، وما يلجأون إليه من تنكب للجادة ، كما كان من واجبنا أن ننبه إلى ما يقع فيه هؤلاء أو غيرهم من أخطاء فى مفردات اللغة ؛ فليست مراعاة الأسلوب الجيد بأقل شأنا من مراعاة الألفاظ الصحيحة .

نعم . كل إنسان حر فيما يأخذ وما يدع ، ولا سيما فى أسلوب كلامه الذى يريد أن يتحدث به ، أو يكتب به ، ولكن الخطأ الذى ينبغى أن يدفع هو أن يحاول كل

من أمسك بين يديه قلما ، ووضع أمامه قرطاسا أن يفهمنا أنه (اللغة) ، ما يقوله صواب ، وما ينشئه حق .

وقد مضى وقت الجدل فى أى الأساليب أبلغ ، بما اتفقت عليه كلمة العلماء منذ عهد قديم ، وأصبحنا نجد عددا غير قليل من دعاة التجديد يميلون إلى الضحالة ، وقد أعطينا هؤلاء حقهم فيما سبق من كلمات ، ونجد عددا جد قليل يميلون إلى أن يعيدوا أسلوب أبى علقمة النحوى ، ويحي بن يعمر ، وهؤلاء لا يصعب ردهم إلى الصواب ، فإن قليلا من التأمل والنظر ، وقليلا من فهمهم لأنفسهم ، يكفى لأن يرجعهم عن هذا الدرب الذى يسلكونه .

وكما أن دعاة الأسلوب المجرد عن الفن مفرّطون ، فأصحاب الأسلوب المتوعر المتكلف مُفْرِطون ، ولم نر صاحب ذوق سليم قبل التفريط أو الإفراط .

* * *

بين يدى أمثلة لهذا النوع المتوعر من الأساليب ، ولكنى سأكتفى بمثالين لهما دلالتهما .

قرأت فى بعض الصحف[1] اليومية كلمة عنوانها : « حاول أن تفهم » وقد ذكر الناشر أن موظفاً كبيراً بالبرامج العربية للشئون الثقافية كتب رسالة إلى مديره يقول فيها : « أصابنى تواكب العمل ... وتواتر ضغطه المستمر مع هذا القيظ المحرق... بحال من العافية يشمت الداء ... ويوغر الصحة ... ويتلبس جانحة من سكون الليل بعيداً عن مدار العمل . ولعلك مع هذا قابل معذرتى عن سهرة الغد » .

وقد أعدت كتابة الكلمة كما جاءت فى الصحيفة اليومية ، ولعل القارىء يلحظ من وضع النقط على الهيئة السابقة لوناً آخر من التكلف ، وله دلالته الواضحة على تمكن هذا الخلق من الكاتب .

وصاحب هذه الرسالة شاعر من شعراء الوقت فى مصر ، وهو صاحب مزاج خاص ، وقد حاول أن يصنع فى نثره ما يصنعه فى شعره ، وفاته أن ما يستسيغه بعض القراء فى الشعر لا يستسيغونه فى النثر ، لأن فى الشعر روحا تخفى بعض العيوب .

(١) صحيفة الشعب بتاريخ ١٩٥٧/٨/٢٤ .

وأكثر ألفاظ الرسالة واضح ، وإن كنت لم أفهم على وجه التحديد الجمع بين إشمات الداء وإيغار الصحة من العافية التى أصابه بها تواكب العمل ، ولكن العيب الواضح فيها هو التكلف الذى لا نجد له مسوغا فى مثل هذا المقام إلا أن يكون التظرف ، وهو على أى حال تظرف ثقيل .

ونشرت مجلة الرسالة فى بعض أعدادها [1] كلمة لبعض الكاتبين عنوانها : « المقامة العرفانية » ومما جاء فى هذه المقامة :

« وأصيخ إليك تشعر منكرا : (فما ظمأ أشكو ولا الماء نفقد) ثم تنثر مردفا : وكيف يصدى من فى يمينه هذا النهر يجمع ، أو مع العشرين ، وفى ظل الحاضرية تخوفنا الآتمية ، وأين منا هذا الورد المحلأ ، والحوض غير الموطأ ، ويحضرنى فيك : (عدوت مرادى سبط هيمان فاقصد) » .

لقد لغبت عشيرتك ، والماء تحت أرجلها ، وحيل بينه وبينها ، وخريره فى آذانها .

وتحجونى أوميء إلى عهد لم يأتك نبؤه فى كتاب ، فما فى المنقول أن ُقلا مما أقول كان بله كثره .

وفى واعيتك أنا ذرء الغيض والخصب ، لا القحط والجدب ، والوسيع لا يتضيق ، وجازك أن شاهدى حاضر فى زرافات لا تفتأ على الصدى ، تعرفهم فى اللسان المعقول ، والعقل الخرف ، واليد الخرقة .

وعلمك أن الظمأ يقتل ولا يدى ، وتجرى فى إثر من وصفت لك ، فتحصى منهم فوق ما أحصيت فتهتال ، وتسألنى أى ظمأ هذا » .

* * *

وقد علقت الرسالة على هذه المقامة بهذه الكلمة : « المقامة رياضة أدبية ، كما أن الأحجية رياضة عقلية ، تلك تمتحن بها فهمك ، وهذه تمتحن بها عقلك ، والصبر فى كلتا الحالتين هو المفتاح » .

وهذه كلمة كافية ، وفوق الكافية ، ولكنى أخالف الرسالة فى (المفتاح) فأشهد أنى صبرت طويلا ، ومع ذلك أعوزنى أن أتمثل صورة واضحة فى ذهنى لهذه المقامة ،

(١) العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ، رقم العدد ٩٢٨ ، رقم الصفحة ٤٥١ .

وهبنى استعنت بالمعاجم ، وبالصبر ، وفهمت كل جملة على حدتها ، فما جدوى هذا كله فى الذوق ؟ إن قارىء الأدب لا يقصد الفائدة فحسب ، ولكنه يطلب إلى جانبها المتعة ، وأعتقد أن أحداً لن يجرؤ فيدعى أن فى مثل هذا الكلام متعة إلا إذا كان مخلوقا على منوال أبى علقمة ومن لف لفه .

وربما وقع فى خاطر بعض من يطالعون كلمتنا هـذه أننا مع أولئك الذين يدعوننا إلى ألا نحتفل بالأدب الجاهلى ، وما يشبهه من كل أدب يشتمل على ألفاظ غريبة ، ولا سيما فى مرحلة الدراسة الثانوية ، لأن الطلبة ـ كما زعم بعض كتابهم ـ تنفتح عيونهم فى هذه المرحلة على قصائد قد بعدت عن الرقة والسلاسة ، وأغرقت فى الغرابة ، وتوغلت فى الجفاوة ، وزخرت بما يميت الذوق الأدبى ، وبما يصرف الطالب والمتأدب عن الهيام بالأدب العربى ، والاحتفاء به ، ثم يستشهد الكاتب ببيت للأعشى قد أشبعه النقاد القدماء تجريحا .

وحجته أننا يجب أن نقدم للطلاب ما يتلاءم مع حياتهم ، أما الألفاظ التى مدلولاتها فقدت وأصبحت تحفا فيجب أن تقبع فى المتاحف اللغوية لمن شاء أن يرجع إليها ، أو يتخصص فيها .

وأول خبط هذا الكاتب وخلطه أنه حكم على الشعر الجاهلى جملة بعدم صلاحيته للدراسة ، لأن فيه قصائد أغربت فى الغرابة .

وثانى هذا الخبط أنه وصف بعض القصائد بأنها « بعدت عن الرقة ، وأغربت فى الغرابة ، وتوغلت فى الجفاف ، وزخرت بما يميت الذوق الأدبى » وقد استحضرت فى ذاكرتى أهم القصائد الجاهلية فما وجدت قصيدة واحدة يمكن أن تصدق عليها كل هذه الأوصاف مجتمعة ، نعم فى هذه القصائد ألفاظ غريبة علينا ، ولكن فيها ـ أيضاً ـ أبياتاً جميلة ، غاية فى الوضوح .

وثالث أخطاء الكاتب أنه وصف هـذه القصائد بأنها تميت الذوق الأدبى ، وإنه لعجيب أن يفهم دارس للغة العربية أن دراسة الأصول الأولى ـ مهما صعب فهم ألفاظها علينا ـ تميت الذوق الأدبى ، وهى التى تربيه وتنميه ، وكبار النقاد يجمعون على أن أفضل أشعار الأمم ما قالته فى أيام بدواتها لأنه يجىء عن طبع .

ورابع هذا الخلط أنه مثل ببيت الأعشى :

وقد مضيت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

فهل كل الشعر الجاهلي على هـذا الطراز ؟ بل هل كثير من الشعر الجاهلي على هذا الطراز ؟ بل هل هناك قدر مزعج من الشعر الجاهلي على هذا الطراز ؟ الجواب في كل ذلك بالنفي ، وكما قلت قد رد النقاد المتقدمون هـذا البيت ، وأشباهه ، وهي أبيات قليلة جدا .

فكيف رضي كاتب لنفسه أن يتورط هذا التورط ، وأن يجيء بهذا المثال في مقام يرفض فيه دراسة الشعر الجاهلي ؟ إن مثل هذا الكاتب غير مأمون على تربية النشء مادام شأنه المغالطة والتهويل ، إن هؤلاء الكتاب يظنون أنهم يقوون حجتهم بمثل هذا التمويه ، بل يفعلون ذلك تظرفا ورغبة في أن يقال عنهم مجددون واعون .

وخامس هذه الأخطاء ادعاؤه أن الشعر الجاهلي لايوائم بيئة هؤلاء الطلاب ، لقد جهل أن في هـذا الشعر نماذج من العواطف البشرية ، والأخلاق الإنسانية ، والأوصاف الحيوية وهي مما يوجد في كل عصر وفي كل بيئة ، أو يظن أن الشعر الجاهلي خلا من التجارب البشرية التي يجدها الناس في كل مكان وكل زمان .

إن هـذا الكاتب لم ينظر في هذا الشعر إلى أكثر من أسلوبه ، وأهمل ما عدا ذلك من معانيه ، وتصويراته ، وأخيلته ، وهو نظر جد قصير .

ثم ما هي القصائد التي تدرس لطلاب المرحلة الثانوية ؟ لقد تصفحت الكتب المؤلفة لهذه الدراسة فما وجدت فيها شيئاً مما أعرف من قصائد اشتملت على بعض الغريب ، فلم أجد فيها مثلا الجزء الأخير من لامية العرب ، ولا الجزء الأخير من قصيدة الشنفرى في زوجته ، ولا ما أشبه هذين ، وإنما وجدت بعضا من معلقة عنترة ، وبعضا من معلقة طرفة ، وما أظن أن هاتين المعلقتين تعدان مما يزخر بالغريب ، ومما يميت الذوق الأدبي .

إن الكاتب إن كان قصد إلى مثل هذه القصائد فقد ضل السبيل ، وقد حاول ـ مخطئاً ـ أن يحرم أبناءنا من هـذا النبع الصافي العذب الذي نهل منه كل من كان له شأن في الأدب العربي ، في القديم أو في الحديث .

لا نعنى أبداً حين نعيب على بعض كتابنا ما يلجئون إليه أحيانا من التكلف ، والصنعة الثقيلة أننا نمس بأى لون من ألوان المس دراسة قصيدة عربية واحدة جاهلية أو إسلامية مهما أغرقت فى الغرابة ، لأن فى هذه القصائد من المعانى والأحاسيس ، والألفاظ العربية السليمة ، والأسلوب المطبوع الأصيل ، ما يحتم على كل دارس للعربية أن يتزود منه ما استطاع .

ويجب أن يفهم الفرق بين استعمال الغريب وبين التكلف ، فربما كانت القصيدة مملوءة بما نعده نحن غريباً - ولم يكن غريبا عند أرباب اللغة - وهى مع ذلك مطبوعة ، وقد تكون الكلمة واضحة الألفاظ والأسلوب ، والصنعة بادية فيها .

والذى عبناه من كتابنا فى هذه الكلمة أنهم يجمعون بين الأمرين : بين التكلف ، والولع بالغريب من الألفاظ ، ومن المعانى .

وإذا كان بعض النقاد القدامى حكم على أبى تمام بأن إكثاره من الاستعارات البعيدة قد رذّل شعره لجف عوده ، ونشف ماؤه ، فإننا فى حل أن نقول إن ما يلجأ إليه بعض كتابنا من الإغراب الذى لا يسنده طبع يجعل كتابتهم كالثمرة بعد اعتصارها لا روح فيها ، ولا ماء ، ولا غذاء .

* * *

ويسلمنا الحديث عن هؤلاء المتكلفين إلى شعراء جرفهم تيار التقليد لكل ما هو غربى ، فأسلموا أنفسهم لفن لم يكونوا أهلا له ، وجاءونا بكل غامضة معتسفة ، أولئك هم الشعراء المقلدون الرمزيين ، وإن شئت أن تصفهم دون أن تسميهم ، فقل : شعراء الغموض والإبهام ، والفوضى والاضطراب ، والالتواء والجفاف ، وما شئت من مثل هذه الأوصاف .

ولا أنكر أنى فهمت شيئا ولو قليلا من مثل تلك الكلمات التى مثلت لها فى هذا البحث ، ولكنى أعترف بأنى لم أفهم قليلا ولا كثيراً من بعض القصائد التى يسمونها بالرمزية . ولقد حدث مرة ونحن ندرس فى معهد الدراسات العربية العالية ، أن أملى علينا أحد الأساتذة المحاضرين قطعة ، وطلب منا تفسيرها ، وكنا أكثر من خمسة عشر من المتخرجين فى الكليات الجامعية ، والأزهر الشريف .

وفى اليوم التالى قدم كل منا تفسيراً لهذه القطعة ، ولشد ما كانت دهشتى حين أعلن المحاضر أن أحداً منا لم يفهم هذه الأبيات ، وقد قلت يومئذ إن قولهم : (المعنى فى بطن الشاعر) لا يجد مكاناً أليق به من هذا الموضع .

والمؤلم حقاً أن كثيراً من كتابنا وشعرائنا وعلمائنا يؤمنون إيماناً مطلقاً بكل ما هو غربى ، وقد قرأت منذ قريب تعليق أحد كتابنا على كلمة قالها شاعر غربى ، تلك الكلمة هى : « إن أخص مزايا الشعر أنه لا يفهم ، وكونه لا يفهم هو الذى يمنعه من الموت ؛ لأنك إذا فهمته فقد قتلته » وعلق عليها الكاتب المفضال بأنها « عبارة رائعة » .

لماذا ؟ إن جميع نقادنا ، وعلماء البلاغة فى العربية يجعلون من أهم صفات الأسلوب الجيد (الوضوح) ولكن نقادنا وعلماء البلاغة منا لا يعرفون شيئاً عند أولئك المفتونين بالغرب ، وتراث الغرب .

لقد قلنا غير مرة إنه فرق بين روعة المعنى وعمقه ، وبين غموضه وإبهامه ، وإن الوضوح ليس معناه الإسفاف أو السطحية . ونزيد على ذلك أن الكاتب أو الشاعر لا يلجأ واحد منهما إلى الغموض إلا إذا كان المعنى غائماً فى نفسه ، مبهماً فى إحساسه ، وكانت تجربته فيه ناقصة ، وغير بارزة المعالم ، ومن هنا جاء التعثر فى التراكيب ، والتكلف فى العمل الأدبى .

ولا ينكر أحد ممن درسوا العربية وآدابها أن البساطة قد تكون فى بعض الأحايين أبعد تأثيراً فى النفس من كل تعمل يلجأ إليه المغرمون بالإغراب ، ولأضرب مثلا واحداً هو الذى يحضرنى الآن وهو قول العباس بن الأحنف :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عينا لغيرك دمعُها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرأيت عيناً للبكاء تعار ؟ ! !

وأمثال هذا الشعر كثير ، وهو - كما تراه - قريب المعنى ، واضح العبارة ، ومع ذلك فإن أثره فى النفس نافذ ، فهل بعد ذلك نردد ما يقوله هذا الشاعر الغربى أو نؤمن به ، إن أخص مزايا الشعر أنه لا يفهم ؟ . ؟

أنباء وآراء

شيخ الإسلام : محمود شلتوت :

يعز على « رسالة الإسلام » أن تتحدث عن وفاة الإمام الأكبر شيخ الإسلام الشيخ محمود شلتوت ، وهى التى دأبت منذ ظهرت على أن تنشر أنباء حياته المباركة الفياضة بالعلم والإخلاص والنصيحة لله ولرسوله ولعامة المؤمنين وخاصتهم .

فقد اختاره الله إلى جواره فى ليلة الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٨٣هـ ، « وهى ذكرى الليلة المباركة التى أشرقت فيها الأرض بنور الإسراء ، وانطوت السماء على سر المعراج » .

لقد كان « محمود شلتوت » علماً فريداً من أعلام الجهاد فى سبيل الله : وهبه الله القلب الذكىّ ، والأنف الحمىّ ، وهيأ له منذ عهد الشباب والفتوة ما جعله غذاء لقلبه ، ونماء لعقله ، وثباتاً لعزمه ، إذ امتلأت مسامعه ـ وهو يطلب العلم بالأزهر الشريف ـ بالصوت المجلجل الذى انبعث فى الشرق والغرب عن جمال الدين أولا ، ومحمد عبده ثانياً ، أن أفيقوا أيها المسلمون من سباتكم ، وانفضوا عن أنفسكم غبار الخمول ، وتقدموا إلى الحياة مستعيدين سالف مجدكم ، مهذبين أفكاركم وأساليب علمكم وفقهكم ، وكانت هـذه الدعوة الجريئة قد تركت فى العالم الإسلامى بعامة ، وفى الأزهر الشريف بخاصة ، دويا هائلا ، بين راض عنها ، ونافر منها ، فكان عقل الشيخ شلتوت متجاوباً معها ، متفهماً لها ، وكان للعقيدة والشريعة الحظ الأول من تفكيره وتجاوبه ، فقرأ فيهما كثيراً ، وأدرك بثاقب نظره أن المسلمين قد جهدوا أنفسهم فى جوانب من الخلاف لم يكن لهم أن يحفلوا بها ، وأن أمر العقيـدة والشريعة فى الإسلام إذا أخذ بروح خال من التعصب والحزبية كان أيسر على المسلمين ، وأحفظ لأخوتهم ، وأدنى إلى توحدهم وائتلاف قلوبهم ، ومن يقرأ

كتابه : « الإسلام عقيدة وشريعة » بجده عصارة تفكيره طول حياته ، وهو الذى لم ينشر إلا قبيل وفاته بأعوام .

وقد كان له رحمه الله أصدقاء فى العلم والدعوة إلى الله ، نذكر منهم الشيخين : المراغى ، وعبد المجيد سليم ، وكان أولهما يمتاز بقوة الفكر أكثر من امتيازه بكثرة التحصيل ، فرآه شلتوت يفكر معتمداً على ذكائه ، ونفاذ بصيرته ، وشدة عارضته ، وواسع خبرته ؛ فعلم أن الاجتهاد فى دين الله لا يمده شىء كما يمده العقل المفكر ، والنظر الثاقب ، وكان ثانيهما مع قوة عقله ، وصفاء قريحته ، ورجاحة نظره ، بحراً متلاطم الأمواج فى العلم والتحصيل ، فكانت تغلب عليه معارفه ، فلا يكاد يعرض له بحث حتى يفيض فيه إفاضة العالم الملىء الحافظ الحجة الثبت ، فإذا الأمر بعد ذلك غير محتاج إلا إلى التطبيق والتوفيق بين واقع الحال وما سرد من الآراء والأقوال ، وكان المغفور له الشيخ شلتوت كما يشارك الإمام المراغى فى اعتماده على التفكير والنظر ؛ يشارك الإمام سليما فى تمرسه بالعلم وتمكنه من تحصيل آراء السابقين ، وأقوال العلماء فى مختلف المذاهب ، وبذلك استقام له النهجان ، ودنت له الثمرتان .

واتصل شلتوت بالتقريب منذ أول نشأته ، إذ كان أحد مؤسسيه ، والداعين إليه ، والعاملين على تثبيت فكرته ، فوجد فى ظلاله ما يروى غلته ، ويشبع نهمه العلمى ، ويساير نهجه القويم فى الحرية الفكرية التى لا تعرف العصبيات المذهبية ، ولا تخضع إلا للحجة والبرهان ، ولا ترى المذاهب - فيما وراء الأصول الأساسية للإسلام - إلا اجتهادات ، فى كل منها الصواب والخطأ ، وفى كل منها ما يؤخذ وما يرد ، وفى كل منها ما يعين على إصلاح حال المسلمين ، والتيسير عليهم ، وعلاج مشكلاتهم .

وقد أفاده اتصاله بالتقريب فائدة أخرى عظيمة ، ذلك بأنه صار إلى أفق أرحب ، فتعرف بكثير من قادة العلم والفكر فى مختلف المذاهب والشعوب الإسلامية ، وتعرفوا إليه ، وتبادل معهم رسائل فيها كثير من العلم ، وكثير من خطوات التقريب بين المسلمين ، واستلال عوامل الفرقة والخلاف التى طالما

استغلها أعداء الإسلام ، وأحيوا نعراتها تفريقاً بين المسلمين ، وإضعافا لهم ، وهكذا صار « شلتوت » رجل الإسلام ، لا رجل مذهب ، ولا عالم طائفة ، فلما اختاره الله إلى جواره أحس بالحزن عليه الشيعة كما أحس بالحزن عليه السنة ، وانعقدت للعزاء فيه اجتماعات فى كل شعب ، وفى كل مذهب ، واعتبر الجميع فقده خسارة للإسلام عامة .

ولقـد كان من أبرز حسناته ، واتجاهاته الحرة الكريمة ، وجرأته فى إعلان ما يعتقده : تلك الفتوى التاريخية التى أصدرها فى عهد مشيخته للأزهر بجواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية كما يتعبد بغيره من المذاهب الصحيحة الواردة من طرق معتمدة ، المستقيمة على سـنة المؤمنين ، وكانت هـذه الفتوى كسباً عظيما للتقريب ، وضربة قاضية للذين لا هم لهم إلا التفريق ، وإصلاحا كريماً لنفوس كريمة ظلت فى مختلف حقب التاريخ تلاقى نكراناً وصداً وإعراضاً .

فإذا كان المغفور له الشيخ شلتوت قد مات ، باعتباره جسداً فانياً ، فإنه لم يمت باعتباره مثلا حيا ، وروحا باقياً يرى الناس آثاره ، وينسجون على منواله ، وسيبقى الأزهر والدين والعلم والتقريب من بعده كما كانت فى حياته ، وفى كل زمان ميادين لها من الخصائص العلمية ، والمبادىء التوجيهية ، والركائز العقلية ما يجعلها دائماً ميادين جهاد فى سبيل الله ، وأعمال صالحات لا يضيعها الله .

وإذن فليس لنا أن نقول كما قال الشاعر المتشائم :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ولكن نقول كما قال الشاعر المتفائل :

إذا سيد منا خـلا قام سيد قئول بما قال الكرام فعول

بل نقول ما قال ربنا الأعلى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

وسلام على شلتوت فى عليين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

أعلام آخرون فقدناهم :

وإذا كانت « جماعة التقريب » قد فقدت فى هذا العام الإمام الأكبر ، بل فقده عالم الفكر والرأى والعمل الصالح فى كل شعب وفى كل محيط عقلى علمى ، فلقد فجعنا أيضا فى أعلام كرام من عباقرة العلم والفكر والأدب ، نذكر منهم العالم البحاثة الأستاذ العقاد الذى ملأ الدنيا بعلمه ، وشغل الناس بآثاره الفكرية ، ومؤلفاته الفريدة التى حسبه منها « العبقريات » الخالدة ، وغيرها من كتبه الإسلامية الواعية .

كما نذكر منهم المغفور له العلامة الشيخ محمد الخالصى العراقى الإمامى ، الذى كان مجاهداً فى سبيل الله ، داعياً إلى التوحيد والتقريب أينما حل ، ولقد رأيناه هنا فى القاهرة ، واجتمعنا به ، وتجلت لنا صفات فضله ونبله وعلمه ، وشهدنا ألواناً من جهاده الحق .

ونذكر منهم الأستاذ العلامة البحاثة المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر صاحب كتاب « أصول الفقه » والرجل الذى تجلت مواهبه العلمية فى منتدى النشر ، وفى كلية الفقه الإسلامى على صورة بهرت الأنظار ، وأخذت بالألباب ، وبرهنت على أن الله تعالى لا يخلى هذه الأمة من علماء عاملين ، ومفكرين مبتكرين ، لا يزالون يجاهدون فى سبيل رفعتها وقوتها وعظمتها ووحدتها وتآلفها .

ونذكر منهم الأديب الشاعر المؤمن المغفور له الأستاذ محمد على الحومانى ، صاحب ديوان « أنت أنت » وهو مدح خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أرخ فيه للإسلام من خلال سيرته الشريفة ، وأبرز فيه تعاليمه العليا موازناً بينها وبين ما عليه العالم من مبادىء وحضارات ، وهو أيضاً صاحب كتاب « دين وتمدين » الذى أخرجه فى عدة أجزاء ، وأقامه على ذكر آيات من القرآن الكريم ، ومقتبسات من كلام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، والذى عرض به على أهل الفكر والبيان والنظر الصحيح جانبا من ذخائر العقل الإنسانى ، بل الروح الإسلامى .

رحم الله هؤلاء جميعاً ، وعوض الإسلام عنهم خيرا .

اقتراح من عالم جليل :

الاحتفال بالذكرى الألفية للإمام الطوسى :

فضيلة العالم العلامة ، الأستاذ الجليل ، آية الله ، الشيخ أغا بزرك الطهرانى ، إمام مبرز من علماء النجف الأشرف ، وقد أربت سنه المباركة على التسعين ، وهو مايزال يعمل بصدق وإخلاص وهمه لا تعرف الكلل فى ميادين الدعوة الإسلامية ، فيؤلف ويحاضر ويبعث بمقالات إلى الصحف والمجلات ، ويوجه أبناءه وتلاميذه إلى مختلف وجوه النشاط والعمل الدائب .

وهو صاحب المؤلفات المشهورة القيمة ، التى منها موسوعتاه العظيمتان : « الذريعة إلى معرفة تصانيف الشيعة » و « طبقات أعلام الشيعة » وغيرهما من نفائس آثاره .

وقد بعث أخيراً بكتاب إلى سماحة العلامة الجليل الأستاذ القمى ، ضمنه اقتراحا موفقا ، هو العمل على إحياء ذكرى الإمام الطوسى رحمه الله تعالى .

ونحن نورد نص كتابه ، بعد ديباجته ، لما يدل عليه من روح قوى ، وإخلاص عميق ، وإيمان غامر ، ولما يتضمنه من العزاء فى فقيد الإسلام المغفور له الشيخ شلتوت .

قال بارك الله للمسلمين فى حياته :

« . . . وبهذه المناسبة أود أن ألفت نظركم إلى ناحية جديرة باهتمام أمثالكم من الغيارى على العلم ودعائمه ، والدين وأساطينه ، وهى فكرة الاحتفال بالذكرى الألفية لشيخ الطائفة الطوسى ، أعلى الله مقامه الشريف (٣٨٥ - ٤٦٠) فقد سبق أن اقترحت ذلك على رياسة جامعة طهران سنة ١٣٧٧ هـ ، عند صدور رسالتى الصغيرة عنه : (حياة الشيخ الطوسى) ولاقى الموضوع فى وقته استحسان مختلف رجال العلم والفكر والدين ، وعلى رأسهم زعيم الشيعة بوقته ، وفقيد المسلمين الغالى : الإمام الفقيه السيد حسين البروجردى ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، فقد تبودلت

الرسائل بيننا فى الموضوع ، وكان يعد العدة ، لولا أن اختاره الله لجواره ، ووقف العمل عند حده ، وأنا كما تعلمون قد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم يبق منى سوى عظام عركتها السنون ، وأنهكتها الأيام ، ولم تعد لى قدرة على العمل ، وهل لمتجاوز التسعين أن يجدها كعهدها فى أيام الشباب ، وقصارى ما أتمناه أن يختم الله لى بالحسنى ، ويشملنى بعفوه ورضاه ، ويجعل عملى خالصا لوجهه ، لينفعنى به يوم العرض عليه إن شاء الله .

وإنه ليسرنى جداً أن يعمل على إنجاح ما اقترحته ، ويعقب ما بدأته ، بعض الغيارى وأهل النشاط أمثالكم ، ممن تتوفر فيهم الكفاية والإخلاص ، فلشيخ الطائفة علينا فضل لا ينكر ، وعلينا ألا ندخر وسعاً فى التنويه عنه ، والإشادة بعظيم شأنه ، وما اختصه الله به من علم وحكمة ، فأرجو ألا يفوتكم ذلك ، وألا تحرموا أجره وشكر العلماء العاملين عليه ، ولا تنسونى من الدعاء فى مظان الإجابة .

ولا يفوتنى أن أعزيكم بوفاة صديقكم الجليل ، وزميلكم القديم فى الجهاد والإصلاح ، فضيلة العلامة المرحوم المغفور له ، الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الشريف ، فقد عمل معكم مخلصا ، وأسهم فى وضع اللبنات الأولى لعملكم الجبار فى « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » وكان من المصلحين المخلصين ، وقد عز نعيه على عارفى فضله وجهاده من علماء النجف الأشرف ، فتعازينا الحارة إليكم وإلى إخواننا علماء الأزهر الشريف ، راجين الله أن يتغمده بالرحمة والرضوان ، وأن يلهم زملاءه الصبر ، ويكتب لهم الأجر ، وأن يمن على المسلمين بأمثاله المخلصين ، ليسدوا الثغرة التى فتحت بوفاته ، ويواصلوا جهاده ، والله الموفق لكل خير .

[كتبه بأنامله المرتعشة ، متكئا على فراش المرض ، بمكتبته العامة فى النجف الأشرف ، ليلة البرأة الخامس عشر من شعبان سنة ١٣٨٣ هـ الفانى : آقا بزرك الطهرانى ــ عفا الله عنه] .

وقفة يسيرة مع كتب الفرق :

نقتبس هنا جزأ من فصل عن الفرق جاء فى كتاب « الإمام الصادق والمذاهب الأربعة » لمؤلفه العلامة الجليل الأستاذ أسد حيدر ، من كبار علماء النجف بالعراق ـ وهو كتاب جيد فيه دراسة وتحقيق لكثير من الموضوعات التى اتخذت وسائل للهجوم على الشيعة بغير الحق ـ قال :

لعل أهم المصادر التى يرجع إليها فى تعيين الفرق وتعدادها هى :

١ ـ الفرق بين الفرق : لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى الشافعى المتوفى سنة ٤٢٩ ، له مؤلفات كثيرة ، أهمها كتاب « الفرق بين الفرق » ، طبع فى مصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م ، وترجم « المستشرق هالكن » جزءاً منه إلى اللغة الإنكليزية .

٢ ـ كتاب « الملل والنحل » لمحمد بن عبد الكريم الشهرستانى الشافعى المتوفى سنة ٥٤٨ ، طبع عدة مرات آخرها سنة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م ، فى القاهرة .

٣ ـ كتاب « التبصير » لأبى المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الاسفرائينى الشافعى المتوفى سنة ٤٧١ .

٤ ـ « الفصل » لأبى محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦ ، مطبوع بهامش الملل والنحل فى الطبعة الأولى .

* * *

هذه هى أقدم الكتب التى دونت فى الفرق ، وأصبحت مصادر يرجع إليها فى البحث عن الفرق وعقائدها ، والطوائف وآرائها .

وهنا نتساءل أيضاً : هل كان أصحابها ممن يوثق بنقلهم تلك الأقوال ، وعدهم لتلك الفرق ؟ .

وهل جردوا أنفسهم عن رداء العصبية العمياء ؟ ورفعوا عن عيونهم نظارتها السوداء ؟ .

وهل نقلوا تلك الآراء عن مصدر يوثق به ؟ ولعلنا نكتفى بالإجابة عن هذه الأسئلة بما نقدمه هنا من آراء بعض العلماء فى ذلك :

١ ــ قال الرازى فى مناظرته مع أهل ما وراء النهر فى المسألة العاشرة عند ذكره لكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى : إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه ، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى « بالفرق بين الفرق » من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى ، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين ، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح ، ثم إن الشهرستانى نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب ، فلهذا السبب وقع فيه الخلل فى نقل هذه المذاهب [١] .

هذا ما يتعلق بذكر هذين الكتابين ، ولا حاجة إلى نقل النصوص على ما فيهما من التعصب ، فإن نظرة واحدة من منصف يجد صحة ما نقول ، فإنهما نسبا للشيعة بالأخص أقوالا ، وابتكرا آراء ليس لها من الواقع نصيب ، ولا تمت إلى اعتقاداتهم بصلة ، إذ لم ينقلوا تلك الآراء من مصدر موثوق .

٢ ــ ولا أبعد بالقارىء الكريم فى إعطاء صورة عن هؤلاء جميعاً ، والتعرف عليهم ، ولنقدم له ما يقوله العلامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى العصر الحاضر ، فهو يصفهم بقوله :

لقد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسلامية متأثرين بروح التعصب المقوت ، فكانت كتاباتهم مما تورث نيران العداوة والبغضاء بين أبناء الملة الواحدة ، وكان كل كاتب لا ينظر إلى من خالفه إلا من زاوية واحدة ، هى تسخيف رأيه ، وتسفيه عقيدته بأسلوب شره أكثر من نفعه ، ولهذا كان من أراد الإنصاف لا يكون رأيه عن فرقة من الفرق ، إلا من مصادرها الخاصة ، ليكون هذا أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ [٢] .

* * *

٣ ــ ويقول الكوثرى فى مقدمة « الفرق بين الفرق » بعد مدحه لأبى طاهر البغدادى : والمؤلف شديد الصولة على المخالفين ، كما هو شأن حراس العقيدة ،

(١) انظر المناظرات ص ٢٥ طبع حيدر آباد .

(٢) مقدمة كتاب « إسلام بلا مذاهب » ص ٧ .

والحراسة غير التاريخ المجرد ، لكن تعويله فى عزو الآراء إلى الفرق على كتب الخصوم يوقع فى أخطاء ، ولو اقتصر فى العزو إلى ما وجده فى كتب أهل الفرق أنفسهم لكان أحوط وأقوم حجة ، لأن الخصم قد يعزو إلى خصمه ما لم يفه به من الآراء مما يعد لازم قولهم ، فى حين أنه ليس يلازم قولهم لزوماً بيناً فلا يصح إلزامهم به ، ولا سيما عند تصريحهم بالتبرى من ذلك اللازم[١] .

هذا ما يقوله الكوثرى مع تساهله مع المؤلف ومدحه وإطرائه له ، ولست أدرى ما معنى قوله : والحراسة غير التاريخ المجرد ؟ .

* * *

ولا حاجة بنا إلى المزيد من الشواهد على ما يحمله أولئك الكتاب من التعصب والتحامل مع نقلهم الأقوال من طرق غير صحيحة .

وقد ظهر لنا أن أكثر كتاب الفرق كانوا يستمدون معلوماتهم من كتاب أبى منصور البغدادى ، وقد عرفنا مقدار تعصبه وتحامله ، ونقله الأقوال على غير الوجه الصحيح كما يقول الفخر الرازى .

وأما الشهرستانى مؤلف كتاب « الملل والنحل » والذى استمد معلوماته من كتاب أبى منصور ، فقد طعنوا فى اعتقاده ، ونسبوه إلى الإلحاد ، وأنه متخبط فى اعتقاده ، يميل إلى أهل الزيغ والإلحاد ، ويناصر مذاهب الفلاسفة ، ويذب عنهم[٢] .

ومن كان هذا حاله يجب أن يتريث فى قبول قوله وصحة نقله .

وأما كتاب « التبصير » فهو وكتاب « الفرق بين الفرق » توأمان ، بل هما شىء واحد ، إلا الاختلاف فى التسمية وبعض الزوائد ، والتقولات ، لأن صاحب كتاب « التبصير » هو تلميذ أبى منصور وصهره .

وأما ابن حزم فهو فارس الحلبة ، وبطل المعركة ، فقد تقول وافتعل ، وتهجم

---

(١) مقدمة الفرق بين الفرق ص ٣ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٧٩ .

على جميع المسلمين ، ونسب لكثير منهم أقوالا مكذوبة ، وآراء مفتعلة ، وكان يتحامل على الشيعة بصورة خاصة ، وينسب إليهم أقوالا لا قائل لها ، ويلحق بهم فرقا لا وجود لها ، كل ذلك تعصباً منه ، لأنه كان أموى النزعة ، وهو مشهور بنصبه ، معروف بعدائه لأهل البيت ، وموالاته لبنى أمية .

قال ابن حيان : وكان ابن حزم مما يزيد فى سبابه تشيعه لأمراء بنى أمية ، ماضيهم وباقيهم ، واعتقاده بصحة إمامتهم ، حتى نسب إلى النصب[1] .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وزعم ابن حزم أنه إمام الأئمة ، يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا ، تنفيراً للقلوب عنهم[2] .

وقال أبو العباس بن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين[3].

وقال ابن العماد : وكان ابن حزم كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين ، لا يكاد يسلم أحد من لسانه ، فنفرت منه القلوب[4] .

وقال السبكى فى الطبقات ـ عند ذكره لكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ـ : « ومصنف ابن حزم أبسط منه ، إلا أنه مبدد ليس له نظام ، ثم فيه من الحط على أئمة السنة ، ونسبة الأشاعرة إلى ما هم بريئون منه ، ثم ابن حزم نفسه لا يدرى علم الكلام حق الدراية على طريق أهله »[5] .

** ** **

من هذا يظهر أن الخطة التى سار عليها كتاب الفرق لم تكن خطة تحقيق واستناد إلى مصادر موثوق بها ، بل هى تخمين وظنون وأساليب خداعة .

وقد انخدع الكثيرون بتلك الأساليب فجعلوها ميزاناً للنقد ، ومقياساً للشخصيات ، ودليلا يوصل إلى معرفة أجيال مضت ، وقرون خلت ، وربطوا بين الحاضر والماضى ، وقاسوا الأمة بالفرد تقليداً ومحاكاة لأولئك المتعصبين ، من دون إعطاء العقل حرية النظر فى تمييز الأمور ، وهذا هو من أهم أسباب الخلاف .

(١) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص٣٢٧ . (٢) نفس المصدر ص ٣٢٤ . (٣) شذرات الذهب ج ٣ / ٢٠٠ ، ولسان الميزان ج ٤ ص ٢٠٠ . (٤) الشذرات ج ٣ / ٢٠٠ .
(٥) طبقات الشافعية ج ٤ ص ٧٨ .

من القانون الأساسي لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : ـ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج ـ السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

(العددان ٥٥ و ٥٦) المجموعة الثانية
المحرم ١٣٨٤ هـ — يونيو ١٩٦٤ م

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

and follow its jurisprudence. In this respect there is no difference betwen worship and worldly dealings.

Mahmoud Shaltût.

His Eminence the Venerable Scholar Master
Muhammad Taqi al-Qommi

Secretary-General
Society for Taqreeb (1) among Muslim Schools

May God grant you His peace and mercy.

I take pleasure in sending to your Eminence a copy, signed by me, of the Councel which I have given on the validity of worship according to the Imamite Shî'a Doctrine with the hope that it (the copy) will be kept in the archives of Dâr (2) el Taqreeb, for whose establishment together with you, we have co-operated, and with God's help we fulfilled its message.

Peace and the Mercy of God be upon you.

Rector of Al-Azhar Mosque
(sgnd)
Mahmoud Shaltût

(1) Rapprochement.
(2) Centre.

His Eminence answered :—

1. Islâm does not oblige any one of its followers to follow the doctrine of some schools in particular. Rather, we say : every Muslim has the right to adopt from the very beginning, the doctrine of any Muslim Schools (Madaheb) which are correctly handed down to us and whose rules are recorded in its proper law-books. Any person who adopts the doctrine of a school may leave it and adopt the principles of another, without being subject to blame in doing so.

2. In Muslim Law it is as valid to worship according to the Ja'farite Doctrine [1] known as the Ithnâ' asharia, [2] as it is according to any Sunni school.

Therefore, it is necessary for Muslims to know this fact and to rid themselves of the unwarranted fanaticism in favour of certain sects. For God's Religion and His Law are not the exclusive right of any Muslim school in particular. All (Schools) are (mujtahid) [3] assiduous (in their search for the truth) and all are accepted by God, may He be exalted ! It is permissible for those who are incapable of interpreting the Law by themselves ('ijtihâd) to adopt the doctrine of any of these Schools

---

(١) المذهب الجعفرى .

(٢) الاثنا عشرية .

(٣) مجتهد .

Translation

Office of the Rector
of al-Azhar Mosque

In the Name of God, the Compassionate, the Merciful

The Official Text of the Counsel Issued by His Eminence the Great Master Shaykh Mahmoud Shaltût, Rector of al-Azhar on the validity of Worship according to the Imamite Shî'a Doctrine. [1]

His Eminence was asked :—

"Some people maintain that, in order that the Muslim's worship and dealings be valid he must follow one of the four recognized Doctrines or Schools (Mathaheb), which do not include those of the Imamite or Zaydite Shî'a School. Does your Eminence agree with this opinion absolutely and, accordingly, prohibit the adoption of the Doctrine of the Ithnâ, asharia Imamite Shî'a, for example ?

---

(1) His Eminence assured that the word "Sect" should not be used here as there are no sects in Islam proper. The proper word to be used is school or doctrine. (مذهب) .
[See minutes of the meeting of 28/3/1948. Taqreeb Society.]

duction in which I have drawn attention to some aspects of the story.

We do praise God (Glory be to Him) that the cause of Taqreeb has become a turning point in the history of reformist Muslim thought, both ancient and modern, and that it has had such a far-reaching effect.

Muslims have a right to be proud that they have surpassed others in both thinking of and implementing the Taqreeb of sects and the integration of their word. Thanks to the sincerity of those in charge of the Call and the soundness of Muslim thinking, Muslims have been successful in this matter.

We ask God Almighty to perpetuate the success of this cause so that Islam may regain its glory and Muslims their greatness, and that God's description of them in the following verses may come true :—

"*You have been the best nation brought forth to the human race; you ordain virtue and prohibit vice and believe in God.*" "*Say: This is my path; I call to God with insight, I and those who follow me.*" "*Oh ye who have believed! Respond to God and to the Messenger when he summons you to that which will bring you life.*" (1)

May peace and God's mercy be upon you!

Mahmoud Shaltout

Rector of al-Azhar

Rab'i the first, 1383 H.
August, 1963.

---

(١) « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . « قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

والسلام عليكم ورحمة الله

People with narrow minds attacked the idea. It was also attacked by another type of people : those who had private malicious aims ; a type of people that can be found in every nation. The cause was attacked by those who found in faction the sole guarantee for their existance and livelihood, as well as by those who were sick in soul and enslaved by their own desires and peculiar inclinations. It was, also, attacked by those who rented their pens to policies of disunity which had direct and indirect means of opposing every reform movement and obstructing the path of every act which might bring Muslims together

They all attacked the idea, each in his own way. They did all they could to poison the atmosphere in order to put an end to the Call whose principles and foundations are sound and clear and which being based upon learning, scholarship, and research ; welcomes evidence from whichever horizon it may come.

I should have liked to project all these sides of the story of Taqreeb, write them down personally, and pursue the details as I have experienced them and as I have lived through the circumstances that accompanied them. Then I should have liked to follow up the issues of the magazine "Risâlat al-Islâm," for it has carried out the trust placed in it, delivered its message rightly, and acted as a display for the opinions of the scholars of all the groups. These scholars supplied the magazine with their researches and keenly awaited its issues. The magazine embellished the library of the Shî'ite as well as that of the Sunni, and the knowledge it contained quenched the thirst of the Western and that of the Eastern. However, I will be content with this intro-

them passed away and some still wait without changing their faith." (1)

Though this is one favourable side of support and good will gained by the cause of Taqreeb yet there is another side of attack and opposition which confronted the cause and tried to dissuade people from joining it ; such as usually happens to every reform cause, when those who are not familiar with it stand in its way. Thus in fact the Call for Taqreeb was met with a great deal of opposition and assault to a degree which was proportionate to its importance and the greatness of its goal. This opposition was of many types and forms.

The atmosphere prevailing at the beginning of the call was filled with imputations and accusations and loaded with fabrications and factors of disunity and mutual suspicion. The mere foundation of the group, under such circumstances, with its membership of the various sects, namely the four Sunni, the Imamite, and the Zaydite, was considered indeed a great victory, that violently stirred up the malevolence of some and the call was attacked, not only by one party, but by the fanatics and bigots of both parties : the Sunnis, who thought that the Taqreeb aimed at making Shî'as out of the Sunnis, and the Shî'a, who thought that we wanted to make Sunnis out of them. Those and others misunderstood the message of Taqreeb and thought that it aimed at abolishing the different schools or merging them into one.

---

(١) « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

cause and exerted their efforts in propagating its principles and with whom we have exchanged items of learning and opinion, and many messages, projects, and propositions. At their head was the late Grand Imâm Haj 'Aqa Husayn al-Burujardi [1] (May God rest him in his abode in Paradise), and the two late Grand Imâms, Shaykh Muhammad al-Husayn 'Al Kâshif Al-Ghetâ, and as-Sayyid 'Abd al-Husayn Sharaf ad-Din al-Mûsawi [2] (May God rest their souls).

Those eminent men accepted the call for Taqreeb at its rise and opened their hearts and their minds to it. They devoted to it their most noble endeavours until they passed away to their Lord, having pleased Him and been pleased. Indeed their memory must be kept and their contributions must be acknowledged and recorded. There were many others besides these, but it is not our intention to make an exhaustive count.

All those persons have gone to their Lord, having gratified and been gratified. However, we still have many bretheren who believing in the cause work hard for consolidating it. They are leaders of Islam and landmarks of thought all over the Muslim countries (May God prolong their lives and set their feet in the right path of truth), for "among the believers are men who were true to what they solemnly promised God ; some of

---

(١) المغفور له الإمام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردى .

(٢) المغفور لهما الإمامين الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء .
والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى .

Sufism, and jurisprudence, where prevails a spirit of fraternity, a sense of affection, love and comeradeship.

I should have liked to be able to present a portrait of that cheerful, intelligent and refined man of scholarship and character, the late Grand Master, Shaykh Mustafa 'Abd Arrâziq.(1) I should also have like to present a portrait of that pious, strong man so well-versed in the various Islamic fields of knowledge; with an all-inclusive familiarity with the different schools of jurisprudence, principal and derivative; who was like a great rock in his steadfastness; and who gave immence help to the Taqreeb during the period of the consolidation of its principles: the Late Grand Master, our Shaykh 'Abd al-Magîd Sâlim (2) (May God rest his soul). I should, finally, have liked to portray the man of great wisdom and experience who was welcomed by all assemblies of knowledge and intellect, the late Muhammad 'Ali 'Aluba (3) (May God reward him for his striving and endeavours in the best way).

Perhaps, I could also have given portraits of many others who devoted themselves to this Muslim cause and who volunteered their best efforts to it, believing in Taqreeb as a means for consolidating the power of the Muslims and emphasising the virtues of Islam. There were those and other individuals who went before us to meet God; among them were the leaders of thoughts in various Muslim countries who joined the Taqreeb

---

(١) المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق .
(٢) المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم .
(٣) المغفور له الأستاذ محمد علي علوبة .

talks and statements published, or broadcasted, and statements in which I called for unity, solidarity and rallying around the fundamentals of Islam, forgetting malice and ill-will. This I continued to do until it became, with God's blessing, an established fact, taking its place amidst the Muslims as an unquestionable case, after the defeatists, in various eras of intellectual disintegration, sectarian controversy, and political strife, had maliciously stirred up doubts and illusions concerning it.

Now, we see the honorable Azhar accept this principle of Taqreeb among the followers of the various schools and establish the study of the jurisprudence of Muslim schools the Sunni and the Shi'ite in its curricula. The studies will be founded upon evidence and proof and will be free of bias. Al-Azhar also, in establishing the Muslim Research Academy, will see to it that the members of that Academy represent the various Muslim schools.

Thus, the idea in which we have believed and for whose cause we have sternuously worked has become firmly established and the message of the Center (Dâr) has entered the phase of respect and fulfilment.

I should have liked to talk about the meetings held in the premises of the Dar al Taqreeb, where the Egyptian, the Iranian, the Lebanese, the Iraqi, the Pakistani, and other nationals of various Muslim people sit side by side. In these meetings, the Hanafi, the Maliki, the Shâfi'i and the Hanbali sit next to the Imamite and Zaydite, all around one table which reverberate with voices expounding, learning, literary accomplishment,

Through these phases of scholarly activities, I have been afforded the opportunity to look upon the Muslim World from a high, shining terrace, and to learn many of the facts which stood between Muslims and the unity of their work and the harmony of their hearts in Muslim fraternity. I have also been afforded the opportunity to acquaint myself with many people of thought and knowledge in the Muslim world. Thereafter, having been entrusted with the rectorship of al Azhar, I was able to issue my official opinion (*Fatwa*) (1) on the permissibility of worship according to any of the Muslim schools that have sound basic principles and known sources and which pursue the path of the believers; among which is the doctrine of Imamite Shi'a (the Ithna Asharia). (2) The *Fatwa* in question is the one registered, with our signature, at Dar al Taqreeb Bain al Mazahib al Islamiyah (Center for rapprochement of Islamic sects'). Zincographic copies of this *Fatwa* have been distributed under our authorization. It echoed through the various countries of the Muslim world and brought comfort to the hearts of sincere believers who have no other goal but the truth and the harmony and good of the Muslim nation. I have continually received enquiries, consultations and arguments concerning this *Fatwa* which, I believe in its correctness and adhered firmly to it, and I have supported it, time and again, in my letters to those who asked for some information and in my replies explaining away the doubts of those who opposed it. I have also supported it with various articles,

---

(١) فتوى .

(٢) الاثنا عشرية .

to start this call, for which he immigrated to this country, the country of the honorable Azhar. He has lived with and by the side of the call ever since he planted it, with God's blessing, as a hoped-for seed. He continued to nurse it and protect it, using the gifts with which God has endowed him : namely his genius, sincerity, abundant knowledge, strong personality, patience with others, and firmness in the face of the vicissitudes of life. He persevered for years until he saw the need become a deep-rooted tree "whose fruit is borne at every time by the will of its Lord" and whose shade is spread over various Imams, scholars, and thinkers in this and other countries.

Yet, I say, who knows more about the Call and its circumstances than its founder ?

I have believed in the concept of Taqreeb as an upright method, and I have collaborated, since the first day, with its group in the various aspects of the activities of its Center (Dâr). My contribution took diverse forms, among which were those successive articles on the interpretation of the Holy Qûr'an which were published regularly in its magazine, "Risâlat al-Islam," (1) over a period of fourteen years until they made up a complete book. This book, I believe, includes the dearest of my thoughts and those of my works which merit preservation and by which I hope to gain the reward of my Lord. For, indeed, the best a believer can do are the sincere endeavours which he exerts in the service of God's Holy Book.

---

(١) رسالة الإسلام .

oneself of every whim which may tamper with the fear of God, especially when stepping in the sanctuary of knowledge where one should pray that God may endow him with His blessings.

He who fears God while seeking knowledge is he who is not taken by partisanship nor dominated by sectarianism, and who does not deviate, to the left or to the right, from his aim.

I should have liked to be able to do this myself in order to elucidate the idea of true sectarian freedom which follows the right path of Islam. It is that same idea which the prominent Imams in our jurisprudential history had followed ; those Imams who elevated themselves above narrow partisanship and thus safeguarded God's religion and laws against rigidity and lethargy None of these Imams had claimed that he alone had found the undoubted truth that all people should follow ; rather, he would say : "This is my doctrine and the result of my endeavours and my knowledge. I do not allow any one to imitate or follow me without examining and verifying wherefrom I have said what I have said ; for if the evidence I give is sound, then it is my support, and if the Hadith quoted by me is proved genuine, it is then my doctrine."

I should have liked to see someone else write the story of Taqreeb other than my brother. the Reformer Imam Mohamad Taqi El-Qommi, [1] for this striving scholar would not talk of himself or the hardships he experienced for the sake of his cause. He was the first

---

(١) الإمام المصلح محمد التقى القمى ... العالم المجاهد .

I should have liked to write this story myself, in order to record the various feelings and thoughts which I experienced at different times while living in the atmosphere. During that time with many dear brothers, united under God by mutual affection, we debated, searched for the truth, and sought new horizons of religious knowledge, knowledge which believers must seek and explore for the sake of their people.

I should have liked to be able to do this myself in order to record the glimpses which flashed before my mind when ideas were unfolded, opinions criticised, meetings held, researches published, messages or delegations received. For the Taqreeb is a call for unity and integration ; it is the call of Islam and the call for peace. The method this call has adopted is, indeed, the wise one which God has ordered His Blessed Messenger to follow, saying : "Call to the path of thy Lord by wisdom and kindly preaching, and argue with them in the more kindly way, (for) indeed thy Lord knows those who have strayed from His path and He knows the rightly guided ones." (1)

If the minds are directed towards research with sincerity and co-operation and have no aim except reaching the truth, then the light will shine before them and rays of divine guidance will reach them and they will have glimpses and glimmerings of Grace. I am inclined to think that God's words "Fear God and God will teach you", (2) include the command for clearing

---

(١) « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

(٢) « واتقوا الله ، ويعلمكم الله . »

بسم الله الرحمن الرحيم

"In the Name of God, the Compassionate, the Merciful".

A L - A Z H A R
Office of the Grand Imam
Rector of Al-Azhar.

INTRODUCTION

By His Eminence the Grand Imam,

Shaykh MAHMOUD SHALTOUT,

Rector of Al-Azhar

Dar al Taqrib Bain al Mazaheb al Islamiyah (1) (Center for Rapprochement of Islamic Sects') has done well to publish a book in which it records the story of this Islamic movement, describing its origin and development, as well as the support and opposition which it received. This movement has become an established fact in the history of Muslim thought. A spirit of reform, love and brotherhood has spread among the believers, thus realizing the words of God (exalted be He) : "Believers are but brothers, so make peace between your brothers, and fear God that you may receive mercy." (2)

---

(١) « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية . »

(٢) « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . »



Printed by COSTA TSOUMAS & Co.
5, Wakf El-Kharbotly Str. — Tel. 900118 — CAIRO, U.A.R.

DAR AL-TAQREEB

TWO HISTORICAL DOCUMENTS

1. The introduction of the story of Taqreeb, written by His Eminence, Imam Mahmoud Shaltût, Great Shaykh of al-Azhar, and a distinguished member of Taqreeb Society.

2. The official councel (Fatwa) given by His Eminence on the validity of worshipping according to the doctrine of the Imamite Shi'â.

From the Publications of Dar al-Taqreeb

CAIRO — 1383 H